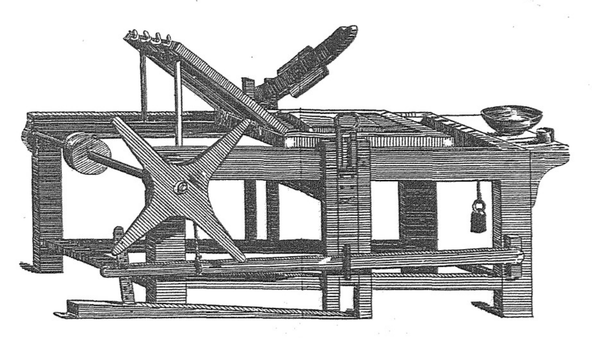
المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط
سلسلة: نصوص وأعمال مترجمة رقم 3



مملكة الكتاب

تاريخ الطباعة في المغرب

1865 - 1912



تأليف: فوزي عبدالرزاق - جامعة هارفارد

تعريب: خالد بن الصغير

مملكة الكتاب

تاريخ الطباعة في المغرب



المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: نصوص وأعمال مترجمة رقم 3



مملكة الكتاب

تاريخ الطباعة في المغرب

1865 - 1912

تأليف: فوزي عبد الرزاق - جامعة هارفارد

تعريب: خالد بن الصغير

هذه ترجمة لكتاب :

Fawzi Abdulrazak :

THE KINGDOM OF THE BOOK : THE HISTORY OF PRINTING AS AN AGENCY OF CHANGE IN MOROCCO BETWEEN 1865 AND 1912. Ph. D., dissertation, 1990.

الكتاب : **مملكة الكتاب**

تاريخ الطباعة في المغرب ما بين 1865 و1912.

المؤلف : فوزي عبد الرزاق.

المترجم : خالد بن الصغير.

منشورات : كلية الآداب بالرباط.

الغلاف : إعداد عمر أفا.

الرسوم التزيينية : إعداد المترجم.

الخطوط : بلعيد حميدي.

التصفيف : أنسيف الزنايدي ـ الرباط، الهاتف : 72.70.66.

الطبع : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء.

ردمك : 9981-825-55-7.

رقم التصنيف الدولي : 1113-2590.

رقم الإيداع القانوني : 1996/1.

الطبعة الأولى : 1996/1416.

طبع هذا الكتاب بدعم من
مؤسسة كونراد أديناور

بين يدي الكتاب

لم تكن لي معرفة سابقة بصاحب هذا الكتاب الأستاذ فوزي عبد الرزاق الذي يشتغل اليوم أمينا لمجموعة الكتب العربية بخزانة جامعة هارفرد الأمريكية. وكان اللقاء الأول بيننا صدفة في معرض الكتاب بالدار البيضاء حين قدمني إليه هناك أحد المكتبيين. فعرفت وقتئذ أنه قد أنجز فهرسا خاصا بالمطبوعات الحجرية الفاسية ونشره، وأنه قد قدم للمناقشة في نفس السنة، أي عام 1990، أطروحة نال بها درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد في موضوع تناول فيه تاريخ الطباعة في المغرب تحت العنوان التالي :

The Kingdom of the Book : The History of Printing as an Agency of Change in Morocco Between 1865 and 1912, Ph. D., 1990, Boston University.

استهواني عنوان هذا البحث بمجرد سماعه، وعبرت عن رغبتي في الاطلاع على نتائجه. خاصة وأنه يغطي فترة زمنية تتقاطع مع اهتماماتي التاريخية، وأن موضوعه يهتم أساسا بالطباعة كعنصر له صلة مباشرة بالجوانب التعليمية والتربوية وبأساليب نشر المعرفة في مغرب القرن التاسع عشر، دون أن يكون بعيدا عن التطورات الاجتماعية والتقلبات الاقتصادية والأحداث السياسية للبلاد، والتي تشكل الأرضية الأساسية لاهتمامات المؤرخ. وعلاوة على ذلك، فإن هذا الموضوع ما يزال بكرا بكل تأكيد. إذ على الرغم من وجود بعض الدراسات الأجنبية والمغربية التي تناولت بالدراسة موضوع الحياة الفكرية والتعليمية في المغرب إبان عهود مختلفة، فإن موضوع الطباعة وتاريخها في البلد نفسه لا توجد عنه سوى مقالات استطلاعية واستكشافية. ومن ثم كانت لهذا العمل قيمته الفريدة الناتجة عن اقتحام مجال صَعُب على العديد من الباحثين الخوض فيه وتناوله بالدرس والتحليل. وبالفعل، تبينت لي القيمة العلمية لهذا العمل بعد قراءتي الأولى والثانية لفصوله الممتعة. وما لبثت أن تطورت علاقاتي مع الأستاذ فوزي عبد الرزاق، فتوجت باتفاق التزمت بموجبه بتعريب أطروحته التي لم تنشر بعد

في لغتها الإنجليزية. وأتمنى صادقا أن أكون قد أسهمت بتعريب هذا الكتاب القيم، في إثراء الخزانة المغربية بنتائج هذا العمل الذي لم يقدم فيه الأستاذ فوزي عبد الرزاق على اقتحام موضوع في غاية الصعوبة والتعقيد عبر تسعة فصول شيقة فحسب، بل تمكن فيه أيضا من تقديم أجوبة ـ حسبما سمحت به المعطيات المتوفرة لحد الآن ـ على أسئلة كثيرة ذات أهمية طالما طرحها المهتمون بالحركة الفكرية والعلمية وبطرق إنتاج المعرفة وترويجها في مغرب ما قبل الحماية، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

لماذا كان المغرب آخر الدول الإسلامية التي أقبلت على استعمال الطباعة رغم قربه الشديد من بلاد الغرب ؟

هل كانت للمغرب رغبة في الانطواء على نفسه أم أن تمسكه الشديد بتقاليده الإسلامية ورفضه للتغيير هو الذي كان سببا في تأخير إقدامه على اتخاذ قرار تبني الطباعة ؟

ما هي الأسباب التي جعلت المغاربة يقاومون فكرة التغيير في مجال صناعة الكتاب قرونا عديدة ؟ وما هي الدواعي التي أدت بهم إلى التحول من أسلوب الخط اليدوي إلى الحرف المطبوع ؟

ما هي الظروف التي جعلت العناصر التي تمثل قوة المالكية في المغرب تغير مواقفها من أنظمتها التقليدية وتفضل تغيير الاتجاه نحو أنظمة جديدة ؟

ما هو الدور الذي قامت به تكنولوجية الطباعة في تحريك عملية الانتقال وتحويل الاتجاه نحو التحديث في المغرب ؟

ما هي الأطراف التي كانت تستفيد من المساهمة في إنتاج الكتاب وصناعته سواء في عصر المخطوطات أم في عصر الطباعة ؟

ما هي الأصول الاجتماعية والمناطق الجغرافية التي كان ينحدر منها المساهمون في إنتاج الكتاب وصناعته ؟

من كان يحدد طبيعة المعرفة الواجب نشرها في أوساط الناس ؟

هل كان كتاب صحيح البخاري باعتباره أحد أبرز مظاهر الحياة الفكرية

وخصوصياتها في المغرب خلال عصر المخطوط سيتأثر أم لا بفعل النتائج المترتبة عن انتشار تكنولوجية الطباعة في البلاد ؟

هل كان من الممكن أو من غير الممكن أن يصبح انتشار الكتب المطبوعة على نطاق واسع من العوامل التي ستؤدي إلى التنقيص من قيمة صحيح البخاري أو المس بقدسيته وخواصه الروحانية وبغيره من النصوص المقدسة بما فيها القرآن الكريم ؟

لماذا تردد المغاربة كثيرا حتى بعد تبنيهم الطباعة في الإقدام على إصدار نسخة مطبوعة من القرآن الكريم، ولم يحققوا ذلك الإنجاز إلا في سنة 1879 على يد الطابع الطيب الأزرق ؟

لماذا غاب الاهتمام بإنتاج الأدبيات الإبداعية والعلمية وتم التركيز أساسا على الأدبيات الفقهية والصوفية والسياسية ؟

هذه نماذج لمختلف الأسئلة التي طرحها الباحث فوزي عبد الرزاق وقدم أجوبة عنها في كتابه هذا الذي سيساهم ولاشك في إثارة المزيد من الأسئلة وتوسيع آفاق البحث في هذا الموضوع الذي لا يمكن إلا أن يثير اهتمام كل الذين يشتغلون بالكتاب باعتباره أقدم وسيلة للتواصل المعرفي بين الناس.

ومن الصعوبات الأساسية التي واجهتني أثناء تعريب فصول هذا الكتاب الذي استغرق أزيد من سنتين، مشكلة المصطلح التقني الخاص بتكنولوجية الطباعة، سواء على مستوى الأدوات والآليات أم المواد الأولية التي تستخدم في العمل المطبعي. كما وجدت نفسي ملزما بالعودة إلى بعض المصادر والمراجع العربية على وجه الخصوص، التي استقى منها الباحث مادته الأولية، إما لفهم أفكاره فهما صحيحا وإما لضبط كتابة أسماء بعض الأشخاص والأماكن، أو لنقل مضامين بعض الاستشهادات والاستعارات المأخوذة أصلا من كتب عربية نقلا سليما. وبالرغم من حسن الاستعداد الذي أبداه الأستاذ فوزي عبد الرزاق ومساعدته إياي في كل مراحل التعريب، فقد عانيت الأمرين، كلما كنت أحاول الرجوع إلى بعض النماذج من المطبوعات الحجرية التي أخذ منها صاحب الدراسة بعض الاقتباسات، وكنت ملزما بالعثور عليها بلغتها العربية الأصيلة.

وفي هذا الباب، أرى أنه من واجبي استغلال مناسبة صدور هذا الكتاب، لأثير انتباه من يهمه الأمر، إلى أنه لا توجد ـ لحد الساعة ـ مؤسسة تربوية أو ثقافية

في المغرب توجد ضمن محتويات مكتباتها المجموعة الكاملة للمطبوعات الحجرية المغربية التي نشرت ما بين 1865 و1912، بالمطبعة الفاسية موضوع هذا الكتاب. هذا مع العلم أن أكبر مجموعة لهذه المطبوعات ليست موجودة في فاس، الموطن الذي شهد استعمال أول آلة للطباعة في تاريخ المغرب المعاصر، ولا في أي من المدن المغربية العتيقة، بل هي موجودة اليوم بخزانة جامعة هارفرد الأمريكية. ورجائي أن تقوم إحدى المؤسسات الجامعية المغربية ذات الشأن، بمبادرة حازمة قبل فوات الأوان، لجمع شتات ما يمكن جمعه بالاقتناء أو التصوير، من المجموعة الكاملة للمطبوعات الحجرية الفاسية موضوع هذا الكتاب، والتي أصبحت اليوم بفعل ندرتها في عداد المخطوطات أو تكاد.

هذا ورغم الجهود العسيرة التي تطلبها مني إنجاز فهرسي الأعلام البشرية والجغرافية، فقد ارتأيت ضرورة تحضيرهما ووضعهما في نهاية الكتاب تيسيرا لاستفادة الباحثين والدارسين.

ولابد أن أشكر كل من ساعدني أثناء تعريب هذا الكتاب، ومنهم المؤلف نفسه، الذي كانت لي معه بضع جلسات لتنسيق العمل وتنظيمه. وبالرغم من بعد المسافة الفاصلة بيننا، فقد كنا على اتصال مستمر للتشاور وحل بعض الأمور المستعصية. وأشكر كثيرا أصدقائي الأساتذة، جامع بيضا ومصطفى أريبب وعمر أفا ومحمد معتصم، الذين أفادوني بعد قراءتهم لهذا الكتاب كلا أو جزءاً باقتراحاتهم الصائبة، التي كان لها الفضل في إخراج هذا الكتاب في صورته النهائية.

ولا يمكنني إنهاء هذه الكلمة دون التوجه بالشكر الجزيل إلى السيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط السيد عبد الواحد بنداود الذي شجعني على إنجاز هذا العمل بمعنويات مرتفعة حينما وافق على إدراجه ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

خالد بن الصغير
المدرسة العليا للأساتذة بالرباط

رموز مختصرة

د.ت. : دون تاريخ الطبع.
مخ : مخطوط.

ABRÉVIATIONS

Vol. : Volume.
n.e. : New edition.
Op. cit. : Opere citato : المصدر نفسه

تمهيد

يعود تاريخ اهتمامي بالدراسات المغربية إلى خريف سنة 1969، حين اختارتني وزارة التربية العراقية لأكون ضمن عناصر بعثتها الموجهة إلى الجزائر لمساعدة حكومتها التي كانت مقبلة آنذاك على مشروع حملة التعريب.

وفي سنة 1972، هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأقمت بها حتى الآن. وغالبا ما كنت، خلال هذه الفترة، على اتصال مستمر بأدبيات المغرب وأهله عبر القراءات والزيارات العديدة التي قمت بها إلى جهات ومدن مختلفة مثل وجدة والناظور ومليلية وفاس وتطوان وطنجة. ونظرا لكوني خريج كلية الشريعة في جامعة بغداد (سنة 1967)، حيث تلقيت تكوينا في الدراسات العربية والشريعة الإسلامية، فقد أثارتني قدرة المغرب العجيبة على صيانة لغته العربية وحفاظه على مظاهر عديدة من تراثه الإسلامي، وذلك بالرغم من المحاولات العديدة التي بذلتها فرنسا زهاء خمسة عقود لتقويض مؤسساته التربوية والاجتماعية. وعلى عكس بقية بلدان الشمال الإفريقي، وخاصة الجزائر، يبدو المغرب أقل عرضة لتهديد الإرث الفرنسي، ولا سيما اللغة الفرنسية التي كانت يومئذ لغة رسمية للإدارة والتعليم العالي بالبلاد. وحِينَها كنت أعلل قدرة المغرب القوية على تحصين كيانه بتبنيه نظاما تربويا مزدوجا يجمع بين الدراسات الإسلامية والقضايا الواردة من الغرب مباشرة بعد بداية الحقبة الفرنسية سنة 1912. هذا التمازج لم يحصل مثله في الجزائر، ليس فقط بسبب غياب نظام تربوي مثيل، بل أيضا نتيجة سياسات العنف الشديد التي مارستها فرنسا طوال المدة التي قضتها في الجزائر، ما بين 1830 و1962.

علاوة على المشاركة في عملية التعريب والمساهمة بانتظام كناقد أدبي في جريدة **الشعب** اليومية الجزائرية، لم يتخذ اهتمامي بالمغرب اتجاها عمليا إلا مع نهاية سنة 1977 حين عينت أمينا للمجموعة العربية بخزانة جامعة هارفرد، وأنيطت بي مهمة اختيار الكتب وفهرستها.

ومن موقع مسؤولياتي بهارفرد، وجدتُ نفسي في خضم المصنفات المغربية، وخاصة منها مطبوعات فاس الحجرية التي كان الأساتذة والطلبة يعانون كثيرا منها لكونها محررة بالخطوط المغربية القديمة صعبة القراءة. وفي غياب أي مبادرة سابقة للاهتمام بمطبوعات فاس، تحملت على عاتقي مسؤولية القيام بمشروع الهدف منه تذليل الصعوبات أمام المهتمين بها والشروع مستقبلا في إنجاز أبحاث في مواضيع الحياة الثقافية بالمغرب.

وبعد إنجازي لعدة بحوث حول تاريخ شمال إفريقيا حصلت بموجبها على شهادة الماجستير بجامعة بوسطن، شرعت في تجميع المعطيات المتعلقة بمسألة التعريب في شمال إفريقيا. وبعد كتابة مقال طويل في موضوع التعريب بالجزائر، قررت تغيير موضوعي وتسخير طاقاتي لدراسة تاريخ الطباعة في المغرب بصفته عاملا من عوامل التغيير فيه. إذ على عكس موضوع التعريب، لم تتم أي محاولة لمعالجة موضوع الطباعة بطريقة منهجية.

بعد موافقة إدارة الخزانة بهارفرد المتمثلة في شخص الدكتور دافيد بارتنغتن (Dr. David Partington)، رئيس شعبة دراسات الشرق الأوسط، شرعت في تجميع المعطيات البيبليوغرافية لمطبوعات فاس وتصنيفها. كما تلقيت مقترحات وتشجيعات كثيرة من العديد من الباحثين المغاربة، أذكر من بينهم الفقيد جرمان عياش وعبد الرحمان الفاسي ومحمد المنوني وعبد الوهاب بن منصور. وقمت باقتناء عدد كبير من الكتب لفائدة جامعة هارفرد، مع الحرص على تسجيل مختلف المعلومات التي كنت أصادفها عن مطبوعات فاس الحجرية أثناء زياراتي المتكررة والمثمرة للعديد من الخزانات وحوانيت الكتب القديمة في بلدان المغرب والجزائر وتونس وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة. وتكللت تلك الجهود بتراكم لمئات العناوين التي مكنت من توافر التغطية الوثائقية للمرحلة الممتدة من سنة 1864، تاريخ دخول الطباعة إلى المغرب، إلى سنة 1946، التي يُزعم أنه قد تم خلالها تحطيم آخر آلات الطباعة الحجرية بفاس على أيادي سلطات الحماية الفرنسية.

وبفضل المادة الوثائقية الغنية التي اجتمعت لدي، وبحكم اختصاصي في اللغة العربية وعلوم الشريعة، إلى جانب خبرتي كاختصاصي في علوم المكتبات، لم أجد صعوبات في اتخاذ قرار اختيار موضوع لأطروحة الدكتوراه تحت إشراف الأساتذة أنفسهم الذين أنجزت معهم شهادة الماجستير.

ومع ذلك، فإن تقديم هذه الدراسة وإنجازها لم يكن أمرا هيناً في الواقع، لأن دراسة موضوع الطباعة في حد ذاته يشمل ثلاثة أبعاد، ويتضمن كل واحد منها جانبا على الأقل أو ربما جوانب متعددة. فدراسة موضوع الطباعة مثلا تستلزم الإلمام بالتكنولوجيا ونتاجها وبالقوى التي كانت وراء الإنتاج. ويتطلب ذلك أيضا معرفة بالتاريخ التكنولوجي للطباعة، وبالغايات التي أنشئت من أجلها، وبما يحيط بها من قضايا على مستوى التنظيم والتسيير والإدارة، وبطبيعة المنتوج، ونعني به الكتاب شكلا ومضمونا. أضف إلى ذلك ضرورة الاطلاع على مهارات الطابعين، وعلى المؤهلات والخصائص الثقافية والتكوينية المميزة لكل الأطراف التي يمكن أن تتدخل في صناعة الكتاب، كالمؤلفين والمصححين والمصنفين والناسخين والناشرين. والأهم من ذلك كله امتلاك القدرة على قراءة الخط المغربي بسهولة.

ومما زاد الأمر تعقيدا أن مسألة دور الطباعة في التغيير الاجتماعي والثقافي الذي اقترحته الأستاذة إيرين كَاندزير (Irene Gendzier) ليكون محرٌكاً لموضوع الأطروحة أو الجسر الرابط بين عصري المخطوطات والطباعة، مسألة تستلزم إلماما فعليا وشاملا بتاريخ المغرب قبل دخول الطباعة إليه، وخاصة ما يتعلق منه بالطرق التي كان المغاربة ينتجون بها مخطوطاتهم، وبالدلالات التي كان ذلك يحملها عندهم.

أثناء محاولتي دراسة عصر المخطوطات بالمغرب، كنت في مواجهة دائمة مع عائق أساسي اتخذ شكل تناقض صارخ بين ما تتضمنه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها من براهين وشهادات كلها مؤازرة وإشادة بالمعرفة والعلم والتعليم (انظر اليوسي، **القانون**، فاس، 1893) وبين عدم إقدام أي أحد في المغرب على القيام بمبادرة حقيقية لإدخال آلة للطباعة تثري الحياة العلمية وتخدم العلم في البلاد. وبصفتي طالب علم، كنت على دراية بوجود بعض العوائق الدينية المتعلقة بترجمة القرآن الكريم إلى لغات غير عربية. وتستمد تلك العوائق مشروعيتها من كون المسلمين ينظرون إلى القرآن، فيما يتعلق بالطريقة التي كتب بها، على أنه معجزة إلاهية منزلة. وكنت في الوقت نفسه على بينة من أن عملية نسخ القرآن تتطلب، نتيجة لعامل الإعجاز، مستوى أقصى من الحذر لنسخه بشكل مطابق للهيئة التي جمعه بها ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان خلال القرن السابع الميلادي. وكانت تطرح أيضا مسألة الطهارة التي لا تسمح لغير المسلمين أن يتناولوا القرآن. فعلاوة على أنهم لا يدينون بالإسلام، يحتمل استعمالهم لمواد يعتبرها المسلمون من قبيل النجاسة مثل لحم الخنزير أو شعره أثناء ملامستهم القرآن.

ولذلك، كان لابد من تحويل الاتجاه إلى الأتراك العثمانيين لمعرفة الحيثيات التي جعلتهم يكونون سباقين من بين كل المسلمين إلى قبول تكنولوجية الطباعة. وفوجئت حينما وجدت عندهم تكرارا لنفس التناقض الصارخ الموجود بين النظرية والتطبيق، على الرغم من كون العثمانيين تابعين للمذهب الحنفي المعروف تاريخيا بأنه أكثر تفتحا وأقل تقليدا من المذهب المالكي الذي يتبعه المغاربة. عندئذ وجهت اهتمامي نحو القرآن والنصوص الفقهية، فوجدت مجموعة من المبادئ المتداخلة ـ ومن بينها الاعتقاد في تفوق الإسلام وطهارته بالمقارنة مع غير المسلمين ـ التي كانت من العوامل الرئيسية التي حالت، ولمدة قرون عديدة، بين المسلمين وبين تبنيهم الطباعة. وحين قرر المسلمون في نهاية المطاف استعمالها ألزمتهم العوامل نفسها سابقة الذكر بتفضيل صنف منها على الآخر، ونقصد بذلك اختيارهم الطباعة الحجرية دون غيرها.

ومن المهم جدا الإشارة هنا إلى أن أي باحث لم يحاول ربط الصلة بين رفض الإسلام تبني الطباعة لمدة قرون عديدة وبين ما ينشده لذاته من تفوق. ومنذ القرن السابع الميلادي، دفع ذلك الاعتقاد بالمسلمين إلى بناء مناهجهم التربوية والعلمية وخطوط كتاباتهم وغيرها من الأمور حول القرآن. غير أن ذلك حال بينهم وبين مسايرة التحولات السريعة التي شهدها العالم، خاصة بعد أن أصبح مصير العالم الحديث في قبضة الأوربيين الذين ينظر إليهم العالم الإسلامي على أنهم أقل شأنا بحكم ديانتهم المسيحية.

ويعني هذا أن المسلمين، وخاصة التقليديين منهم، سيلزمون، عند رغبتهم في قبول الطباعة، بتغيير نظرتهم إلى غير المسلمين. ويعني ذلك أيضا أنه لولا التحدي الذي أشهره الأوربيون في أوجه المسلمين لما وافقوا أبدا على قبولهم الطباعة. فلقد أدى ارتقاء الأوربيين وتفوقهم إلى إرغام المسلمين على تغيير مواقفهم من غير المسلمين وما يملكونه من تكنولوجية خاصة بالطباعة. وبناء على ذلك، فإن قبول الطباعة يعني بالضرورة تعديل مبادئ الإسلام التقليدية أو التخلي عنها أحيانا. ولهذا السبب أيضا، كان التفتح النسبي الذي تميز به العثمانيون، إلى جانب كونهم عمليين، من العوامل التي جعلت منهم أول المسلمين تبنيا للطباعة (كان ذلك في 1727). وذلك في حين كان المغاربة بحكم نزعتهم التقليدية القوية ضمن آخر البلدان التي دخلت إليها الطباعة (وذلك في عام 1864).

وحتى يمكننا تتبع وتركيب العناصر التي ساهمت في الدفع بالمسلمين إلى تغيير

نظرتهم للطباعة، كان من الضروري تقديم هذا الكتاب في محاور ثلاثة. يتطلب المحور الأول الذي يعالج ما سميته بعصر المخطوطات، تغطية لإنتاج المخطوطات بالمغرب ومضامينها الفكرية، لمعرفة الكيفية التي كانت تؤثر بها المبادئ الإسلامية في صناعة المخطوطات (الفصل الأول والثاني). ويتناول المحور الثاني (الفصل الثالث والرابع) موضوع تاريخ الطباعة في أوربا، بما في ذلك اختراعها وطرق إدارتها ثم انتشارها في العالم الإسلامي، حيث كانت إستنبول المركز الإسلامي الرئيسي الذي انتقلت منه الطباعة لتعم بقية أرجاء العالم الإسلامي.

وفي المحور الثالث (من الفصل الخامس إلى التاسع)، عرضت العناصر التي ساهمت في إدخال الطباعة ومنحتها فرص القبول عند المسلمين في المغرب وناقشتها. وترتبت عن قبول الطباعة واندماجها في المجتمع المغربي سلسلة من التعديلات والتغييرات التي كان لها تأثير في مختلف مظاهر الحياة المغربية الاجتماعية منها والاقتصادية والسياسية والتربوية والفكرية، فتأتى للمغرب بفضل ذلك أن يتبوأ مكانته في العالم الحديث كما نعرفه اليوم.

ومن الضروري الإشارة إلى أن هذه الدراسة لم تكن ممكنة الإنجاز لولا السند والمساعدات التي حباها بها أصدقائي وأقربائي، ومن بينهم زوجتي التي قضت الساعات الطوال راقنة أو مراجعة أو موحية لي بأفكار كانت الغاية منها توفير مزيد من الوضوح لقراء يفتقرون إلى حسن الاطلاع على الموضوع. ومن الواجب أيضا أن أوجه شكري إلى الدكتور دافيد بارتنغتن (David Partington). الذي قرأ جل الكتاب وناقشه معي، وإلى الأستاذ محسن مهدي من جامعة هارفرد، الذي أنصت بكامل الصبر والتأني ولمدة تجاوزت السنة لكل الآراء والبراهين التي أتيت بها في الموضوع. إذ تمكنت بتلك المناقشات المثمرة سواء مع الأستاذ مهدي ومع غيره من إيجاد طريقي إلى روح الإسلام وجوهره، والتوصل بالتالي إلى طرح القضايا المتعلقة باستعمال الطباعة ونتائج هذا الاستعمال في المغرب ما بين 1864 و1912.

وفي الختام، أوجه شكري الخالص وامتناني العميق إلى كل أعضاء اللجنة على قراءتهم لهذا العمل وإثرائهم إياه بملاحظاتهم القيمة. وأخص بالذكر منهم الأستاذة إيرين كاندزير (Irene Gendzier)، وهربرت مايسن (Herbert Mason)، وميرلين شوارتز (Merlin Swartz)، الذين كان لمساهمتهم جميعا الفضل في توجيه هذا العمل الوجهة الصحيحة وخاصة على المستوى التنظيمي والمنهجي.

مُقَدِّمَة

أحاول في هذا التقديم مناقشة أهمية المصادر الرئيسية التي اعتمدتها في كتابتي لتاريخ الطباعة في المغرب، مع الإشارة قدر المستطاع إلى بعض الأسباب التي جعلتني أتناول هذا الموضوع. وأذكر أن هذه الدراسة تتكون من تسعة فصول ، غير أنها تنضوي من حيث موضوعها تحت ثلاثة محاور متداخلة. خصص المحور الأول منها لدراسة الظروف المحيطة بصناعة الكتاب وإنتاجه في المغرب قبل دخول الطباعة إلى البلاد. وتناول المحور الثاني اختراع الطباعة وانتشارها في العالم الإسلامي، بينما كان تاريخ الطباعة كأحد عوامل التغيير في المغرب ما بين سنتي 1865 و1920 موضوعاً للمحور الثالث.

اعتمدت في المحور الأول استغلال ثلاثة أصناف من المصادر، هي : المخطوطات غير المنشورة والمصادر الثانوية، ثم المقابلات المثمرة التي أجريتها مع العارفين بأسرار الخط المغربي. فيما يتعلق بالمصادر غير المنشورة، ليس هناك أدنى شك في أن مخطوط أحمد الرفاعي **حلية الكتاب** (الرباط، 1816؟) هو أهم النصوص المتوفرة وأكثرها فائدة. وتكمن أهمية مخطوط الرفاعي في تغطيته لكل المقاييس المتعلقة بالخط المغربي. ويخبرنا الرفاعي بأنه وضع في البداية قصيدة بعنوان : **نظم لآلئ السمط**، وحين طلب منه معاصروه وضع حاشية عليها قام بكتابة **حلية الكتاب** الذي وضع فيه شروحا وتفاسير للقواعد والمقاييس الخاصة بالخط المغربي. ومن المحتمل أن يكون المغاربة قد لجأوا قبل تحرير الرفاعي لكتابه **حلية الكتاب** إلى استعمال كتاب **الابتهاج بنور السراج** (فاس، د. ت) الذي ألفه العربي المساري، واتخذوه دليلا في كيفية كتابة الخطوط المغربية. غير أن هذا الكتاب الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر الميلادي منظومة مقتضبة جدا، ولها صبغة عامة لأنها تتناول جل المظاهر العلمية في الإسلام. ولم تكن هناك أية محاولة لكتابة شروح في موضوعه إلا بعد حلول

التسعينات من القرن التاسع عشر، حين قام أحمد البلغيثي أحد أبرز علماء فاس، بكتابة تعليق حوله فنشره بالقاهرة سنة 1898 تحت عنوان : **الإبتهاج بنور السراج**.

وقد استعملت مضامين كلا الكتابين وشرحيهما بغية التعرف على قواعد صناعة الكتاب في المغرب وفقا لأسلوب الخط الذي استعمله المؤلفان والمستوى الثقافي الذي يتوفران عليه. وعلى الرغم من وجود النصين المشار إليهما بالخزانة العامة في الرباط، وكذا نشر تقديم لبعض محتويات **حلية الكتاب** للرفاعي في مجلتين دوريتين، هما **دعوة الحق** في الرباط و**المورد** في بغداد، فإن أحدا لم يستفد لحد الآن من هذين المصدرين الغنيين لسبر أغوار التاريخ الثقافي للمغرب في فترة هامة ما زال يكتنفها الكثير من الغموض.

يتضمن الصنف الثاني من المصادر المعتمدة العديد من فهارس المخطوطات المحفوظة في مختلف الخزانات المغربية، الخاصة والعامة. وكانت الدراسة البيبليوغرافية التي أنجزها محمد المنوني تحت عنوان : **الوراقة في العصر العلوي**، أفيدها. وكتاب المنوني سجل لنتاج مائة وعشرين ناسخاً مارسوا نشاطهم فيما بين سنتي 1790 و1860. كانت غاية المنوني من وضع مؤلفه البيبليوغرافي هي إبراز صفحة مشرقة من الإنجازات التي حققها المغرب في مختلف عهود السلاطين العلويين، بتعداد للمخطوطات المنتجة في شتى مجالات العلوم الإسلامية. وللتمكن من استغلال المادة التي قدمها المنوني بأوجه مختلفة، كان من الضروري القيام بإعادة تنظيم البيبليوغرافية التي أنجزها في إطار تصنيفات عديدة، إما حسب مواضيع المؤلفات، أو حسب الممولين لمشاريع نسخها، وإما حسب الزبناء الذين أقدموا على شراء الكتب، أو حسب أصول النساخ العائلية والجهوية. وكانت الغاية من ذلك التنظيم الجديد هي معرفة طبيعة المواضيع التي كانت تحظى باهتمام المغاربة الأقصى قبل دخول الطباعة، وكذا معرفة الأصول الاجتماعية أو الجهات الجغرافية التي انحدر منها النساخ. والأهم من ذلك كله معرفة الجهات التي كانت هي الأكثر استفادة من صناعة المخطوطات في المغرب. مثل هذه التساؤلات لها دلالات قصوى بالنسبة لهذه الدراسة حتى يمكن التوصل إلى المعرفة الدقيقة وإلى التقويم الحقيقي لمختلف التغيّرات ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة باستعمال الطباعة.

كان المصدر الثالث الذي استقيت منه معلوماتي هو الاتصال المباشر بباحثين من ذوي الشهرة والباع الطويل أمثال الأستاذ محمد المنوني، والأستاذ محمد حجي،

القيدوم السابق لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، ثم السيد العربي الخطابي المحافظ السابق للخزانة الحسنية بالرباط. لم يكن ينحصر الهدف الأساسي من إجراء تلك الاتصالات في التمكن من الاطلاع على نصوص المخطوطات المرغوب فيها، بل تجاوزها إلى محاولة التأكد من صحة النتائج المحصل عليها ـ ومن بينها أن صناعة الكتاب بالمغرب كانت تتم بالمؤاجرة تلبية لطلب الزبائن ـ، بالإضافة إلى التحقق من الخطوط اعتمادا على معطيات مصدرية محلية. وكانت بعض نتائج تلك الاستشارات مفيدة جدا لتوضيح الفروق الموجودة بين مختلف أنواع الخط المغربي. بالإضافة إلى ذلك، مكنتنا من الحصول على معلومات قيمة عن حياة العديد من الخطاطين المغاربة كما هو شأن أبناء عائلة ابن سودة. إن الحصول على معلومات تتعلق بالخط والخطاطين ليس من الأمور سهلة المنال، إذ يتطلب دراية حقيقية وتحكما تاما في تقنيات الخط المغربي. وربما كانت صعوبة هذا العنصر هي السبب الأساسي الذي جعل معظم الباحثين المعاصرين يعزفون عن الاهتمام بتاريخ الطباعة في المغرب. ثم إن معظم المواد الأولية المتعلقة بالموضوع ما تزال على هيئة مخطوطات، يصعب الوصول إلى غالبيتها، إلا على من يستطيع التردد في زيارات عديدة على المغرب واستعمالها في عين المكان.

وبوجه عام، فإن المصادر السابقة الذكر، أساسية كانت أم ثانوية، لا يحتوي أي منها على معالجة للمغزى الاجتماعي والديني أو الفكري لصناعة الكتاب بالمغرب قبل دخول الطباعة إليه، وتعتبر هذه الدراسة محاولة أولى لتحقيق ذلك.

يقدم المحور الثاني من هذه الدراسة (الفصلان الثالث والرابع) نظرة مقتضبة عن تاريخ الطباعة، مرورا باختراعها والإشراف على تسييرها، ثم انتشارها في العواصم الإسلامية، ولا سيما في إستنبول التي كانت أول المراكز الإسلامية مبادرة إلى جلب آلة للطباعة واستعمالها في إنتاج الكتاب.

ومن المصادر المعتمدة في هذا المحور على هيئة نصوص ووثائق متداولة، كتاب سونوفيلدر :

Aloi Senefelder : **A Complete Course of Lithography** (London, 1819).

وكتاب راوكورت :

Antoine Raucourt : **A Manual of Lithography** (London, 1821)

كانت لهذين الكتابين أهمية كبيرة في مساعدتنا على التعرف عن قرب على

خصوصيات الطباعة الحجرية التي كانت سائدة في فاس إلى حدود سنة 1912. بالإضافة إلى ذلك، استفدنا من كتابات جادة في موضوع الطباعة الميكانيكية التي ظهرت في طنجة خلال ثمانينات القرن التاسع عشر، وفي فاس سنة 1906. ونذكر من بينها الدراسة الشاملة التي أنجزها جيمس موران تحت عنوان :

James Moran : **An Anatomy of Printing** (New York, 1970).

ومع ذلك، ينفرد اثنان من بين كل المؤلفات المفيدة الصادرة في موضوع الطباعة بمميزات بالغة الأهمية : أولهما للباحثة إليزابيث آيزنستاين :

Elisabeth Eisenstein : **The Printing Press as an Agent of Change** (Cambridge, England, 1980)

والثاني عبارة عن رسالة حررها إبراهيم متفرقة تحت عنوان : «وسيلة الطباعة» ونشرها مقدمة لكتاب الجوهري : **الصحاح** (إستنبول، 1728) وهو أول كتاب طبع في عهد العثمانيين. وبذلت آيزنستاين جهودا مضنية لتشخيص العناصر الأساسية لما أسمته «ثقافة الطباعة» وتحديدها. وتنعكس تلك العناصر سويا على مختلف المظاهر التي يمكن أن تترتب عن استعمال تكنولوجية الطباعة. ونذكر منها إنتاج أعداد كثيرة من النصوص المتماثلة وتوحيد أنماط الخط وإنشاء هيئة للإشراف على عملية التوزيع، بالإضافة إلى التمكين من مراكمة المعطيات، والحفاظ على صيانة المعرفة ونشرها، إلى جانب مظاهر أخرى مهمة.

وعلى الرغم من أن الدراسة التي أنجزتها آيزنستاين لا تتناول موضوع تاريخ الطباعة في المغرب تناولا مباشرا، فقد استفدت من نظرياتها واتخذتها مقياسا لمراقبة مختلف مظاهر الطباعة بالمغرب، وأيضا للتمكن من توثيقها وطرح مختلف جوانبها للمناقشة (من الفصل السادس إلى التاسع).

وكانت مقالة إبراهيم متفرقة «وسيلة الطباعة»، ذات قيمة كبيرة استفادت منها هذه الدراسة. ينحدر متفرقة من ترانسلفانيا، اعتنق الإسلام فبرز كواحد من رجال الدولة في الإمبراطورية العثمانية. كما أصبح أول مسؤول رسمي يتولى مهمة الإشراف على مؤسسة الطباعة في إستنبول سنة 1728. وكان يهدف من وراء كتابة مقالته «وسيلة الطباعة» إلى تيسير قبول الطباعة وانتشارها في أوساط المسلمين، وبوجه خاص بين الزعامات الدينية. فنجده يعدد مختلف مزايا تلك التكنولوجيا وفوائدها للتربية ونشر المعرفة. كما التمس من كبار القضاة والعلماء العثمانيين تحرير أكثر

من عشر بيانات استهدفت تقديم السند لمشروعه الريادي. وعلى الرغم من ذلك، فضل السلطان العثماني العمل بنصيحة شيخ الإسلام، فقرر قصر الطباعة على طبع الكتب ذات المواضيع غير الدينية.

وقد استمر منع طبع النصوص الإسلامية مدة طويلة، ولم يخرق إلا في أواخر القرن الثامن عشر أو ربما عند مطلع التاسع عشر، حين أقدم بعض العلماء التقليديين أمثال محمد حقي على طبع كتبهم، وبذلك تمكنت الطباعة من فرض نفسها في مجال إنتاج الكتاب. ومن خلال كتاب محمد حقي : **مفزع الخلائق** (القاهرة، د.ت) تمكن العلماء المغاربة أمثال المهدي الوزاني من نقل المبادئ العشر التي سطرها متفرقة، للدفاع عن الطباعة في كتابه : **المعيار الجديد** (فاس، 1910). وظن الوزاني خطأ ـ شأنه في ذلك شأن محمد حقي ـ أنها من فتاوى علماء الإسلام عوضا عن نسبتها إلى صاحبها الحقيقي متفرقة.

قدمت في الفصل الرابع من هذه الدراسة المبادئ العشر سابقة الذكر كما فهمها محمد حقي. ويتلخص الفرق الموجود بين تأويلي الرجلين في أن محمد حقي يعتبر الطباعة أداة يجب تسخيرها لخدمة الإسلام التقليدي في مواجهة أوربا. في حين كان متفرقة يرى في الطباعة وسيلة لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية من الانهيار، بنشر التعليم والمعرفة. أما في المغرب، حيث يعود تاريخ انتشار المذهب المالكي في أرجائه إلى العهود الإسلامية المبكرة، وحيث تتجذر الممارسة الصوفية بعمق كبير في كل الأوساط الاجتماعية على تباين مستوياتها، فقد تم الاقتداء بالاتجاه الإصلاحي الذي تصوره محمد حقي ووضعه، وتقرر بالتالي أن تكون الطباعة في خدمته.

أما المحور الثالث الذي يشكل جوهر هذه الدراسة وموضوعها المركزي، فقد خصص لتاريخ الطباعة في المغرب وللآثار المترتبة عن استعمالها سواء على المخزن والعلماء، أو على الطابعين والناشرين، أو على إنتاج المنشورات الفكرية والعلمية بالمغرب خلال الفترة الممتدة ما بين 1865 و1920 (من الفصل الخامس إلى التاسع).

وإلى جانب عشرات المصادر التي استعملناها لتقديم المحورين الأولين وبنائهما، اعتمدنا أيضا على مجموعة إضافية من الدراسات المنشورة وغير المنشورة وعلى العديد من المصنفات البيبليوغرافية والنصوص الوثائقية. وتتمثل تلك الأدبيات في ما يلي :

أولا : مطبوعات فاس التي أصدرتها في كتاب ببليوغرافي تحت عنوان : **المطبوعات الحجرية في المغرب، فهرس مع مقدمة تاريخية** (الرباط، 1989). وقد تمكنا فيه من تسجيل حوالي 463 عنوانا، رتبناها حسب أسماء المؤلفين والناشرين والطابعين والناسخين وموزعي الورق في المغرب الذين كانت تظهر أسماؤهم بواسطة العلامات المضغوطة على أوراق الكتب. ويعتبر إنجاز هذا العمل الببليوغرافي جزءاً لا يتجزأ من البحث الشامل في هذه الدراسة، إذ أن معظم التفاصيل التي أوردتها في موضوع صناعة الكتاب وإنتاجه في المغرب مستقاة من نفس الببليوغرافية.

تشكل الببليوغرافية التي أنجزتها امتدادا للعديد من الأعمال السابقة، ومن بينها الفهرس الذي وضعه ليفي بروفنسال وبنشنب :

E. Levi Provençal et M. Bencheneb : **Essai de répertoire chronologique des éditions de Fès** (Alger, 1922).

ويتضمن هذا الفهرس تصنيفا حسب المواضيع بلغ 405 عنوان مختلف. إلا أن العديد من تلك العناوين قد افترض خطأ أنها كتب مطبوعة قبل اثنين وثمانين سنة من إقدام سونوفيلدر (Senefelder) على اختراع الطباعة الحجرية بألمانيا سنة 1798. ومن خصوصيات هذا العمل أيضا الاهتمام بتقديم مختلف الطبعات التي عرفها نفس الكتاب سواء داخل المغرب أم خارجه إلى حدود سنة 1922. وفي دراستنا هذه، عمدت إلى استغلال هذا التوفيق بين التصنيف حسب المواضيع والقوائم المخصصة للعناوين ذات الطبعات المتعددة بغية التعرف على النصوص التي كانت تحظى بالشعبية في المغرب، وإدراك التوجه الذي كانت الأنشطة الفكرية والعلمية تسير وفقا له.

بالإضافة إلى فهرس بروفنسال، اعتمدت في إنجاز ببليوغرافيتي على أعمال مماثلة كان أهمها كتاب الإدريسي : **معجم المطبوعات المغربية** (الرباط، 1989). وقد توفي الإدريسي سنة 1971 وترك قائمة قصيرة بالمطبوعات المغربية في مائة صفحة مرقونة، فقام ابنه عبد الوهاب بتمديدها والزيادة فيها حتى تجاوزت القائمة الأصلية بأربعة أضعافها ونشرها في مطلع سنة 1989 باسم والده. وتختلف القائمة الأصلية عن الجديدة من حيث الحجم والمضمون، إذ تحتوي هذه الأخيرة على معلومات بيوغرافية عن كل مؤلف، وسجل موسع للمطبوعات المغربية ما بين 1865 و1970، ومواد تربوية تتعلق بكل مستويات التدريس في المغرب. وقد اعتمدنا في

دراستنا هذه على كلتا القائمتين، المختصرة منهما والموسعة، لتوثيق مختلف أنشطة الطابعين وتحديد حجم الكتب التي تم إنتاجها.

ثانيا : المصادر الأساسية المخطوطة منها والمطبوعة. ومن بينها العديد من الأعمال التي أشار إليها الأستاذ محمد المنوني في كتابه : **مظاهر يقظة المغرب** (بيروت، 1985)، والمقال الذي نشره جرمان عياش سنة 1964 في **هسبريس - تامودا** تحت عنوان : «ظهور المطبعة في المغرب»، ومخطوط لعبد السلام الرندي سميته : «حديث مع الطيب الأزرق» (مخ، الرباط، 1917).

قدم المنوني في كتابه **مظاهر يقظة المغرب** أكثر من مائة وثيقة مختلفة حول الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمغرب خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 1830 و1912. وقد كانت أغلب تلك الوثائق، إن لم نقل كلها، مفيدة بالنسبة لهذه الدراسة، وخاصة منها النصوص المتعلقة بتاريخ الطباعة. ونذكر منها العقد المبرم بين محمد الطيب الروداني الذي كان أول من أدخل آلة للطباعة إلى بلده المغرب، وبين محمد القباني المصري الذي أتى به الروداني رفقة المطبعة وأجهزتها للسهر على تشغيلها وصيانتها. بالإضافة إلى كناشة الوزير الطيب بليمني، المعروف أيضا ببوعشرين، والتي ضمنها تقاييد حول المصاريف الخاصة بعمليات الطباعة. وتقدم لنا هذه الوثائق معلومات تتعلق بالأجور المؤداة للطابعين والمتعلمين، وبالمصاريف التي كانت تستلزمها عملية الطباعة. وهناك أيضا المراسلات المتبادلة بين موظفي المخزن وكبار المسؤولين في الحكومة المصرية من جهة، وبين الطابعين والعلماء من جهة ثانية، في مواضيع تخص جلب التجهيزات وتكوين بعض الطلبة أو البحث عن منافذ لتوزيع الكتب وتكريم بعض الطابعين. وأخيرا هناك قائمة مقتضبة لمطبوعات فاس تعطي فكرة عن المنتجات التي توصل إليها الطابعون والأشخاص الذين ساندوهم لتحقيق مشاريعهم. إن الغاية الكبرى التي وضع المنوني كتابه من أجلها، هي استعراض المظاهر الدالة على وجود حركة عامة ويقظة في المغرب قبل خضوعه لسلطات الحماية الفرنسية سنة 1912. وكانت تلك الحركة وليدة تفوق أوربا وتهديدها المباشر وغير المباشر للمغرب. وإذا كان المنوني قد نجح في تحقيق غايته، فإنه لم يقدم أي تقييم نقدي لنصوصه الوثائقية، كما أنه لم يطرح أي تساؤلات حول المعاني والدلالات التي تتضمنها. ونورد في هذا الإطار مثالا لا يخلو من دلالات هامة : في معرض حديثه عن دخول الطباعة إلى المغرب، قام المنوني بنقل الرأي السائد عند مؤرخي البلاط

أمثال عبد الرحمن ابن زيدان؛ ومفاده أن الروداني عند جلبه لآلة الطباعة إلى المغرب قدمها هدية إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن. بينما ليس من المعقول ولا المنطقي البتة أن يسلم المرء بأن الروداني قد قام بشراء آلة للطباعة في مصر، وأدى مصاريف نقلها عبر البحر إلى مدينته تارودانت بالجنوب المغربي، ثم تعاقد مع رجل متخصص في الطباعة ليشتغل لصالحه لمدة سنة، فإذا هو يصل إلى الصويرة التي لا تبعد كثيرا عن تارودانت، فيقرر التنازل عن آلته ليقدمها هدية إلى السلطان.

ونفهم من حديث الرندي مع الطيب الأزرق ـ والذي استطعت كشف النقاب عنه في الرباط في صيف سنة 1985 ـ أنه عند وصول آلة الطباعة إلى مرسى الصويرة، تدارس ممثلو المخزن أمرها مع السلطان فأمر بإرسالها إلى مكناس. وطبع بتلك المدينة، في سنة 1865، أول كتاب في المغرب وعنوانه : **الشمائل** للترمذي. وصاحب هذه الرواية هو الطيب الأزرق الذي كان أحد تلامذة الطابع المصري الذي حل بمكناس بمعية آلة الطباعة، وأصبح بذلك أول مشرف على الطباعة في المغرب وأول معلم لأسرارها في خدمة المخزن.

وعلى عكس المنوني، كانت لجرمان عياش طريقة مخالفة في كتابة التاريخ. فإذا كان يشترك مع المنوني في الاهتمامات، فإنه تبنى اتجاها نقديا سواء على مستوى المنهج أم على مستوى التحليل. وقد أتى جرمان عياش في مقاله «ظهور الطباعة...» بنصوص وثائقية مماثلة لما جاء به المنوني، فعرض صورة طبق الأصل للعقد المبرم بين الروداني والقباني (الذي سماه عياش بـ«القياني»)، بالإضافة إلى صورة للصفحة الأخيرة من كتاب **الشمائل** والتي يظهر فيها تاريخ النشر ومكانه. وبذلك، قدم عياش صورة واضحة عن الظروف التي وصلت فيها آلة الطباعة إلى المغرب. وقام أيضا بطرح أسئلة مهمة كسؤاله عما حدث خلال الفترة الفاصلة بين شهر غشت 1864، تاريخ سريان مفعول العقد، وسنة 1865 تاريخ وقوع آلة الروداني في أيادي المخزن. ولم يستبعد عياش، نتيجة لهذا الفاصل الزمني، احتمال نشر كتاب آخر قبل صدور كتاب **الشمائل**.

من جهة أولى، استفادت هذه الدراسة استفادة كبيرة من الجهود الطلائعية التي بذلها جرمان عياش لرسم المعالم الأولى لبداية الطباعة في المغرب، ولفت الانتباه إلى الصعوبات التي واجهها المؤرخون الأوائل عند محاولتهم تناول موضوع الطباعة

بالدرس. ومن جهة ثانية، تتضمن مقالته بضعة أخطاء كان لابد لهذه الدراسة من تداركها. ومنها اعتقاد عياش أن المغاربة كانوا يجهلون قبل سنة 1864 أن كتاب **الشمائل** هو أول كتاب عرف طريقه إلى الطبع في المغرب. وثانيها احتماله أن يكون كتاب آخر قد طبع قبل **الشمائل** نتيجة للفجوة الزمنية الموجودة بين وصول آلة الطباعة إلى المغرب وتاريخ نشر كتاب **الشمائل**. وثالثها اعتقاده الخاطئ أن الروداني قدم آلته هدية إلى السلطان، في حين أن المنطق يدفعنا إلى التسليم بأن السلطان صادرها لنفسه.

ثالثا : الدراسات الثانوية المخطوطة منها والمنشورة كمؤلف عبد الحي الكتاني **المظاهر السامية** (مخ، الرباط، 1927؟) والدراسة التي أنجزها محمد الظريف تحت عنوان : **الحياة الأدبية في الزاوية المعينية** (كلية الآداب، الرباط، 1987، لم تنشر)، والترجمة العربية لكتاب روجي لوتورنو (Roger Le Tourneau) : **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، 1986. بالإضافة إلى أطروحة سوزان ميلار : **رحلة الصفار**، (جامعة ميشكن، 1976) وقد نشرت في 1992 تحت عنوان :

S. G. Miller, Disorienting Encounter, Travels of a Moroccan Scholar in France in 1845-1846, the Voyage of Mohammad as-Saffar.

لقد استعملت كل هذه الدراسات توضيحا ودعما لمختلف القضايا التي تناولتها في هذا البحث. ويتضمن مخطوط **المظاهر السامية** لعبد الحي الكتاني معلومات غنية عن العديد من الأفراد المنتمين إلى الطريقة الكتانية، كوالده عبد الكبير وأخيه محمد وابن عمومته محمد جعفر. ثم إنه يحتوي أيضا على معطيات ثمينة في موضوع العلاقات التي كانت قائمة بين أقطاب الطريقة الكتانية والعديد من الشخصيات البارزة، أمثال السلطانين مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ، والشيخ ماء العينين وغيره من العلماء المناصرين لحركة الجامعة الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية (يوسف النبهاني على سبيل المثال). كانت هذه الأمور مفيدة ومهمة جدا لهذه الدراسة، وذلك لانفراد أقطاب الطريقة الكتانية عن كل الطرق الصوفية في المغرب باستعمالهم تكنولوجية الطباعة لتقوية مصالحهم الداخلية وتمتين صلاتهم بالإمبراطورية العثمانية. وقس على ذلك دراسة محمد الظريف : **الحياة الأدبية**، التي وجدنا فيها تفاصيل عديدة تتعلق بالشيخ ماء العينين الزعيم الديني، وبأتباعه في

مغرب القرن التاسع عشر، وبمختلف مظاهر الحياة الدينية والثقافية بالمغرب. وقام الشيخ ماء العينين، سواء بطريقة منفردة أم بطريقة مشتركة مع المخزن، باستعمال الطباعة لتدعيم مكانته وتقوية نفوذه ومركزه في المغرب.

يدفعنا لوتورنو إلى الاعتقاد بأن بداية الطباعة الميكانيكية في المغرب تعود إلى منعطف القرن العشرين، حين قام السلطان مولاي عبد العزيز بجلب آلتها من مدينة لايبزيك (Leipzig)؛ ويبدو أنها لم تستعمل فتم تفكيكها. ويخبرنا لوتورنو بأن مصدر معلوماته تلك هو طابع اسمه محمد باردو الله (يقصد برادة). والحقيقة هي أن برادة لم يكن طابعا بل ناشرا، وظهر اسمه بتلك الصفة ثلاث مرات على الصفحات الأخيرة لمطبوعات فاس في الفترة الممتدة ما بين 1897 و1918. وأعتقد من جهة أخرى، أن آلة لايبزيك جلبت من المشرق لمؤازرة العناصر المتعاطفة مع العثمانيين في فاس، ولنشر أفكار الجامعة الإسلامية بين ظهرانيهم تمكينهم بالتالي من مقاومة النفوذ الأوربي المتنامي آنذاك في المغرب. ولأهمية هذه النقطة حاولت معالجتها بكثير من التفصيل في هذه الدراسة. ثم إن لوتورنو، على الرغم من إقامته مدة قاربت عقدا من الزمن بمدينة فاس، لم يفلح في الكتابة عن موضوع الطباعة بالمغرب، وذلك باستثناء الإشارات القليلة والخاطئة التي ذكرناها أعلاه أو سبق أن ناقشها جرمان عياش. كما اعتمد لوتورنو على المصدرين الفرنسيين التاليين : ,A. Peritié : «Les Medrassas de Fès»

G. Delphin «Fès, son université et l'enseignement supérieur musulman», Oran, 1889.

وهما مؤلفان يقتصران على تقديم معلومات سطحية ونظرة من الخارج حول طبيعة التعليم التقليدي بالمغرب. تم ذلك في الوقت الذي توجد فيه نصوص مطبوعة مثل كتاب **الابتهاج** (القاهرة، 1898) لمؤلفه البلغيثي، الذي يحتوي على معطيات هائلة وصائبة حول القضايا العلمية والتعليمية في فاس. وكان البلغيثي من كبار الشعراء والكتاب، وأحد طلبة جامعة القرويين وأساتذتها فيما بعد بفاس. وعمدت في مناسبات عديدة من هذه الدراسة إلى استغلال محتويات كتاب **الابتهاج** لتقديم صورة واضحة وواقعية عن التعليم والحياة العلمية في المغرب كلما كانت لها علاقة باستعمال الطباعة.

ثم هناك الترجمة والدراسة التي أنجزتها سوزان ميلار حول **رحلة الصفار** إلى فرنسا، وخاصة إلى باريس، ما بين شهر دجنبر 1845 ومارس 1846 :

Susan Miller : «Voyage to the Land of the Rum».

وكانت هي كذلك مفيدة وهامة جدا، كما هو حال الأعمال المشار إليها سابقا. وتكتسي روايات الصفار أهمية كبيرة لأنها جاءت بمثابة رد فعل على التهديدات الفرنسية التي استهدفت المغرب بشكل حاد. وهي التي دفعت بالسلطان إلى التعجيل بإرسال سفارة مغربية إلى باريس، وتعيين محمد الصفار لمرافقة أعضائها كاتبا وفقيها وملاحظا يعاين الأسس التي بنى عليها أعداء المغرب قوتهم.

عمدت في هذه الدراسة إلى استعمال مقتطفات طويلة من **رحلة الصفار** تتعلق بالطباعة وبقضية الإصلاحات، وقارنتها بما جاء عند محمد جلبي حول نتائج سفرته التي قام بها من بلاد العثمانيين إلى فرنسا.

كان محمد جلبي من كبار رجال الدولة في الإمبراطورية العثمانية، وغالبا ما يقال إن الملاحظات التي أبداها محمد جلبي والنصائح التي أسداها حول قوة الفرنسيين وحضارتهم قد شكلت المرجع الأساسي الذي اعتمده الأتراك العثمانيون في نهج سياساتهم الإصلاحية. وفي المغرب كانت لكتابات الصفار، على مستوى التأثير، نفس الخاصية التي تميزت بها كتابات محمد جلبي. وتكفي الإشارة إلى أن محمد الصفار قد أشرف على التربية الخاصة للمولى الحسن في مرحلة شبابه، وهو الذي أصبح فيما بعد أشهر المصلحين في المغرب. وفي الوقت نفسه، كان الصفار من أقرب الوزراء والمستشارين لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن وخلفه المولى الحسن، إلى حدود مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر، وهي المرحلة التي توصف في الدراسات التاريخية بأنها أكثر مراحل تاريخ الإصلاح في المغرب دلالة.

وباختصار، اعتمدت في هذه الدراسة على عدد هام من المواد والمصادر الرئيسية منها والثانوية، وخاصة مطبوعات فاس الحجرية التي تتضمن دلالات عميقة ليس بفضل محتوياتها فحسب، بل في الوقت نفسه نتيجة للتفاصيل والمعلومات النفيسة الموجودة على صفحاتها الأخيرة والمتعلقة بالطباعة في المغرب. كان لابد إذن من الاستفادة من تلك التفاصيل لتوثيق تاريخ الطباعة في المغرب وتأويله بالنسبة للفترة الممتدة ما بين 1865 و1920.

القسم الأول

صناعة الكتاب في المغرب قبل عصر الطباعة

الفصل الأول

صناعة المخطوطات قبل دخول الطباعة إلى المغرب

الفصل الأول

صناعة المخطوطات قبل دخول الطباعة إلى المغرب

إن الإحاطة بصناعة المخطوطات وإنتاجها في المغرب أمر معقد ومن الصعوبة بمكان، سواء أتعلق الأمر بالقرن التاسع عشر أم بغيره من الفترات الزمنية. ويعود ذلك إلى ندرة المعطيات وعدم محاولة الباحثين اقتحام مجال لم يكشف بعد عن كل خباياه. ونتيجة لذلك، كان لابد من التقاط المعلومات الملائمة وذات الصلة بالموضوع من مصادر مختلفة، كالاعتماد على روايات شخصية للنساخين والخطاطين، أو على المعلومات الواردة في الصفحات الأخيرة من المخطوطات التي أنتجت خلال فترة معينة، بالإضافة إلى كتب التراجم العديدة المشتملة على معلومات عن حياة العلماء والكتاب وعن مختلف الأنشطة التي كانوا يزاولونها، فكانوا بحق العمود الفقري والأساس الذي ارتكزت عليه صناعة الكتاب في المغرب[1].

أتناول فيما يلي بالعرض والتحليل الرواية الشخصية لأحمد الرفاعي (توفي سنة 1846) الذي كان من أبرز محترفي الخط والنساخة في زمانه. وقد ترك مخطوطا ذا أهمية خاصة لم يطبع حتى الآن وعنوانه : **حلية الكتاب**[2]، الذي دون فيه تجربته التعلمية

(1) يوجد مقالان قصيران في موضوع صناعة الكتاب في المغرب خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر : أولهما لمحمد المنوني، «الوراقة العلوية» في **دعوة الحق**، المجلد 24، العدد 246، مارس 1985، ص. 133–151 ؛ والثاني لمؤلفه ستيوارت :

C.C. Stewart, «A new source on the book market in 1830 and Islamic scholarship in West Africa», in **Hespéris-Tamuda**, vol. XI — fascicule unique, 1970, pp. 209-246.

(2) توجد النسخة الأصلية لهذا المخطوط في الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم : 254 d. وفي حوزتنا نسخة منها على الميكروفيلم.

في مرحلة الشباب، كما وصف فيه مراحل تطور الكتابة الخطية. وهذه مقتبسات من رواية الرفاعي[3] :

«... وبعد، لما أن وفق الله تعالى والدي وأرشدهما إلى تعليم كتابه المبين، وأدخلوني للمكتب مع أولاد المومنين، وفتح ـ سبحانه ـ علي فحفظت القرآن. والمنة لله الملك المنان. ألهمني جل وعلا فصرت أستحسن الكتابة في كل موضع، وتقع حروفها مني كل موقع، وكان يأتي وقت كتابة الألواح مكتبنا، ليعين في الفتوى مؤدبنا، الشيخ البركة المسن الوقور الزاهد الذاكر على الدوام، شيخنا سيدي عبد السلام سباطة الأندلسي الرباطي، وكان ذا خط حسن بديع الشكل، عديم المثل، فكنت أرصده عند عرض الألواح للسلك فأسلك لوحي عليه، ليكتب لي في آخره السائس الموقوف عليه، فأعيده بعينه مرات وأتتبعه عسى أن نقتطف من روضه زهرات، حتى أحسست من نفسي أني ناولت من أغصانه العالية بعض الثمرات، فصرت أكتب السائس الموقوف عليه بخطي لأعلمه أني أريد قطف الزهر من تلك الأكام، وكان شيخنا وقورا قليل الكلام، فلما علم ذلك مني أقبل علي، وزادني على السائس كلمات، ونظر إلي وقال لي هكذا، وكن تفعل مثل هذا، فقمت من بين يديه بما يجب من الأدب نشوانا، وبخمرة السرور ملئانا.

ثم صرت أكتب في الكاغيد حتى استقام خطي وجاد، وترونق أو كاد، فلازمت ابن عمنا شيخنا مولاي أحمد ـ رحمه الله ـ وكان ذا خط حسن، مرونق مستحسن، فكان يعلمني انتظام الحروف واتساقها، ويقدر لي النسبة من الكتابة وتعريفها.

ثم انتقلت إلى مطالعة الكتب ذات الخط الحسن، وأنتخب ما أستحسنه من خطها، وأتخير ما تقبله العين من تبريز الحروف وبسطها، فلم أجد خطا يعبر بالقوة عن المعاني ويفصح بها إفصاحا، ويزيد الحق اتضاحا، يماثل خط ديار أهل الأندلس أعادها الله دار إسلام، فقد كانوا فيه آية ما بين الأنام، وهم الذين أجادوا الخط وأوضحوا الكتابة، وأصابوا في مناسبتها كل الإصابة، وأودعوها بطون الطرس ذخيرة للأسلاف ، تنقل من قرر عن الأسلاف...

ولما فتح الله علي، وحقق ما كان يرجوه منه سبحانه والدي، واقتبست جذوة

(3) الرفاعي، **حلية الكتاب**، ص. 2ـ8. قام كل من المنوني وهلال ناجي بنشر هذا الجزء من المخطوط. انظر ناجي، «نظم لآلي السمط» من نظم أحمد الرفاعي، **المورد**، المجلد 5، العدد 4، خريف 1986، ص. 173ـ184 ؛ المنوني، «الوراقة العلوية»، **دعوة الحق**، المجلد 24، العدد 246، مارس 1985، ص. 133ـ151.

من نور الكتابة، وجرت ألسنة الخلق أني أصبت منها بعض الإصابة. وكنت بمحروسة فاس بقصد القراءة والتبرك بمولانا إدريس نفعنا الله به، ليحصل لي بالكتابة النفع دنيا وأخرى وأراد سبحانه له المنة أن يكسوها سرا، يسر لي شيخا كاملا صالحا عابدا يراعي النجوم والأظلة لذكر الله، شيخنا وسيدنا أبا عبد الله سيدي محمد التهامي بن سيدي محمد بن محمد بن الشاهد بن مولانا التهامي بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله الشريف العلمي الوزاني، فأخرجني من فاس إلى داره بقبيلة بني ورياغل بمدشر الدردار بوادي ورغة بقصد الكتابة، فكتبت له كتبا عديدة، آخرها كتاب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري من عمل عشرة أسفار.

وقد أقمت عنده نحوا من أربع سنين حتى سمع بي عنده شيخ الإسلام، وقدوة الأنام، مربي المريدين، ومصباح السالكين، وتاج العارفين، شيخنا وسيدنا ومولانا سيدي أبو الحسن مولانا علي بن مولانا أحمد بن مولانا الطيب بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله الشريف المذكور، فبعث له على أن يوصلني إليه لزاويتهم المباركة، وزان ففعل، ولما أراد أن يودعني سيدي التهامي المذكور بعد أن دعا لي بخير، طلبت منه زيادة دعاء بالقبول على هذا الخط، فقال لي : أتريد قبولا أكثر من هذا؟ قلت : نعم يا سيدي. فقال لي : عندك ذلك، لا أكسد الله لك سلعة. ثم ودعني في يد الله.

ولما اجتمعت مع مولانا علي المذكور رحب بي، وقال لي : أنت فلان؟ قلت نعم يا سيدي، قال لي : نريد أن تكتب لنا كتبا نكون شركاء في أجرها، فقلت أجل يا سيدي : أجر ومعك، فنعم الأجر هو، فعين لي ما أكتب، وبقيت أكتب له نحوا من أربع سنين، ولا أكتب له إلا كتب التصوف والحقيقة، وخصني مرة بكتابة كتاب في الأسرار، وآخر ما كتبت له المصحف الكريم.

ثم طلبني منه نجله الصالح، ذو الهمة العلية، والأخلاق الطيبة المرضية، البدر السامي، أبو عبد الله سيدي محمد التهامي، فدفعني إليه بعد أن أوصاه علي، فبقيت عنده كذلك بوزان أكتب له كتب التعديل وغير ذلك مما يتعلق به.

حتى وقع خطي في بعض الرسائل بيد مولانا الإمام الذي أيد الله به الدين، وقلده أمر المسلمين، فما بات عن مصالحهم بطرف وسنان، سلطان العلماء وعالم السلاطين أبي الربيع مولانا سليمان، بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل الشريف العلوي، قدس الله روحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، وكان جالسا بحضرته الطاهرة العلية بالله مولانا التهامي بن مولانا علي المذكور، فقال له :

أتعرف هذا الخط؟ قال : نعرفه هو لفلان، كان يكتب لنا. فقال رحمه الله : إذا جئتمونا هذه المرة فأتوا به معكم، فوافق الحال بعد ذلك أن كان سيدي علي المذكور عائدا لمولانا سليمان في مرض اعتراه بمراكشة، فأشخصني معه إليه، فلقيناه بتامسنا بموضع يقال له كيوا، فعرضني عليه على يد شيخنا المبارك، العالم العلامة المسن البركة، سيدي محمد بن عبد الصادق، الشريف الريسولي العلمي، فأنزلني رحمه الله بمحلته السعيدة...

فلما صحبت مولانا سليمان ورأى خطي، اتخذني أولا لكتابة تفسير الإمام البقاعي، ثم بعد ذلك أخرجني من بين عشرة من الكتاب لقراءة ولده الصالح، أبي حفص مولانا عمر رحمه الله ولتأديبه فلازمته حتى حفظ القرآن والحمد لله...».

على الرغم من أن رواية الرفاعي لا تقدم لنا صورة واضحة ولا معلومات مباشرة عن النساخين بوجه عام ولا عن الخط وأحجام الكتب، فإنها تحتفظ مع ذلك بأهمية كبيرة بفضل ما تتضمنه من تفاصيل تتعلق بمسار النسخ. فيمكن الخروج من رواية الرفاعي ببعض الاستنتاجات نعرض لها بالمناقشة فيما سيأتي.

وأخَصُّ ما يعنينا من الملاحظات التي أوردها الرفاعي ثلاث نقط أساسية : أولها تهم الخط في أشكاله وتجلياته المختلفة، ثم الدلالات التي تحملها تلك الأشكال للتعليم والثقافة ؛ وثانيها تخص النُّسَّاخ ومكانتهم الاجتماعية؛ وثالثها تدور حول حجم إنتاج الكتاب، وهوية العناصر الأكثر استعمالا للكتب.

أولا ـ الخط

يتبين لنا مما أخبرنا به الرفاعي، أنه استطاع تعلم فن الخط عندما كان في الكُتَّاب، معتمدا في ذلك على النسخ بالمحاكاة والتقليد. وكانت أول خطوة في مرحلته التعلمية هي تقليده خط شيخه سباطة، ثم انتقل بعد ذلك لمحاكاة الخط الجميل لِابن عمه مولاي أحمد، وأخيرا عكف على تقليد الخطوط الجيدة التي نسخت بها أحسن المخطوطات الميسرة لديه في الرباط مسقط رأسه والمدينة التي تلقى فيها تربيته وتعليمه[4]. كما أخبرنا الرفاعي بتفضيله الخط الأندلسي على غيره لأنه «يعبر بقوة عن المعاني ويفصح عنها إفصاحا». والحق أن رواية الرفاعي تحملنا على الظن بأن الراغب

(4) للمزيد من المعلومات العامة عن حياة أحمد الرفاعي، انظر : محمد بوجندار، الاغتباط، ص. 39ـ48 ؛ وانظر أيضا الهامش رقم 3.

في احتراف الكتابة لا يمكن أن يتأتى له ذلك إلا بفضل المجهود الفردي القائم على الموهبة والمقدرة الطبيعية التي يتم صقلها وتعزيزها بعدئذ بالتربية، وبفضل وجود نماذج من الخطوط الممتازة التي يمكنه تقليدها.

ويمكن تعريف «الخط» بأنه أي شيء يكتب باليد. ويمكن تعريفه أيضا بأنه «توقيع» أو «إمضاء» على أساس أن لكل خط أو مادة كتبت باليد خصوصياتها الذاتية التي تنفرد بها. ويمكن خلق تشابه وتقارب في الخطوط السائدة في جهة من الجهات بالتربية والتعليم؛ ومع ذلك لابد من وجود اختلافات بين هذا النَّاسخ أو ذاك. ونعني بذلك أن الخطوط والكتابات على هيئة توقيعات تكون قابلة للإثبات والتحقيق على أسس فردية أو حسب الأساليب الجهوية. معنى هذا أنه بإمكان السلطات الحاكمة أو غيرها، مراقبة أنواع الكتب المنتجة والتحكم في مصيرها إذا كانت ترغب في ذلك. فعلى المحتسب مثلا أن يتأكد من سلامة الكتب الموجهة للبيع من حيث جودة حبرها وورقها وقابليتها للقراءة. وعليه أن يفحصها من حيث مضمونها، ومراعاتها للقيم الأخلاقية والدينية السائدة في المجتمع[5]. غير أن السلطان المولى سليمان إنما كان ينوي فيما يبدو أن يتخذ الرفاعي كاتبا من كتاب البلاط، لما بادر إلى استفسار جلسائه عن هوية كاتب إحدى الرسائل التي مرت بين يديه. إذن يمكن القول أن تعلم الخط في المغرب كان قائما على التقليد بصورة أساسية. وعلى الرغم من تنوع الخطوط المغربية كان من الممكن إرجاع نسبة الخطوط إلى أصحابها لأي سبب كان.

من الناحية التاريخية، يعرف نوع الكتابة السائد في المغرب بالخط المغربي. ويعتقد أنه وصل إلى بلدان شمال إفريقيا عبر مصر والقيروان والأندلس. وإلى حد الساعة، لم يتم بعد توثيق هذا الموضوع بما فيه الكفاية، وما تزال أصول الخط المغربي ومراحل تطوره في حاجة ماسة إلى الدراسة والبحث. ومع ذلك، يبدو من خلال الأشياء القليلة المعروفة لدينا، أن أصل الخط الأندلسي هو فصيلة من الخط الكوفي المشرقي. فبينما تخلى الأندلسيون عن أسلوبهم وفضلوا خطوطا مشرقية أخرى خلال فترة الحكم العباسي، ظل المغاربة أوفياء للخط الأندلسي في شكله الأصلي[6].

(5) أحمد البلغيثي، الابتهاج بنور السراج، الجزء 1، ص. 230-234.

(6) L. Golvin, «Kitabat in North Africa», in **Encyclopædia of Islam**, n.e., vol. 5, pp. 220-221.

ونظرا لوقوع المغرب جغرافيا في أقصى العالم الإسلامي، فإنه من المغري جدا أن يزعم المرء أن عزلة المغرب وبعده عن المركز الأساسي للإسلام، هو الذي حال دون تكييفه لأسلوب خطه الوسطوي أو استبداله. غير أن صحة مثل هاته المزاعم لا يمكن أن تثبت أمام الواقع، وذلك من جهة، لأن المغاربة ظلوا طوال تاريخهم الإسلامي على اتصال كبير بالمشرق الإسلامي سواء عن طريق الحج السنوي إلى مكة والمدينة[7]، أم عبر جلب النصوص الأساسية للمذهب المالكي وشروحها. ولأن هناك من جهة ثانية، براهين واضحة تؤكد أن الخط المشرقي المعروف بالنسخي كان يستعمل دوما في المخطوطات المغربية، غير أن ذلك الاستعمال اقتصر فيه لأغراض جمالية على عناوين الفصول والصفحات دون غيرها. إلا أن المغاربة ظلوا أوفياء للأسلوب الكوفي القديم باعتباره نموذجا لنوع الخط الذي كتبت به أقدم نسخ **القرآن**[8]. وبالفعل، كان العلماء والمتصوفة المغاربة على السواء يعتبرون عملية نسخ الكتب الإسلامية شكلا من أشكال العبادة التي تستلزم – إلى جانب الحفاظ على المذهب المالكي – الإبقاء أيضا على خصوصيات الخط التقليدي الذي كتب به **القرآن**. وعلاوة على ذلك، كان العلماء في المغرب يؤمنون بالمبدإ الإسلامي السائد نفسه الذي يعتبر قدسية الخط الذي كتب به **القرآن** مماثلة لقداسة **القرآن** ذاته. وفي هذا الإطار كتب الدباغ رائد علماء التصوف خلال القرن الثامن عشر، وهو من مدينة فاس، ما يلي[9] :

> «رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة وكمال الرفعة، وهو صادر من النبي صلى الله عليه وسلم، وليس للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة. وإنما هو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها. ونحو ذلك الأسرار لا تهتدي إليها العقول إلا بفتح رباني. فكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز».

كان مثل هذا الاعتقاد سائدا بقوة في المغرب، مما مهد السبيل أمام فرض تعليمات دينية وتقنينات مناسبة استهدفت مراقبة جودة المخطوطات، بالحث على استعمال أنواع جيدة من الحبر والورق، والكتابة بخط واضح وجميل يجعل النص

(7) انظر المنوني، **الركب المغربي** ؛ بالإضافة إلى كتاب :

Umar al-Naqr, **The Pilgrimage Tradition in West Africa.**

(8) صلاح المنجد، **دراسات في تاريخ الخط**، ص. 96.

(9) محمد الكردي، **تاريخ القرآن**، ص. 193.

المكتوب أكثر تعبيرا وتوضيحا لحقيقة الإسلام في كل تجلياته. ويعني إنتاج نصوص ذات مستوى جمالي رفيع لأهل التقوى من المسلمن، وكذا الخطاطين الذين يحصلون على أجر جيد، يعني لهم ذلك بذل مجهود خاص للتعبير عن المعاني والمزايا الروحية الكامنة في أعماق النص. ولا يتأتى ذلك بطبيعة الحال إلا بالصبر والمعاناة والتضحية بالوقت الطويل.

فماذا يعني هذا كله لتكنولوجية الطباعة؟ هل وافق العلماء المغاربة، بصفتهم صانعين للقرار، على التخلي عن الخط التقليدي المقدس لتعويضه بالحروف المطبوعة الوافدة أصلا من البلدان المسيحية أو المشرقية؟ حيث لا يكترث الطابع بإحدى الخاصيات التي يتميز بها الخط المغربي كوضع نقطة واحدة فوق حرف القاف، ونقطة واحدة أيضا أسفل حرف الفاء. هل تملك تكنولوجية الطباعة القدرة على أن تتحدى بنجاح التقليد العربي المتأصل لفن الخط والكتابة اليدوية الخطية، وذلك بإنتاجها لنصوص تضاهي المخطوطات من حيث الجودة والجمال؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة ـ كما سنرى ـ ستعزز فهمنا للأسباب التي جعلت المغاربة يقاومون فكرة التغيير قرونا عديدة، وكذا إدراكنا للدواعي الحقيقية التي أدت بهم إلى التحول من أسلوب الخط اليدوي إلى الحرف المطبوع.

هناك جانب ذو أهمية خاصة في إطار الدراسة الشاملة للخط المغربي، ألا وهو مؤثراته الثقافية والاقتصادية. لقد كان المغاربة، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، في المراكز الثقافية الرئيسية كالرباط وفاس وتطوان، يستعملون إلى جانب الخط الأندلسي، مجموعة من أساليب الخط التي كانت تعتبر عينات جهوية من الخط المغربي. وكانوا في أقصى الجنوب الغربي يستعملون الخط الصحراوي، بينما انتشر في سوس وضواحيه نوع يعرف بالخط السوسي[10]. والذي يجمع بين الخطوط السوسية والصحراوية أو الأندلسية هو كونها جميعها خطوطا مغربية. والذي يميز بينها هو أن كل صنف منها ليس سوى نتاج خاص لبيئات اقتصادية وتربوية متباينة. فالخط الصحراوي مثلا يبدو خشنا غير مهذب، وكأنه مرآة واضحة لقساوة البيئة الصحراوية التي تندر فيها الكتب وتقل فيها المراكز التربوية والتعليمية ذات المستوى العالي، هذا

(10) للاطلاع على نماذج مختلفة من الخط المغربي، انظر: محمد حجي، **فهرس مخطوطات الخزانة الصبيحية**، ص. 19، 26، 30، 37، 40، 44؛ عبد الكريم سكيرج، «الخط المغربي»، في **مجلة الثقافة المغربية**، العدد 2، 1941، ص. 67–72.

إذا لم تكن منعدمة على الإطلاق. ونتيجة لهذا الواقع، لم تنتج الصحراء المغربية، خلال القرن التاسع عشر، علماء من الطراز الرفيع باستثناء الشيخ ماء العينين القلقمي (توفي سنة 1910)، الذي شكلت كتاباته العديدة وخزانته الخاصة المؤشر الأساسي المعبر عن وجود نشاط ثقافي في الصحراء[11].

أما منطقة سوس، فكانت على عكس الصحراء، أكثر غنى بالمراكز التعليمية، التي نذكر من بينها تارودانت والصويرة ووادي درعة التي أنتجت العديد من كبار العلماء الذين دون الفقيه المختار السوسي مراحل حياتهم وصنف أمهات الكتب التي ألفوها بعناية كبيرة في مؤلفه الموسوعي **المعسول**[12]. ويبدو الخط السوسي، عند مقارنته بالخط الصحراوي، أكثر رقة وغنى من حيث الشكل والألوان، كما يتميز عنه باستعمال ماء الذهب لتزيين علامات الوقف وتنميق عناوين الفصول وغيرها.

كذلك يبدو واضحا عند مقارنة الخطين الصحراوي والسوسي، ببقية أصناف الخط المغربي المستعملة في مختلف المراكز التعليمية والثقافية الأساسية كفاس وتطوان وسلا والرباط ومراكش، أن الأصناف السائدة في هذه الحواضر أرقى، لأنها بوجه عام أكثر وضوحا، كما أن الألوان المستعملة في التزيين أو للتمييز بين الاقتباسات والشروح والتعاليق غالبا ما تكون في حجمين مختلفين أو أكثر[13]. وفي المراكز الأساسية المذكورة، نجد أصنافا جيدة من الخطوط كالمجوهر الذي يتميز بحروف ذات أشكال دائرية شبيهة بالمجوهرات الغاية منها الرفع من جمالية الخط، والمبسوط الذي تكون حروفه ممددة توخيا للبساطة والوضوح، والزمامي الذي يميل أسلوبه إلى التكرار وهو صنف أنيق متميز. والخلاصة التي يمكن الخروج بها من هذه العينات المتباينة لأساليب الخط في المغرب، هي أن إنتاج الطراز الممتاز من الكتب أمر لا يمكن تحقيقه إلا في المراكز التعليمية الرئيسية كفاس والرباط. ولذلك، يخبرنا الرفاعي في كتابه **حلية الكتاب**، بأن النساخ يقسمون في تلك المراكز الرئيسية إلى أربع مجموعات متميزة : مجموعة أولى تخضع في نظامها للقصر السلطاني، ويختص كتابها

---

(11) محمد الظريف، **الحياة الأدبية في الزاوية المعينية**، الجزء 1، ص. 124–131 ؛

H. Norris, «Ma'al-Aynayn al-kalkami», Encyclopædia of Islam, n.e., vol. 5, pp. 889-892.

(12) انظر أيضا بقية كتب المختار السوسي : **مدارس سوس العتيقة** ؛ **خلال جزولة** ؛ **الإلغيات** ؛ **الترياق المداوي**، وكلها مصادر لمعلومات ضخمة حول الأنشطة الثقافية بمنطقة سوس.

(13) Abdelkebir Khatibi, L'Art Calligraphique Arabe, pp. 154, 156.

في تحرير الرسائل المخزنية لفائدة السلطان وموظفيه السامين باستعمالهم الخط الزمامي باعتباره أكثر الخطوط تمشيا مع مقام الدولة وهيبة جهازها. ويتخصص كتاب المجموعة الثانية في نسخ النصوص القرآنية باستعمالهم لخط المبسوط المتميز بالسهولة والوضوح لتكون القراءة سهلة غير متعبة. أما كتاب المجموعة الثالثة، فيتخصصون في نسخ كتب الحديث والفقه بالأسلوب نفسه الذي يكتب به القرآن، لأنهما ياتيان في المرتبة التالية للـقرآن من حيث القداسة وسمو المكانة. في حين يختص المنتمون إلى المجموعة الرابعة في تعليم أبناء السلطان وتربيتهم[14].

وعلى الرغم مما يبدو من وجود الكتاب، في مغرب القرن التاسع عشر، ذوي تخصص من مستوى عال ومتنوع، فإن المجموعة الوحيدة من الكتاب التي تبدو منظمة فعلا في البلاد هي المجموعة التي كان الرفاعي ينتمي إليها والتي كانت في خدمة القصر. ويعني ذلك أنه في حالة رغبة المخزن في تبني تكنولوجية الطباعة لتلبية حاجياته، فلن تكون عندئذ سوى مقاومة ضعيفة أو ربما لن تكون هناك أية مقاومة على الإطلاق، لسببين واضحين : أولهما أن معظم العلماء وكبار الكتاب القادرين على التأثير في مجتمعهم كانوا من موظفي المخزن. وأما الثاني فهو أن السلطان ــ بكونه ينحدر مباشرة من سلالة الرسول، ويعتبر خليفة الله في الأرض ــ يملك لوحده سلطة القرار النهائي الذي يمكنه من تقرير مصير الطباعة[15].

وعليه، فإنه بالرغم من كل الحواجز الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي يمكنها إعاقة أمر إدخال الطباعة إلى المغرب، هناك باب مفتوح يستحوذ عليه المخزن ويمكن من خلاله استقدام الطباعة في حالة حاجة المخزن إليها. ولكن في حالة وقوع ذلك يا ترى هل سيقع الاختيار على مطبعة حجرية قادرة على الاحتفاظ بمميزات الخط أو الخطوط المغربية أم على المطبعة الميكانيكية التي ستحتم تغيير الخط المغربي وتعويضه بحروف موحدة إلى جانب تغيرات مماثلة؟

ثانيا ـ النساخ

بالإضافة إلى النساخ الآخرين أمثال الرفاعي، كان في المغرب خلال النصف

(14) الرفاعي، المرجع السابق، ص. 25ـ26.

(15) انظر مقالا حول سلطة السلطان والعلماء في المغرب للباحث الأمريكي بورك في :

E. Burke, «The Moroccan Ulama 1860-1912», in **Scholars, Saints, and Sufis : Muslim Religious Institutions Since 1500**. Edited by N. Keddie, pp. 93-125.

الأول من القرن التاسع عشر، عدد يقدر بحوالي تسعين ناسخا يمارسون نشاطهم ممارسة فعلية مقابل أجر معين[16]. اعتمادا على ما جاء عند محمد المنوني في إحدى مقالاته حول النساخ في المغرب خلال هذه الفترة، يمكن التمييز بين ثلاث مجموعات أو ثلاثة أصناف من الناسخين. تتضمن المجموعة الأولى العديد من أبناء الأسرة السلطانية وكبار موظفي المخزن. وتتكون عناصر المجموعة الثانية من أبناء أسر الأعيان بالمراكز الثقافية الرئيسية كفاس وتطوان والرباط وسلا ووزان ومراكش. أما المجموعة الثالثة، فتحتوي على نساخ ينتمون إلى أصول ومناطق متباينة، يستشف منها أن أفرادا لا ينتمون إلى الفئات المحظوظة داخل المجتمع المغربي كانت لهم أيضا مساهمة، إلى حد ما، في إنتاج المخطوطات وصناعتها بالمغرب.

وحتى يمكننا أن ندرك بوجه شمولي ما تعنيه صناعة المخطوط عند كل من هذه المجموعات الثلاث، وأن نكتشف أيضا الكيفية التي تتفاعل بها عناصر تلك المجموعات لتلبية حاجيات المغاربة على مستوى الموارد والتعليم والقضايا الروحانية، من الضروري فحص أنشطة كل واحدة من هذه المجموعات. في المجموعة الأولى، نجد بين أبرز نساخ هذه الفترة السلطان المولى سليمان، ونجليه الأميرين يوسف وعبد السلام ثم الوزير العمراوي[17]. ومن المفيد جدا الإشارة إلى أن العمراوي قد امتهن الوراقة قبل توليه مهام الوزارة داخل التشكيلة المخزنية[18].ويولد لدينا هذا انطباعا جيدا حول مهنة الوراقة التي يدخل ضمنها أيضا نسخ الكتب، أي أنها كانت مهنة لها اعتباراتها الخاصة، بل أصبحت وسيلة ناجعة للحصول على المناصب العليا. وكان ذلك صحيحا عند الرفاعي الذي ارتقى في السلم الاجتماعي ليصبح في نهاية المطاف كاتبا خاصا في القصر السلطاني ومدرسا لأبناء السلطان. ويذهب بوجندار في كتابه **الاغتباط** إلى القول بتعيين الرفاعي عاملا على فاس في سنة 1817[19].

ليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب لقيام السلطان المولى سليمان، شخصيا بنسخ الكتب كما فعل بالنسبة لمجموعة الهلالي (توفي سنة 1761) الشعرية. ذلك لأن

---

(16) المنوني، «الوراقة العلوية»، في دعوة الحق، المجلد 23، العدد 4، 1982، ص. 10–24 ؛ المجلد 25، العدد 246، 1985، ص. 133–151.

(17) المرجع السابق.

(18) نفسه.

(19) بوجندار، مرجع سابق، ص. 41.

مشاركة السلطان في مثل تلك الأعمال تمنحه مزيدا من القيمة وترفع من مكانته الدينية، كما أنها لا تخلو أيضا من مكاسب سياسية. وفي الوقت نفسه، كانت المساهمة في الأنشطة العلمية من المساعي التقليدية لمعظم السلاطين المغاربة منذ قرون عديدة، ويعود ذلك أساسا إلى أنهم يتلقون تعليمهم وتربيتهم على يد علماء غالبا ما يكون تأثيرهم قويا على شخصياتهم وبالتالي على مسار حياتهم. فقد كان المولى سليمان مثلا، من بين طلبة العلامة الطيب بن كيران (توفي سنة 1812). وحتى بعد توليه الحكم سنة 1792، استمر في مواظبته على متابعة دروس كبار علماء القرويين بفاس[20]. وبالفعل كان للمولى سليمان اهتمام جاد بالعلم إلى درجة أن العلماء أصبحوا يعتبرونه أحد الأسانيد في رواية **صحيح البخاري**[21]. كما اعترف به كواحد من شراح **مختصر** الشيخ خليل بن إسحاق[22]، والذي هو من أكثر كتب الفقه الإسلامي شعبية في المغرب.

ويبدو من خلال نموذج السلطان المولى سليمان أنه حصل بسرعة على مكافآت فعلية عديدة مقابل اهتمامه بنسخ الكتب وإجلاله للعلم. إذ يخبرنا ابن زيدان في كتابه **الدرر الفاخرة**، بأن العالم الكبير التاودي ابن سودة (توفي سنة 1795) هو الذي حرر نص بيعة السلطان المولى سليمان[23]. وحين أصدر نفس السلطان أوامره بتأليف الكتب ونسخها، قام العديد من العلماء أمثال حمدون بن الحاج (توفي سنة 1816)، وأبي العلاء إدريس وغيرهم، بنظم القصائد الشعرية في مدحه والإشادة بأعماله المأثورة التي نورت وجه الإسلام والمسلمين في المغرب. ووضعت تلك الأشعار في موضعين، أولهما خواتم الكتب، وذاك ما فعله أبو العلاء إدريس في كتابه **البيان والتوضيح**، وثانيهما الأماكن العمومية، كنافورات الماء أو أبواب المساجد والمدارس، لتمكين عامة الناس من مشاهدة الأبيات الشعرية التي كتبت بخطوط جميلة في مدح السلطان وتمجيده، وقراءتها[24]. هذا فضلا عن وجود مناسبات أخرى تتاح فيها الفرص أمام العلماء لمدح السلاطين بصفات الصدق والقوة

(20) عبد الرحمن ابن زيدان، **الدرر الفاخرة**، ص. 72.

(21) يوسف الكتاني، **مدرسة الإمام البخاري في المغرب**، الجزء 1، ص. 386.

(22) عبد العزيز بن عبد الله، **معلمة الفقه المالكي**، ص. 123.

(23) ابن زيدان، **مرجع سابق**، ص. 67–68. كان قيام العلماء الكبار بتحرير نص البيعة للسلطان عادة جارية في المغرب.

(24) **نفسه**، ص. 68–70، 74.

كخطب الجمعة، ما دام السلاطين يتصرفون كالعلماء. ويمكن القول بإيجاز، إنه سواء سلمنا أم لم نسلم بأن التدخل المباشر للأسرة الحاكمة قد كان دينيا صرفا أو لأغراض عملية، فإن أي شكل من أشكال التدخل في قضايا العلم ونسخ الكتب لابد أن تجنى من ورائه نتائج دعائية لفائدة الأسرة الحاكمة. ويعني ذلك أن سلاطين المغرب ـ علما منهم بالنتائج الدعائية المؤكدة التي يمكنهم تحقيقها من وراء المساهمة في دنيا الكتاب والعلم ـ قد تابعوا السير كما سنرى في نفس الاتجاه خلال عصر الطباعة، فكانوا بذلك أكثر المستفيدين من تكنولوجيتها الجديدة.

تحتوي المجموعة الثانية من الكتاب على أسماء العديد من الشرفاء والأعيان، نذكر منهم الرفاعي والقادري والفاسي والصقلي والطاهري والصبيحي والسملالي والتادلي وغيرهم[25]. وفي الوقت نفسه، نجد أيضا أن أبرز علماء تلك الفترة وأشهر رجال التربية وقتئذ ـ أمثال ابن سودة وابن الحاج وأبي العلاء إدريس وبن كيران ـ كانوا ينحدرون جميعا من الوسط نفسه[26]. ثم إن بعض الكتاب أمثال الرفاعي وأستاذه الرهوني كانوا أيضا علماء ومربين[27]. ويستخلص من ذلك أن أسر الشرفاء والأعيان كانت تهيمن على حقل صناعة الكتاب وإنتاجه بما فيه الكتابة والنسخ، وعلى مجال التعليم بما فيه التدريس والإشراف على تربية الأمراء.

إضافة إلى ذلك، حينما نبحث عن المناطق الجغرافية أو عن المدن التي ينحدر منها النساخ أو العلماء، نجد أن غالبيتهم ينتمون بالدرجة الأولى إلى فاس، عاصمة المغرب الدينية والعلمية. وتأتي بعد ذلك، مدن أخرى ذات أهمية كالرباط وتطوان ومراكش ووزان[28]. ويوحي هذا بأن أعمال الطباعة لا يمكن أن تلقى النجاح المنشود إلا في حالة وجود آلتها داخل إحدى كبريات المدن. ويتضح أيضا أنها ستصبح أداة فعالة في أيدي أسر الأعيان والشرفاء الذين حددوا لا محالة توجهاتها واختاروا أصناف الكتب التي يريدون إصدارها. علاوة على ذلك، بما أن السلاطين والشرفاء أو الأعيان كانوا أكبر المستفيدين من إنتاج الكتاب، أفلا يمكن لتلك المصالح المشتركة بين المخزن وأعلى فئات السلم الاجتماعي في المغرب أن تستمر أيضا خلال عصر الطباعة؟ أم أنه

(25) المنوني، المرجع السابق.
(26) ابن زيدان، المرجع السابق.
(27) بوجندار، المرجع السابق.
(28) المنوني، المرجع السابق.

ستكون هناك إمكانية لاحتدام التنافس بين السلطان والشرفاء على سبيل المثال، حول تحديد طبيعة المعرفة التي يجب نشرها في عموم الناس؟ فهذه بعض الأسئلة التي سنبحث عن أجوبة لها في الفصول القادمة.

ونجد ضمن أعضاء المجموعة الثالثة من النساخ أسماء مثل التميلي والتاشفيني والأسفي والصحراوي والتجكاني الذين نسب إليهم نسخ عدد من المؤلفات في مناطق صحراوية نائية أو في أقصى الجهات الجنوبية للبلاد كسوس مثلا[29]. ونظرا لغياب معلومات مفصلة عن هؤلاء، لا يسعنا إلا أن نقول بأنهم كانوا بمثابة الواحة ذات الخضرة اليانعة بين الأراضي الصحراوية الشاسعة، وبأن أهميتهم ومكانتهم كانت كبيرة دون شك داخل محيطهم الذي كانوا يعيشون فيه، غير أن تأثيرهم على السير العام لصناعة الكتاب وإنتاجه في المغرب كان محدودا. ومع ذلك من الممكن أن تصبح تلك الأراضي القاصية والنائية في يوم من الأيام ذات فائدة وتتحول إلى سوق لتصريف الكتب المطبوعة والمنشورات بوجه عام.

ثالثا ـ حجم إنتاج الكتاب

إن أنسب وسيلة وأسهلها لتقدير حجم إنتاج الكتاب في المغرب ـ خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ هي ضرب عدد النساخ الذين كانوا يمارسون نشاطهم خلال الفترة المذكورة في عدد الكتب التي أنتجوها. غير أن هذه الطريقة ليست ممكنة، لأنه لا علم لأحد بعدد الكتب التي أنتجها كل ناسخ أو كاتب بدقة. كما أن مثل هذه الطريقة غير مجدية، لأنها من الممكن أن تحجب عنا الواقع الحقيقي لصناعة الكتاب وإنتاجه. كانت تجارة الكتاب في الأساس سوقا موجهة، وعادة ما كانت الجهة التي يصدر عنها الطلب تملي شروطها المتعلقة بطبيعة المنتوج ومواصفاته. وكان النساخ يعملون بشكل يجعلهم يستجيبون للطلبات المعروضة عليهم من مختلف الفئات الاجتماعية والمجموعات الاقتصادية، كأفراد الأسرة السلطانية والشخصيات الدينية والمتعلمين من عامة الناس. وهكذا فعوض الاجتهاد في تقدير الحجم الحقيقي لصناعة الكتاب، يمكننا مقارنة نماذج من الإنتاج الذي خلفه ثلاثة نساخ، هم الرفاعي والقندوسي والتادلي الذين أنتجوا الكتب استجابة لطلبات تقدم بها زبائن من مشارب مختلفة في المغرب، حتى نفهم بشكل موسع وعميق طبيعة إنتاج الكتاب وصناعته خلال هذه الفترة.

(29) نفسه.

وتفيدنا رواية الرفاعي بأنه بعد اشتغاله لمدة اثني عشرة سنة بالجهات الشمالية من المغرب، في كل من مدشر الدردار ومدينة وزان، تمكن من إنتاج ما قدره سبعة عشر كتابا مختلفة الأحجام، ومن بينها **صحيح البخاري** الذي يتكون من عشرة مجلدات. بمعنى أن الرفاعي كانت له قدرة إنتاجية بمعدل كتاب وربع كتاب في السنة، ويبدو أن هذه النسبة ضعيفة جدا. ولدينا تفسيران اثنان لفهم الأسباب التي حالت دون إنتاج الرفاعي لعدد أكبر من الكتب، هما : أولا، أن الرفاعي كغيره من الكتاب والناسخين المعاصرين له، لم يكن متفرغا كليا لنسخ الكتب[30]. لأنه كان يقوم بتحرير الرسائل لشرفاء وزان الذين كان يشتغل لحسابهم، وربما كانت له أنشطة أخرى يقوم بها في مقر الزاوية الوزانية كالتدريس والتربية مثلا[31]. ثانيا، إن أنواع الكتب المتخصصة التي كان عليه نسخها وفقا لطلبات مشغليه، كما هو حال كتاب **صحيح البخاري**، تتطلب اهتماما بالغ الدقة بالتفاصيل، واحتراما تاما لقواعد النسخ ومبادئه الصحيحة. وتتضمن تلك القواعد التحضير الجيد للورق والحبر ذي الجودة العالية، وتهيئة ألواح خاصة تمكن من الحفاظ على أسطر مستقيمة للنصوص المكتوبة، إلى غير ذلك من القواعد الواجب احترامها[32]. غير أن أهم جانب في وضع الكتاب ليس هو مجرد الحصول على المواد الضرورية، لأنها موجودة في السوق، بل هو التوصل إلى النسخ الفعلي للنص في حد ذاته. فحين نمعن النظر في مجموع **صحيح البخاري** مثلا، نجده يتكون من 97 كتابا مقسما إلى 3450 بابا، ويحتوي على ما مجموعه 7397 من الأحاديث النبوية لكل منها إسنادها الكامل[33].

ولن يتأتى النسخ الجيد لكتاب **صحيح البخاري** إلا بالعمل الجاد المضني. وتفاديا للوقوع في الأخطاء، يجب على ناسخ هذا الكتاب التسلح باليقظة الكاملة والحذر الشديد وكذا امتلاك المهارة الكافية حتى يخرج النص في لونين أو ثلاثة ألوان

---

(30) لا توجد في كتاب كنيث براون (Kenneth Brown, People of Salé)، أية إشارة إلى أن النساخ كانوا يشكلون مجموعة متميزة. وهذا صحيح لأنها ليست مهنة يخصص لها صاحبها كل وقته، ماعدا في حالة الكتاب الناسخين المشتغلين في القصر السلطاني.

(31) الطاهري، تحفة الإخوان بمناقب شرفاء وزان. يحتوي هذا الكتاب على معلومات غزيرة عن الأنشطة التي كان يزاولها شرفاء وزان والخدمات التي كانوا يسدونها، إلى جانب معلومات أخرى عن أتباع الزاوية والأعمال التي كانوا يقومون بها لفائدة الزاوية...

(32) البلغيثي، المرجع السابق، ص. 230–246–257.

(33) G. Robson, «al-Bukhari», Encyclopædia of Islam, n.e, vol. 1, pp. 1296-1297

أو في أحجام مختلفة، فيستطيع القارئ بذلك التعرف على الاستشهادات ذات الشكل المتماسك، وعلى عناوين الفصول الكبرى والصغرى التي يجب أن تبدو أبرز حجما من بقية محتويات النص. وعلى الرغم من أنه لم يكن من المطلوب تنميق الكتب وزخرفتها خاصة صفحاتها الأولى والأخيرة، فإننا قد نجد بعض الخطاطين المهرة، أمثال الرفاعي، يضيفون تلك الزخارف في مقدمة الكتب وخواتمها تعبيرا عن إجلالهم لقدسية النص، أو إرضاء لذوي المكانة الذين كان يشتغل لفائدتهم. وعليه، يمكن فهم الأسباب التي أدت إلى انخفاض عطاءات الرفاعي من حيث حجمها، والتي تتمثل في الطول الذي يتميز به مجموع **صحيح البخاري**، وفي ما يفرضه نسخه على الكاتب من استثمار لكل طاقاته وقدراته.

ومن النساخ الذين كانوا يتحكمون في ناصية الصنعة على شاكلة الرفاعي وتميز إنتاجهم أيضا بالقلة، نذكر أسماء عديدة مثل الزهراوي (1801) الذي نسخ كتاب **الرحلة** للعياشي، والبقال (1814)، والسفياني (1838)، والبصري (1856)، والغزاوي (1860)، الذين يعتقد أنهم وضعوا جميعا نسخا لكتاب **المختصر** وللشروح التي وضعها الخرشي على الكتاب نفسه. كما أنهم حرروا نسخا من كتاب **صحيح البخاري** لفائدة مختلف الأعيان وموظفي المخزن أمثال العلوي المدغري كبير القضاة بمكناس، ومحمد السلوي أحد وزراء المولى سليمان، وأيضا لأفراد من الأسرة السلطانية كعبد الله وأخيه عبد القادر بن هشام[34].

ويمثل النوع الثاني نموذجا لكتاب ونساخين كانوا في خدمة فئات أكثر ثراء في المجتمع المغربي، ولهم مهارة فنية أرقى درجات عما هو معروف لدى كتاب أمثال الرفاعي. ونسوق في هذا الإطار نموذجا نادرا هو القندوسي الذي نسب إليه وضع سبع نسخ لكتاب الجزولي **دلائل الخيرات** بصفته مؤلفا يحظى بشعبية واسعة، بالإضافة إلى بضع نسخ من **القرآن** الكريم. ولا تدع النماذج التي قدمها الخطيبي في كتابه سابق الذكر[35]، على شكل صفحات خطية من أعمال القندوسي، لا تدع أدنى شك في أن الرجل لم يكن يهدف فقط إلى ممارسة الكتابة أو النساخة وفقا للقواعد الدينية، بل كان يرغب في تجاوز ذلك إلى إنتاج أعمال فنية من خلال اتخاذه فن الخط وسيلة للإنجاز. ذلك بأن كل صفحة من صفحات **دلائل الخيرات** التي

(34) المنوني، المرجع السابق.

(35) al-Khatibi, op. cit, pp. 145, 151, 154, 156

نسخها القندوسي لا تتضمن أزيد من ثلاثة أسطر أو أربعة، كما لا يتجاوز عدد الكلمات ثلاثا أو أربعا في كل سطر مكتوبة بخط أزرق اللون على خلفية صفراء.

ومن الأمور الأكثر إثارة في عصر المخطوطات في المغرب، هو أنه بالرغم من عدم وجود مدارس مختصة في تكوين الخطاطين، فإن البيئة العامة قد ساعدت الخطاطين المنفردين[36]، أمثال القندوسي، على صقل مواهبهم وتعلم فن الخط عن طريق التقليد والمحاكاة. وكان الخطاطون والنساخون ينجزون مثل تلك الأعمال تعبيرا عن تعلقهم الشديد بنصوص دينية مماثلة لكتاب **دلائل الخيرات** الذي يحتوي على أدعية وقصائد دينية واسعة الانتشار في أوساط المتصوفين، أو تحقيقا لمكسب مادي، أو من أجلهما معا.

ولا توجد أي قرينة واضحة تثبت اشتغال القندوسي لحساب شخص ما أو جهة معينة. غير أن النسخ العديدة التي وضعها لكتاب **دلائل الخيرات**، والتي لا توجد نماذج منها حاليا إلا في الخزانة الحسنية في الرباط، توحي بأن ست نسخ على الأقل من أصل سبع قد أنجزها استجابة لطلبات قلة من الزبناء القادرين على أداء التكلفة المرتفعة التي تسمح لهم بالحصول على نسخ رفيعة الجودة. كذلك من المحتمل جدا أن تكون شعبية **دلائل الخيرات** الكبيرة هي التي دفعت القندوسي إلى وضع تلك النسخ العالية الجودة والشديدة التميز لفائدة أفراد الأسرة السلطانية، لأن درجة إتقانه لعمله الفني تتماشى مع مقامهم المتميز ومكانتهم السامية[37].

أما النموذج الثالث فيمثله المعطي التادلي (1846؟) الذي يمكن اعتباره مرآة تعكس الجانب الشعبي في صناعة الكتاب. فهو من الكتاب والنساخ الذين وهبوا حياتهم وأفنوا فصولها في حب مهنتهم التي كانت في الوقت نفسه مصدر عيشهم الوحيد. وينحدر التادلي كما يوحي بذلك اسمه، من منطقة تادلة الموطن التاريخي لزاوية رفيعة الشأن في المغرب هي الزاوية الدلائية. وكانت هذه الزاوية مركزا دينيا ذا إشعاع

(36) الرفاعي، المرجع السابق، ص. 30. يشير الرفاعي إلى أن الأسباب التي جعلته يؤلف كتابه حول الخط هي الغياب الكلي لفن القلم بالمغرب.

(37) المنوني، «تاريخ المصحف الشريف في المغرب»، **مجلة معهد المخطوطات**، المجلد 15، المجموعة 1، ماي 1969، ص. 37. يشير فيه المنوني إلى أن القندوسي نسخ ربع القرآن لفائدة إدريس العمراوي في إثني عشر جزءاً. وتوجد هذه الأخيرة في المكتبة الزيدانية بمكناس. وتجدر الإشارة إلى أن آل ابن زيدان بمكناس ينتمون إلى الأسرة العلوية الحاكمة في المغرب.

خاص في القرن السابع عشر، كما كانت تحتضن بين جدرانها أكبر خزانة للمخطوطات الأندلسية وأغناها في المغرب. ويعود ذلك، جزئيا، إلى الفترة الذهبية التي سبق للزاوية أن عرفتها حين برزت خلال مدة قصيرة كإمارة لها وزنها تحت قيادة رجال التصوف الدلائيين الذين نجحوا في تطوير مكانة الزاوية ونفوذها، وكذا في توسيع نطاق أنشطتها لتصبح مركزا تعليميا وثقافيا على مستوى عال من الأهمية. ويعود ذلك أيضا إلى كون منطقة تادلة مجالا يتوفر على إمكانات زراعية هامة، جعلها تستهوي العديد من الأسر الأندلسية إلى الاستقرار فيها، وربما وهبت عناصر من تلك الأسر ما في حوزتها من الكتب إلى خزانة الزاوية حتى يمكن لعموم الناس استعمالها والاستفادة منها[38].

ويعتقد ـ اعتمادا على ما جاء عند المنوني ـ أن التادلي نسخ ما مجموعه ألف نسخة ما بين كتاب **دلائل الخيرات** للجزولي **والقرآن** الكريم[39]. وإذا سلمنا بقضاء التادلي ما بين ثلاثين وأربعين سنة في نسخ الكتب، أمكننا أيضا التسليم بأن معدل إنتاجه السنوي قد بلغ مستوى يتراوح ما بين خمسة وعشرين وثلاثين مجلدا. ويبدو أن هذا التقدير منطقي، خاصة إذا كان مصدر العروض التي كان يتلقاها هو عامة الناس أساسا، لكونهم يستعملون مثل تلك النصوص استعمالا مكثفا وواسعا ثم يتخلصون منها وفقا للعادات الإسلامية بدفنها أو حرقها[40]. ونتيجة لهذا التقليد الشائع، لا داعي إلى الاستغراب أمام اندثار أغلب منتسخات التادلي[41]. وهكذا إذا كان القندوسي يمثل نموذجا فريدا من حيث الموهبة والعمل المحكم الإتقان، فإن التادلي كان بدوره نموذجا نادرا من حيث إنتاجيته العالية. وكان المعين الدسولي أقرب النساخ من حيث مستوى نسبة الإنتاج إلى الوسط، إذ يعتقد أنه وضع مائتي نسخة من كتاب **شرح التحفة** لإبن عاصم، الذي كانت نصوصه تستعمل على نطاق واسع في تدريس الفقه[42]. ويستخلص من هذا أن الكتاب والنساخ في المغرب كانوا من التنظيم بحيث يمكنهم تلبية حاجيات المجتمع المتنوعة، سواء إلى الكتب التعليمية والتربوية أم إلى الكتب الدينية والفنية. ويوحي التناقض الصارخ بين مستويات إنتاج

(38) محمد حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 71.
(39) المنوني، «الوراقة العلوية»، **دعوة الحق**، المجلد 25، العدد 246، مارس 1985، ص. 133–151.
(40) أبو داود السجستاني، **كتاب المصاحف**، ص. 197.
(41) المنوني، **المرجع السابق**.
(42) **نفسه**، ص. 10.

الكتاب وصناعته، بأن المغاربة كانوا يحققون اكتفاءهم الذاتي في ميدان إنتاج الكتاب، كما يتضح أنهم تمكنوا من تلبية حاجياتهم الأساسية تلبية جيدة. ويتضح أيضا، أن أكثر المستفيدين من إنتاج الكتب ينحصر في الفئات العليا من الهرم الاجتماعي، كأفراد الأسرة السلطانية والعلماء، ومقدمي الأضرحة والزوايا. وقد كانت هذه الفئات تمثل المستهلك الرئيسي للنصوص الفقهية والتربوية والفنية، بينما انحصرت الأدبيات الموجهة إلى عامة الناس في النصوص الدينية، ومنها **القرآن** الكريم وكتاب **دلائل الخيرات**، فضلا عن **مختصر** الشيخ خليل ومؤلفات أخرى.

لقد مكننا الفحص الدقيق لأنشطة الكتاب الناسخين ولنظام إنتاج الكتاب وصناعته في المغرب خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، من الكشف على أن المبادىء الإسلامية الأولى الموروثة عن فترة الرسول والخلفاء الراشدين، بالإضافة إلى مبادىء المذهب المالكي، هي التي حددت الطريقة التي أصبح من الواجب اتباعها لوضع الكتب وإنتاجها. كما مكنتنا من التعرف على هوية المسؤولين عن حماية المعرفة وصيانتها، وكذا الساهرين على نشرها وتطويرها في البلاد، ونعني بهم السلاطين والعلماء والأعيان. وبناء على ذلك، ليس من المثير للاستغراب أن يكون قطاع الكتاب في العصر الذي سادت فيه الكتابة الخطية بالمغرب، سوقا موجهة لخدمة طبقات معينة. خاصة، إذا أعدنا إلى الأذهان أن المواطن الأساسية للمعرفة وأدبياتها كانت هي المراكز الثقافية الكبرى، التي كانت تشكل في الوقت نفسه مقام العناصر المنتمية إلى المجموعات الثلاثة سابقة الذكر، ومجالها الملائم الذي تباشر فيه مختلف نشاطاتها وأعمالها.

ويؤكد لنا هذا الواقع حقيقة أساسية مفادها أن المغرب لم يكن في حاجة ملحة إلى تكنولوجية الطباعة، وأن دخولها إلى أرجائه خلال سنة 1864 كان مجرد صدفة وأمرا عرضيا ليس غير، لأن الطباعة تعني في عمقها إحداث التغيير، وتتطلب بالضرورة تطوير سوق الكتاب من شكله الموجه إلى خدمة فئة ضيقة، والانطلاق نحو تنفيذ واسع النطاق لعمليات تستهدف في نهاية المطاف إقامة شبكة من المنافذ تمكن من ممارسة عمليات التوزيع والإشهار. وأبرز الجوانب التي تتميز بها الطباعة مبدئيا هي إتاحة الفرصة لتحقيق إنتاج مكثف للكتاب. كما تمكن تكنولوجية الطباعة مستعمليها من القدرة على إنتاج المئات العديدة من النسخ المماثلة لنفس النصوص والكتابات. ويعني ذلك أن ما كان يعتبر في الأمس القريب سلعة نادرة، سيصبح في

متناول أكبر عدد من الناس. كما أن العلوم والمعارف التي كانت فيما سبق خاضعة بمختلف أنواعها لمراقبة فئة قليلة من الأشخاص واحتكارهم، ستكون رهن إشارة أكبر عدد من الأفراد. ومن شأن ذلك التحول الكبير أن يؤدي إلى التقليل من قوة هذه المجموعات ويحد من شوكتها. إن مثل هذه الحيثيات وهاته الأفكار كانت تجول، دونما شك، في خواطر صانعي القرار في المغرب، وجعلتهم يترددون زمنا طويلا في التفكير في إدخال الطباعة إلى البلاد وفي تنفيذ ذلك.

لكن لا يزال هناك جانب آخر ذو أهمية كبيرة في عصر المخطوطات في المغرب لابد من دراسته، وهو المضمون الفكري للكتب المنتجة. وهو كفيل بتمكيننا من معرفة الاتجاهات الفكرية السائدة في المغرب قبل حلول الطباعة بالبلاد. كما سيفيدنا لا محالة وبشكل كبير في قياس مدى التأثير الذي يمكن أن يحدثه استعمال الطباعة على تلك الاتجاهات الفكرية السائدة.

الفصل الثاني

الأنشطة الفكرية في المغرب
قبل حلول عصر الطباعة

الفصل الثاني

الأنشطة الفكرية في المغرب قبل حلول عصر الطباعة

يتضح من الجرد العام لمواضيع المؤلفات المنتجة ما بين سنتي 1800 و1865، أن هناك سلسلة طويلة من القضايا، يبدو أنها شغلت بال حوالي التسعين ناسخا الذين مارسوا نساخة الكتب طوال تلك المدة، سواء أكان ذلك لحسابهم الخاص أم كان عن طريق المؤاجرة لفائدة بعض الزبناء[1]. ومن بين تلك المواضيع أدبيات الحديث والفقه وعلوم الشريعة والتصوف والشعر، بالإضافة إلى أعمال علمية قليلة في مادتي الحساب والهندسة[2]. ويبدو أن غالبية الكتب التي نُسخت كانت

(1) محمد المنوني، «الوراقة العلوية»، دعوة الحق، العدد 246، مارس، 1985، ص. 133-151. قدم فيها المنوني لائحة بها 124 ناسخا يمارسون نشاطهم ما بين 1790 و1861. وقد قلصت هذا العدد إلى 90 فقط لأنني اقتصرت في التغطية الزمنية على الفترة الممتدة ما بين 1800 و1861. واخترت هذه الفترة لأنها تتناسب مع دراستنا التي تغطي أساسا مرحلة القرن التاسع عشر.

(2) تحتوي المخطوطات التي نسخت خلال هذه المرحلة على نصوص تتعلق بأدب الرحلات مثل **رحلة العياشي** (نسخت في 1801)، وعلى نصوص طبية من بينها **تكملة التذكرة** للأنطاكي (نسخت في 1806)، ومؤلفات أدبية أو شعرية مثل **ديوان الحوات** (نسخ في 1820) **وديوان الهلالي** (نسخ في 1822) على يد السلطان المولى سليمان، بالإضافة إلى **كمامات الزهر** لابن عبدون (نسخ في 1856)، **والمسلك السهل** للمفرني (نسخ في 1820). وتوجد أيضا كتب تاريخية من بينها **مقدمة ابن خلدون** (نسخت في 1830)، **ونشر المثاني** للقادري (نسخ في 1813)، **وريحانة الكتاب** لابن الخطيب (نسخت في 1831). انظر المنوني، المرجع نفسه.

تتناول مواضيع في ميادين التصوف[3]، والفقه وعلوم الشريعة[4]، والحديث[5]. وعليه ستتركز مناقشاتنا أساسا على هذه الحقول المعرفية الثلاثة، لمعرفة الأسباب التي جعلت تلك المواضيع أو المجالات تحظى وتتثد بالشعبية في الأوساط المغربية.

أولا ـ أدبيات الحديث

يبدو أن الإقبال قد انصب في ميدان الحديث، انصبابا كبيرا، على نصوص **صحيح البخاري** وما يرتبط به من الشروح والحواشي[6]. ومن المعلوم أن هذا الكتاب من تأليف البخاري وهو أحد أبرز علماء الحديث في القرن العاشر الميلادي، ويتضمن في مجمله سيرة النبي محمد عليه السلام بما في ذلك أقواله وأحاديثه وأفعاله. ونظرا لأنه يعتبر ثاني أهم مصدر للتشريعات الإسلامية بعد **القرآن**، فقد اعتمد علماء المسلمين على محتوياته سواء في حقول دراساتهم، أم في كل ما يتعلق بالعبادات، أم في مختلف القضايا الشرعية المتعلقة بمختلف مجالات الحياة عبر كل أرجاء العالم الإسلامي[7]. غير أن الحالة في المغرب اختلفت عن ذلك وانفردت بكثير من الخصوصيات، وخاصة منذ حلول القرن السادس عشر الميلادي وما تلاه من قرون، حيث بدأ التعامل مع **صحيح البخاري** بطرق تكتسي معاني خاصة، وبأساليب لا تخلو من الإبداع جعلت المغرب ينفرد بها ضمن كل بلدان العالم الإسلامي.

---

(3) من بين كتب التصوف التي تم استنساخها نذكر : **الميزان** للشعراني (نسخ في 1806)، **الصلاة** لابن مشيش (نسخ في 1812)، **والنصيحة** لابن زروق (نسخت في 1840)، وكتاب **الحكم** لابن عطاء الله (نسخ في 1849)، **ودلائل الخيرات والبردة** للبوصيري (تم نسخهما في 1844).

(4) **القوانين الفقهية** لابن جزي (نسخ في 1813)، **شرح المختصر** لخليل بن إسحاق (نسخ في 1814، 1835، 1838، 1840، 1844، 1847، 1856، 1857، 1862)، **الموطأ** لمالك بن أنس (نسخ في 1818، 1845)، **وشرح التاودي لتحفة ابن عاصم** (نسخ في 1819).

(5) من بين كتب الحديث نُسخت المؤلفات التالية : **صحيح مسلم** (نسخ في 1816، 1833، 1860) ؛ **صحيح البخاري** (نسخ في 1817، 1825، 1833، ومرتين في 1844، ومرتين أيضا في 1851 إلا أن واحدة من بينها كانت مجرد مختصر) ؛ **الترغيب والترهيب** للمنذري (نسخ في 1813) ؛ **المنزع البديع** (نسخ في 1818) ؛ **الجامع الكبير** للسيوطي (نسخ في 1818) ؛ **شرح الصحيح** لابن سودة (نسخ في 1825) ؛ **حاشية على الجامع الصغير** للسيوطي (نسخ في 1831) ؛ **إرشاد الساري** للقسطلاني (نسخ في 1831) ؛ **منهج العمل** للمتقي الهندي (نسخ في 1844).

(6) **نفسه.**

(7) J. Robson, «al-Bukhari» in **Encyclopædia of Islam**, n.e, vol. 1, pp. 1296-1297.

يعتقد أن كتاب **صحيح البخاري** قد وصل إلى المغرب خلال القرن الحادي عشر الميلادي، على يد بعض المغاربة عند عودتهم من المشرق في أعقاب أدائهم فريضة الحج[8]. غير أن المغاربة لم يتميزوا عن غيرهم في طريقة استعمالهم كتاب **صحيح البخاري** إلا مع حلول عهد السعديين، وبخاصة أيام أحمد المنصور (1549–1603). وحسب النتائج التي توصل إليها الباحثان محمد حجي والكتاني، اللذان قاما بدراسة مستفيضة للمؤسسات الثقافية والدينية على عهد السعديين، فإن أحمد المنصور هو أول من أمر بتنظيم مجموعات القراء للقيام بقراءة فصول أو أبواب من **صحيح البخاري** على مسامع عموم الناس عند حلول الأزمات[9]. وقد لجأ إلى ذلك أملا في التخفيف من حدة التوتر بين عموم الناس من جهة، والتمهيد من جهة ثانية لتهييئهم وحثهم على الجهاد ضد أعداء الإسلام وخصومه، وخاصة البرتغاليين الذين كانوا يحتلون وقتئذ جهات عديدة من شمال المغرب. وشرع أحمد المنصور أيضا في إقامة سلسلة من الحفلات الشعبية بجهات مختلفة من البلاد كفاس ومراكش وتادلة وتامكَروت. وأثناء تلك الحفلات التي كان يستغرق انعقادها قرابة الثلاثين يوما، كان السلطان وولاته على الأقاليم يوجهون الدعوات إلى كبار العلماء لتقديم العروض والدروس في جوانب مختلفة من محتويات **صحيح البخاري** إلى عموم الناس. وكان السلطان يحرص على الحضور شخصيا رفقة أبرز رجالات الدولة عند اختتام تلك الاحتفالات ويغدق على المشاركين الصلات والمكافآت[10].

ومن المحتمل أن يكون انتصار أحمد المنصور على الجيوش البرتغالية الغازية استجابة لدعوات القراء وصلواتهم، من الأمور التي جعلت كتاب البخاري يتحول إلى ظاهرة قارة على المستوى الديني والاجتماعي والسياسي في المغرب. ومن الممكن أيضا أن يكون ذلك التحول نتيجة لما وجدوا في **صحيح البخاري** من إمكانات جعلت منه أداة فعالة لتمتين الروابط وتقويتها بين الساهرين على حكم البلاد من جهة وبين كل من الهيئات الدينية وأفراد الرعية من جهة ثانية. وتجدر الإشارة إلى أن جل سلاطين السعديين والعلويين قد اعترفوا بالفوائد الجمة التي يمكنهم تحقيقها باستغلالهم

(8) يوسف الكتاني، **مدرسة الإمام البخاري في المغرب**، الجزء 1، ص. 29–34.

(9) المرجع نفسه، الجزء 1، ص. 368–372 ؛ الجزء 2، 443–453 ؛ محمد حجي، **الحركات الفكرية في المغرب في عهد السعديين**، الجزء 1، ص. 123.

(10) نفسهما.

كتاب البخاري في علاقاتهم بالعلماء والرعية عموما[11]. إلا أنهم لم يصل بهم الأمر إلى حد تعويض **القرآن** الكريم بكتاب **صحيح البخاري**، كما فعل السلطان مولاي إسماعيل العلوي (توفي سنة 1727) الذي كان جيش العبيد في عهده، يقسم به[12].

بالنسبة للسلاطين، كانت الاحتفالات والمراسيم المقامة حول كتاب البخاري تعني بصريح العبارة الاعتراف العلني بسلطتهم وبمشروعيتهم كمنحدرين من سلالة الرسول وكورثة لحكمه. ومن الأمور التي كانت تساعد على مزيد من التوضيح لذلك الخطاب، نذكر في البداية محتويات **صحيح البخاري** في حد ذاتها، بحكم ما تتضمنه من أحاديث حول سيرة الرسول تتناول أفكاره وممارساته في الحياة اليومية، بالإضافة إلى قراءة نصوص شعرية ذات شعبية كبيرة مثل **البردة والهمزية** للبوصيري أو **دلائل الخيرات** للجزولي[13]. وتعتبر هذه النصوص في الأساس، سواء في أشكالها النثرية أم الشعرية، كتابات في مدح الرسول وأفراد أسرته، مع تعداد خصالهم الحميدة والمثالية على جميع المستويات، والواجب على كل المسلمين اتخاذها نموذجا يقتدى به.

علاوة على الجانب الرمزي لتلك الاحتفالات فإن لها تأثيراتها المباشرة على مستوى الواقع. ذلك بأن مختلف الهيئات من علماء وأعيان، بالإضافة إلى عدد محدود من أفراد الرعية، تكون مدعوة للحضور خلال شهر بكامله للمساهمة في إقامة تلك المراسيم. ولا تخفى الأهمية الخاصة للفوائد التي يمكن أن تحصل عليها السلطات الحاكمة بتجميعها لقادة تلك الهيئات تحت سقف واحد لمدة ثلاثين يوما، حيث تتاح الفرصة أمام الحكام للتعرف عليهم عن قرب، وتقديم الهبات والهدايا تكريما للعلماء أو الشعراء الذين كانت مساهمتهم فعالة جدا في إحياء تلك المناسبات[14].

خلال القرن التاسع عشر، تميز كل من السلطان المولى سليمان والمولى الحسن عن بقية السلاطين بتكثيفهما درجة تعاملهما مع كتاب البخاري، حيث انفرد المولى سليمان عن بقية السلاطين بالتحول إلى عالم حقيقي من أبرز المتخصصين في كتاب **صحيح البخاري** إلى أن أصبح قادرا على تدريسه وتلقينه إلى الطلبة الراغبين فيه. جاء

---

(11) يوسف الكتاني، المرجع السابق، ج 1، ص. 375-415.

(12) نفسه، ص. 380.

(13) حجي، المرجع السابق.

(14) نفسه؛ محمد حجي، الزاوية الدلائية، ص. 43-47.

عند ابن زيدان في كتابه **الدرر** بأن السلطان مولاي سليمان كان من بين المشاركين الرئيسيين في إحياء المراسيم التي كانت تقام لقراءة كتاب البخاري، في مجالسه الخاصة أو في الدروس التي كانت تقدم بشكل مفتوح في جامع القرويين بمدينة فاس[15]. أما السلطان المولى الحسن، فبالإضافة إلى مساهمته التقليدية في إحياء مراسيم الاحتفالات بكتاب البخاري رفقة العلماء وذوي النفوذ في البلاد، نجده يتميز عن غيره من السلاطين بحمل نسخة من نفس الكتاب بطريقة متميزة أثناء قيامه بالحركات داخل أرجاء البلاد، إذ كان يأمر بتخصيص فرس يُزين بشكل متميز ويُحمل على متنه كتاب البخاري فيسير بمحاذاة فرسه الخاص، رمزا لمشروعيته الدينية، وتذكيرا بذلك لمن يهمه الأمر بأصوله الشريفة أيضا[16].

ويعني **صحيح البخاري** للعلماء أشياء كثيرة ومختلفة. فبالإضافة إلى تدريسهم إياه لتلامذتهم وكتابتهم لشروح عليه، نجدهم أيضا يُلقون الدروس الخاصة في حضرة السلطان أو الدروس العمومية في بقية الأقاليم أمام عماله وعامة رعاياه بمناسبة إحياء تلك المراسيم. ويتعاقب العلماء في إلقاء عروضهم بوتيرة تجعلهم يقومون ـ قدر الإمكان ـ بتغطية شاملة لمختلف الجوانب المكونة لكتاب البخاري وتسمح لغالبية العلماء الحاضرين بالمساهمة. وكانت تلك فرصة ذهبية حقيقية لأولئك العلماء، يستطيعون فيها استعراض معرفتهم العميقة والواسعة، ويحققون بالتالي مزيدا من الشهرة، أملا في بلوغ مراتب عالية في سلك القضاء أو الفوز بحظوة إلقاء خطب الجمعة في أحد الجوامع العظيمة من الحواضر المغربية. ويخبرنا عبد الرحمن ابن زيدان بأن بعض سلاطين القرن التاسع عشر أمثال مولاي عبد الرحمن بن هشام (الذي توفي سنة 1859)، كانوا يتخذون مستشاريهم من العلماء الذين كان أغلبهم من ذوي الاختصاص في علوم الحديث[17].

ومن أبرز علماء القرن التاسع عشر المتخصصين بالدرجة الأولى في **صحيح البخاري**، نذكر أسماء علماء مشهورين أمثال حمدون بن الحاج (توفي سنة 1816) وعبد القادر بن شقرون (توفي سنة 1804) والطيب بن كيران (توفي سنة

(15) عبد الرحمان ابن زيدان، **الدرر الفاخرة**، ص. 74 ؛ يوسف الكتاني، **المرجع السابق**، الجزء 1 ص. 385–387.

(16) عبد الرحمن ابن زيدان، **الإتحاف**، الجزء 1، ص. 537.

(17) عبد الرحمن ابن زيدان، **الدرر الفاخرة**، ص. 79–80.

1812)[18]. وقس على ذلك علماء كانوا في الوقت نفسه منحدرين من أصل شريف[19] أمثال القادري والعراقي وغيرهم، والذين كانوا يجدون في المناسبات المقامة حول **صحيح البخاري** فرصة سانحة جدا تمكنهم من تجديد صلاتهم القديمة بالمخزن وموظفيه وبالعلماء الوافدين من مختلف جهات البلاد، أو من ربط علاقات جديدة مع تلك الأطراف نفسها إذا اقتضى الأمر ذلك.

أما عامة الرعية، فكان إحياء تلك المراسيم يعني لها التمكن من حضور احتفال بهيج لا يخلو من المتعة، وتقدم فيه وجبات الطعام شهرا كاملا بالمجان. كما أن كتاب البخاري غني بالجوانب والقضايا المتعلقة بقصة الخلق وحياة الأنبياء وأخبارهم، وبتفاصيل مثيرة حول الجنة ونعمها والنار وأنواع عذابها التي تنتظر الكفار والمشركين، وكلها من المواضيع التي كانت تستهوي عامة الناس فيستمتعون بالاستماع إليها من أفواه علماء المغرب الكبار. وفي الوقت الذي تكون فيه الاحتفالات على قدم وساق يغتنم عامة الناس الفرصة لمشاهدة مشاهير رجالات الزوايا وأقطاب الحركات الصوفية المفضلين لديهم والتملي بطلعتهم من قريب، وكذا بعض الأعيان الذين يساهمون كل يوم في تزويد المشاركين في الاحتفال بالطعام المختلف الألوان إكراما لهم وإجلالا لتلك المناسبة الغنية بأسمى المعاني وأبهى الصور[20]. وباختصار، فإن السبب في هذا التقدير العميم والإجلال العظيم لكتاب **صحيح البخاري**، باعتباره ثاني كتاب من حيث الأهمية والقدسية بعد **القرآن**، يتمثل في نفعه وفي الفوائد الكثيرة التي يعود بها على كل المغاربة، بمن فيهم الحكام والمسؤولون عن صناعة القرارات الحاسمة. ولذلك السبب أيضا، كان كتاب **صحيح البخاري** والشروح المتعلقة به، أكثر الكتب التي نالت من جميع النساخ اهتماما فاق اهتمامهم بمحتويات غيره من الكتب[21].

والسؤال المطروح هنا هو : هل كان كتاب **صحيح البخاري**، باعتباره أحد أبرز مظاهر الحياة الفكرية وخصوصياتها في المغرب خلال عصر المخطوط، سيتأثر أم لا بفعل النتائج المترتبة عن انتشار تكنولوجية الطباعة في البلاد ؟ وهناك سؤال

---

(18) نفسه، ص. 78.

(19) فوزي عبد الرزاق، **المطبوعات الحجرية في المغرب**، ص. 156، 161، 164 ؛ عبد الحفيظ الفاسي، **معجم الشيوخ**، الجزء 1، ص. 52–53، 90–91.

(20) محمد حجي، **المرجع السابق**.

(21) انظر الهامش رقم 5 أعلاه.

لا يخلو من أهمية هو : هل كان من الممكن أو من غير الممكن أن يصبح انتشار الكتب المطبوعة على نطاق واسع من العوامل التي ستؤدي إلى التنقيص من قيمة **صحيح البخاري** أو المس بقدسيته وخواصه الروحانية وبغيره من النصوص المقدسة بما فيها **القرآن** الكريم، لا سيما أن الطابعين والناشرين قد يعتبرون الكتب المقدسة سلعة كغيرها من السلع العادية المفروض عرضها للبيع في الأسواق بطريقة عادية ؟

ثانيا ــ الفقه الإسلامي

تأتي مادة الفقه في المرتبة الثانية من حيث المواضيع التي شملتها بها الكتب المنتجة في هذه الفترة. وكانت هذه الكتب ممثلة في كتاب **الموطأ** لمالك بن أنس، و**المختصر** للشيخ خليل بن إسحاق، بالإضافة إلى نصوص عديدة من بينها **شرح الخرشي** الطويل في ستة أجزاء على **المختصر**، و**التحفة** لابن عاصم في شؤون القضاء والعقود الشرعية. وهناك نصوص أخرى مثل كتاب **المدخل** لابن الحاج و**القوانين الفقهية** لابن جزي و**شرح المرشد** لميارة، وكلها ملخصات أو مختصرات للمبادئ الفقهية والدينية كما وردت في المذهب المالكي بوجه عام.

وباستثناء **مدونة** سحنون التي يبدو أنها قد حل محلها في الشعبية كتاب **المختصر** الذي يُعد من النصوص الأساسية في الفقه الإسلامي، لم يحدث أي تغيير منذ اختصر ابن خلدون الأعمال الرئيسية للمذهب المالكي وحدد أسلوبها في التعبير. ونعني بذلك أن الشروح والتعاليق والحواشي، ظلت على حالتها الأولى سواء في الشكل أم في المضمون[22]. كما أنه لم يحدث أي تغيير في اعتماد المغرب على العالم الخارجي من حيث النصوص المالكية. فنحن إذا استثنينا ميارة الفاسي، فإن كل الأعمال التي ألفها الشيخ خليل والخرشي وابن عاصم وابن جزي وابن الحاج العبدري[23] أيضا، على سبيل المثال، كتبت في مصر أو في الأندلس أيام الوجود الإسلامي فيها. وكما هو الشأن في الماضي، لم يكن المشكل الأساسي المطروح بحدة في مغرب القرن التاسع عشر هو أن يكون الإنسان تقدميا أو متفتحا على المستجدات، بل كان ــ على العكس من ذلك ــ هو ضرورة الحفاظ على الوفاء التام لكل المباديء القديمة، وعلى

(22) انظر ما سيأتي في الفصل السادس.

(23) ابن الحاج العبدري من مواليد فاس، نشأ وتلقى تعليمه الأولي بها ثم هاجر إلى مصر، وبها أكمل دراسته وكتب مؤلفه المشهور، **المدخل**. انظر عبد العزيز بن عبد الله، **معلمة الفقه المالكي**، ص. 63.

الأساليب التي تتماشى مع المذهب المالكي. ومن ثم كان لابد لكل أصناف المعرفة السائدة والطرق التربوية المعمول بها، من أن تكون موجهة في أساسها لخدمة هدف أسمى، ألا وهو البقاء في ظل التقليد والوفاء لكل ما هو موروث عن السلف.

ونقترح هنا القيام بدراسة لكتاب **المختصر** لمؤلفه الشيخ خليل، حتى يمكننا معرفة العوامل التي أدت إلى حلوله محل **المدونة**، وسنحاول في المستوى الثاني الكشف عن الدلالات والمعاني التي يكتسيها **المختصر** في نظر المغرب، خاصة في الأوساط التعليمية والتربوية لاعتبارها **المختصر** العمود الفقري الذي تقوم على أساسه كل الدراسات الإسلامية.

عندما ألف الشيخ خليل كتابه **المختصر**، قام بتلخيص كتاب **التهذيب** للبراذعي. مع العلم أن كتاب **التهذيب** ليس في حد ذاته إلا تلخيصا لكتاب **المدونة** ولمختلف المختصرات والشروح الأولى التي تمت حوله[24]. ويعني هذا أن **المختصر** تلخيص للتلخيص. لكن معرفة الشيخ خليل الواسعة والعميقة بمختلف الجوانب التي تهم أسس المذهب المالكي ومبادئه، واستغراقه مدة طويلة بلغت خمسا وعشرين سنة لإنجاز كتابه، جعلاه ينجح في تقديم كل الجوانب المكونة للمذهب المالكي تقديما مركزا[25].

وبمجرد وقوع كتاب **المختصر** بين أيدي العلماء وعموم الطلبة خلال القرن الرابع عشر، أصبح من أبرز نصوص المذهب المالكي أهمية في كل أرجاء العالم الإسلامي بما في ذلك المغرب. لقد أصبح **المختصر** ـ على حد تعبير أحمد البلغيثي ـ «عمدة المذهب» في المغرب[26]. وحين قام الهلالي، وهو من علماء المغرب وشعرائه خلال القرن الثامن عشر، بدراسة كتاب **المختصر** وتدقيق محتوياته، لاحظ أن المادة التي وضعها الشيخ خليل تتضمن إحالات على مائة ألف مسألة وفقا لأصولها الأولى[27]. ويقصد الهلالي بقوله هذا، أن الشيخ خليل حشر في مؤلفه الصغير كل المظاهر والجوانب المتعلقة بالحديث النبوي. وعلى الرغم من صغر حجم كتاب

(24) أحمد البلغيثي، **الابتهاج بنور السراج**، الجزء 1، ص. 149–150.
(25) المرجع نفسه، الجزء 1، ص. 151.
(26) نفسه، الجزء 1، ص. 150.
(27) نفسه، الجزء 1، ص. 151.

المختصر، إلى درجة تسهل معها عملية حفظه أو نسخه في وقت وجيز، فإن فهما حقيقيا وتطبيقا فعليا لمضامينه لا يتأتى للمرء إلا عن طريق التكوين الأكاديمي العميق، أو بمساعدة عالم متخصص في الموضوع، أو بالاطلاع على ما هو موجود من الشروح المفصلة للمذهب المالكي. ولذلك، فإن شعبية **المختصر** كانت في الواقع لصالح العلماء، ولفائدة كل الذين يتمتعون بإمكانية ولوج الخزانات الخاصة منها والعامة المتوفرة على الشروح والتعاليق المذكورة. وبناء على ذلك يمكن القول بأن شعبية **المختصر** في الأوساط التربوية والتعليمية لا تعود إلى كونه يسمح للإنسان المتوسط المعرفة بالاطلاع على القوانين والتشريعات الإسلامية في المغرب، وإنما تعود ـ بالعكس من ذلك ـ إلى تبني العلماء لكتاب **المختصر** واتخاذهم إياه المنهاج الدراسي الأساسي الذي يجب اعتماده لتكوين الطلاب حتى يصبحوا فقهاء أو علماء.

وحتى نتبين أهم الأسباب التي جعلت من هذا الكتاب أداة ضرورية لا يمكن للأوساط التعليمية الاستغناء عنها، فإنه من الضروري إمعان النظر في الطرق التي كان يدرس بها **المختصر** في المغرب خلال القرن التاسع عشر، كما أنه من الضروري معرفة الأمور التي كان على المتعلم أن يحيط بها حتى يفهم محتويات **المختصر**. يخبرنا أحمد البلغيثي، وهو من العناصر التي أنجبتها جامعة القرويين بفاس، ومن أبرز علمائها، بأن الطالب يشرع مباشرة بعد تعلمه للمبادىء الأساسية حول العقيدة والعبادات في حفظ **المختصر**. وتسهيلا لعملية الحفظ، يزود المدرسون تلامذتهم بنصائح عن أحسن الأوقات وأكثرها ملاءمة للحفظ، وعن نظام الأكل الأكثر فعالية والواجب اتباعه لتحقيق أسرع النتائج بأقل العناء[28]. ويحرص الطلبة خلال مرحلة التعلم على متابعة الدروس التي يلقيها عليهم الأساتذة إلقاء مفتوحا يقدمون في أثنائه شروحا وتأويلات لمحتويات **المختصر**، سطرا بعد آخر معتمدين أحيانا على الذاكرة وأحيانا أخرى على الشروح والحواشي التي تحيط بذلك الكتاب نفسه. وغالبا ما كان المجدون من الطلبة يحملون معهم ساعة إلقاء الدروس كنانيش أو كراسات يسجلون فيها مقتطفات من **المختصر** ويرفقونها بالتفسيرات التي يسمعونها من أساتذتهم. ونظرا لعدم وجود حد فاصل للقضايا التي يمكن تأويلها، ولا للمدة الزمنية التي يجب أن يستغرقها ذلك، كان المدرسون يتصرفون بكامل الحرية في استعمال الشروح التي يرونها ملائمة لدروسهم.

(28) المرجع نفسه، الجزء 1، ص. 149-150.

وكان كتاب الخرشي أكثر كتب الشروح شيوعا وأغلبها استعمالا بين العلماء والمدرسين على السواء[29]. غير أن القادرين على ولوج الخزانات العامة والخاصة كانوا يستعملون أيضا نماذج أخرى من الشروح ومن بينها شرح الحطاب والزرقاني. كما يبدو أن بعض المدرسين كانوا يستغرقون مدة طويلة لإنهاء دروسهم وشروحهم حول **المختصر**. إذ أورد ابن زيدان في كتابه **الدرر الفاخرة** قولة للسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام مفادها أن ما كان يتعلمه الطلبة من **المختصر** قليل بسبب الشروح الطويلة التي أبقت الطلبة في نفس مستوى الجهل الذي كانوا عليه قبل بداية مرحلة تعليمهم[30].

غير أن المشكل الأساسي الذي يطرحه كتاب **المختصر** لا ينحصر في الطرق التي كان يدرس بها أو يشرح، بل كان أيضا يكمن في طبيعة النص ذاته، حيث لم يكن يتطلب مجرد المعرفة العميقة باللغة العربية وقواعدها النحوية والبلاغية، بل كان في الوقت نفسه يستلزم الإحاطة بالفقه والحديث إلى جانب التمكن من قراءات **القرآن** السبع وفنون الشعر، والاطلاع على التاريخ وغيره من المعارف الضرورية لشرحه وفقا لأسس المذهب المالكي ومبادئه. فإذا حاول أحد العلماء، مثلا أن يشرح **المختصر** وفقا للنهج الذي تنهجه مدرسة البصرة في النحو، بتطبيقها لاتجاه المفكرين المعتزلة، وذلك بوضع المنطق فوق البنية النحوية **للقرآن** وقراءاته المتنوعة، فإن مثل ذلك التأويل سيكون مصيره الرفض لكونه بدعة خارجة عن المبادىء التقليدية التي تنظر إلى القواعد النحوية كما وردت به في **القرآن** وتعتبر القراءات القرآنية منزلة. ولذلك، لا غرو في وجود كتب في النحو مثل كتاب **الأجرومية** لابن أجروم، و**الألفية** لابن مالك اللذين يعتبران أبرز النماذج الموظفة لمساندة ذلك الاتجاه المالكي[31]. كما لا غرو في

(29) من بين الشروح العامة التي تم وضعها خلال القرن التاسع عشر حول **المختصر**، كان كتاب الخرشي **شرح على مختصر خليل** أكثر النصوص تفضيلا واستعمالا نظرا لكونه معتمدا من طرف المدرسين بجامع القرويين.

(30) انظر الصفحات 79–80. ويضيف السلطان أن المدرسين يستغرقون عشر سنوات لختم تدريسهم لنصوص **المختصر**.

(31) **المرجع نفسه**. يشير السلطان المولى عبد الرحمن إلى أن دراسة **الألفية** في المغرب تستغرق سنتين. ويبدو لي أن هذه المدة الزمنية قصيرة لأنني قضيت شخصيا أربع سنوات لدراسة **الألفية** في كلية الشريعة بجامعة بغداد. مع الإشارة إلى أن كتب النحو التي نذكرها فيما يلي كانت تنسخ يدويا في مغرب القرن التاسع عشر : **المساعد على تسهيل الفوائد** لابن عقيل وهو شرح لـ**ألفية ابن مالك** (تم نسخه في 1830)، **شرح الألفية** لابن مالك (نسخت في 1851)، **حاشية على مغني اللبيب** لابن هشام (نسخ في 1851) وهو أيضا من الشروح المعروفة في النحو حول **الألفية**.

غياب كتب النحو الأخرى والفلسفة والنصوص الفكرية ذات الطابع النقدي غيابا مطلقا. ولا غرو كذلك في غياب مواد أخرى كالعقيدة التي لا نجد عنها سوى نصوص قليلة مثل **السنوسية** للسنوسي، **والمرشد المعين** لابن عاشر، **والرسالة** للقيرواني، **وشرح بناني على السلم** للأخضري، **والإحياء** للغزالي. وتظل هذه النصوص كلها وفية وفاء بينا لمبادىء المالكية وأسسها العقائدية فيما يتعلق بالإيمان بالله وصفاته تعالى التي منها كلامه الأزلي المُنَزّل الذي أوحى به في **القرآن** شكلا ونصاً[32].

وهذا كله لا يعني بالضرورة أن دراسة **المختصر** وحده والتركيز عليه عشر سنوات[33] تُفْضِي إلى التخلي عن بقية المواد الإسلامية. ذلك بأن الهدف الذي تصبو التربية الإسلامية إلى تحقيقه بالمغرب مماثل في الواقع لما هو ساري المفعول في غيره من البلدان الإسلامية، إذ يتعلق الأمر بتكوين الفقهاء والعلماء وإعدادهم لتحمل المسؤوليات والمهام المختلفة إما مدرسين وعلماء أو قضاة وعدولا وأئمة مساجد، وإما مرشدين لعامة الناس في مختلف القضايا المرتبطة بالحياة اليومية. وبعبارة أخرى فإن «العالم كالسوق يجد المشتري عنده كل شيء»[34]. ولذلك، يلاحظ أن العلماء المغاربة، كانوا خلال القرن التاسع عشر، على بينة من علوم إسلامية عديدة، كاللغة والشعر والنحو والطب والتاريخ وعلم الفلك وما إلى ذلك.

وهناك نقطة ذات دلالات هامة لابد من التأكيد عليها، وهي أن جل بقية النصوص المستعملة لتدعيم **المختصر** كانت منظومات شعرية. وتدخل في هذا الإطار كل الكتب التي سبق ذكرها في مواضيع النحو والفقه، بالإضافة إلى منظومات أخرى مثل **الرغائب** للقلصادي في مادة الحساب، لكنه كان يستعمل أساسا لتقسيم الإرث، **وعقد اليواقيت** للوزكاني في علم الفلك الذي كان يستعمل لضبط أوقات الصلوات وتحديد تواريخ الأعياد الدينية[35]. ومعنى هذا أن الغاية الأساسية من تعلم

(32) نسخ كتاب **الإحياء** للغزالي في 1813، وشرح بناني في 1833 ؛ في حين لم ينسخ كتاب السنوسي إلا في سنة 1858.

(33) ابن زيدان، **المرجع السابق**.

(34) البلغيثي، **المرجع السابق**، الجزء 2، ص. 124–125، 193–194.

(35) كانت تلك التخصصات مجموعة ضمن مجلد واحد يسمى (**مجموع**)، والهدف من ذلك هو تسهيل عملية الحفظ من جهة، وتسهيل الوصول إلى نوع التخصص الذي ينشده القارئ من جهة ثانية، ونذكر من بينها : **الصغرى** للسنوسي، **المرشد المعين** لابن عاشر، **تحفة الحكام** لابن عاصم، **لامية الزقاق**، **العمل**

الحساب أو الفلك، هو تسهيل أمور الدين في الدنيا. وذلك ما يوحي بأن طريقة الحفظ والاستظهار كانت جزءاً لا يتجزأ من عملية تعليم **المختصر** وبقية الكتب التي كانت تدعمه. وفي الوقت نفسه، كان انتشار عملية الحفظ في الميدان التعليمي مؤشرا إضافيا لسيطرة العلماء على النظام التربوي والقضائي. وكما كان **صحيح البخاري** ذا فائدة عظمى لسلاطين المغرب وعلمائه على المستوى الديني والسياسي والاجتماعي ــ إذ مكنهم من خلق روابط قوية بين الدولة والعلماء من جهة وبين العلماء والرعية من جهة ثانية ــ كذلك كان **مختصر** الشيخ خليل ذا فائدة عظمى، إذ شكل أداة رابطة بين العلماء والطلبة داخل النظام التعليمي القائم. ومن المفيد هنا طرح سؤالين سنتذكرهما في المستقبل : أولهما، ما الذي يمكن أن يحدثه استعمال الطباعة في المغرب على تلك العلاقة المشار إليها أعلاه ؟ وثانيهما، إلى أي حد يمكن انتشار الكتب المطبوعة أن يساهم، بشكل أو بآخر، في إحداث تغيير في الطريقة الشفوية التي كانت سائدة آنذاك في ميدان التعليم ؟

ثالثا ــ التصوف

احتل التصوف المرتبة الثالثة ضمن المواضيع التي غطتها مؤلفات تلك المرحلة، وقد وصفه الكاتب أحمد الرفاعي بأنه علم الحقائق والأسرار[36]. ولإدراك الأسباب الحقيقية التي جعلت التصوف يحظى بشعبية كبيرة كموضوع للعديد من الكتب في المغرب، فإنه من الضروري البحث في كل الجوانب المتعلقة بمؤسسة الزوايا، مكانتها وزعاماتها وأتباعها ومستوى نفوذها الروحي.

بناء على ما هو وارد في تاريخ الإسلام وفي الروايات المتعددة الموجودة عن حياة كبار أعلام التصوف وأقطابه، أمثال رابعة العدوية (توفيت سنة 801) والجنيد (توفي سنة 920) وعبد القادر الجيلاني (توفي سنة 1166) وابن عطاء الله (توفي سنة 1309) وغيرهم[37]، يبدو أن هناك إجماعا على وجود سبيلين يمكن الوصول بهما إلى

المطلق لعبد الرحمان الفاسي، **العمل الفاسي** له أيضا، **منظومة الزكاة** للزياني، **السملالية في الفرائض** لابن أبي يحيى، **نظم** للرسموكي، **تحفة المحتاج** للمرغيتي، **أرجوزة في أقسام العدة** للهبطي، **الهمزية والبردة** للبوصيري، **الأجرومية** لابن أجروم، **الألفية ولامية الأفعال** لابن مالك، **نظم الجمل** للمجرادي، الخ. وانظر لمزيد من العناوين : فوزي عبد الرزاق : **المطبوعات الحجرية في المغرب**، ص. 82ــ84.

(36) انظر الاستعارة الطويلة من كلام الرفاعي في الفصل الأول من هذا الكتاب، ص. 34ــ36.

(37) عبد الرحمن السلمي، **طبقات التصوف**. وهو قاموس خاص برواد التصوف في الإسلام.

الله تعالى. السبيل الأول، هو المعرفة العميقة لأصول الشريعة الإسلامية، وتطبيق مبادئها وفقا لما هو معروف لدى أصحاب المذاهب الأربعة وغيرهم. والسبيل الثاني، هو العبودية، ومعناها التفرغ التام للعبادات وممارسة مختلف الأعمال الروحية، ثم الزهد وحرمان النفس من مختلف أنواع اللذات الدنيوية والمادية. وكان المتصوفة يحملون، عند بلوغهم درجة الكمال، ألقابا معينة منها الشيخ والقطب. كما يعتبرهم بعض الناس أولياء لله تعالى[38]. ولا يعترف للمتصوف بصفة الولي، إلا إذا اعتقد الناس في قدرته على التوسط بينهم وبين الله تعالى. ويعني ذلك أيضا قدرة الأولياء على تحقيق بعض الكرامات، من بينها التنبؤ بالمستقبل وتأويل ما يجول في خواطر الناس وما تكنه صدورهم، وكذا قدرتهم على معالجة المرضى وحماية صحة العباد ومخاطبة الجن الوارد ذكرهم في كثير من الآيات القرآنية وفي غيرها من الأدبيات الإسلامية[39].

وتجدر الإشارة إلى أن اجتراح بعض الخوارق كان يوصف بأنه كرامة وليس بالمعجزة، لأن العناصر المستهدفة بها هم المسلمون الذين يريد الله تعالى الإنعام عليهم بكرمه وفضله عن طريق القطب أو الولي. في حين أن المستهدفين بالمعجزة هم غير المسلمين الذين يريد الله أن يهديهم إلى الإيمان بالعقيدة عن طريق أنبيائه ورسله. وعليه فإن الشيخ أو القطب ليس نبيا ولا رسولا، بقدر ما هو مجرد إنسان استطاع قضاء معظم وقته منعزلا في العبادة والتأمل في ملكوت الله، فتظهر كراماته نتيجة لذلك. والكرامة غالبا ما تظل في طي الكتمان إلى أن يكشفها تلامذة الولي أو مريدوه، فتشهر وتذاع بين عامة الناس[40]. وهناك نقطة أخرى لابد من التعرض لها، وهي أن الكرامة من أكبر مواضيع الخلاف الكبرى في الإسلام بين الفقهاء والمتصوفة خلال العصر الوسيط. فقد كان الفقهاء أو العلماء من مختلف مذاهب الفقه الإسلامي، يهيمنون هيمنة واضحة على النظام القضائي والتعليمي، ويسمحون لأنفسهم بالانفراد فيه بالأدوار الرئيسية[41]. غير أنه مع انهيار الإمبراطورية العباسية وتجزئتها إلى إمارات ودويلات صغيرة، انساق المسلمون بشكل تدريجي ومنذ القرن

(38) Thomas P. **A Dictionary of Islam**, pp 531, 663

(39) حمدون محمد الطاهري، **تحفة الإخوان بشرفاء وزان**، ص. 39، 97، 106، 130، 135، 141، 199.

(40) على سبيل المثال، نجد أن حمدون الطاهري مؤلف **تحفة الإخوان**، وهو كتاب يتضمن مختلف الكرامات المنسوبة إلى شرفاء وزان، قد جمع أخباره من عند مقدمي الزاوية الوزانية بفاس.

(41) محمد المكناسي، **الكوكب الأسعد**، ص. 5.

الثالث عشر، نحو الروحانيات والتصوف. ونتيجة لذلك، تحول معظم العلماء في العالم الإسلامي إلى متصوفة أو أصبحت لديهم ميول قوية نحو التصوف والتصديق بالكرامات[42].

لم يكن العلماء، في مغرب القرن التاسع عشر، يختلفون كثيرا عن أمثالهم في جهات أخرى من العالم الإسلامي. فقد كان جلهم من رواد التصوف أو من المنتمين إلى إحدى الزوايا العديدة التي كانت تشكل المراكز الرئيسية للنشاط الروحي والاجتماعي في المغرب. غير أن هذا لا يعني في الوقت نفسه، أن كل المتصوفة في المغرب كانوا علماء أيضا، بل العكس : فإن تاريخ المغرب غني جدا برجال التصوف والصلحاء الذين كانوا أميين بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ويدخل في هذا الصدد نموذج الولي الصالح أبي يعزى الذائع الصيت، الذي حظيت كراماته بشعبية كبيرة في مختلف أرجاء البلاد[43].

ويذهب إبراهيم حركات الذي قام بدراسة للحركات الصوفية والزوايا في المغرب خلال القرنين السالفين إلى القول بوجود أزيد من عشر زوايا رئيسية لها فروع عديدة في مختلف جهات البلاد[44]. ومن بينها، الزاوية الكتانية والماعينية والوزانية والناصرية والدرقاوية والتيجانية والبنانية وطائفة عيساوة وغيرها. أسس عبد الكبير الكتاني الزاوية الكتانية ــ التي تحمل اسمه ــ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأسند إلى نجليه محمد وعبد الحي ــ وهما من خيرة العلماء ــ مهمة الإشراف على تسيير شؤونها. وأنشأ لها بالتدريج فروعا عديدة في كل من فاس والرباط وتطوان وغيرها من الحواضر المغربية[45].

وهناك ثلاثة أمور أساسية يمكن أن تتميز بها زاوية معينة عن غيرها من الزوايا :

---

(42) نفسه، وقد أشار فيه المكناسي إلى أن «معرفة علم الحقائق والأسرار دون شريعة هو زندقة، وأن معرفة الشريعة دون علم الحقائق والأسرار هو زندقة كذلك».

(43) يوسف ابن يحيى التادلي، **التشوف**. وهو كتاب تراجم لرجال التصوف في المغرب.

(44) إبراهيم حركات، **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب**، ص. 56ـ66.

(45) **المرجع نفسه**، وانظر أيضا عبد الحي الكتاني، **المظاهر السامية**. ونتوفر على نسخة كاملة مصورة لهذا المخطوط.

أولها، المكانة التي يحتلها مقدم الزاوية وزعيمها، من حيث الاعتراف له بالقدرة على إسداء الخدمات إلى عامة الناس، إما بصفة مباشرة ملموسة، وإما عن طريق الكرامات. ويدخل ضمن ذلك إطعامه للمساكين[46] والأتباع ـ الذين يشتغلون عادة لفائدة الزاوية[47] ـ وحمايتهم من الكوارث والمصائب وإشفاء المرضى[48]، بالإضافة إلى خدمات أخرى كالمساهمة في التدريس ونسخ الكتب، وما إلى ذلك من الخدمات[49]. وكان مشاهير الزعماء الصوفيين، في مغرب القرن التاسع عشر، مثل الشيخ ماء العينين والكتانيين وشرفاء وزان هم الذين استفادوا جميعا من تكنولوجية الطباعة وساعدوا على انتشارها بطرق لها دلالاتها المختلفة.

ثانيا، أسلوب التعبد الذي تسلكه الزاوية، إما أن يكون بسيطا ويعتمد فيه على بضع آيات من **القرآن** الكريم، أو على بعض الصفحات أو بعض الأسطر من النصوص الدينية الأخرى، كما هو حال كتاب **دلائل الخيرات**. وقد تعتمد زاوية أخرى على أسلوب ذي طقوس تعبدية أكثر تميزا، يمتزج فيه الذكر بالغناء والرقص كما هو معروف عند الطريقة الكتانية[50]. ويتبين من مختلف النصوص التي نشرت أو أعيد نشرها مرارا وتكرارا خلال هذه المرحلة، أن أكثر النصوص الصوفية شعبية إلى جانب **دلائل الخيرات**، هو **حزب البحر** للشاذلي وكتاب **الصلاة** لابن مشيش، ثم **البردة والهمزية** للإمام البوصيري. غير أن العديد من زعماء الزوايا والطرق الصوفية حرصوا على كتابة أوراد وأحزاب خاصة بهم، سعيا في تحقيق المزيد من التميز عن غيرهم من الحركات الصوفية.

ثالثا، المكان الذي توجد فيه الزاوية. فالزوايا الواقعة بالمراكز الثقافية الكبرى، كما هو شأن مدينة فاس بوجه الخصوص ومراكش والرباط وغيرها، يكون في مقدورها استقطاب أعضاء من بين ذوي الثروة والمال، ككبار التجار والحرفيين وغيرهم. هذا في حين، تقتصر الزوايا الواقعة في المناطق النائية على استقطاب أتباع من بين الفلاحين وعامة الناس. كما تستفيد الزوايا المتمركزة بالحواضر الكبرى من فرصة

(46) الطاهري، **المرجع السابق**، ص. 68.
(47) **المرجع نفسه**، ص. 93.
(48) **المرجع نفسه**، ص. 106، 118.
(49) **المرجع نفسه**، ص. 140، 198.
(50) عبد الكبير الكتاني، **نجوم المهتدين**. وموضوع هذا الكتاب هو طريقة تعبد الكتانيين بما فيها من الأذكار وأشكال الرقص.

الاطلاع على الكتب، بل في وسعها أن تكون خزانات صغيرة خاصة بها، فيستغل زعماء الزاوية وأتباعهم محتوياتها من أجل ممارسة أنشطتهم التربوية والثقافية على اختلاف أنواعها.

ومن الجوانب التي تنطوي على دلالات ذات أهمية خاصة في إطار التنوع الموجود بين الطرق الصوفية وأدبياتها التعبدية، هو أنه على الرغم من كون العديد منها كالقادرية والكتانية وغيرها تنحدر من أصل شريف ولها بذلك قرابة دم مع الأسرة السلطانية العلوية، فإنها تشكل مصدرا رئيسيا للتنافس فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين المخزن من جهة ثانية، من أجل استقطاب الطلبة والأتباع. ويعني ذلك أن ميدان التصوف، على عكس غيره من الميادين كالفقه والحديث ـ اللذين يشكلان عنصرين موحدين لقوة المجتمع المغربي، بفضل وجود نصوص قارة مثل كتابي **المختصر وصحيح البخاري** ـ يترك الباب مفتوحا أمام إمكانيات التغيير. ولهذا السبب، كما سنرى في الفصول التالية، بدأت الطباعة تنتشر في المغرب حين شرع المخزن والطرق الصوفية في استعمال تكنولوجية الطباعة لإضفاء الطابع الشعبي على أيديولوجياتهم الدينية وعلى مختلف الأشكال التي كانوا يتصورون بها الإسلام.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول بأن النظام الفكري والتربوي في المغرب ظل وفيا للنماذج التي كانت سائدة في العصور الوسطى إلى حدود سنة 1864، تاريخ إدخال آلة الطباعة إلى البلاد. وحسبما هو معروف في علم الاجتماع فإن النموذج الوسطوي يكون فيه للدين الدور الأسمى، باعتباره المصدر الأساسي للمعرفة ولكل القيم الاجتماعية. ويؤكد الدين الإسلامي بصريح العبارة، أن **القرآن** الكريم كلمة الله الأزلية. وعلى أساس هذا الاعتقاد لم يجد المسلمون بدا من بناء نظامهم الثقافي والتربوي وكل قيمهم الاجتماعية حول **القرآن** الكريم.

وللنموذج الوسطوي خاصيتان إضافيتان لهما دلالاتهما الخاصة. أولاهما، أن الأفراد الذين كانوا يأخذون على عاتقهم مسؤولية تنظيم المجتمع هم شخصيات تتمتع بنوع من القداسة. والثانية، أن هؤلاء الأشخاص ـ نتيجة لمهمتهم التنظيمية ـ كانوا يُعتبرون أدوات نافعة وضرورية للدولة، لأنهم يضفون صبغة المشروعية على سلطتها. وانطلاقا مما هو وارد عند المعتزلة، يمكن الاعتقاد في إمكانية تنمية نوع من الاتجاه العقلاني في التفكير داخل المجتمع الإسلامي، لو أن المعتزلة نجحوا في مواجهتهم لأهل

الحديث الذين يمكن نعتهم بالتقليديين. لكن النصر حالف العناصر التقليدية منذ القرن الثالث عشر، فكان مصير الاتجاه العقلاني هو التهميش. ونتيجة لذلك انساقت جل الطاقات الفكرية نحو التقليد واقتصرت على محاولة الحفاظ على المعرفة الدينية من خلال نماذج تعبيرية معينة، مثل الشروح والحواشي وغيرها. وترتب عن ذلك كله ضمان استمرارية المعتقدات التقليدية، بالإضافة إلى الحفاظ على الوضع القائم وعلى امتيازات كل الساهرين عليه من قادة ومربين وقضاة وعلماء وكتاب، وكذلك الصلحاء الذين كان يعتقد في قدرتهم على مخاطبة الجن وإشفاء المرضى وجلب الخير للمؤمنين وحمايتهم من مختلف الشرور.

ومن الأمور ذات الأهمية القصوى في موضوع التصوف في المغرب، هو أنه على الرغم من تأكيد مختلف أقطابه وإصرارهم على اعتبار أنفسهم في منزلة واحدة مع السلاطين الأدارسة أو العلويين، وأنهم ينحدرون أيضا من أصل شريف، فإنه لا يوجد لديهم عنصر كتابي موحد كما كان شأن كتابي **صحيح البخاري والمختصر**، اللذين يشكلان رمزين حقيقين للرابطة المتينة بين السلاطين والعلماء من جهة، وبين العلماء وتلامذتهم من جهة ثانية. بل على العكس من ذلك، نجد المتصوفة يستعملون نصوصا متعددة ومتباينة المضامين، سواء بطريقة جماعية أو فردية في مختلف جهات البلاد. وتكمن أسباب غياب ذلك الرمز أو تلك الأداة الموحدة في التنافس القوي بين مختلف الطرق الصوفية من أجل استقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع، لتعزيز مشروعية الطريقة وتدعيم نفوذها. وفي إطار هذا التنافس الشديد انتشرت الطباعة، كما سنراه في الفصول الموالية من هذا الكتاب.

إذن، ما هي الظروف التي جعلت العناصر التي تمثل قوة المالكية في المغرب تغير مواقفها من أنظمتها التقليدية وتفضل تغيير الاتجاه نحو أنظمة جديدة ؟ وما هو الدور الذي قامت به تكنولوجية الطباعة في تحريك عملية الانتقال وتحويل الاتجاه نحو التحديث ؟ سوف نقوم في الفصول التالية بدراسة جذور هذا التغيير خلال القرن التاسع عشر وتحليلها هي ومختلف التحولات التي أدى استعمال الطباعة إلى إحداثها في المغرب ما بين 1865 و1912.

القسم الثاني

تاريخ الطباعة
في أوروبا والعالم الإسلامي

الفصل الثالث

اختراع الطباعة وانتشارها في العالم الإسلامي

الفصل الثالث

اختراع الطباعة وانتشارها في العالم الإسلامي

الطباعة هي «فن أو عملية نقل الحروف والرموز أو الرسوم عن طريق الضغط فوق الورق أو غيره من المساحات القابلة للطبع باستعمال مواد معينة كالحبر أو الصمغ الزيتي»[1]. ويعود تاريخ إنجاز عمل مطبوع إلى سنة 175 ميلادية على الأقل على يد الصينيين الذين كانوا قد توصلوا إلى اختراع الورق قبل ذلك التاريخ بحوالي خمس وسبعين سنة[2].

وإذا أطلق مصطلح «الطباعة» فإنه غالبا ما يراد به مختلف العمليات التي تفضي في الأخير إلى صناعة المنتوج في شكله النهائي. ويمكن التمييز بين ثلاث مراحل متباينة تماما، لكل منها خصائص وتقنيات خاصة بها هي : الطباعة التيبوغرافية، وتسمى أيضا بالمتحركة، وقد اخترعها الألماني غوتنبرغ (Gutenberg) في أربعينيات القرن الخامس عشر. ثم الطباعة الحجرية، وتسمى أيضا بالطباعة الكيميائية وهي أيضا من اختراع أحد الألمانيين وهو سونوفيلدَر (A. Senefelder) خلال التسعينيات من القرن الثامن عشر. وأخيرا الطباعة بالصفائح المعدنية التي يجهل اسم مخترعها[3].

وسوف نقصر الوصف والتحليل هنا على بعض الجوانب الخاصة بالطباعة التيبوغرافية والكيميائية وعملياتها التقنية. وسنطرح تساؤلات تتعلق بالأسباب التي جعلت الطباعة تكون ظاهرة أوربية، وبالمعنى الحقيقي الذي يعنيه إنشاء دار أو ورشة للطباعة. والأهم من ذلك هو الوصول إلى معرفة الملابسات التي رافقت تغلب البلدان الإسلامية، وخاصة الإمبراطورية العثمانية، على كل الحواجز الدينية والنفسية

---

(1) Charles Jacobi, «Printing», in **Encyclopædia Britanica** (11 ed), p. 350.

(2) James Moran, **Printing Presses**, p. 17.

(3) Jacobi, op. cit.

التي كانت تعترض الطباعة، وبالتالي فتحها الأبواب لدخولها إلى بقية بلدان العالم الإسلامي بما في ذلك المغرب. ونعتقد أنه كلما زادت معرفتنا بتكنولوجية الطباعة في أوربا، وخاصة بجوانبها التقنية وبالأسباب التي كانت وراء النجاح الذي حققته، وبمختلف طرق استعمالها وتدبير شؤونها، إلا وكانت لنا إمكانات كبيرة لقياسها بالتجربة المغربية.

أولا ـ اختراع الطباعة في أوربا

حين يقوم المرء بمحاولة لدراسة تاريخ الطباعة، يبدو له واضحا أن اختراع تكنولوجية الطباعة قد تحقق بعد سيرورة تطورية طويلة الأمد، كانت بدايتها في الصين ونهايتها في أوربا. وفي هذه القارة، أصبحت الطباعة تشكل جزءاً لا يتجزأ من بقية مكونات المجتمع الحديث، حيث تحولت إلى أداة تواصل يستحيل الاستغناء عن خدماتها. وتقوم الطريقة الصينية على تحضير أجزاء من الخشب تُقطع تقطيعا مجسما وتُبلل بحبر يُعتمد في تحضيره على الماء أساسا. وبعد ذلك، يوضع الورق فوق القطع الخشبية المجسمة ويدلك بعصاً قصبية أو بعظم يحضر لذلك الغرض، أو حتى بفرشاة مبللة للتمكن من إنجاز الشكل المرغوب في طباعته. وانطلاقا من بلاد الصين انتشر فن الطباعة إلى بقية أرجاء الشرق الأقصى، حيث قام كل من اليابانيين والكوريين خلال القرن الثامن بطبع نصوص مازالت محفوظة إلى اليوم. وفي حوالي 1401، أنجز الصينيون إيديوغرافات شخصية مجسمة على أوان خزفية. وفي حوالي 1300، قام الإيغوريون الأتراك في أراضي تركستان بنقش رموز شخصية مماثلة على الخشب. وقام الكوريون ابتداء من 1300 بسبك رموز شخصية مجسمة في البرونز، وربما في الرمل أيضا معتمدين في ذلك على نماذج خشبية(4). وفي الفترة الزمنية نفسها تقريبا كانت الطباعة بالحروف الخشبية قيد الاستعمال في مختلف جهات العالم الإسلامي كبلاد مصر والأندلس وإيران. وحسبما توصل إليه ر. بوليت (R. Bulliet) الأستاذ في جامعة كولمبيا، توجد عدة احتمالات بأن يكون الصفويون قد توصلوا إلى إنجاز تقنيات القوالب ووسائل السبك الطباعية على طريقة غوتنبرغ قبل تمكن هذا الأخير من اختراع تكنولوجيته الطباعية المعروفة بقرون(5).

---

(4) Moran, op. cit.

(5) R. Bulliet, «Medieval Arabic Tursh», Journal of The American Oriental Society, vol 107, n° 3 (July - Septembre, 1987), pp. 427-438.

لكن لماذا اعتبرت الطباعة اختراعا أوربيا صرفا ؟[6] للإجابة على مثل هذا السؤال، لابد من المقارنة بين التكنولوجيا الأوربية ــ ونعني بها نوع الطباعة التيبوغرافية التي اخترعها غوتنبرغ ــ والطباعة بالحروف الخشبية ؛ والنظر بعدئذ إلى الطرق التي استقبل بها الأوربيون أو البلدان المشرقية تلك التكنولوجيات. إن الهدف المتوخى من هذه المقارنة هو إبراز الأسس التي مكنت الأوربيين من تحقيق النجاح في ميدان الطباعة، والتعرف في الوقت نفسه على الأسباب التي كانت وراء إخفاق الآخرين بمن فيهم المسلمون الذين ترددوا في تحقيق نتائج إيجابية في هذا المضمار. ويمكن تلخيص العوامل التي جعلت اختراع غوتنبرغ يختلف عن التقنيات الطباعية الصينية أو الكورية في أربع نقط :

أولها أن غوتنبرغ تمكن من صناعة أداة نموذجية على هيئة إطار توجد على جانبيه سكتان تسمحان بالإبقاء على الحروف ثابتة أو بتحريكها بالإبهام لتشكيل كلمات أو أسطر يمكن إحكامها بإتقان وجعلها طيعة وبالتالي قابلة للطباعة[7]. غير أن أبرز الجوانب أهمية في اختراع غوتنبرغ هو الطريقة التي كان يصنع بها الحروف :

«يكمن مفتاح الاختراع الذي توصل إليه غوتنبرغ في نوع القالب الذي كان يستعمله للتمكن من إفراغ الحروف المستقلة وسبكها فيه. ولابد من أن يكون كل حرف متساويا مع بقية الحروف أو الرموز، متوازيا في كل اتجاهاته وأن يتخذ علوا مماثلا ودقيقا. إن نوع القالب الأصلي المكون من قسمين والذي أنجزه غوتنبرغ ليكون صالحا لقبول قوالب تتلاءم مع الحروف الضيقة مثل (i) والحروف الأكثر اتساعا مثل (m) قد مكنه من التغلب على الحاجة إلى سبك أعداد كبيرة من أنواع القوالب كلما تطلب الأمر ذلك. إن القوالب تحتاج إلى صنف معدني لين بما يكفي لتسهيل عملية السبك ومتين بما يكفي أيضا لتكون لديه القوة الكاملة على تحمل المئات من العمليات المطبعية. ومن المفروض أيضا عدم قابليته للتمدد أو التقلص أثناء صهره وصبه في القالب الأصلي للحروف، وأن يعود إلى حالة صلبة بمجرد تبرده.

وبفضل تجربته في الحدادة وصناعة المعادن أدرك غوتنبرغ أن مادة الأنتيمون من الممكن أن تتمدد عندما تبرد وتتحول من مادة سائلة إلى حالة صلبة، وذلك

(6) هذا السؤال سبق أن طرحه موران (Moran) في المرجع السابق الذكر، غير أن الأجوبة التي أتينا بها تختلف تماما عن أجوبته، وخاصة فيما يتعلق بالطباعة في العالم الإسلامي.

(7) Moran, op. cit.; Khan, Handbook on Printing, p. 157.

على عكس جل المعادن التي تتقلص عند برودتها. وقد اهتدى إلى إنتاج خليط معدني فريد من نوعه يحتوي على ثمانين في المائة من مادة الرصاص، وخمسة في المائة من مادة القصدير، وخمس عشرة في المائة من الأنتيمون للتمكن من الحفاظ على كتلة ثابتة طوال المرحلة التي تستغرقها صناعة القالب الأصلي للحرف. وكان غوتنبرغ يحتاج إلى حوالي خمسين ألف قطعة منفردة من الحروف تستعمل في كل مرة بشكل جعل الدقة والسرعة والتكلفة التي يتم بها ذلك القالب الأصلي وكذا مراحل سباكته أمرا حاسما. إذ تُختزن الحروف في صناديق ذات أدراج وتُسحب من مكانها حرفا تلو الآخر لتصفيفها في أسطر. وبعد الإنتهاء من طبع الصفحة، تعاد الحروف إلى الأدراج المخصصة لها واحدا تلو الآخر»[8].

وعليه فمن الناحية الميكانيكية يمكن القول إن هناك بونا شاسعا بين الاختراع الجديد الذي توصل إليه غوتنبرغ وصنف الطباعة الخشبية الذي كان سائداً من قبل بحروفه الجامدة التي كان يستحيل التصرف في تموضعاتها. وأيضا كانت أنواع الحروف الجديدة ذات جودة عالية، بفضل ما أصبحت تنجزه من طباعة واضحة المعالم تختلف اختلافا كبيرا عما كانت تنجزه الطباعة الخشبية. ثم إنها تدوم مدة زمنية أطول، إذ يظل نفس الحرف قابلا للاستعمال سواء في طبع الكتاب نفسه أم في طبع غيره من الكتب بفضل ما يتحلى به من قابلية تكرار الاستعمال وسهولة التحكم فيه. في حين يتطلب إنجاز صفحات أخرى في نظام الطباعة الخشبية تحضير قطع خشبية جديدة خاصة بكل كتاب جديد.

ويتعلق العامل الثاني بتعزيز غوتنبرغ لطريقته الخاصة في الطباعة باستعماله عنصر الضغط[9]. ويبدو أن أول أشكال الطباعة المعتمدة على الضغط والتي لم تتغير من حيث المبدإ منذ حوالي أربعمائة سنة[10] لابد من أن تكون نتيجة لسلسلة من التجارب التي دشنها غوتنبرغ في البداية وأتمها غيره من الطابعين الذين أتوا من بعده. وتتكون المضاغط في الأساس، سواء منها المستعملة في معاصر العنب أم في مطاحن الورق ومحلات تسفير الكتب وتجليدها، من قطعتين خشبيتين عموديتين أساسيتين تتعارض معهما قطعتان خشبيتان إضافيتان فتقع إحداهما في الجزء العلوي والأخرى في الجزء السفلي. ويخترق القطعة المتعارضة العليا دولاب خشبي مدور تحيط به عزقة على

---

(8) Phillip Meggs, A History of Graphic Design, p. 77.

(9) Moran, op. cit, p 18.

(10) Jacobi, op. cit, p. 351. Moran, op. cit, p 16.

هيئة عقد تتخلله سلسلة من الثقوب في ميحط دائرتها. وتنتهي العزقة بشكل مسطح يحدث ضغطا على جانبي الخشبتين المتعارضتين مع مثيلتيهما القائمتين في الاتجاه العمودي.

ويُحصل على الضغط بالتحكم في عمود قائم يُدخل في أحد الثقوب الموجودة في العقد، وبذلك يمكن للعزقة أن تتحرك نازلة في اتجاه الأسفل. ويمكن الرفع من درجة الضغط المرغوب فيه بتحريك العمود القائم من ثقب إلى آخر. غير أن مثل هذه المضاغط قد طرأت عليها تغيرات كثيرة جعلتها تستجيب لأنواع الضغوط المتلائمة مع متطلبات الطباعة[11]. ومن الممكن أن يؤدي الإفراط في الضغط إلى إتلاف الورق وإفساده بتركه خدوشا عميقة على المساحة فيكون الوجه الآخر للورق غير صالح للطباعة[12]. وكان هذا الأسلوب الجديد حاسما في تجاوز طريقة الطباعة التقليدية البسيطة التي كان يعتمد فيها على استعمال مدالك من القصب يضغط بها على الورق لطباعة الشكل أو الرمز المرغوب فيه.

ويتمثل العامل الثالث والرابع الذي تتميز به طريقة غوتنبرغ الجديدة عن كل الذين سبقوه في صنفي الورق والحبر الذي بدأ في استعماله لإنجاز أعماله الطباعية. وقد لجأ غوتنبرغ إلى تعزيز اختراعه بالاعتماد على الحبر الأوربي الذي تدخل مادة الزيت عنصرا أساسيا في تحضيره عوضا عن الحبر الصيني الذي يشكل الماء أهم مكوناته. ذلك أن الحبر المائي له سلبياتٌ كثيرة تجعله يتسبب في طبع الحروف طبعا مشوشا وملطخا، فتبينت عدم صلاحيته لإنجاز طباعة رفيعة المستوى. ويصنع الورق الأوربي من عجين الألياف الكتانية أو القطنية فتتم معالجته بمادة غروية تكسب الورق متانة كبيرة وتحفظ سطحه من الاختراق والبلل. وشتان بين هذا النوع من الورق وبين الصنف القديم المتميز برقته وهشاشته وقابليته الكبيرة للانطواء ونفاذية سطحه، والذي كان يستعمل مع الحبر المائي في الطباعة الشرقية القديمة. وهكذا تبين أن التوفيق بين الورق والحبر الأوربيين يتلاءم بفعالية كبيرة مع طريقة غوتنبرغ في الطباعة. إذ مكنه ذلك من إنجاز طباعة جيدة ذات حروف معالمها شديدة الوضوح على

(11) Moran, op. cit, pp 18-19.

(12) توصلت إلى هذا الاستنتاج من خلال ما لاحظته في بعض مطبوعات بولاق الأولى التي توجد نماذج منها في خزانة جامعة هارفارد. ويبدو واضحا فيها أن الضغط المفرط على الورق كان يتسبب في إحداث طباعة عميقة غالبا ما تكون حروفها بادية من الجهة الخلفية للورق.

الورق[13]. ويعني ذلك أن الأمر لم يقتصر عند غوتنبرغ على صناعة حروف ذات خصوصيات مختلفة عن مثيلتها المعروفة سابقا فحسب، بل نجده يضيف إلى ذلك وبنجاح كبير استعمال مواد مختلفة أيضا على مستوى الحبر والورق بشكل فاق من حيث الجودة والفعالية ما كان معروفا في طريقة الطباعة التقليدية. بالإضافة إلى ذلك، أصبح الأوربيون في غنى عن جلب المواد الأساسية التي تدخل في أعمال الطباعة من خارج قارتهم.

وإلى جانب العناصر التقنية التي جعلت اختراع غوتنبرغ يتبوأ مكانة بارزة ومتميزة عن مختلف طرق الطباعة القديمة، فإن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء إنجاح الطباعة في أوربا هي أن بنياتها التحتية على المستوى الاجتماعي والسياسي والتربوي كانت مساعدة جدا بشكل فاق بكثير مستوى البنيات التي كانت سائدة في كل من الصين وكوريا وبلدان العالم الإسلامي. وعلى سبيل المثال، كان من السهل نسبيا تحضير مجسمات الحروف الأبجدية الأوربية الستة والعشرين المأخوذة أصلا عن الأبجديات الفينيقية واليونانية والرومانية لأنها لا تطرح المشاكل نفسها التي يمكن مصادفتها عند محاولة القيام بتحضير مثيلتها الصينية أو الكورية. إذ يمكن للإيديوغرامات أن تتكون في لغات هذه البلدان من آلاف الرموز، مما استحال معه إنتاج ما يكفي من الحروف الكفيلة بالاستجابة لحاجيات الطباعة ومستلزماتها[14].

ولتوضيح هذه النقطة قليلا، نشير إلى أن الكتاب المقدس الذي طبعه غوتنبرغ قد اضطر فيه إلى استعمال خمسين ألف قطعة حتى يمكنه الطبع بالحروف الأبجدية التي لا يتجاوز عددها الستة والعشرين. في حين لو تمت محاولة لطبع الكتاب نفسه باللغة الصينية أو الكورية، لكان في حاجة إلى مليون قطعة على أقل تقدير[15]. وبناء على هذا الواقع، كان لابد من الاعتماد في الشرق الأقصى على خدمات الناسخين، لسهولة العمل من جهة، ولرخص التكاليف من جهة ثانية. وتبدو اللغة العربية بحروف أبجديتها الثمانية والعشرين كأنها غير مختلفة كثيرا عن مثيلتها الأوربية. غير أنها تظل ـ مع ذلك ـ في حاجة إلى الحروف الاستهلالية التي تقع في بداية الكلمة والحروف الوسطى والمستقلة، ثم الاستثناءات العديدة التي تتميز بها

---

(13) Moran, op. cit.

(14) المرجع نفسه.

(15) المرجع نفسه؛ وانظر أيضا المرجع السابق الذكر لميكس Meggs.

كلمات القرآن. وإذا أضفنا إلى ذلك إمكانية وضع الحركات العربية المعروفة كالفتحة والكسرة والضمة والشدة وعلامات الوقف وغيرها، فإن طبع القرآن لا يمكن تحقيقه إلا بتحضير مئات الآلاف من القطع ؛ ومن شأن هذا أن يجعل عملية الطباعة أكثر صعوبة وأعلى تكلفة بالمقارنة مع ما تكلفه خدمات الناسخين، خاصة إذا لم تكن هناك أية حوافز اقتصادية أو سياسية تستدعي الدخول في تجربة من ذلك النوع.

هناك سبب ثالث، مكن هو الآخر من المساعدة على إنجاح الطباعة في أوربا على عكس ما حدث في البلدان الإسلامية، ونقصد به ملاءمة ظروفها الاقتصادية وامتلاك الأوربيين القدرة على مواجهة المشاكل التي كانت لها علاقة باستعمال تكنولوجية الطباعة والتغلب عليها. وفي هذا الصدد، جاء عند جورج وينشيب (George Winship) في كتابه الذي يحمل عنوان «من غوتنبرغ إلى بلنتين»[16]، Gutenberg to Plantin ما يلي :

«إن الرقم القياسي الذي سجله نجاح الطباعة في ألمانيا خلال القرن الخامس عشر يجد تفسيرا له في التحولات الاقتصادية التي شهدتها منطقة وادي الراين. حيث عكفت أعداد متزايدة من سكان المدن على العمل ساعات طويلة في الصناعات المختلفة مفضلين اقتناء موادهم الغذائية بدلا من إنتاجها بأنفسهم. واتسع حجم المبالغ المالية الرائجة فأصبح في حوزة الغالبية العظمى من السكان أكثر مما كان من قبل. كما بدأوا في التسامح لأنفسهم بالمزيد من العطل وبالحصول على أشياء لم يسبق لهم أن تمتعوا بامتلاكها. وارتفع عدد الأطفال في المدارس ولقيت الكتب مزيدا من الإقبال بارتفاع نسبة مبيعاتها.»

كان الازدهار الاقتصادي بألمانيا أمرا حقيقيا، وعبر عنه غوتنبرغ شخصيا وبوضوح تام حين أشار إلى أنه فور تسجيل اختراعه الجديد لدى السلطات المحلية في ماينز (Mainz) وجد في شخص الرأسمالي يوهان فوست (Johan Faust) السند الكامل لتمويل مشروعه الهادف إلى إنشاء مؤسسة لأعمال الطباعة.

ويكمن سر النجاح الذي حققه الرجلان بعد إصدارهما لإنجيل غوتنبرغ سنة 1457 في أنه أول كتاب طُبِعَ بدرجة عالية من الجودة جعلته قادرا على مضاهاة أحسن النماذج التي كان ينتجها الخطاطون وبتكلفة أقل مما كانوا يشترطونه مقابل

---

(16) انظر الصفحات من 22 إلى 32 من الكتاب المشار إليه أعلاه.

عملهم الشاق[17]. وعلاوة على ذلك، فقد ربحا بعد إنجازهما ذلك العمل الأول أرباحا طائلة عجلت باتخاذ التاجر فوست قرار التوجه إلى باريس في أول رحلة استهدف بها الشروع في كسب أسواق جديدة[18]. ومن المؤشرات الإضافية التي تؤكد مدى الاستعداد الذي كانت أوربا تمتلكه لإدماج تلك التكنولوجيا الجديدة وتكييفها مع تجارة الكتاب هو الانتشار السريع والمفاجئ للطباعة عبر مختلف أرجاء القارة الأوربية وبمناطق أخرى بعيدة عنها بمسافات كبيرة.

انطلاقا من سنة 1457 التي شهدت إتمام غوتنبرغ طبع الكتاب المقدس وإلى حدود ثمانينيات القرن الخامس عشر، أصبحت معظم الحواضر الكبرى سواء في أوربا أم في العالم الجديد تتوفر على فئة من الناس الذين يمارسون أعمالا لها علاقة بالطباعة، كالطباعين وباعة الورق وموزعي الحبر المختلف الأنواع والمتخصصين في تحضير الحروف والكتبيين وغيرهم[19].

غير أنه على الرغم من انتشار الطباعة بنجاح كبير في أوربا، فقد ظلت هناك العديد من الصعوبات والمشاكل التي كان لابد من التغلب عليها.

كانت لفئة النقاشين على الخشب في أوكَسبورغ (Augsburg) بألمانيا هيمنة كاملة على تلك الصناعة المحلية وأنشطتها التجارية المرتبطة بها. وكان من الطبيعي أن يتخوف أعضاؤها من المضايقة التي يمكن أن يتسبب فيها الاختراع الجديد وما يمكن أن يترتب عنها من تهديد للازدهار الذي كانت تعرفه حرفتهم. غير أن هذا المشكل قد تم التغلب عليه بالتوصل إلى تسوية شُغل بموجبها النقاشون وأدمجوا في مؤسسات الطباعة الحديثة العهد[20]. ومن الأمور التي مكنت من تشغيل النقاشين أن التكنولوجيا الجديدة لم تكن قد توصلت بعد إلى تحقيق اكتفائها الذاتي، وكانت حاجتها ماسة إلى خبرة النقاشين لوضع الرسوم التزيينية والعناوين ذات الخطوط الكبيرة في الصفحات أو على الرسوم التزيينية.

وهناك رد فعل إضافي كان مصدره رجال الدين[21]. غير أنه لا يعني بتاتا أن

(17) Meggs, **op. cit**, pp. 79-80.

(18) E. Eisenstein, **Printing as an Agent of Change**, vol. 1, p. 179.

(19) George Winship, **op. cit**, pp. 19-23.

(20) **المرجع نفسه**، ص. 18.

(21) **المرجع نفسه**، ص. 74.

رجال الكنيسة لم يستفيدوا من تكنولوجية الطباعة. في الواقع، كانت طباعة الكتب الدينية واسعة الانتشار بل من الأمور المعهودة، لأن غالبية رجال الكنيسة كانوا منشغلين في الوقت نفسه انشغالا بينا بالدراسات الدينية ذات الصلة بالكتاب المقدس وأيضا بنسخ الكتب في الأديرة المتناثرة عبر مختلف بلدان أوربا. لكن ردود الفعل التي صدرت عن رجال الكنيسة كانت قوية، عندما استعملت الطباعة في مجالات لا ترضى عنها الكنيسة. ومن الأمثلة العديدة في هذا الصدد نموذج روبرت إتيين (Robert Estienne) الذي وصفه وينشيب (Winship) بأنه «مجرد صبي»، وذلك في أعقاب إصداره نصا مدققا للكتاب المقدس، وطبعه إياه في حجم صغير وعرضه للبيع على عموم الناس وأضاف قائلا عنه ما يلي :

«عُبر في جامعة السوربون تعبيرا قويا عن احتجاجات شديدة على جرأة روبيرت إتيين الذي أصدر نص الكتاب المقدس إصدارا مثيرا للجدل وطبعه في حجم صغير لا يليق بمكانته المقدسة. غير أن إتيين واجه التحدي بإتمام فحصه النصي لما تبقى من الكتاب المقدس. وهدد المشرفون على تسيير جامعة السوربون باتخاذ أقصى الإجراءات الهادفة إلى وضع حد لنشاطات إتيين. غير أن الطابع قد حظي بحماية الملك الفرنسي، وربما كان ذلك وبصفة جزئية لكونه قد أسدى بذلك خدمة حقيقية لأوساط البلاط الملكي، لأنه شغل اهتمام اللاهوتيين وصدهم عن التفكير في الخروقات التي كان يقوم بها علية القوم الذين كانت وجهات نظرهم تميل إلى التنافي مع التقاليد السائدة. وحين اشتدت درجة الخلاف وأصبحت مزعجة جدا سنة 1534، أصدر فرانسوا الأول أمرا يقضي بمنع أعمال الطباعة منعا كليا، وتسبب ذلك الإجراء في مشكل إضافي لم يكن متوقعا حين رفض البرلمان المصادقة على القرار الملكي. وتمت مراجعته فأصبح ينص هذه المرة على منع طباعة كتب جديدة، فلقي الرفض نفسه، ولم يجد الملك بدا من قبول ذلك الوضع، فكانت أول معركة انتصرت فيها حرية الطباعة. لقد كانت بالفعل حرية محدودة جدا حسبما تثبته الدراسات الحديثة، غير أنها تظل ذات أهمية جوهرية لكونها أقرت الاعتراف بالمبدإ وهو مكسب ثمين في حد ذاته»[22].

يتضح لنا من مضمون هذا الاقتباس، أن الأوربيين بمختلف مشاربهم، رجال سياسة كانوا أو رجال دين أو من عامة الناس أمثال إتيين السابق الذكر، قد وجدوا جميعا في الطباعة أداة فعالة لخدمة أغراضهم المتباينة. وساهم الانتشار السريع

(22) المرجع نفسه.

والمتنوع لاستعمال الطباعة بفعالية كبيرة في العمل على إدماجها في بوتقة الاقتصاد الأوربي.

واعترض سبيل الطباعة في سنواتها الأولى حاجز إضافي تمثل في سوء تقدير الطابعين وعدم إدخالهم في الحسبان طبيعة السوق وتكييفها مع حاجات باعة الكتب.

«أظهرت فلورنسا في البداية عداءها للطابعين الأوائل، إذ كان يتحكم أثرياء التجار في التأثير على أذواق الفلورنسيين ويفضلون المخطوطات المزينة بالزخارف الجميلة، لأن لزبنائهم من القدرات المالية ما كان يمكنهم من أداء أثمانها. واضطر الطابعون إلى بذل مجهودات استجابة لرغباتهم فأصدروا كتبا ذات أثمان مرتفعة برسوم تزيينية اعتمد في إنجازها على منقوشات معدنية عوض المنقوشات الخشبية المعهودة من قبل»[23].

ونسوق مثالا إضافيا له أهميته في إطار سوء تقدير الطابعين والناشرين لأحوال السوق. فخلال الثلاثينيات من القرن السادس عشر، أقدم طابع إيطالي يدعى ألساندرو باكَانينو دي باكَانيني (Alessandro Paganino de Paganini) من البندقية على إصدار نسخة مطبوعة من **القرآن**. وأصبحت البندقية منذ 1469 من المراكز الأساسية لسوق الكتاب، ومع نهاية القرن السادس عشر شرعت دور الطباعة بالبندقية في نشر كتب بلغات غير أوربية، كالعبرية مثلا، لتصديرها إلى مختلف المجموعات اليهودية التي كانت مستوطنة بلدان الشمال الإفريقي وجهات أخرى من العالم الإسلامي[24]. وربما كان دي باكَانيني يحلم بتكوين ثروة من خلال طبع **القرآن** والتحكم في توزيعه بالأسواق الإسلامية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط.

وحسب ما جاء في مقال حديث تحت عنوان : «اكتشاف القرآن العربي» لكاتبته أنجيلا نيوفو Angela Nuovo, Il Corano Arabo Ritravato، فإن «العداء المعروف الذي يكنه الإسلام للطباعة» كان سببا في إخفاق المشروع، ووضع ذلك حدا لمستقبل ألساندرو في ميدان النشر[25].

---

(23) المرجع نفسه، ص. 53.

(24) Eisenstein, **op. cit**, vol. 1, p. 447. Winship, **op. cit**, pp. 31, 37.

(25) **la Bibliofilia**, vol. LXXXIX, n° 3, p. 271.

غير أنه لو كانت الصفحات الخمس التي قدمتها نيوفو تمثل نماذج حقيقية من نسخة **القرآن** الذي نشره ألساندرو، فإن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى فشله ترتبط بعوامل أخرى وليس بما سمته الباحثة نيوفو بـ«العداء المعروف الذي يكنه الإسلام للطباعة».(26) ونذكر منها وجود العديد من الأخطاء في الرسم الإملائي للكلمات، بالإضافة إلى الابتعاد بصفة كلية عن احترام التقليد الإسلامي المعمول به في نسخ **القرآن** وفقا لنموذج مصحف عثمان. ومن الأخطاء التي يتضمنها عمل ألساندرو مثلا نجد أن الخمس أسطر القصيرة وحدها التي تكون سورة الفاتحة قد تحول فيها حرف الدال إلى ذال معجمة، كما وضعت علامات الفتح والكسر والسكون في غير أماكنها المناسبة(27).

بناء على هذه المعطيات، فإن مثل هذه الأخطاء التي وردت بشكل متكرر في نسخة ألساندرو لم يكن من شأنها فقط التعجيل بالحكم على مشروعه بالفشل، بل من الممكن أن يكون قد ساهم أيضا في إثارة حفيظة المسلمين وعزز موقفهم الرافض للطباعة. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الأب اليسوعي لويس شيخو (Louis Cheikho) يذهب إلى القول بأن الرفض الذي أبداه المسلمون لمدة طويلة تجاه الطباعة يجد تفسيرا له في التخوف الذي كان ينتابهم من احتمال ارتكاب الطابعين للأخطاء وما يمكن أن يترتب عن ذلك من تشويه أو تحريف لنص **القرآن**(28).

وإلى جانب المشاكل المتعلقة بالطريقة التي قدم بها النص القرآني، هناك ملاحظة إضافية ذات أهمية لابد من إبدائها حول نسخة ألساندرو. يبدو أن النص قد طُبع اعتمادا على الحروف المجسمة الخشبية الصنع، وليس على الحروف المعدنية المتحركة. ويتضح ذلك جليا من خلال بعض لطخات وتشوش الحبر الناتجة عن شظايا القطع الخشبية التي تصدعت أو انكسرت أثناء عملية تحضير الحروف. ولو صح هذا الاحتمال، لأوحى لنا بشيئين اثنين : أولهما، أن ألساندرو كان ينوي توزيع نسخة **القرآن** التي أنجزها على زبناء من عامة الناس داخل العالم الإسلامي مقابل ثمن مقبول وفقا للطريقة التي أصدر بها الطابعون الأوربيون ما أصبح يعرف بـ«إنجيل الفقراء» المتميز بشكله البسيط الذي لا يبدو متناسبا مع قداسته. ثانيهما، أن

---

(26) المرجع نفسه.

(27) المرجع نفسه، ص. 239. وتتكرر الأخطاء نفسها في الصفحات 243، 245، 247، 251.

(28) انظر «تاريخ فن الطباعة في المشرق» في : المشرق، المجلد 3، العدد 2 (1900)، ص. 78–85.

اختيار ألساندرو للحروف الخشبية قد تحكمت فيه عوامل اقتصادية، لأن طبع القرآن اعتمادا على الحروف المعدنية المتحركة كان يستلزم تحضير عدد كبير جدا من الحروف مقابل تكلفة مالية باهظة. كما يعني ذلك أيضا أن الأوربيين لم يكونوا بعد على استعداد لصناعة حروف معدنية عربية صالحة للاستعمال[29].

وباختصار، فإن اختراع غوتنبرغ لتلك التكنولوجيا الجديدة، لم يكن هو العنصر الأساسي الذي جعل الطباعة تكون ظاهرة أوربية صرفة، بل هناك عوامل أخرى مساعدة، من بينها الأبجدية المناسبة والبسيطة من حيث تركيباتها، والظروف الإقتصادية المشجعة التي مكنت الطباعة من احتلال المكانة اللائقة بها. كما ساعدت الطباعة على خلق فرص جديدة للشغل وعلى فتح أسواق جديدة. ومكنت الطباعة أيضا من جعل أعداد كبيرة من الكتب رهن إشارة أكبر عدد من الأفراد في وقت وجيز. غير أن دخول الطباعة وتبنيها في العالم الإسلامي وفي المغرب كان يتطلب بالضرورة التوصل إلى حل المشاكل التي تطرحها الأبجدية العربية وأيضا إلى تحقيق تفاهم بين النساخ والعلماء بوجه عام، نظرا لما يمكن أن يلحق بهم من ضرر نتيجة الانتقال من العمل المخطوط إلى دنيا الطباعة. ولضمان استمرارية الطباعة ونجاحها، كان لابد أيضا من إدماجها في إطار النظام الاقتصادي القائم، واستعمالها في كل المؤسسات التي تعتمد على الكتب سواء التربوية أم الثقافية أم العلمية. ولذلك، هناك سؤال على مستوى كبير من الأهمية لابد من الإجابة عليه في الفصول التالية من هذا الكتاب، ويتعلق بالكيفية التي تمكن بها المغاربة من توفير الظروف المناسبة والمحيط الملائم لتكنولوجية الطباعة.

---

(29) بالإضافة إلى فحصنا الدقيق لنماذج من صفحات نسخة ألساندرو، حاولنا تحديد شكل الحروف وأحجامها، فتبين لنا أيضا من خلال غياب الحروف المزدوجة المؤلفة من حرفين متصلين بأن ألساندرو اعتمد على مادة الخشب في تحضير حروفه عوضا عن الحروف المعدنية المتحركة. بالإضافة إلى ذلك، لم يتمكن أحد إلى الآن من العثور على نماذج مماثلة للحروف التي استعملها ألساندرو في نسخته، وهذا يوحي بأن تلك الحروف لم تستعمل سوى مرة واحدة فقط. إن لهذه الملاحظة أبعادا كبيرة جدا في تاريخ الطباعة العربية في أوربا، وخاصة فيما يتعلق بطبعة فانو (Fano) سنة 1514، لـ«كتاب السواعي» الذي يعتبر أول كتاب عربي تمت طباعته بالحروف المعدنية المتحركة. ويتضح عند مقارنة نسخة القرآن التي أصدرها ألساندرو بـ«كتاب السواعي» يتضح أن كليهما يشتركان في نفس الأخطاء والهفوات التقنية المطبعية سابقة الذكر. هنا أيضا ـ إذا صحت هذه الملاحظات ـ لم يتمكن أحد بعد من الجزم بأول مطبوع عربي في أوربا.

ثانيا ـ المطبعة، الإدارة والتسيير

إن الهدف من دراسة الجوانب المتعلقة بالإشراف على دار للطباعة وتدبير شؤونها هو التمكن من إدراك التقنيات والمهارات الضرورية التي من شأنها أن تساعد على إنجاح عملية الطباعة. وبما أن تلك المهارات كانت معروفة في المغرب، فإن الاطلاع عليها هنا سيساعدنا على فهم التحولات التي أحدثتها تكنولوجية الطباعة في البلاد وعلى معرفة الطريقة التي كيَّف بها المغاربة أنفسهم ومواردهم مع تلك التكنولوجيا الجديدة. ويعني مصطلح التدبير في حد ذاته مختلف العمليات التي يباشرها المرء للتوصل إلى تحقيق النجاح في ميدان ما، وقد يعني أيضا تحمل شخص ما لمسؤولية معينة والقيام بها خير قيام[30].

وتنحصر مناقشاتنا هنا في تسليط الضوء على مفهوم التدبير في معناه المتعلق بالتنظيم وبالقوة البشرية الضرورية لتسيير أعمال ورشة أو دار للطباعة، وأيضا بالمهارات التي يتطلبها إنجاز عملية الطباعة.

في الوقت الذي أدخلت فيه الطباعة إلى المغرب خلال القرن التاسع عشر، كان معدل الأفراد الذين يجب الاعتماد عليهم لتدبير شؤون ورشة للطباعة ما بين عشرة واثني عشر شخصا، ويدخل في ذلك المسؤول الأول عن عملية التسيير ومساعديه، ثم الطابع والمصفف والمصحح والمسفر والمحاسب، بالإضافة إلى بعض المعاونين والمساعدين للقيام بأشغال إضافية لها علاقة بمهام الورشة.

حين كانت المخطوطات تعرض لعملية الطبع ويحصل الاتفاق بين الطابع أو الناشر أو المؤلف، يتولى فحص النصوص المخطوطة إما الطابع نفسه وإما أحد مساعديه، فيحدد عدد الصفحات التي يجب على المصففين تحضير حروفها، وينتقل المخطوط من عند المصففين إلى المصححين الذين يعتمدون على مساعدة بعض القراء للتأكد من وجود تطابق بين النص المخطوط وصفحاته المصففة. وإذا كانت الأمور سليمة وعلى ما يرام، سُفرت الكتب الصادرة وحدد المحاسب التكلفة النهائية لمصاريف عملية الطباعة[31].

---

(30) **The Oxford Universal Dictionary**, item, «manage».

(31) Jacobi, op. cit, pp. 358-359.

ومع ذلك، ففي كل العمليات التي تمر منها الطباعة، بصرف النظر عن عدد الصناع المشتغلين في أي ورشة للطباعة أو عن عدد الآلات المستعملة، يحتل الطابع المكانة القصوى والأهمية البالغة. ويلعب المصحح إلى حد ما دورا أساسيا إلى جانب الطابع. لذا، فإن الإنجاز الفعلي للعمل المطبعي لا يتحقق إلا على يديهما فقط، إذ يشكلان فيه قطب الرحى. ويتحملان المسؤولية الكاملة على نجاح العمل المطبعي أو إخفاقه من حيث الجودة والدقة والسلامة من الأخطاء شكلا ومضمونا.

إن أهم شيء في العمليات الخاصة بالطباعة ذات الحروف المتحركة هو مدى قدرة الطابع على التحكم في طريقة تحضير مختلف أصناف الحروف، والتي لولاها ما أمكن التوصل إلى إنجاز عمل مطبعي يتوفر على كامل المواصفات التقنية والفنية. ويكون من السهل في المراكز التي تتوفر على نشاط مطبعي كثيف الحصول بثمن معقول على مختلف مستلزمات الطباعة، كمسطحات الحروف المطبعية على اختلاف أنواعها، وأصناف الحبر والورق، خاصة إذا كانت ورشات الطباعة موجودة على مقربة من الباعة الذين يتاجرون في تلك المواد ومن الصناع الذين يتقنون تحضير الحروف المطبعية. غير أن الطابعين الموجودين في بلدان نائية ـ كما هو حال تركيا ومصر والمغرب ـ فإنهم مجبرون على الإلمام بمختلف العمليات التقنية التي تمكنهم من تحضير الحروف والحبر وغيرهما من مستلزمات الطباعة، حتى يمكنهم اختصار الوقت والتخفيف من التكاليف الإضافية التي يفرضها الاعتماد على الوسطاء للحصول على تلك المستلزمات من خارج البلاد، وأيضا للتمكن من الاستجابة للأذواق المحلية على مستوى اختيار الحروف وتفضيل بعضها على البعض الآخر[32].

أما الطباعة الحجرية، فيعتبر امتلاك الطابعين مهارة عالية فيها أمرا حاسما وضروريا. وإلا لما أمكن تحقيق أي عمل مطبعي البتة. وذلك على عكس ما هو معروف في الطباعة التيبوغرافية، حيث لا يكفي مجرد الحصول على بعض العناصر أو المواد، كالحجر الطباعي والحبر والورق أو غيره، للتوصل إلى إنجاز العمل المطبعي المرغوب فيه. بل يتطلب الأمر قدرا عاليا من المعرفة العملية بالطريقة التي يمكن بها

---

(32) يخبرنا خليل صابات في كتابه : **تاريخ الطباعة في الشرق**، ص. 148–158، بأن الحكومة المصرية لقيت صعوبات كبيرة، سنة 1810، في العثور على أشخاص قادرين على تعلم صناعة تحضير الحروف وسباكتها. وعلى الرغم من قضاء بعض الطلبة أربع سنوات في إيطاليا لتعلم تلك الصناعة، فقد كانت النتائج هزيلة، وتبين أن الحروف التي توصلوا إلى صناعتها كانت تفتقر إلى المتانة والجمالية المرجوة.

استعمال تلك المواد وبالشكل الذي يفضي في نهاية المطاف إلى إنجاح عملية الطباعة. ولمزيد من التوضيح لهذه النقطة، ارتأينا ضرورة تقديم وصف مقتضب للعمليات التي تمر بها الطباعة الحجرية :

«تتم عملية رسم بعض الرموز أو إسقاطها أو نقلها على حجرة أو غيرها من المساحات التي تحضر خصيصا لذلك الغرض كالرخام بطريقة تسمح بإمكانية أخذ تلك الأشكال المطبوعة فوقها. وتقوم الطباعة الحجرية على مبدإ أساسي هو التناقض الموجود بين مادتي الماء والزيت. ويتم الحصول على مسطح كيميائي صرف فوق مادة صلبة لها قابلية الموالفة بشكل متساو بين مادتي الماء والزيت، وتكسى الأجزاء المرغوب في طباعتها بخليط دهني، بينما تبلل بقية الأجزاء بالماء بالشكل الذي يسمح لها، بمقاومة المواد الزيتية عندما توضع فوقها أسطوانة مزيتة. أما الأجزاء التي يحدث فيها توالف مع المواد الزيتية، فتكون مهيأة لقبولها. وانطلاقا من ذلك المسطح المعالج وفقا لهذه الطريقة..، يمكن الحصول على طباعة فوق الورق أو غيره من المساحات القابلة للطبع بإحداث ضغط مناسب يتم عادة باستعمال أداة ضغط مطبعية»[33].

إن العناصر الأساسية التي يجب الاعتماد عليها لإنجاز عمل مطبوع طباعة حجرية هي كالتالي : الحجرة الطباعية والحبر والطبشور والورق الناقل وأداة الضغط، بالإضافة إلى حوالي ثلاثين أداة من مختلف الأحجام والأشكال. أما الأحجار الطباعية، وتسمى أيضا الأحجار الليتوغرافية، فهي في الواقع قطع كلسية أردوازية لها قابلية امتصاص الرطوبة والمواد الدهنية في آن واحد بنسب متكافئة تماما. وتوجد أجود أصنافها في بافاريا الألمانية، الموطن الأصلي لسونوفيلدر الذي اهتدى إلى استعمالها في الأعمال المطبعية. كما توجد أيضا في جهات أخرى من أوربا، كإسبانيا وفرنسا. وتستخرج تلك الأحجار من باطن الأرض وتباع على هيأة أحجام كبيرة ضخمة، ثم تقطع إلى أجزاء صغيرة من حجم بوصتين ونصف، وفقا لحاجيات الطباعة ومتطلباتها. ويتطلب حجم الصفحة الواحدة قطعا صخرية تبلغ من حيث سمكها ما بين ثلاثة وخمسة بوصات، ويعني ذلك أن الطابع ملزم بمعالجة الأحجار من جديد إلى أن يتوصل إلى السمك الذي قد يستجيب لحاجياته كما يحتاج الوجهان المكونان للأحجار الطباعية إلى التمليس لتصبح مساحتا سطحيهما خاليتين من أدق الحبيبات

(33) F. V. Brooks, «Lithography» in **Encyclopædia Britanica**, p. 7885.

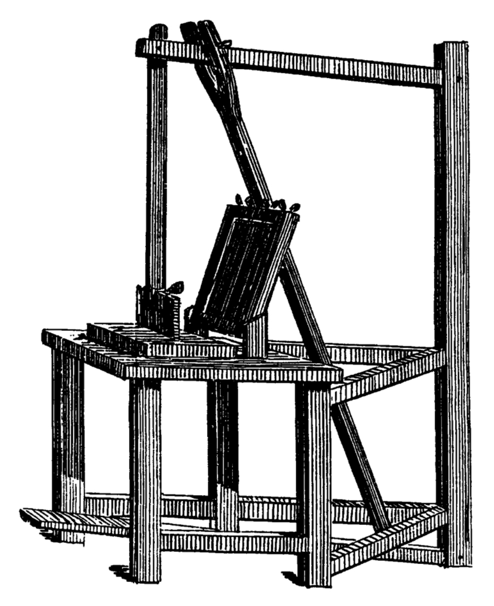
الرملية الدقيقة، والتي لو بقيت لتركت أسطرا سوداء تتخلل الصفحة المطبوعة وأفسدت العمل المطبعي.

ويتكون الحبر الليتوغرافي من خليط مركب من مادة الشمع والصابون الأبيض الجاف والشحم الحيواني ومحلول اللك. وإذا أسيء تحضير هذا الحبر، أعطى نوعا رديئا ينقصه التماسك، ولا سبيل للاعتماد عليه للحصول على طباعة جيدة. وفي بعض الأحيان، حين يتم تحليل الحبر في الماء، فإنه يصبح ثخينا ولزجا ويحتاج حينئذ إلى معالجة إضافية حتى يصلح للاستعمال. ولذلك فإن المواد التي يحضر منها الحبر، لابد أن تخلط وتطبخ بما يكفي لئلا يتحول الخليط إلى سائل خفيف يلتصق بالأصابع أو يصبح طافحا بالفقاقيع نتيجة لصبه ساخنا جدا على شريحة من الرخام.

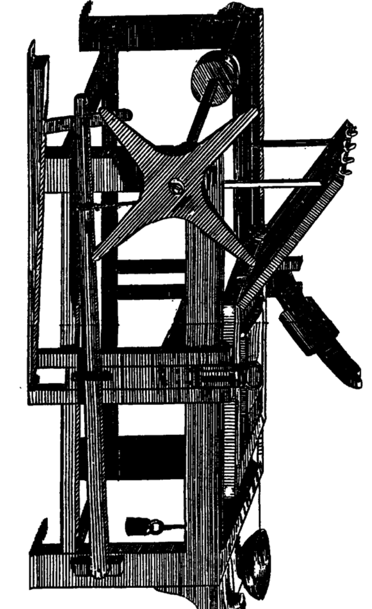
وهناك جانب أساسي يتعلق أيضا بالحبر الليتوغرافي، ألا وهو استعمال الحبر اعتمادا على الأسيطنات. وهي عملية تتطلب مهارة كبيرة لا يمكن التوفق فيها إلا بعد تجربة طويلة ومضنية. إذ يترتب عن إساءة استعمال الحبر بواسطة الأسيطنات إنجاز طباعة ذات صفحات غير متساوية من حيث بياضها أو دكنتها.

وتحتاج الطباعة إلى مادة ثالثة هي الطبشور الليتوغرافي، ويكاد يكون شبيها بقلم الرصاص المعروف. وهنا أيضا، إذا لم يتقن تحضير الطبشور، لم تسمح الكتابة على الأحجار الطباعية بتوزيع الحبر توزيعا كافيا متساويا على الصفحة كلها وأدى ذلك إلى عدم إنتاج عمل مطبعي من الطراز الرفيع. وتكون النتيجة النهائية وجود سطور بيضاء في الصفحات المطبوعة، والسبب في ذلك أن المجالات غير المتساوية لم ترفع وفقا للمستوى نفسه، البالغ (120/1) من البوصة، على سطح الحجرة الطباعية، فتكون بذلك عاجزة عن امتصاص ما يكفيها من الحبر.

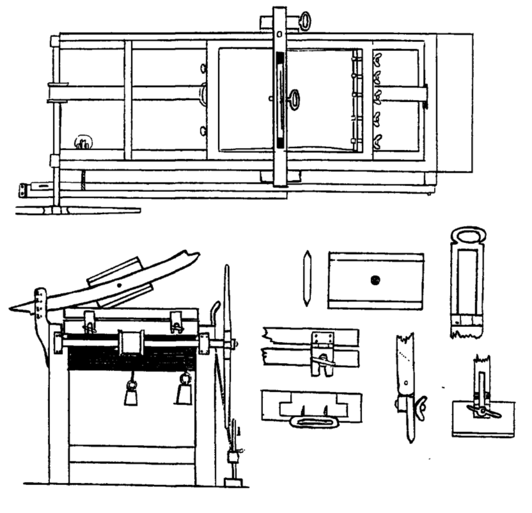
ويعتبر الورق الناقل العنصر الرابع الذي لابد من توافره في إطار العمليات التي تمر بها الطباعة الحجرية. ويحتم عكس الأشكال المرسومة والحروف المكتوبة فوق الأحجار الليتوغرافية استعمال الورق الناقل، خاصة عند الأفراد الذين لم يتعودوا الكتابة المعكوسة. ومن الواجب أن يجمع الورق الناقل بين خاصيتين أساسيتين : أولاهما، أن يكون من النوع الجيد الذي يصلح للكتابة كما هو حال الورق العادي. والثانية، ألا تترك الكتابة أية آثار في ظهر الورقة عند نقلها إلى سطح الأحجار الليتوغرافية. وللتمكن من نقل كل ما هو مكتوب على الورق إلى سطح الأحجار



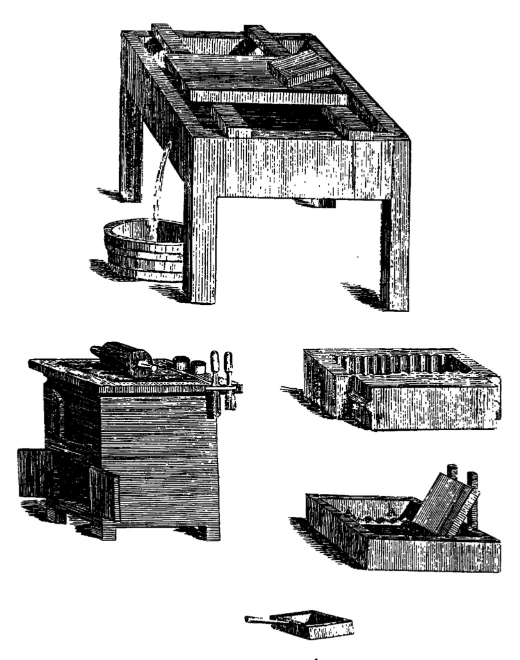
لوحة 1 : مطبعة حجرية بسيطة التركيب



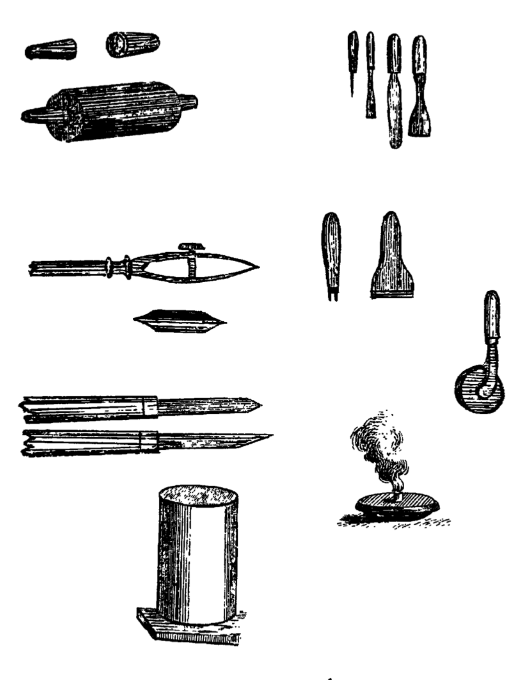
لوحة 2 : مطبعة حجرية متطورة التركيب



لوحة 3 : تصميم للمطبعة الحجرية متطورة التركيب



لوحة 4 : الأدوات الخاصة بالطباعة الحجرية



لوحة 5 : الأدوات الخاصة بالطباعة الحجرية (تتمة)

يكفي تبليل الورق المذكور بالحبر وإسقاطه بالحك الخفيف والهادئ إلى أن تصبح الطباعة بادية فوق الأحجار.

العنصر الخامس والأخير الذي تكتمل به عملية الطباعة الحجرية هو الأداة الضاغطة التي لا تختلف كثيرا عن مثيلتها المستعملة في الطباعة التيبوغرافية. ويتميز البعض منها بكونه مصنوعا من الخشب وببلوغه علوا يصل إلى ستة أقدام. أما الحديثة منها فقد صنعت من المواد الحديدية ويعتمد في تشغيلها على طاقة محركة بدلا من العمل اليدوي.

ويبدو من هذا كله، أن المسؤولين عن تدبير شؤون الورشات الخاصة بالطباعة الحجرية كانوا ملزمين بالتحكم في مجموعة من العمليات المعقدة التي لولاها لاستحال تحقيق النجاح لمشاريع الطباعة. ووعيا من رواد الطباعة الأوائل أمثال راوكورت (Raucourt) وسونوفيلدر (Senefelder)، بهذه الحقيقة، جعلوا رهن إشارة المهتمين بحرفة الطباعة الحجرية دليلا يحتوي على شروح وتوضيحات للأعمال التطبيقية المختلفة التي يبلغ عددها المائة، بالإضافة إلى حلول مقترحة لمواجهة المشاكل المستعصية التي يمكن أن تعترض سبيل الطابعين أثناء إنجاز أعمالهم. وعلى الطابعين الذين يتوفرون على مثل هذا الدليل المرور بتجربة تستغرق سنة كاملة على الأقل للتمكن من استيعاب التقنيات المعقدة للطباعة الحجرية. وفي غياب دليل من هذا القبيل، يجد المتعلمون أنفسهم مضطرين إلى اللجوء لخبرات المتخصصين في الميدان على أمل أن يكشفوا لهم بالتدريج عن أسرار المهنة وتقنياتها.

وبالإضافة إلى معرفة الجوانب التقنية، فإن الطابعين والمشرفين على تسيير ورشات الطباعة لابد من أن يدركوا أن أسلوب الطباعة الحجرية لا يتلاءم بشكل جيد إلا مع المشاريع المطبعية الصغيرة الحجم والتي لا يتجاوز إنتاجها حدا أقصى يتراوح ما بين ألفي نسخة وثلاثة آلاف فقط، بينما تصلح الطباعة التيبوغرافية لإنجاز مشاريع أكبر حجما وتستطيع إصدار ما يفوق عشرات الآلاف من النسخ. ومن جهة أخرى، تتميز الطباعة الحجرية بملاءمتها التامة لطبع الأعمال الفنية والخرائط و«النوتات» الموسيقية والبطائق البريدية والصور ذات الحجم الكبير والفاتورات الحسابية وغيرها. هذا بالإضافة إلى ما تتميز به من قدرة طبيعية تسمح لها بالحفاظ على النماذج القديمة للخط والتوقيعات الأصلية، مما يتيح الفرصة لمن يرغب في ذلك

حفاظا على أصالة الخط التقليدي بدل تغييره أو توحيد أنماطه بالطباعة التيبوغرافية[34].

وباختصار شديد، فإن ما سبقت الإشارة إليه يعني بالنسبة للمغاربة أنهم كانوا ملزمين بتغيير سلوكهم فيما يتعلق بالاطلاع على المهارات الحديثة والجديدة، وأيضا على مستوى تجميع مختلف المتخصصين كالطابعين والمصففين والمسفرين والموزعين، حتى يمكنهم الحصول على نتائج إيجابية في أعمالهم المطبعية. وسيكون من شأن كل هذه القضايا أن تنير لنا السبيل للتوصل إلى فهم جيد للطريقة التي كان يشرف بها المغاربة على تسيير شؤون طباعتهم.

---

(34) ويحتوي المرجعان التاليان على صور للأدوات المستعملة في الطباعة الحجرية :

Antoine Raucourt, **A Manual of Lithography**, pp. xi, 3-6, 9-10 ; T. Hansard, **Typographia**, pp. 891-893, 901, 908-909.

وانظر نماذج منها في الصفحات رقم 93ـ97، أخذناها بتصرف من كتاب راوكورت (المترجم).

الفصل الرابع

الطباعة في العالم الإسلامي:
نموذج إستنبول

الفصل الرابع

الطباعة في العالم الإسلامي : نموذج إستنبول

يبدو للوهلة الأولى أن الاهتمام بدراسة الظروف التي أحاطت بدخول تكنولوجية الطباعة إلى إستنبول لا علاقة له بالمغرب. لكن التجربة العثمانية الخاصة بتكنولوجية الطباعة تعتبر مفيدة لنا كثيرا في الواقع لفهم تاريخ الطباعة فهما حقيقيا ليس في المغرب فحسب، بل في العالم الإسلامي بوجه عام أيضا. كانت الإمبراطورية العثمانية أكبر الدول الإسلامية قوة وأكثرها اتساعا من حيث رقعتها الجغرافية، وكانت أيضا أول دولة إسلامية سمحت بدخول الطباعة إلى أراضيها. وللإقدام على تلك الخطوة، كان لابد من الحصول فيها على فتاوى من العلماء بالإجازة. وفي أعقاب ذلك يكون الموقف من استعمال الطباعة حجة شرعية تشمل كل المسلمين المنضوين تحت راية الإمبراطورية العثمانية. وذلك لأن الرعايا العثمانيين لا ينتمون إلى المذهب الحنفي فقط، بل كان منهم من ينتمي أيضا إلى المالكية أو الشافعية أو الحنبلية أو إلى مذاهب أخرى[1]. وهكذا، فإن إدخال الطباعة إلى إستنبول وما رافقها من حجج مؤيدة لاستخدامها داخل الإمبراطورية العثمانية ستكون ذات فائدة كبيرة تساعدنا على تحليل الموقف المغربي من السماح باستخدام التكنولوجيا الجديدة رفضا أو قبولا.

ومنذ أن انتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين، تكررت المحاولات العثمانية الهادفة إلى مد نطاق سيطرتهم إلى المغرب أيضا، وبالرغم من لجوء العثمانيين إلى الوسائل العسكرية في فترات تاريخية فقد فشلوا مرات عديدة في تحقيق ما كانوا يصبون إليه[2]. غير أنه مع مطلع القرن العشرين، حين شرعت الدول الأجنبية تتنافس على المغرب لإخضاعه، بادر العثمانيون من جديد إلى القيام بمحاولة إضافية لبسط

(1) M. Bernard, «Idjma» in **Encyclopædia of Islam**, new edition, pp. 1023-1026.

(2) Donald Pitcher, **An Historical Geography of the Ottoman Empire**, pp. 107-109.

نفوذهم على المغرب. وكان معتمدهم في ذلك على العلماء المغاربة من جهة. ومن جهة أخرى على إدخالهم أول مطبعة ذات حروف متحركة بمدينة فاس سنة 1906 إدخالا مثيرا للاهتمام[3]. وعليه، فإنه من الأهمية بمكان الاطلاع عن كثب على الكيفية التي أقدم بها العثمانيون على اتخاذ خطوة أولى من نوعها شكلت سابقة للعالم الإسلامي بما فيه المغرب.

إن دخول الطباعة إلى تركيا يعود إلى فترة تاريخية باكرة يمكن حصرها في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، حيث يعتقد أن أحد اليهود المبعدين من إسبانيا، ويدعى داود نهمية (David Nahmias)، قد فتح ورشة للطباعة في إستنبول وتمكن من طبع أول كتاب سنة 1503. وخلال المدة الفاصلة بين 1503 و1593، تمكنت بعض الأسر اليهودية التي امتهنت الطباعة أمثال آل جيرسون (Gerson) وياعبيز (Ya'abez) من إصدار مائة عنوان لفائدة يهود إستنبول الذين كان يقدر عددهم بثلاثين ألفا[4].

ومن الجوانب المهمة لتاريخ الطباعة في تركيا، قيام السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481–1512) وخلفائه الذين تعاقبوا على الحكم من بعده، لمدة قرنين من الزمن على الأقل، بمنع رعاياه المسلمين من استعمال الطباعة. وذلك في حين سمح للرعايا من غير المسلمين، كاليهود والمسيحيين، بطباعة كتبهم المحررة بلغات مختلفة كالعبرية واللاتينية والأرمنية[5].

وفي سنة 1588 أصدر السلطان مراد قرارا يقضي بالسماح للأوربيين بتوزيع سلعهم المختلفة داخل الإمبراطورية العثمانية بما فيها الكتب المطبوعة ذات المواضيع العلمية فقط سواء أكانت مكتوبة باللغة العربية أم الفارسية أم التركية. وشمل ذلك القرار مختلف أرجاء الإمبراطورية بما فيها بلدان العالم الإسلامي وأجزاء هامة من أوربا المسيحية الممتدة ما بين مدينتي فيينا وإستنبول[6].

---

(3) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، انظر الفصلين السادس والسابع من هذا الكتاب.

(4) Jeno Zsoldos, «Istanbul» in **Encyclopædia Judaïca**, 1971 edition, pp. 1098-1099.

(5) خليل صابات، **تاريخ الطباعة في الشرق**، ص. 23–24.

(6) نُشر قرار السلطان مراد الصادر سنة 1588 في نهاية كتاب أوقليدس المنشور في روما سنة 1594 تحت عنوان: **Elements** وربما كان الناشر يهدف من وراء نشر ذلك القرار تسهيل عملية توزيع الكتاب في أرجاء الإمبراطورية العثمانية وفي بقية بلدان العالم الإسلامي.

وفي غياب أي تفسير للدوافع التي أدت إلى إصدار العثمانيين سنة 1494 قرار منع الطباعة على المسلمين، وفي غياب أي ردود فعل من المسلمين على الطباعة، فإن جل المؤرخين أمثال كارتر (Carter) وصابات (Sabat) وغيرهم، يذهبون إلى القول بأن الموقف المعادي الذي يقفه الأتراك والمسلمون عموما من الطباعة يعود أساسا إلى «القوة الرجعية المتمثلة في العلماء وأيضا في السلاطين الذي كانوا يخشون أن يترتب على استعمال الطباعة حدوث يقظة يمكن أن تعرض نفوذهم وسلطاتهم للتهديد»[7].

وعلى الرغم من أن الإسلام يمكن أن يضع عراقيل حقيقية أمام الطباعة، بحكم ما يتضمنه القرآن الكريم ككتاب مقدس من نصوص تعتبر كلام الله المُنزل، وبحكم نظامه التربوي والخصائص المميزة للغة العربية بأشكال خطوطها المعروفة، بالرغم من ذلك، فإنه لابد من التساؤل هل كان الأتراك العثمانيون قد رفضوا فعلا السماح لرعاياهم المسلمين بالاستفادة من خدمات الطباعة لأسباب دينية. وللإجابة عن هذا التساؤل، من المهم جدا طرح سؤالين لم يتم لحد الآن تحليلهما بما فيه الكفاية. ويتعلق السؤال الأول بالكيفية التي استعمل بها الأوربيون الطباعة منذ اختراعها في إطار علاقاتهم مع بلدان العالم الإسلامي، وخاصة مع الأتراك العثمانيين. ويهدف التساؤل الثاني إلى معرفة موقف العلماء من استعمال الطباعة عندما أصبحت هذه الأخيرة واقعا لا مناص منه.

وحسب النتائج التي توصلت إليها الباحثة آيزنستاين (Eisenstein) في كتابها الواسع الانتشار تحت عنوان : «الطباعة عامل تغيير»
The Printing Press as an Agent of Change يحسن اقتباس ما يلي :

«قيل إن حركة الإصلاح الديني في أوربا هي أول الحركات الدينية التي حظيت من الطباعة بالدعم. غير أن الممالك المسيحية الغربية قد سبق لها ـ قبل لوثر (Luther) بكثير ـ أن وجهت نداءاتها إلى الطابعين لحثهم على تقديم الدعم في مواجهاتهم مع الأتراك. كما هلل رجال الكنيسة للتكنولوجيا الجديدة واعتبروها هبة من السماء واختراعا أنعمت به العناية الربانية على البلدان الغربية دليلا على تفوقها على قوى الكفر الغارقة في جهلها»[8].

---

(7) Sabat, **Ibid**. See also Thomas Francis Carter, **Printing in China**, the chapter «Islam as obstacle to printing», also Lord Kinross, **The Ottoman Centuries**, p. 381.

(8) Eisenstein, **The Printing Press as an Agent of Change**, vol. 1, p. 30.

ولعل آيزنستاين تشير في قولها هذا إلى «صكوك الغفران» التي صدرت في سنة 1454 وطبعت في ماينز بألمانيا قبل صدور طبعة غوتنبرغ للإنجيل بثلاث سنوات. وكانت تلك «الصكوك» التي صدرت بأمر من البابا نيقولا الخامس (Nicolas V) تغفر ذنوب كل المسيحيين الذين أسهموا بأموالهم في دعم المجهودات الحربية لدولهم ضد الأتراك. ويعتقد أنه صدرت منها سبع نشرات بأسلوبين مختلفين لتوزيعها على المسيحيين في مختلف أرجاء الممالك الأوربية[9].

لم يقتصر توظيف الطباعة ضد الأتراك على البابا، بل تجاوز الأمر ذلك إلى جهات أخرى. إذ قامت دار غير تجارية للطباعة في السوربون، خلال سبعينيات القرن الخامس عشر، بنشر كتيب يحتوي خطبا دينية للكردينال بيساريو تحت عنوان: «مواعظ الكردينال بيساريو» Les Orations du Cardinal Bessario. كان هذا الكتاب ـ الذي تحتفظ الخزانة الوطنية في باريس بنسخة منه ـ عبارة عن «نداء وجهه الكاتب لتحقيق سلم شامل بين الدول المسيحية، حتى توحد صفوفها لمواجهة زحف القوات الإسلامية. وقد أرسلت نسخة من هذا الكتاب فاخرة الزخارف، ومعها رسالة شخصية إلى كل حكام الممالك الأوربية وإلى العديد من الشخصيات البارزة ذات النفوذ، تشمل توضيحات إضافية عن الأسباب التي أدت إلى إصداره»[10].

ثم إنه يرجح أن يكون الطابعون الأوربيون من ذوي النزعة التجارية قد ساهموا أيضا، عن غير قصد، في الرفع من درجة النفور لدى المسلمين من الطباعة، إذ يبدو أن مؤسسة للطباعة في هامبورغ لم تستفد من التجربة الفاشلة التي مر بها الإيطالي ألساندرو، فقامت في سنة 1694 بإصدار طبعة من القرآن لا تحمل عنوانا خاطئا فحسب، بل تتضمن أيضا مسا مباشرا بجوهر العقيدة الإسلامية. وكان عنوان النسخة الصادرة في هامبورغ هو: **القرآن وهو شرعة الإسلامية محمد ابن عبد الله**[11]. وكان من المفروض أن يكون العنوان السليم كالآتي: **القرآن، شريعة الإسلام**، مع تجنب ذكر اسم الرسول محمد بن عبد الله تماما، لأن المسلمين ـ كما هو معلوم ـ لا يعتبرون

(9) Philip Meggs, **A History of Graphic Design**, pp. 79-80.

(10) George Winship, **Gutenberg to Plantin**, p. 39.

(11) Wahid Gdoura, **Le début de l'imprimerie arabe à Istanbul**, p. 269.
ويحتوي هذا الكتاب على نسخة مصورة من الصفحة التي ورد فيها العنوان المذكور أعلاه.

النبي محمدا مؤلفا لنص القرآن بل إنسانا اصطفاه الله تعالى من بين عباده فأنزل عليه القرآن عن طريق الوحي.

وبناء عليه، يمكن افتراض أن العثمانيين كانوا على وعي تام بالنقائص التي تعتري عملية الطباعة، فتولد لديهم اقتناع تام بأنه يمكن توظيف تكنولوجية الطباعة بهدف إلحاق التحريف والتشويه بالعقيدة والحقائق الدينية للإسلام. فكانت النتيجة المنطقية التي ترتبت على هذا الاقتناع هي الاعتراض على استعمال المسلمين للطباعة. غير أن مثل هذا الافتراض يظل غير مقنع بما فيه الكفاية، لأن المجازفة بالتسليم به دونما حجج دامغة قد يجعل من الأتراك أناسا متحجرين يعوزهم الذكاء والتفكير السليم. وينطوي مثل هذا الافتراض على تناقض كبير، لأن العثمانيين كانوا قد بلغوا خلال هذه الفترة الزمنية أوج درجات القوة، ولو كانت لديهم رغبة في الحصول على وسائل الطباعة، لاقتنوا إحدى آلاتها لاستعمالها في أغراضهم الخاصة.

وحين أصبحت الطباعة قيد الاستعمال لأول مرة في الخمسينات من القرن الخامس عشر، كان السلطان العثماني محمد الفاتح على رأس الإمبراطورية العثمانية. وكانت لهذا السلطان ميول خاصة إلى المخترعات والمصنوعات الأوربية وإعجاب واضح بها. فقد كان أول حاكم دولة إسلامية يعتمد على خدمات مهندس مسيحي يوناني في وضع تصميم للجامع الكبير بإستنبول. كما كان محمد الفاتح أول سلطان مسلم يجرؤ على مخالفة التقليد الإسلامي الذي كان ينهى عن اتخاذ الصور، حين استقدم أحد الرسامين الإيطاليين ليضع له صورة شخصية خاصة. وحين توصلت جمهورية راكوزا (Ragusa) التابعة للبندقية إلى عقد سلام دائم مع العثمانيين، أكد السلطان محمد الفاتح على حكامها بأن يؤدوا له الجزية السنوية على شكل مواد مصنوعة أو مخطوطات ربما كانت باللغتين اليونانية واللاتينية[12]. وإذا أخذنا بعين الاعتبار مدى الإعجاب الكبير الذي كان يكنه السلطان للمصنوعات الأوربية فقد يبدو لنا من المنطقي جدا أنه لو كانت لديه رغبة في الطباعة أو حاجة إليها لاشترى إحدى آلاتها ولاستقدم أيضا الأفراد الضروريين لتشغيلها وتمكينه من اتخاذها وسيلة دعائية لصالحه وضد خصومه الأوربيين.

وبناء عليه، يمكن ـ على العكس من ذلك ـ تأكيد أن الدين الإسلامي

(12) مصطفى مومن، قسمات العالم الإسلامي، ص. 33ـ35.

والطريقة التي كان العلماء المسلمون يحافظون بها على القرآن الكريم باعتبارهم إياه معجزة إلهية من جهة أولى، وبينائهم كلًا من نظامهم التربوي والعلمي على أساس مضامين القرآن ومحتوياته من جهة ثانية، قد كانت الأسباب الفعلية التي حالت دون شروع العثمانيين في توظيف تكنولوجية الطباعة. هذا بالإضافة إلى أن الطباعة كانت من اختراع البلدان المسيحية، وكان استعمال العثمانيين لها يعني ضرورة استخدامها في طبع النصوص الإسلامية في ظرف تاريخي كان فيه المسلمون، المتمثلون في الإمبراطورية العثمانية، متفوقين بشكل واضح على الأوربيين الذين كانوا يعيشون السنوات الأولى من يقظتهم ومن مسيرتهم نحو الحداثة بمختلف أشكالها وما ترتب عليها في نهاية المطاف من قوة شملت كل الميادين.

غير أن هذا التفوق الإسلامي قد اتخذ فيما بعد اتجاها عكسيا وتحول تدريجيا إلى تقهقر وانهيار واضح أمام انتفاضة أوربا التي برزت كقوة تكنولوجية ذات مكانة عالية. ونتيجة لهذا التفاوت الحاصل في ميزان القوى بين الطرفين، تولد لدى المسلمين بالضرورة اتجاه جديد في التفكير. وكلما اشتدت درجة تهديد الأوربيين للعالم الإسلامي وأصبحت أمرا فعليا ازداد اقتناع الحكام المسلمين ومعهم العلماء بمدى ضرورة محاكاة الأفكار الأوربية والدعوة إلى العمل على جلب وسائل التكنولوجيا الغربية بما فيها الطباعة.

وابتداء من القرن السابع عشر، الذي سجل بداية دخول الإمبراطورية العثمانية مرحلة الضعف والانحلال، بدأت عناصر تركية تشعر بأن التفاوت الكبير بين إمبراطوريتهم والدول الأوربية قد أصبح أمرا حقيقيا لا يمكن التغاضي عنه[13]. ومن ثمة وجهوا نداءاتهم إلى حكامهم ليقوموا بالإصلاح اعتمادا على العناصر نفسها التي بنى خصومهم الأوربيون نجاحهم العلمي والتكنولوجي على أساسها.

وكان من رجال الدولة والعلماء العثمانيين خلال القرن السابع عشر، عالم يدعى حاجي خليفة، المشهور أيضا باسم كاتب جلبي، الذي استطاع أن يدرك بوضوح مدى الاختلال في التوازن الذي لحق بالإمبراطورية، فاهتدى بنظرته الصائبة إلى توجيه الدعوة إلى مواطنيه لحثهم على المبادرة إلى أخذ الدروس من الأوربيين بالاقتباس من

(13) Bernard Lewis, «Ottoman Observer of Ottoman Decline» in **Islamic Studies**, vol. 1, n° 1 (March 1962), pp. 71-87.

أفكارهم وتبني تكنولوجياتهم. ونظرا لكون هذا الرجل من رواد المفكرين ونظرا للمكانة التي احتلتها كتاباته وأنشطته بصفته نموذجا بارزا في إطار التوجه الفكري الإصلاحي، ارتأينا أهمية إلقاء نظرة على فصول من حياته لمعرفة كيف ولماذا تميز جلبي عن بقية معاصريه.

كانت ولادته في إستنبول سنة 1609، حين شغل والده بها منصب سكرتير للمالية، وعند بلوغه سن الخامسة أو السادسة أتى له بمعلم يشرف على تربيته، فتعلم القراءة والكتابة وتلاوة القرآن، إلى جانب اللغتين العربية والتركية وقواعدهما النحوية والبلاغية. ويبدو أن والده الذي كان وقتئذ على رأس وزارة مالية الإمبراطورية ضمه إليه كاتبا منذ سن الرابعة عشرة، فاكتسب خبرة في ميدان المحاسبة. وفي مدة لم تتجاوز السنة رافق جلبي والده أثناء الحملات العديدة التي قامت بها الجيوش العثمانية إلى بعض أقاليم الإمبراطورية، كإيران وقيسارية والعراق. وسنحت له بذلك الفرصة لمعاينة الصعوبات الكبيرة التي كان يعاني منها الرعايا العثمانيون، كالمجاعات والتضخم المالي والضرائب المجحفة التي كانت تثقل كاهلهم. وأثناء تلك الحملات أيضا، فقد جلبي والده. وظهرت في كتاباته التي حررها فيما بعد انطباعاته عن تلك المرحلة المبكرة، التي قدمها أمثلة على الفوضى العارمة التي كان نظام الحكم العثماني سببا في حدوثها.

وعند عودة جلبي إلى إستنبول في عام 1628، تابع الدروس التي كان يلقيها الفقيه قاضي زادة بجامع محمد الفاتح، في مواضيع متنوعة كالفقه والشريعة وتفسير القرآن الكريم[14]. غير أن جلبي لم يتفرغ بشكل تام للدراسة والتأليف إلا بعد حلول سنة 1645، أي بعد أن أصبحت لديه ثروة مالية طائلة حصل عليها بالإرث[15]. ويبدو أن امتلاكه لتلك الثروة منحه الحرية الكاملة لتعميق دراساته والكتابة في المواضيع والقضايا التي كانت تشغل تفكيره وتحظى باهتمامه.

---

(14) كاتب جلبي، **كشف الظنون**، الجزء 1، ص. 13–18. تحتوي هذه الصفحات على السيرة الذاتية لجلبي مترجمة إلى العربية من مخطوط تركي على يد محمد شرف الدين بالتقيا، وهو الذي تولى نشر كتاب **كشف الظنون** المشار إليه أعلاه.

(15) Orhan Saik Gokyay, «Katib Çelebi», in **Encyclopædia of Islam**, n.e, pp. 760-762.
وانظر أيضا المرجع السابق الذكر لجلبي، ص. 15

وينفرد جلبي في ذلك بخصائص مميزة، على الرغم من أنه تلقى تكوينه الأساسي وفقا للنهج التربوي التقليدي نفسه السائد في البلدان الإسلامية. إذ قرر، على عكس معاصريه، اتباع نهج مغاير في اكتساب المعرفة والتعامل مع مختلف العلوم. وفي ذلك الإطار، ركز اهتماماته على دراسة عميقة لتاريخ أوربا ومواد الجغرافية والاقتصاد وما يرتبط به من ميادين كالزراعة والبستنة. كما اهتم بالاطلاع على أدب الرحلات والكشوفات، بالإضافة إلى مختلف الآثار الأدبية المشهورة والأفكار الإصلاحية التي بنت عليها أوربا يقظتها الحديثة[16].

وهناك عوامل عدة أدت إلى إقدام جلبي على تغيير اتجاهه والتخلي عن النهج التقليدي الذي كان سائدا في الدراسات الإسلامية. يتمثل العامل الأول في خيبة الأمل العميقة التي أصابت جلبي نتيجة تخلي رؤسائه المباشرين عن مساندته للترقي في مراتب الإدارة واحتلال منصب كاتب في الحكومة العثمانية[17]. ولذلك استقال من مهامه الرسمية وتفرغ لاهتماماته الفكرية التي كانت تحظى في نفسه بمكانة أسمى، بمجرد ما توافرت له القدرة المالية الضرورية لإعالة نفسه. وأما العامل الثاني، فهو أن جلبي قد أبدى علامات واضحة على استيائه من سلوك الإدارة التي كانت تشرف على الحياة العلمية في إستنبول، كما بدأ يحس بأن النظام التعليمي السائد في أرجاء الإمبراطورية العثمانية قد أصبح قديما. ويمكن أن تستشف خيبة أمله تلك من خلال ثلاثة أشياء. أولها، عدم إتمام كتاب كان قد شرع في تأليفه في موضوع تفسير القرآن. وثانيها، وضع تأليف جمع فيه عدة فتاوى متناقضة صادرة عن مختلف علماء الإمبراطورية وشيوخها. غير أن هذا التأليف يعتبر في عداد الكتب المفقودة، وربما اندثر بسبب اللهجة النقدية الصارمة التي خاطب بها العلماء. وثالثها، أن جلبي عندما كان بصدد الحديث، في كتابه **كشف الظنون**، عن المبادئ المنطقية السبعة الوسيطة المعمول بها في وضع الكتب وتأليفها، نجده يتعمد تعويض المبدإ المنطقي الأول «استنباط» بمصطلح مغاير تماما هو «اختراع»[18]، وكأنه يريد القول إن العلماء

(16) المرجع نفسه.

(17) المرجع نفسه.

(18) جلبي، المرجع السابق، ص. 35. وضع جلبي المبادئ المنطقية السبعة الواجب احترامها في الكتابة كما يلي : 1) اختراع شيء جديد ؛ 2) إتمام الأشياء الناقصة ؛ 3) توضيح كل ما هو غامض ؛ 4) التلخيص دون فقدان المعنى الأصلي ؛ 5) جمع المتناثرات ؛ 6) ترتيب المختلطات ؛ 7) تصحيح أخطاء المؤلفين.

المسلمين قد استخرجوا ما فيه الكفاية من معاني القرآن وغيره من بقية النصوص الإسلامية واستنبطوه، وأنه قد أصبح من الواجب عليهم الاهتمام أكثر بالعلوم والمخترعات.

لكن على الرغم من خيبة أمل جلبي في حكومة بلاده وفي نظامها التقليدي السائد في الدراسات الإسلامية، فقد ظل يكن في قرارة نفسه تقديرا كبيرا لبلده ويولي الإمبراطورية العثمانية ومستقبلها اهتماما بالغا. وعليه، قدم جلبي نفسه من خلال كتاباته نموذجا للعالم المثالي المنشود. ونجده يصف التوازن المختل الذي تعيشه الإمبراطورية في رسالة بعنوان : **دستور العمل في إصلاح الخلل** بالعبارات التالية :

«والحالة هذه، فإن الخزينة لا تحتوي إلا على مقادير مالية ضئيلة. وبالمقابل فإن الجهاز العسكري الضخم يتطلب مصاريف هائلة، في وقت يعاني فيه الرعايا العثمانيون من العوز بشكل يجعلهم عاجزين عن أداء ضرائب إضافية»[19].

أما سبل العلاج في نظر جلبي، فواضحة تمام الوضوح. إذ يرى أنه :

«لا دولة بلا رجال، ولا رجال بلا سلاح، ولا سلاح بلا مال، ولا مال بدون رعية، ولا رعية بلا عدل»[20].

على الرغم من توقف جلبي عن توجيه الدعوة إلى ضرورة القيام بهيكلة جديدة للنظام التربوي والتعليمي الإسلامي على أساس نقل الاهتمامات التربوية من التركيز على الدراسات القرآنية والفقهية إلى المواضيع العلمية والدنيوية، فقد شرع في العمل على تزويد قرائه بكتب أخرى قدم فيها أوصافاً للدول الأوربية مع التركيز على تاريخها حتى يقارن بين حالة الضعف التي كانت فيها من قبل ويكشف عن العوامل التي مكنتهم بها من تغيير أوضاعها والدخول في مرحلة جديدة تميزت بالقوة على جميع المستويات. بالإضافة إلى ذلك، أكد جلبي على أهمية الجغرافية والبحوث الاستكشافية، وعلى أهمية استعمال الخرائط العلمية والخرائط الملاحية على المنوال نفسه الذي كان يقوم به الأوربيون المعاصرون[21].

---

(19) جلبي، **إصلاح الخلل**، ص. 7، 20.

(20) المرجع نفسه، ص. 3. تنطوي هذه العبارة على مقولة كانت معروفة جدا في الأدبيات الوسطوية، أخذا عن سر الأسرار المنسوب نحلا لأرسطو.

(21) Gokyay, op. cit, p. 762.

وحتى تكون لجلبي القدرة على تعميق معارفه حول أوربا والأوربيين، فقد كان عليه الإلمام باللغتين اللاتينية والفرنسية أو غيرها من اللغات الأوربية. ويبدو أنه عوضا عن تعلم إحدى تلك اللغات قد فضل الاعتماد على مساعدة أحد رجال الدين الفرنسيين الذي اختار الدخول إلى الإسلام واستقر في إستنبول باسم محمد إخلاصي. ومن الكتب التي عمل إخلاصي على نقلها إلى التركية لفائدة جلبي كتاب «أطلس القاصر» **The Atlas of Minor**، بالإضافة إلى كتاب «الإخباريات» **Chronicle** الصادر في باريس بتاريخ 1548 لصاحبه يوهان كاريون (Johann Carion)[22]. ولا يظهر بوضوح إن كان جلبي قد اهتم بأفكار النهضة متأثرا في ذلك بإخلاصي. غير أن هذا الاحتمال وارد جدا، وخاصة في غياب تفسير آخر للتحول الذي طرأ بشكل لافت للنظر على التوجه التربوي والثقافي الإسلامي لكاتب جلبي. ولو صح هذا الافتراض، لكان جلبي، بالفعل، من أوائل علماء المسلمين القلائل الذين أداروا وجهتهم نحو أوربا بحثا عن الأفكار الإصلاحية وقد استعمل رجال الإصلاح المسلمون في وقت لاحق القناة نفسها لتوجيه دعواتهم إلى رجالات دولهم وإلى عامة الناس لحثهم على اقتناء الوسائل التكنولوجية للطباعة واستعمالها.

إن تاريخ توجيه نداء حقيقي إلى المسلمين لجلب وسائل الطباعة من بلاد الغرب يعود إلى العشرينيات من القرن الثامن عشر، في أعقاب السفارة التي أرسلها إبراهيم باشا، الصدر الأعظم للإمبراطورية العثمانية، إلى لويس الخامس عشر ملك فرنسا برئاسة مبعوثه محمد جلبي، لعقد تحالف سياسي بين العثمانيين والفرنسيين. وفي الوقت نفسه، تلقى جلبي تعليمات للقيام بزيارات إلى مختلف معالم الحضارة الفرنسية، ومن بينها القلاع العسكرية والمصانع وكل ما كان يمكن الإمبراطورية العثمانية أن تستفيد منه في مختلف مجالات الحياة. وترك جلبي عن رحلته تلك إلى فرنسا مذكرة قيمة اعتمدت مرجعا أساسيا للتحولات التي شهدتها تركيا في مراحلها التاريخية اللاحقة[23].

«قال محمد (جلبي)، الذي اصطحب في رحلته ولده [سعيد]، إنه كان من أوائل الأتراك الذين تعلموا اللغة الفرنسية. وحين كتب عن باريس، أكد أنه قد

(22) المرجع نفسه.

Kinross, op. cit, pp. 380-381. (23)

اكتشف عالما جديدا فأعجب بأشيائها الغريبة التي لم تكن مألوفة لديه، من تقنيات ومهارات طبية، وحدائق نباتية وحيوانية، ومسارح ودور الأوبرا. وفوق ذلك كله، أعجب بشكل خاص بنظامها الاجتماعي المتميز بأسمى مظاهر الرقي الحضاري. ونظر بإعجاب واستغراب كبيرين إلى المرأة، «التي كانت تتمتع بوضعية أرقى من الرجال ولها الحرية الكاملة للذهاب إلى حيث تشاء». وأولى اهتماما خاصا بمعاينة المرصد الفلكي الباريسي ودائرة البروج الفلكية التي وضعها أولوغ باي أمير سمرقند وأحد مشاهير علم الفلك في القرن الخامس عشر. والتقى هناك بسان سيمون، فكتب عن لباقته وسلوكه القويم وذوقه الرفيع وعن حسن معاملته للنساء. كما أبدى عزمه على إنشاء دار للطباعة عند عودته إلى القسطنطينية»[24].

كان دخول الطباعة إلى الأراضي التركية بفضل الجهود التي بذلها سعيد بن محمد جلبي الذي احتل فيما بعد منصب الصدر الأعظم للإمبراطورية. وكان دخولها حين رفع إلى السلطان العثماني ملتمسا عرض عليه فيه ضرورة إنشاء دار للطباعة، وكان ملتمس سعيد على شكل تساؤل طرحه بالعبارات التالية : «لماذا بدأت الدول المسيحية، التي كانت ضعيفة بالأمس القريب بالمقارنة مع الشعوب الإسلامية، في بسط هيمنتها على العديد من الأراضي في العصور الحديثة، بل وتمكنت من إلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية المظفرة؟»[25]. وإجابة منه على هذا التساؤل، أضاف مرشدا إلى اتخاذ الحلول التالية :

«على المسلمين أن ينهضوا من سباتهم وغفلتهم. (...) اسمحوا لهم بالإطلاع على الأحوال العامة لأعدائهم. دعوهم يتصرفون بالحكمة والتبصر لتصبح عندهم معرفة عميقة بالمناهج الأوربية الجديدة، على مستوى التنظيم والخطط الحربية واستراتيجياتها. هذا بالإضافة إلى ضرورة الاهتمام بدراسة الجغرافيا وعلوم الملاحة بما فيها الخرائط البحرية التي مكنت المسيحيين من اكتشاف العالم الجديد والشروع في غزو الأراضي الإسلامية»[26].

وفي خلال سنة 1725 أو 1726، حصل سعيد على قرار سلطاني في هيئة رسالة معززة بتذييل صادق فيه شيخ الإسلام، عبد الله أفندي، على السماح له

---

(24) المرجع نفسه.
(25) المرجع نفسه.
(26) المرجع نفسه.

باتخاذ الإجراءات الضرورية لفتح دار للطباعة. وحين إنشائها، أسندت مهمة الإشراف على تسييرها إلى المجري إبراهيم متفرقة الذي اتخذ من إستنبول محل إقامته ومركزا لممارسة نشاطه كمحترف للطباعة(27).

ومن الجوانب ذات الأهمية البالغة التي يتميز بها مضمون القرار السلطاني ونص الفتوى المرفقة به، التأكيد على الاستمرار في منع طبع النصوص الإسلامية بما فيها القرآن والأحاديث النبوية والنصوص الفقهية بل وكتب علم الكلام، بدعوى أن لتلك الكتب علاقة مباشرة بالألوهية وبمكونات العقيدة الإسلامية(28). ويعني ذلك أن العثمانيين كانوا وما زالوا مصرِّين على رفض السماح باستخدام آلة مسيحية الصنع لطباعة الكتب الإسلامية المقدسة، خاصة وأن تحقيق ذلك قد يكون من شأنه إحداث الخلل في الطريقة التقليدية المعمول بها في صناعة الكتاب والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بوضعية العلماء والنظام التعليمي والتربوي الإسلامي(29).

ومن الأمور التي زادت تأكيد تلك الحقيقة إسناد مهمة الإشراف على تشغيل آلة الطباعة التي تم شراؤها من باريس إلى متفرقة الذي كان يدين سابقا بالمسيحية. ونظرا لافتقار متفرقة إلى الخبرة التقنية في مجال الطباعة، فقد اعتمد على مساعدة أحد اليهود الذي كان يعمل سابقا في إحدى ورشات الطباعة الموجودة منذ زمن بعيد في إستنبول، بالإضافة إلى استقدامه مصففين فرنسيين للمساهمة في تشغيل الآلة(30). وعلاوة على ذلك، يبدو ألا أحد من المسلمين حاول التمرس بتقنيات المهنة لضمان استمرار أعمال الطباعة في البلاد خلال المدة الفاصلة بين سنة 1728 التي شهدت صدور أول كتاب طبع تحت إشراف متفرقة، وسنة 1745 تاريخ وفاته. ولذلك كان طبيعيا أن تتوقف دار الطباعة فجأة عن مباشرة مهامها بعد وفاة مدير أعمالها.

---

(27) Niyazi Berkes, «Ibrahim Muteferrika» in **Encyclopædia of Islam**, n.e., pp. 992-998.

(28) يوجد نص الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام حول الكتب التي يسمح بطباعتها أو عدم طباعتها في أول كتاب نشره متفرقة وعنوانه **مختار الصحاح** لصاحبه الجوهري.

(29) **Berkes, op. cit**، وهناك اعتقاد بأن الكتاب والنساخ، حين رُخص باستخدام الطباعة في العشرينيات من القرن الثامن عشر، عبّروا عن احتجاجهم على ذلك بطريقة خاصة، إذ حملوا على أكتافهم تابوتا فارغا وضعوا بداخله مخطوطا، مستنكرين بذلك التهديد الذي بدأ يستهدف حرفتهم ويعرضها إلى الزوال لو انتشرت الطباعة الآلية.

(30) David Partington, «Arabic Printing», **Encyclopædia of Library and Information Science**, vol. 24, p. 60.

ولذلك، فإن إنشاء دار للطباعة في إستنبول إما أن يكون مجرد منة شخصية قُدمت إرضاء وتهدئة للمصلحين، أمثال محمد جلبي وإبراهيم متفرقة، الذين كانت لهم ألفة وحسن معاشرة مع الصدر الأعظم والسلطان العثماني، وإما أن تكون النوايا الفعلية من إنشائها هي التوصل إلى تحقيق الإصلاح دون المجازفة بوضع حد للطريقة التقليدية التي كانت ما تزال سائدة في صناعة الكتاب. وبغض النظر عن طبيعة هذه الدوافع، فإن آلة الطباعة وكل الكتب التي أصدرت بواسطتها قد ظلت على هامش النظام التربوي السائد عند العثمانيين، لأن الكتب الإسلامية لابد من أن تكون طرفا هاما يدخل ضمن التيار الرئيسي الذي يتحكم في صناعة الكتاب في إستنبول[31].

ومع ذلك، لم تذهب الجهود التي بذلها متفرقة كلها سدى، لأنه كان ذكيا في حصوله على حوالي ست عشرة رسالة من أبرز العلماء والقضاة المعاصرين له في ذكر مزايا تكنولوجية الطباعة والإشادة بها في الإطار الذي حدده القرار السلطاني والفتوى الصادرة عن عبد الله أفندي باستعمالها. بالإضافة إلى ذلك، استطاع متفرقة تحرير مقال هام جدا معروف بعنوان «وسيلة الطباعة»، ونشره ضمن أول النصوص التي أُصدرت بدار الطباعة في إستنبول إضافة إلى الرسائل الست عشرة المشار إليها آنفا والقرار السلطاني الذي كان يقضي بترخيص أعمال الطباعة المحدودة. وكان هدفه التأكد من أن عموم الناس وبقية العلماء قد أصبحوا على بينة من مطابقة أعماله تلك للقوانين الشرعية، ولإقناعهم في الوقت نفسه بالنتائج الإيجابية الواضحة التي يمكن تحقيقها عند توظيف تكنولوجية الطباعة[32].

أبدى الأتراك العثمانيون درجة كبيرة من التجاهل لتكنولوجية الطباعة مدة قاربت أربعين سنة، غير أن فوائدها الجمة التي سبق لمتفرقة أن أحصاها ظلت عالقة في الأذهان. وخلال الثمانينات من القرن الثامن عشر أقدم السلطان سليم الثالث على مبادرة لإحياء الطباعة، فأدخلها ضمن جهوده الهادفة إلى إصلاح الجيش وإعادة تنظيم الشؤون المالية للإمبراطورية. وتابع سليم الثالث نهج أسلافه في رفض السماح بطبع النصوص الإسلامية. غير أن بعض المسلمين، أمثال عبد الرحيم أفندي، بدأوا

---

(31) لمزيد من المعلومات عن تأثير الطباعة على الحياة الثقافية في إستنبول خلال هذه الفترة، انظر :
Wahid Gdoura, Le début de l'imprimerie Arabe à Istanbul.

(32) **Berkes, op. cit.**

يتمرنون على بعض الأشغال المطبعية وخاصة منها تحضير الحروف[33]. وكان من شأن ذلك أن يجعل التكنولوجيا الجديدة أقرب إلى قلوب المسلمين. لكن الطباعة لم تحظ بالقبول التام إلا مع حلول القرن التاسع عشر حين بدأ العلماء يدركون بحق، يوما بعد يوم، مدى أهمية الطباعة وانعكاساتها الإيجابية الكبيرة على كل جوانب الحياة العلمية والتعليمية[34].

ويعتبر العالم العثماني المستعرب محمد حقي[35]، أبرز نموذج يمكن الإشارة إليه في إطار الحديث عن المراحل الأولى التي انتقلت فيها النصوص الإسلامية إلى عالم الطباعة، حيث وضع عشرة تعاليق أبرز فيها فضائل الطباعة ومزاياها، ويعتقد أن تأليفها كان في سنة 1839. إن المبادئ التي وضعها حقي ليست في الواقع، كما سنرى، سوى تلخيصا لمقال متفرقة المشار إليه آنفا «وسيلة الطباعة». غير أن هناك اختلافات أساسية ذات دلالة تتعلق بالطريقة التي قدم بها الرجلان موضوعيهما دفاعا عن الطباعة.

وأذكر ــ فيما يلي ــ التعاليق العشرة التي وضعها حقي وأقارنها بمثيلتها الواردة عند متفرقة. والهدف من هذه المقارنة هو تسليط الأضواء على الأسباب الرئيسية التي جعلت العلماء يوافقون على فكرة الانتقال من النص المخطوط إلى الحروف المطبوعة، وأيضا إثبات كيف استعمل المصلحون، أمثال متفرقة، الطباعة عنصرا للشروع في التغيير، وكيف استعملها العلماء التقليديون أمثال حقي حفاظا على الوضع الراهن بل والعمل على إحياء الإسلام وفقا للأسس التقليدية. ولكل هذه النقاط علاقات مباشرة بالمغرب، لأن العلماء استفادوا كثيرا من تكنولوجية الطباعة للرفع من شعبيتهم

---

(33) Kinross, op. cit., p. 420 ؛ أيضا Sabat, op. cit., p. 27.

(34) لا يعرف بالضبط التاريخ الذي سمح فيه العلماء بطبع النصوص الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك، يبدو لنا إذا اعتمدنا على الفهارس العديدة للمطبوعات العثمانية، أن سنة 1818 قد شكلت نقطة تحول لتاريخ الطباعة في العالم الإسلامي، لأن عدد النصوص الإسلامية المنشورة قد سجل ارتفاعا واضحا بعد هذا التاريخ. ونذكر من تلك المنشورات الباكرة كتاب إسماعيل الكلنبوي : **حاشية على جلال الدين الدواني**، طبع في إستنبول سنة 1818. والكتاب لا يحمل اسما للناشر ؛ غير أن اسم عبد الرحيم أفندي ورد في الخاتمة طابعا. وقد يُفهم من ذلك أن عملية النشر قد تمت تحت إشراف الباب العالي، وأن عبد الرحيم كان موظفا في مطبعة تملكها الدولة ليس غير.

(35) سركيس، **معجم المطبوعات**، الجزء 1، ص. 784ـ785. ويؤكد فيه أن وفاة حقي كانت بتاريخ 1883، وأن أول كتبه **خزينة الأسرار** طبع في القاهرة سنة 1872.

والاستمرار في الحفاظ على تقاليدهم العريقة. وقد ورد ذكر التعاليق العشرة لمحمد حقي عند المغاربة أكثر من مرة في محاولاتهم الهادفة إلى العمل على جلب تكنولوجية الطباعة إلى المغرب.

فلنحاول إذن الاطلاع على الطريقة التي دافع بها حقي عن الطباعة لنقارنها فيما بعد بأسلوب متفرقة المتميز حتى نعرف الفروق الموجودة بين الرجلين ومدى قدرتهما على التأثير في المسلمين لإقناعهم بضرورة استعمال آليات الطباعة اعتمادا على الحديث النبوي الذي يقول : «ما رآه المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن». قدم محمد حقي إلى قرائه توطئة موجزة وألحقها مباشرة بتعاليقه العشرة حول الطباعة نوردها فيما يلي :

«ومن جملة إحداث الحسنات طبع الكتب بدل التحرير بالأقلام، فإنه أحدث في دار الإسلام سنة ثمان وثلاثين ومائة ألف (1725/1726) فتشاور علماء إستنبول بينهم مرارا واتفقت ءاراؤهم عليه وبينوا فيه عشر فوائد، وأفتى به شيخ الإسلام عبد الله أفندي وأراده السلطان أحمد الغازي.

الفائدة الأولى : صنعة طبع الكتب أجود المنافع وأسرع الحصول إلى ما يحتاج إليه العوام والخواص.

الثانية : أن المجتهدين والمؤلفين رحمهم الله سعوا وبالغوا في جمع الفوائد والفواضل تقوية للدين المحمدي ونظام الشريعة الأحمدية وأحبوا انتشارها إلى الأكناف والأطراف، فوضعوا المؤلفات من أول ظهور الإسلام، فإذا طبعت تلك المؤلفات نشرت في العالم في زمن يسير ببركة معجزاته صلى الله عليه وسلم وعلى ءاله وكرامات المؤلفين رحمهم الله.

الثالثة : إن الكتب المطبوعة إذا طبعت بتصحيح المصحح الكامل فيفهم الطالب سريعا، إذ الكاتب قد يكتب على الغلط وتارة يمسح المراد، ولذا لا يحتاج المعلم والمتعلم إلى نسخة أخرى ويسهل عليهم الفهم، وتبقى الكتب المطبوعة عارية عن الفساد فلا يمسح بالرطوبة.

الرابعة : أن صنعة طبع الكتب تحصل فيها بركات كثيرة وفوائد لا تحصى، وأعظم المنافع تحصيل ءالاف من الكتب في زمان تحرير كتاب واحد كلها صحيحة العبارة مع النفع لأشخاص كثيرة بقليل القيمة ينال منها كثير من الفقراء والأغنياء مرامهم فيحصل فهم كثير من العلوم ويبلغون إلى الكمال في مدة قليلة.

الخامسة : أن صنعة طبع الكتب مرتبة فهرسة الكتاب على طريق الإجمال ومبينة أوراقه وسطوره بالأرقام الهندية كما هو في زماننا.

السادسة : ترخيص قيمة الكتب وتسهيل تملكها فينشر في البلاد والقرى ويشتريه أهاليها. وقد كنت أردت كتابة نسخة أخرى من خزينة الأسرار في إستنبول فطلب الكاتب أجرة النسخ خمسمائة وألف قرش فتركت ما في يدي من تحريره أولا. وسمعت من أستاذي الحاج أوليا زمن تحصيلي العلم بإصطنبول قال أن الحاج أيوب رحمه الله أمرني أن تشتري له تفسير روح البيان ليضعه في خزانة الكتب فوجد في يد رجل طلب مني فيه خمسة عشر ألفا، فأبى فاشتراه آخر منه بخمسة عشر ألفا ووضعوه في خزانة الكتب. فها هو الآن أي روح البيان قيمته أربعمائة أو أقل ببركة المطبعة فيملكه الفقير والعاجز.

السابعة : أن الطبع تكثر به الكتب وتوضع في الخزانة ويكتب منها الطالب ويطالع ما أراد ويرغب فيها وتعمر بكثرة الكتب بلاد المسلمين.

الثامنة : أن الطبع يكثر به الكتب وينشر إلى الأكناف والأطراف في بلاد المسلمين وهو سلطنة الدولة العثمانية ورغم الكفار وجهاد عليهم بجنود الله. خصوصا إن كانت تلك المطبوعات من التفاسير والأحاديث وأسرار القرءان وخواصه والدعوات المأثورة وفضائل الصلاة والسلام على سيد الأنام، فإن كلماتها جنة وأسلحة من الآفات والبليات في أي موضع كانت وجالبة للرحمة والبركة ونزول السكينة والوقار والرضى وأسباب النصرة الإلاهية في ألسنة المؤمنين والمؤمنات، ولذا قالوا نعم العون طبع الكتب.

التاسعة : صنعة طبع الكتب عربية وعجمية وهي مباركة إن طبعت في يد الإسلام، وإن طبعت في يد الكافر فلا بركة فيها.

العاشرة : صنعة طبع الكتب لم تقع في الأيام الأول ثم أحدثت فوجد فيها منفعة باهرة في نشر العلوم ظاهرة»[36].

يمكن المرء أن يلاحظ، بعد القيام بمقارنة وجيزة بين المبادئ العشرة التي وضعها محمد حقي ومثيلتها الواردة عند متفرقة في مقالته «وسيلة الطباعة»، أنه بقدر ما توجد نقط تشابه كبيرة بينهما، توجد أيضا نقط اختلاف واضحة بين سياقي رسالتيهما. وليس التشابه الموجود بين ما كتبه حقي ومتفرقة حول «عامل الطباعة»

---

(36) حقي، مفزع الخلائق، ورد ذكره عند المهدي الوزاني في كتابه المعيار الجديد، الجزء 11، ص. 336-337.

ناجما في واقع الأمر عن وجود تشابه في التجربة التي مر منها الرجلان. بل على العكس من ذلك، فإن المبادئ العشرة الواردة أعلاه ليست في الحقيقة سوى اختزال للأفكار الواردة أصلا عند متفرقة. وباستثناء بعض الإضافات أو التحويرات القليلة التي يمكن نسبتها إلى حقي، فإن كل الأفكار تتوافق تماما مع ما كتبه متفرقة قبل حقي بأزيد من قرن.

ومن أكبر الهفوات التي ارتكبها حقي في هذا الإطار، عدم تردده في نسبة تلك المبادئ العشرة إلى علماء الإسلام واعتبارها قد حظيت بإجماعهم، بدل أن ينسبها إلى متفرقة مؤلفها الحقيقي. ومن الممكن تأويل تلك الهفوة الكبيرة على أنها من باب السرقة الأدبية. وهناك تفسير يمكن أن يساعدنا على فهم سبب ارتكاب حقي لهفوته، إذ يمكن الاعتقاد بأنه عزا فضائل الطباعة الواردة في رسالة متفرقة إلى العلماء العثمانيين، لكسب التأييد الهادف إلى انتشار الطباعة في الأوساط الإسلامية.

وهناك مشكل ثان على مستوى كبير من الأهمية تطرحه مبادئ محمد حقي العشرة السابقة الذكر، إذ يبدو منها أن حقي يجعل القارئ يميل إلى الاعتقاد أن علماء المسلمين قد سمحوا بطباعة النصوص الإسلامية منذ سنة 1725 أو 1726، وفي ذلك تناقض تام مع الواقع الحقيقي الواضح تمام الوضوح في فتوى عبد الله أفندي. ذلك بأن الطباعة لم تحظ بقبول العلماء التام إلا في سنة 1818، حين بدأوا يسمحون بطباعة النصوص الدينية اعتمادا على التكنولوجية الجديدة[37]. ويمكن تعليل الأسباب الكامنة وراء طرح هذا المشكل بالحماس الشديد الذي كان يتميز به حقي في دفاعه عن الطباعة، غير أن حقي كان في واقع الأمر ينقصه الحذر والاحتياط في تعامله مع المعطيات الموجودة لديه. فقد أورد ـ مثلا فكرة متفرقة الأصلية في النقطة الخامسة المذكورة آنفا، على الشكل التالي :

«إن الكتب المطبوعة أحسن تنظيما من المخطوطات لأن لها فهرسة مرتبة، مرقمة بالأعداد الهندية، فتمكن من تبيين الأوراق وضبط أماكن الخطأ حسب الصفحات والسطور»[38].

يكمن الاختلاف الأكثر أهمية بين حقي ومتفرقة في شيئين اثنين، هما طريقة

---

(37) انظر التعليق الوارد أعلاه في الهامش رقم 34.

(38) متفرقة، «وسيلة الطباعة»، في كتاب مختار الصحاح، للجوهري. انظر المقدمة، الهامش رقم 5.

المعالجة والمنهجية التي استعملها كل منهما لتقديم الموضوع. فاختار حقي عند تقديم مبادئه العشرة استعمال مصطلحات صوفية كالكرامة والمعجزة والبركة. كما حاول جاهدا إقناع مخاطبيه بأن العمل على طبع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالإضافة إلى بقية النصوص الإسلامية على أيدي المسلمين ونشرها في كل أرجاء الإمبراطورية كفيل بتحويل تلك الكلمات إلى سلاح فعال وإلى قوة خارقة يمكن توظيفها في عملية الجهاد ضد أعداء الإسلام.

كان محمد حقي، العالم المتصوف التقليدي، من الكتاب المعروفين خلال القرن التاسع عشر في الجهات الرئيسية من العالم الإسلامي كمصر والحجاز وبلدان الشمال الإفريقي. وقد لقي كتاباه، **خزينة الأسرار ومفزع الخلائق** رواجا كبيرا، واهتم الناس بقراءتهما واستنساخهما[39]. ويعود في كتابه **خزينة الأسرار** إلى الإفصاح من جديد عن اعتقاده الشديد بالقوة الروحية التي تمتلكها الكلمات والآيات القرآنية، فيقول[40] :

«من كان له أمر مهم عسر عليه تحصيله أو دفعه وكتب سورة الإخلاص مع البسملة ألف مرة سارع الله تعالى بقضاء حوائجه وهي من المجربات... ومن كتبها مع البسملة سبع مرات على كأس من الطين ويشربها المريض كأن شفاه الله تعالى».

لا ندري ـ حتى الآن ـ إلى أي مدى كان حقي صادقا في توظيف التصوف ليمنح تكنولوجية الطباعة الشعبية التي كانت تفتقر إليها حتى ذلك الحين. غير أن العالم المغربي المتصوف والقاضي الشهير المهدي الوزاني، دون مبادئ حقي العشرة المخصصة لتعداد محاسن الطباعة في كتابه **المعيار**[41]، الذي يتضمن مجموعة من الفتاوى الصادرة عن مجموعة من مختلف العلماء المغاربة وغيرهم. وبما أن العلماء المتصوفة أمثال حقي والوزاني تبنوا الطباعة وشجعوا على استخدامها في كتبهم المتعلقة بالتصوف وعلوم الشريعة، فإن السلطات الدينية لم تكن ملزمة بإصدار فتاوى جديدة للترخيص بإنجاز الأعمال المطبعية، بل اكتفت على العكس من ذلك بالإحالة على إجماع العلماء على مشروعية استعمالها، وكانت تلك هي حالة المغرب كما سنراه في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب.

---

(39) سركيس، **المرجع السابق**. بلغ مجموع كتبه المنشورة، عشر عناوين.

(40) حقي، **خزينة الأسرار**، ص. 193، دار الكتاب العربي، بيروت.

(41) المهدي الوزاني، **المرجع السابق**.

كان متفرقة، على عكس محمد حقي وغيره من المتصوفة، نتاجا للثقافة الغربية ونظامها التربوي. ويخبرنا بيركيس (Berkes)[42]، وهو من المؤرخين الأتراك المتخصصين في التاريخ المعاصر، من خلال ما كتبه عن حياة متفرقة، بأن هذا الأخير قد تلقى تعليمه في كلية كلوسفار (Klosvar) في ترانسلفانيا، وكان ينوي أن يصبح قسا مُوَحِّداً. غير أن الظروف شاءت أن يأسر الأتراك متفرقة في إحدى المواجهات مع القوات النمساوية. ونتيجة لذلك، سقط في أحضان الاسترقاق، وأصبح في ملكية أحد الأسياد من ذوي الغلظة والشدة. ومن المحتمل أن تكون تلك المعاملة السيئة التي كان يعامله بها سيده سببا رئيسيا في اعتناق متفرقة الإسلام للحصول على حريته. ولهذا السبب أيضا كان اهتمامه بالدراسات الدينية ضعيفا طوال حياته. أمّا مقالته التي تحمل عنوان «رسالة إسلامية»[43]، فإنها لا تعدو أن تكون مجرد هجوم عاطفي على البابا وسلطته الدنيوية. وكان بإمكان أي من الموحدين المعاصرين له وقتئذ أن يعبر عن موقفه ذلك بالطريقة نفسها، خاصة وأن المذهب التوحيدي كان يقوم على أرضية أساسها ديني بالدرجة الأولى. ومع ذلك، استطاع بعد الرواج الذي عرفته مقالته السابقة الذكر، أن يتبوأ مكانة هامة بصفته واحدا من أبرز رجالات الدولة في الإمبراطورية العثمانية، حيث شغل مهام دبلوماسية، وأصبح مستشارا للسلطان العثماني في الشؤون الأوربية[44].

ونتيجة لطبيعة تكوين متفرقة وتجربته المكتسبة في الميدان السياسي، فإن اهتمامه الأساسي بتكنولوجية الطباعة ارتبط بمحاولته الهادفة إلى العمل على توجيهها توجيها كفيلا بأن يجعل منها عاملا من عوامل التغيير والإصلاح وفقا للتجربة الأوربية وفي المضمار نفسه الذي كان على إلمام تام بكل حيثياته. ويتضح من مضمون المقالة التي وضعها متفرقة حول الطباعة أنه قد كان لديه تصور محدد وهدف واضح. إذ كان يسعى جاهدا إلى التمكن من صد المد الكاسح الذي كانت تقوده الدول الأوربية الصاعدة بنجاح، وذلك بالعمل على دمقرطة التعليم والمعرفة لفائدة كل الرعايا العثمانيين، المقيمين منهم في القرى الصغيرة أو في الجهات النائية من الإمبراطورية، لإيمانه العميق باستحالة التفكير في الجهاد ضد أوربا في غياب المعرفة والتعليم. وكان

---

(42) بيركيس Berkes، المرجع السابق.

(43) Necatioglu, **Matbaci Ibrahim Mateferrika ve Risale-i Islamiye**, pp. 3-4

(44) Berkes, op. cit ; Necatioglu, op. cit

من الطبيعي أن تصبح الطباعة في إطار هذا المخطط، بفضل قدراتها على إنتاج أعداد هائلة من الكتب والنصوص، الوسيلة الفعالة والأداة الضرورية لتحقيق مثل ذلك الهدف(45).

وفي الوقت نفسه، لم يتغافل متفرقة عن تقدير الفوائد الأخرى لتكنولوجية الطباعة التي أشار إليها محمد حقي بطريقة مختصرة. غير أن متفرقة ذهب إلى أبعد من ذلك، فأعاد إلى الأذهان ما شهدته الكتب الإسلامية من إتلاف أساسي في بغداد على يد المغول وأيضا في بلاد الأندلس. وأكد أن كوارث من ذلك القبيل ما كانت لتحصل لو طبعت نسخ عديدة من تلك الكتب. وبالإضافة إلى اعتبار متفرقة الطباعة وسيلة للحفاظ على المعرفة، وجه النداء إلى المسلمين للعمل على إحياء الكتب الإسلامية القيمة بأن يطبعوها. وحتى يضفي على دفاعه المستميت عن الطباعة مسحة لا تخلو من الدرامية، أشار إلى اهتمام الأوربيين بطبع بعض النصوص الإسلامية الكلاسيكية مثل كتابي **الشفا** و**القانون** لابن سينا، للاستفادة من معلوماتها الطبية والفلسفية التي ساهمت في تقويتهم وتدعيم مكانتهم على العديد من المستويات(46).

إننا أمام نموذجين متناقضين تماما : متفرقة المصلح ورجل الدولة البراغماتي، ومحمد حقي الزعيم الروحي المتمسك بمعتقداته الراسخة في المعجزات والتقاليد الإسلامية بكل مكوناتها. وعلى الرغم من كونهما يشتركان في الاهتمامات نفسها ولهما الأهداف نفسها الرامية إلى صد مد الدول الأوربية الكاسح، فإن التكوين الذي يتميز به كل منهما، إلى جانب اختلاف معتقداتهما، قد جعلاهما يتجهان وجهتين متباينتين. فيرى متفرقة وغيره من الذين يشاطرونه وجهات نظره، أمثال كاتب جلبي وكل من محمد وسعيد أفندي، أن العلاج لا يمكن أن يتحقق إلا بدمقرطة المعرفة وفقا للأساليب والمناهج الأوربية. ويعني ذلك ضرورة اهتمام المتعلمين بالاطلاع على العلوم الدنيوية والآداب. في حين يرى حقي وغيره من العلماء التقليديين أن نشر المعرفة يعني تكوين عدد متزايد من الفقهاء المهتمين بالعلوم الدينية من أجل التوصل إلى الحفاظ على قوة المسلمين وموروثاتهم الحضارية التقليدية.

---

(45) متفرقة، المرجع السابق، النقطة الثامنة.

(46) المرجع نفسه، النقطة الثانية والتاسعة.

وباختصار، فإننا نجد أنفسنا أمام طريقتين مختلفتين لتصور طبيعة الإصلاح المرغوب فيه وفهمه، وإن كانتا كلاهما قد جاءتا أساسا كردّ فعل على صعود نجم أوربا وما ترتب عنه من تهديد للإمبراطورية العثمانية. هناك اتجاه أول يدعو إلى إحداث تغيير جذري بتحقيق دمقرطة التعليم ونقل الاهتمام من حقل العلوم الدينية والشرعية إلى حقل العلوم البحتة وما إليها من التخصصات التكنولوجية الواجب أخذها عن أوربا. وقد تبنت هذه المقاربة ثلة من المثقفين أمثال كاتب جلبي وإبراهيم متفرقة. أما الاتجاه الثاني، فكانت لدى دعاته رغبة في إحياء العلوم والأدبيات الإسلامية، مع إلحاحهم على أن عملية الإصلاح يجب أن تتحقق انطلاقا من مكونات الثقافة الدينية والتقاليد الإسلامية.

والسؤال الواجب طرحه هو معرفة الاتجاه الذي سلكه المغاربة، وهل استعمل المغاربة التكنولوجيا الغربية بالطريقة نفسها التي تصورها محمد حقي أم أنهم اتبعوا النهج الذي دعا إليه متفرقة. وسنحاول في الفصل التالي معرفة إلى أي مدى كانت للتجربة العثمانية أصداء في المغرب وكيف باشر المغاربة إدخال تكنولوجية الطباعة الوافدة من الغرب.

الفصل الخامس

الطباعة في المغرب
المحاولات المبكرة

الفصل الخامس

الطباعة في المغرب، المحاولات المبكرة

إذا حاولنا مراجعة تاريخ الطباعة في العالم الإسلامي بصورة عامة، تبين لنا بوضوح وجود ثلاث حالات متباينة لدخول تكنولوجية الطباعة إلى الأراضي الإسلامية. وقد ارتبطت الحالة الأولى بالأقليات، إذ أقدمت عناصر غير مسلمة من الجماعات اليهودية والمسيحية المقيمة في بلدان العالم الإسلامي، على محاولات تمكنت بها من الحصول على آلات خاصة بها لطبع كتبها الدينية. وأحسن نموذج على ذلك اليهود والأرمن الذين كانوا يقيمون في إستنبول، بالإضافة إلى المسيحيين الناطقين بالعربية والقاطنين في مدينة حلب. وارتبطت الحالة الثانية بالجانب الرسمي للدولة، حين اتجه مبعوثون رسميون في مهام دبلوماسية إلى العواصم الأوربية خاصة منها باريس التي اطلعوا فيها على الطباعة وتمكنوا أحيانا من اقتناء آلياتها هناك مباشرة أو بذلوا جهودا للتمكن من الحصول عليها فيما بعد. وأحسن الأمثلة التي يمكن الإشارة إليها في هذا الإطار نموذج المبعوثين العثمانيين الذين كانت لهم المبادرة الأولى، فتلاهم المصريون في سنة 1820 والتونسيون في سنة 1860. أما الحالة الثالثة والتي يمكن تسميتها بالنموذج الاستعماري، فقد ارتبطت بجلب الأوربيين لآلاتهم الطباعية لاستعمالاتهم الخاصة في البلدان الإسلامية التي كانوا يسيطرون عليها. وخير مثال على ذلك النموذج الفرنسي في مصر سنة 1798 وفي الجزائر سنة 1830[1].

أما المغرب، فتكاد الجهود التي بذلت فيه لإدخال آلات الطباعة إلى البلاد أن تشمل الحالات الثلاث المشار إليها، لكن مع اختلافات واضحة ناتجة عن حصيلة

(1) David Partington, «Printing», in **Encyclopædia of Library and Information Science**, vol. 24, pp. 54-75.

انظر أيضا : André Demeerseman, «Contribution à l'histoire de l'imprimerie Arabe en Tunisie», **IBLA**, vol. 25 (1962), pp. 135-145.

لا مثيل لها في أي بلد إسلامي. ذلك بأن مواطنا مغربيا اسمه محمد الطيب الروداني[2] من مدينة تارودانت الواقعة في أقصى الجنوب المغربي فاجأ موظفي المخزن بجلب أول آلة للطباعة إلى المغرب.

إن الدوافع التي جعلتنا نهتم بالأصول أعلاه هي الرغبة في التوصل إلى الإجابة عن السؤال التالي : لماذا كان المغرب آخر الدول الإسلامية التي أقبلت على استعمال الطباعة مع أنه شديد القرب من بلاد الغرب ؟ هل كانت للمغرب رغبة في الانطواء على نفسه اتقاءً من الحضارة الغربية أم أن تمسك المغرب الشديد بتقاليده الإسلامية ورفضه للتغيير هو الذي كان سببا في تأخير إقدامه على اتخاذ قرار تبني الطباعة ؟

ربما يعود تاريخ بداية الطباعة في المغرب إلى السنوات الأولى من القرن السادس عشر، إذ يعتقد أن اليهودي صمويل إسحاق (Samuel L. Isaac) قد أنشأ مع ولده دارا للطباعة العبرية في فاس وتمكنا معا من إصدار خمسة عشر عنوانا ما بين 1516 أو 1521 و1524. وقد اعتُمد في بلورة تلك الفكرة على الزيارة التي قام بها صمويل إسحاق إلى لشبونة حيث تعلم فن الطباعة وجلب منها أيضا إحدى آلياتها[3]. وتحتوي خزانة الكونكَرس في واشنطن على صفحات من عمل غير كامل، وهو شرح للطقوس الدينية وللتقويم العبريين من إنجاز أبي درهم (Abudarham)، وقد طُبع بواسطة الحروف المعروفة في لشبونة ويعتبر من العناوين الخمسة عشر التي صدرت في فاس. لكن هذا النموذج ـ ويا لَلأسف ! ـ لا يحمل أي تاريخ ولا أي اسم لمكان النشر حتى يمكن الاعتماد عليه كحجة دامغة تثبت أن العمل قد نُشر بالفعل في فاس[4].

وقد يدخل إنشاء دار للطباعة العبرية في فاس عند مطلع القرن السادس عشر، في إطار حالة الأقليات التي أشرنا إليها سابقا، كما يتلاءم مع الموقف العام

---

(2) المختار السوسي، خلال جزولة، الجزء 4، ص. 120ـ122. ويتضمن نبذة مختصرة عن حياة الروداني ووالده وكذا عن اثنين من إخوته.

(3) David Corcos, «Fez» in **Encyclopaedia Judaïca**, pp. 1255-1258.

وأيضا : Elkan Alder, **Jewish Travellers**, p. xx. Also, Aron Freimann, **Gazeteer of Hebrew Printing**.

(4) Sarah Wallace, «Editors Note», **The Quarterly Journal of the Library of Congress**. 3, vol. 27, n° 3(July, 1970), p. 183.

الذي كان سائدا عند المسلمين من تكنولوجية الطباعة والكتب غير الإسلامية. غير أن هناك شكوكا قوية لا تزال تحوم حول حقيقة وجود نشاط لأعمال الطباعة العبرية في مدينة فاس خلال القرن السادس عشر. فلو كانت هناك بالفعل آلة للطباعة عند يهود فاس كما كان شأن يهود إستنبول، لظهرت بعض آثارها في المصادر المغربية. ومن المستحيل إخفاء آلة ضخمة الحجم عن العيون الثاقبة لموظفي المخزن عند محاولة إدخالها عبر إحدى المراسي المغربية، كما لا يمكن حجبها عن الأنظار سنوات طويلة في مدينة فاس. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كلا من اليهود والمسلمين قد طردوا من إسبانيا والبرتغال عند نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر، ولو افترضنا أن إحدى المجموعتين أقدمت على جلب آلات غير معهودة، لوجدنا أصداء عنها في بعض المصادر. وعليه، فإن الشكوك ستظل قائمة حول حقيقة وجود دار للطباعة العبرية بمدينة فاس إلى حين ظهور معطيات جديدة في الموضوع. أما العناوين الخمسة عشر للكتب العبرية السابقة الذكر، فإنها قد تكون من الكتب التي جلبت من إسبانيا أو البرتغال أو ربما من البندقية التي كانت توجد فيها دور للطباعة تهتم بنشر الكتب العبرية من أجل التصدير[5].

وردت إشارة مهمة ثانية عن الطباعة على هيئة تقرير إخباري نشرته جريدة فرنسية بالقاهرة سنة 1799 اسمها «بريد مصر» **Courrier de l'Egypte** ونقتبس منه ما يلي :

> «وجهت حكومة نابليون الدعوة لمجموعة من خيرة العلماء أمثال المهدي والصاوي لمشاهدة آلة الطباعة ذات الحروف العربية والفرنسية المتحركة التي أنشئت حديثا بالقاهرة. وكان من أبرز المدعوين الشيخ محمد الفاسي الذي بادر إلى الإشارة معلقا بأنه قد شاهد أيضا آلة الطباعة الموجودة في إستنبول غير أنه يميل إلى الاعتقاد بأن مثيلتها في القاهرة تتميز عنها بسرعتها الفائقة وإنتاجها لكتب أرفع جودة»[6].

---

(5) تجدر الإشارة هنا إلى ألا أحد يعرف بالتأكيد متى طبع أول كتاب بالعبرية في إستنبول، وذلك لأن بعض الكتب العبرية التي يُظن أنها من مطبوعات إستنبول عند منعطف القرن السادس عشر، كانت خالية من تاريخ النشر ومكانه. وهنا أيضا مازالت الحاجة ماسة إلى معطيات إضافية لضبط دقيق للتاريخ الصحيح الذي بدأت فيه الطباعة العبرية في إستنبول. غير أن هناك بعض المنشورات العبرية القليلة التي تحمل تاريخ النشر ومكانه، وهي بذلك تختلف عن مطبوعات فاس.

(6) **Courrier de l'Egypte**, vol. 5 (1799), pp. 273-274.

إننا نجهل تماما الصفة التي حضر بها الفاسي في تلك المناسبة، فلا ندري هل كان من المسافرين أو أحد التجار المتجهين إلى مكة أو المدينة، أو ربما كان أحد أبناء شمال إفريقيا المقيمين في الديار المصرية(7). كما أننا لا ندري هل كان الفاسي بصدد المقارنة بين المطبعة الفرنسية الموجودة في القاهرة ومطبعة متفرقة أو بينها وبين الآلات المطبعية لثمانينيات القرن الثامن عشر التي كانت هي أيضا مستوردة من باريس(8). لكن إذا اعتمدنا على ما نعرفه جيدا عن التجربة العثمانية في ميدان الطباعة، فإنه من الممكن أن يكون الفاسي يقصد في تعليقه الإشارة إلى آلة الطباعة الموجودة في إستنبول منذ سنة 1780، والتي ظلت تعاني من مشاكل تقنية عديدة ناتجة عن غياب صناع مهرة يتقنون تحضير الحروف، بينما كان ذلك الإتقان الشرط الأساسي لإنتاج كتب عالية الجودة. ومن الأمور ذات الأهمية البالغة عند الفاسي والملاحظات التي أبداها حول الآلتين المطبعيتين الفرنسية منها والتركية الموجودتين في كل من القاهرة وإستنبول، هي أن بعض المغاربة على الأقل، وخاصة أولئك الذين اتجهوا في رحلات إلى المشرق سواء لأداء مناسك الحج أم لأغراض تجارية، كانت لهم دراية بوجود آلات للطباعة في العالم الإسلامي. لكن يبدو أنهم ما زالوا لم يهتموا ـ حتى ذلك الحين ـ بالذهاب إلى أبعد من ذلك وتقديم اقتراحات باقتناء المغاربة آلات لطباعة الكتب أو غيرها من المنشورات. ويبدو أن ذلك كان أمرا منطقيا، لأن المغاربة كانوا مكتفين ذاتيا بخدمات النساخ ولم يكونوا في حاجة ماسة إلى خدمات المطبعة.

أما الإشارة الثالثة التي تهم الطباعة في المغرب أهمية قصوى، فتوجد ضمن **رحلة الصفار**(9) التي دون فيها أخبار رحلته إلى فرنسا ما بين 1845 و1846. وقد

---

(7) لمزيد من المعلومات عن سكان شمال إفريقيا المقيمين في القاهرة، انظر كتاب عبد الرحيم عبد الرحمن وعنوانه : **Les Maghrébins En Egypte à l'Epoque Ottomane (1517-1798).**

(8) **Lord Kinross, The Ottoman Centuries, p. 420.**

(9) هذه الرحلة ترجمتها الباحثة سوزان ميلر (Susan Miller) من أصولها العربية إلى الإنجليزية وقدمتها أطروحة نالت بها درجة الدكتوراه من جامعة ميشكَن وذلك تحت عنوان :

Voyage to the Land of Rum : the «Rihla of the Moroccan Muhammad al-Saffar to France, December 1845-March 1846.

وقد تولى الأستاذ خالد بن الصغير، معرب هذا الكتاب، تعريبها أيضا ومراجعة نصها العربي، فنشرت ضمن إصدارات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت عنوان : **صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا (1845ـ1846).**

أولى الصفار في رحلته عناية دقيقة لتدوين مختلف الجوانب المتعلقة بمظاهر الحضارة الفرنسية وبالخصوصيات المميزة لنظامها السياسي في الحكم. ونظرا لما للملاحظات التي أبداها الصفار من أهمية بالغة سواء في مجال الطباعة في المغرب أم في مجال تاريخ الإصلاحات والتحولات، فإننا قد عمدنا في المستوى الأول إلى تقديم اقتباسات مطولة من رحلته، وإلى تتبع مضامين تلك الملاحظات بالتحري والتحليل في المستوى الثاني، وذلك لفهم العوامل التي جعلت ملاحظات الصفار تحظى بالقيمة وتكتسي دلالات عميقة بخصوص المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وبوجه عام، فإن الوصف الذي وصف به الصفار فرنسا وعاصمتها باريس على الخصوص قد شمل مختلف مظاهر الحياة والحضارة الفرنسية. غير أنه أولى عناية خاصة للنظام الحكومي والجهاز العسكري بكل مقوماته وإمكاناته المادية والبشرية والتنظيمية. ومن الأمور التي أثارت اهتمام الصفار الشديد في ميدان الحكم هو أن الحكومة الفرنسية تتمتع بنظام مركزي محكم، وأن ملك فرنسا فوض ممارسة السلطة إلى تسعة وزراء أنيطت بهم مهمة تسيير الشؤون المالية والخارجية وقضايا التعليم والشؤون الداخلية وميادين أخرى كالقضاء والتجارة والفلاحة والأشغال العمومية من مد للطرق وإقامة القناطر إلى جانب الميدان العسكري والحربي وأخيرا البحرية وشؤون البحر[10].

وكانت وزارة التعليم ـ التي سماها الصفار وزارة المدارس ـ في نظره، أهم الوزارات التسع سابقة الذكر، وذلك لما بين ما عاينه وبين طبيعة النظام التربوي القائم في المغرب من تباين كبير. وقد كتب الصفار في هذا الشأن ما يلي :

> «[...] والخامس وزير المدارس، وهو ناظر تعليم العلوم وله النظر في أمور التعليم ونظام المدارس والمكاتب، ويبعث للأقاليم من يأتيهم بعلم جديد ولو في أمور الغرس والنبات ونحو ذالك، إذ هي من جملة علومهم. والعالم عندهم هو من له قدرة على استكشاف الأمور الدقيقة واستنباط فوائد جديدة وإقامة الحجج السالمة من

= انظر أيضا الوصف المقتضب الذي قدمه محمد الفاسي لهذه الرحلة نفسها : «الرحلة السفارية المغربية» في **البينة**، المجلد 1، العدد 6 (1962)، ص. 11ـ24 : انظر أيضا محمد داود، **تاريخ تطوان**، الجزء 3، ص. 297ـ309. توجد النسخة الأصلية للرحلة بالخزانة الحسنية في الرباط. وقد تفضلت سوزان ميلر مشكورة فسمحت لي بتصوير الصفحات المتعلقة منها بالطباعة.

(10) Miller, op. cit, pp. 250-254.

الطعن على ما أبداه ورد ما عارضه به من عداه. وليس اسم العالم عندهم مقصورا على من يعرف أصول دين النصرانية وفروعها وهم القسيسون، بل ذالك ربما كان عندهم غير ملحوظ بالنسبة لغيره من العلوم العقلية الدقيقة»[11].

وأثناء الزيارات التي قام بها الصفار إلى الخزانة الملكية وإلى دار الطباعة التي كانت الحكومة تمتلكها يومئذ حيث وجد حوالي ثمانمائة فرد منهمكين في أعمالهم، تابع بحثه عن العناصر المكونة لمظاهر الحضارة الفرنسية التي أثارت لديه المزيد من الإعجاب والتقدير. فقد وجد في الخزانة الملكية مخطوطات عربية من شتى الأشكال والألوان، وهي مكتوبة بخطوط مغربية ومشرقية. كما وجد العديد من الكتب المطبوعة باللغات العربية والفارسية والتركية وغيرها، ومنها بعض مؤلفات كاتب جلبي[12]. وعلى الرغم من أن الصفار وصف مؤسسات باريسية أخرى كالمتاحف والحدائق النباتية والحيوانية والمسارح، فإنه أبدى حماسه الشديد وعبر عن ارتياحه الكبير أثناء وصفه الدقيق لآلة الطباعة بكل الجزئيات والتفاصيل، فكتب ما يلي :

«وفي يوم الخميس ثالث عشر الشهر، ذهبنا لدار طبع الكتب المسماة بالإصطنبا (Estampe) وهي أيضا من أعاجيب الصنائع. ولتعلم أولا أن الحروف التي يطبعون بها مسامير من قزدير أسفلها غليظ وأعلاها مشحوذ وفيه الحرف [...]. وإذا كانا يكتبان كذالك فيعمد إلى الحروف الذي يريد أن يكتبها ويجمعها في لوحة على مقدار الورقة المطبوعة وينزلها مرتبة بسطورها على كيفية الرسم ويشدها في اللوحة بعضها بعضا بثالة حتى لا يختل ترتيبها فتكون محكمة في اللوحة، ثم يطليها بالمداد وينزل عليها الورقة ويعصرها بزيار فتخرج الورقة مكتوبة كلها [...] فاختبرنا واحدا منهم وكتبنا له بيدنا سطرا فأنزله كما هو بحروفه وترتيبها، ثم قلنا له افسخه ففسخه وكانت أربعة وثلاثين حرفا فرد كل حرف في بيته الذي ينزل فيه بسرعة أخذها بيده جملة ثم جعل يفرقها في بيوتها كأنما يدر دورا على شيء فلم يخط في حرف واحد منها بإنزاله في غير محله مع غاية السرعة، فتعجبنا له غاية العجب.

[...] ويطبعون على تلك اللوحة ما شاءوا من الأوراق مائة وألفا أو عشرة ءالاف كلها متماثلة، وكذلك يفعلون في ورقة أخرى وأخرى حتى يأتوا على ءاخر أوراق الكتاب [...].

---

(11) المرجع نفسه، ص. 251–252.

(12) المرجع نفسه، ص. 100–112.

وأعجب ما رأينا عندهم من ءالة الكتابة نوع خاص يطبع لك الكتابة بأي خط شئت عربيا أو عجميا مغربيا أو مشرقيا أو كيف ما شئت. وذالك أنهم يأتون بالورقة مكتوبة بمداد خاص يصنعونه مستحمر اللون كمداد الجوز، فيضعونها على حجرة عندهم ويشدون عليها ثم يحلون عنها فتنطبع الكتابة في الحجرة كما هي في الورقة، ثم يطبعون على تلك الحجرة ما شاءوا من الأوراق بعد أن يدهنوا الحجرة بذالك المداد فتخرج الأوراق مكتوبة بمثل الكتابة الأولى من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تغيير. كتبت بيدي سطرا بذالك المداد في ورقة ووضعوها على الحجرة، فانطبعت فيها الكتابة، ثم طبعوا على الحجرة ورقة أخرى فخرجت بمثل ذالك السطر بعينه. فمن أراد طبع كتاب بما شاء من الخطوط فينسخه أولا بذالك المداد، ثم يطبع منه ما شاء فيخرج الخط الأول بعينه [...]»[13].

ويمكن القول تعليقا على هاته الملاحظات، إن المغاربة أمثال محمد الصفار وقبله محمد الفاسي قد كانوا على بينة من تكنولوجية الطباعة ومطلعين على أسرارها. غير أن ملاحظات الصفار لا تكتسب قيمتها من معرفته المفصلة بتقنيات الطباعة ووعيه التام بمدى أهميتها، بل من المكانة التي كان الصفار يحتلها بصفته شخصية بارزة في المغرب. ذلك بأن هذا الرجل قد كان في خدمة ثلاثة سلاطين مغاربة منذ خمسينيات القرن التاسع عشر إلى حدود سنة 1882، تقلب أثناءها في مهام مختلفة. فكان فقيها وكاتبا في القصر السلطاني أيام المولى عبد الرحمن، وأصبح في عهد خلفه سيدي محمد بن عبد الرحمن أول وزير للشكايات في تاريخ المغرب، كما كان في الوقت نفسه مستشارا للسلطان. وظل يمارس المهام نفسها إلى حين وفاته سنة 1882. وبالإضافة إلى ذلك، أشرف الصفار على تربية السلطان المولى الحسن الذي اشتهر بكونه أبرز السلاطين الإصلاحيين في القرن التاسع عشر بالمغرب[14]. وكانت تلك الفترة هي المرحلة التي شهد فيها تاريخ المغرب محاولات عديدة لإجراء بعض الإصلاحات كتحديث الجيش وإحداث نظام ضريبي مركزي واستخدام تكنولوجية الطباعة.

وهناك عامل آخر يضفي أهمية أخرى على الملاحظات التي أبداها الصفار، وهو تعليمات السلطان مولاي عبد الرحمن التي ألح فيها على مبعوثه محمد الصفار بأن يقوم بزيارة إلى فرنسا لتدوين ملاحظاته عن أحوالها المختلفة، حتى يمكن المغاربة

---

(13) المرجع نفسه، ص. 239–240، 242–243.

(14) داود، **المرجع السابق**، المجلد 7، القسم 1، ص. 77–85 ؛ انظر أيضا محمد غريط، **فواصل الجمان**، ص. 70–71.

«استخلاص العبرة»[15] من الفرنسيين. ذلك أن زيارة محمد الصفار إلى باريس قد تمت بعد مرور ثمانية عشر شهرا فقط على هزيمة المغاربة أمام الفرنسيين بوادي إيسلي قرب الحدود الجزائرية[16]. ويعني ذلك أن المغاربة، شأنهم في ذلك شأن العثمانيين، كانوا تحت وطأة الضغط الأوربي في الوقت الذي قرروا فيه إرسال مبعوث إلى فرنسا أملا في إيجاد حلول لمشاكلهم المستعصية. ويعني أيضا، أن وعيهم بأهمية الطباعة لم يتحقق حين كان المغاربة بصدد تغيير عاداتهم في القراءة أو حين كانوا بصدد الرفع من حجم استهلاكهم للكتب، بل حصل ذلك في وقت أصبحوا فيه في موقف دفاعي نتيجة للتهديدات الأوربية التي استهدفت بلادهم بشكل واضح ومستمر.

ومع ذلك، فقد كان الصدام بين المغاربة وأوربا يختلف كثيرا عن الصدام بين العثمانيين وأوربا. إذ لم تكن زيارة البعثة المغربية لفرنسا ناتجة عن وجود مشروع هادف إلى تبني تكنولوجية الطباعة إلى جانب إصلاحات تتعلق بميادين أخرى تمت معاينتها، وكانت هناك رغبة في نقلها عن بلدها الأصلي. كلّا ! بل كان المغاربة أكثر تمسكا بخصوصياتهم التقليدية عما كان عليه العثمانيون، كما كانوا أشد صرامة منهم في الحرص على نظامهم التربوي والثقافي. ولم تكن لديهم الحاجة بموجب ذلك إلى إحداث أي تغيير في نظامهم التقليدي لصناعة الكتاب، وذلك لارتباطه الوثيق بالدين الإسلامي وبعلماء المذهب المالكي.

ولمزيد من التوضيح لهذه النقطة، نقدم مقارنة بين كل من محمد الصفار ومحمد جلبي اللذين بعثتهما حكومتاهما إلى فرنسا حتى نعرف الأسباب التي جعلت العثمانيين يصبحون أول المسلمين الذين أقبلوا على تبني الطباعة، في حين كان المغاربة من آخر البلدان الإسلامية التي استفادت من تكنولوجية الطباعة. كانت لمحمد جلبي، على عكس محمد الصفار، تجربة كبيرة في الحياة السياسية بفضل المهام الدبلوماسية التي سبق له أن باشرها والمشاكل السياسية المستعصية التي ساهم في إيجاد حلول لها. وما كان له أن يحقق تلك الإنجازات لولا توفره على ممارسة ميدانية

(15) داود، **المرجع السابق**، المجلد 3، القسم 2، ص. 299–300. يشير الصفار إلى أنه قد قرر الكتابة عن الأمور التي سمعها أو رآها، لأنه من المحتمل أن تكون هناك علوم أو معارف يمكن تعلمها. غير أن المؤرخ محمد داود يذهب إلى القول بأن كل كتب الرحلات في المغرب كانت تعتبر تقارير سرية. وبالفعل لم يتمكن أحد في مغرب القرن التاسع عشر، بمن فيهم أبناء محمد الصفار، من الاطلاع على رحلته المحفوظة إلى اليوم بالخزانة الحسنية بالرباط.

(16) Miller, op. cit, pp. 12-15.

فعلية لمواجهة التحديات الأوربية برا وبحرا. حينما وجه جلبي الدعوة للانتقال من الكلمة المخطوطة إلى عالم الكلمة المطبوعة باعتبارها إحدى وسائل التطور والاستعداد لمواجهة أوربا، كانت هناك استجابة سريعة إلى حد ما. ومن المؤكد أن هناك عوامل مساعدة كان لها دورها الفعال في إنجاح دعوة جلبي : فقد كان يحظى بالمساندة الكاملة من بعض الموظفين الحكوميين أمثال ابنه سعيد الذي أصبح فيما بعد صدرا أعظم للإمبراطورية العثمانية والذي اضطر إلى تعلم اللغة الفرنسية ليمكنه الاطلاع على الأفكار والتكنولوجيا الفرنسية. وكان هناك أيضا متفرقة الذي أصبح المسؤول عن تدبير شؤون دار الطباعة عند تأسيسها في إستنبول. لقد كان جلبي وزملاؤه الإصلاحيون يعتبرون الإمبراطورية العثمانية بلدا يطمح إلى التقدم ويعتبرون أوربا في الوقت نفسه مصدر كل الأفكار الجديدة التي يتوقف عليه كل إصلاح. وكانوا يرون أن الطباعة من الأدوات المساعدة على الانتقال إلى الحداثة. وأولوا اهتمامهم بالدرجة الأولى إلى مسألة التطور بدلا من أن يشغلوا بالهم بمصير الصناع الذين كانوا يعيشون على مداخيل الصناعة التقليدية للكتاب في إستنبول وما يمكن أن يلحق بحرفتهم من تهديد نتيجة لاستعمال التقنيات الجديدة للطباعة[17].

مقابل ذلك، يوجد محمد الصفار الذي أخبرنا المؤرخ محمد داود[18] بأنه كان نموذجا للعلماء الذين أنتجهم النظام التربوي والتعليمي السائد في المغرب، إذ حفظ القرآن ودرس الحديث وعلوم الشريعة اعتمادا على **مختصر** الشيخ خليل بن إسحاق. وقد أصبح الصفار في حياته العملية، ناسخا للكتب وفقا للأسلوب الأندلسي في الخط، واشتغل عدلا مدة من الزمان قبل أن يصبح كاتبا لعامل تطوان عبد القادر أشعاش. وأما الصفار الفقيه فقد اهتم بتدريس مختلف التخصصات الإسلامية وبإصدار العديد من الفتاوي لفائدة عموم الناس. وتجدر الإشارة إلى أنه عند اختيار السلطان لعبد القادر أشعاش مبعوثا إلى باريس في مهمة دبلوماسية عين الصفار ضمن أفراد البعثة ليس فقيها وكاتبا لها فحسب، بل أيضا قائدا من قادة المجموعة الروحيين. وعلى الرغم من قضاء الصفار أربعين يوما في فرنسا، فإنه لم يتأثر إطلاقا بنمط العيش السائد هناك. واعتبر انتماء الفرنسيين إلى الديانة المسيحية شيئا باطلا وضربا من ضروب الفساد والبهتان[19]. ومع ذلك، فقد وصفهم بخير النُّعوت

(17) Kinross, op. cit, pp. 381-382.

(18) انظر الهامش رقم 14.

(19) Miller, op. cit, pp. 142, 214.

منها ذكره بأنهم أصحاب جد في أعمالهم، يحبون الحق والعدل، ولهم حسن استعداد للدفاع عن بلدهم بكل حماس[20]. غير أنه لم يتردد في الإشارة بصريح العبارة إلى أن الحماس الديني غير كاف لكسب النصر في المعارك، وأكد أن تحقيق ذلك يتطلب حسن التدريب، والانضباط والتنظيم بالإضافة إلى أسلحة قوية، وكلها من الأشياء التي عاينها في فرنسا[21].

كان الصفار مختلفا عن جلبي، إذ كان يعيش في حضرة سلاطين ووزراء تقليديين أمثال إدريس العمراوي والطيب بليمني بوعشرين[22]، وغيرهم من موظفي المخزن الذين ترعرعوا في أحضان التربية الإسلامية وتشبعوا بقواعدها، وكان لهم فضل كبير على الصفار الذي خدمهم وعمل كثيرا إلى جانبهم. وبناء على ذلك، لا غرو إذا لم يتخذ الصفار أو غيره من موظفي المخزن أي مبادرة يكون من شأنها تغيير الوضع القائم بتبني الطباعة. هذا مع العلم بأن محمد الصفار وغيره من القليلين الذين تمكنوا من الاطلاع على رحلته كانوا على بينة من الصعوبات التي تفرضها صناعة الكتاب بالطريقة اليدوية.

وبعد مرور حوالي خمس عشرة سنة على الزيارة التي قام بها الصفار إلى باريس، تمكن الإسبانيون ـــ بعد هجومهم العسكري على جزء من الشمال المغربي ـــ من احتلال مدينة تطوان سنة 1860. ونتيجة لذلك، أرسلت بعثة دبلوماسية ثانية إلى باريس استزادة للاطلاع على أنجع السبل الكفيلة بتقوية المغرب وحفظ كيانه. ووقع الاختيار هذه المرة على إدريس العمراوي سفيرا إلى الديار الفرنسية، وكان أيضا فقيها غير أنه استطاع التدرج في المراتب المخزنية إلى أن أصبح وزيرا على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن. وكان العمراوي ينحدر ـــ على خلاف الصفار ـــ من إحدى الأسر الأندلسية المعروفة في فاس. وكان والده يحظى بشعبية كبيرة بصفته شاعرا وضع قصائد طويلة دعا فيها إلى الجهاد ضد الأوربيين، فكان لها انتشار واسع في كل أرجاء البلاد. كما احتوت تلك القصائد على أبيات تضمنت أصداء للأخطار المحدقة التي كان يواجهها المغاربة وقتئذ، ومن أبرزها التهديدات ببسط السيطرة الأوربية على البلاد[23].

---

(20) المرجع نفسه، ص. 145، 156–157، 191، 194.

(21) المرجع نفسه، ص. 292.

(22) غريط، المرجع السابق.

(23) عبد الرحمن ابن زيدان، **الإتحاف**، الجزء 4، ص. 189–239.

وفي التقرير الذي قدمه العمراوي إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، اتبع النهج نفسه الذي سلكه قبله محمد الصفار، فاهتم بوصف كل الجوانب المثيرة في الحضارة الفرنسية. غير أنه خطا خطوة إضافية حين وجه دعوة مباشرة إلى السلطان للعمل على تبني الطباعة، بالعبارات التالية :

«وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع، هي في كل الأمور عامة النفع، معينة على تكثير الكتب والعلوم، وأثرها في ذلك ظاهر معلوم، وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام، واغتبط بها مشاهير العلماء الأعلام. ويكفيك من شرفها وحسن موقعها، رخص الكتب التي تطبع بها، وقد اعتنوا بتصحيحها، وبالغوا في تهذيبها وتنقيحها، مع جودة الخط وإيضاح الضبط (..) ونطلب الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة، ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة(...)»[24].

ومن الأمور التي تكتسي أهمية كبيرة في النداء الذي وجهه إدريس العمراوي، إشارته إلى علماء الإسلام (أمثال محمد حقي ومحمود قابادو من تونس الذي كان أول مشرف على دار للطباعة في البلاد التونسية وبها نشر كتاب **الموطأ** للإمام مالك سنة 1863[25]، بالإضافة إلى نصوص مالكية تقليدية عديدة). ومرة أخرى، لم يحظ ذلك النداء بعناية السلطان الذي أهمله للأسباب نفسها التي سبقت الإشارة إليها، هذا في الوقت الذي كان فيه محمد الصفار المستشار الرئيسي للسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن.

ومن المعلوم أن هزيمة تطوان قد استنزفت خزينة الدولة، ومن المستحيل أن يستجيب السلطان للنداء الذي وجهه إليه وزيره العمراوي في ظروف خيمت عليها ضائقة مالية خانقة، حتى وإن كان يشاطره الرأي في مدى أهمية تكنولوجية الطباعة وإمكاناتها الهائلة الكفيلة بإسداء خدمات لا تقدر بثمن للإسلام والعلوم الإسلامية.

إن تردد سلطان المغرب وامتناعه عن جلب تكنولوجية الطباعة إلى البلاد قد ترك الباب مفتوحا على مصراعيه أمام المبادرة الفردية التي اتخذها أحد رعاياه وهو

---

(24) جاء هذا المقتطف عند المنوني في كتابه: **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، الجزء 1، ص. 260–261. أما رحلة العمراوي **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، فقد نشرها زكي مبارك مع ترجمة لنصها الكامل إلى الفرنسية، الرباط، 1989.

(25) مالك بن أنس، **الموطأ**، تونس، 1863، خاتمة الكتاب.

محمد الطيب الروداني، الذي لم يكتف بجلب أول آلة للطباعة إلى المغرب سنة 1864، بل استقدم معه أيضا خبيرا مصريا في فن الطباعة ليسهر على تشغيلها. فترى من يكون هذا الروداني ؟ وما هي الدوافع التي كانت وراء تفكيره في جلب آلة للطباعة مصحوبة بتقني لتشغيلها ؟ وماذا كان ينوي أن يفعل بها ؟ وكيف كانت ردود فعل السلطات المخزنية على العمل الذي أقدم عليه الروداني، وكذلك على آلة الطباعة والطابع الوافد صحبتها ؟

أصل الروداني من مدينة تارودانت، عاصمة السوس الأقصى الواقعة على مقربة من مرسى الصويرة. ونتيجة لكون تارودانت مأهولة أساسا بالأمازيغيين، يمكن القول بانتماء الروداني إلى تلك المجموعة. ويبدو أنه ينحدر من أسرة كان جل أفرادها من العلماء، إذ شغل والده وجده من قبله مهام القضاء في المنطقة. وعليه، فمن المحتمل أن يكون الروداني قد تلقى تكوينه الأولي في بيت والده، ثم رحل إلى فاس لاستكمال تعليمه هناك. وحين أنهى كل مراحله التعليمية، قام بتدريس العربية والعلوم الإسلامية فأصبح هو الآخر قاضيا بالمنطقة على غرار والده وجده من قبله[26].

ويخبرنا المختار السوسي، وهو من أبرز المصادر عن حياة الروداني، بأن هذا الأخير كان يحل محل والده أثناء غيابه على كرسي القضاء. كما يشير المختار السوسي إلى أن والد الروداني وجده قد كانا من العلماء المحافظين المتشبثين بالتعاليم الدينية، تشبثا لا يخلو من الصرامة، إزاء كل ما يمكن أن يمس بالقواعد الأخلاقية. فلم يترددا في تحذير موظفي المخزن من نتائج تقصيرهم أو شططهم في استغلال السلطة[27]. ولم يكن موقفهما المتميز بإفراطهما في الاستقامة وبحبهما الدفاع عن الحق، لم يكن يروق ممثلي السلطة المخزنية بالجنوب المغربي. ونتيجة لذلك، نفي والد الروداني من مدينته تارودانت إلى وجدة الواقعة على الحدود الجزائرية لاتهامه بمؤازرة حركة التمرد على رجال المخزن. غير أنه يتضح من نص الإجازة التي حصل عليها الروداني والتي تحمل توقيع أستاذه محمد المهدي بن سودة من فاس، أن الروداني كان يشتغل قاضيا في وجدة[28]، أي أنه كان على وعي تام بالورطة التي وقع فيها والده، فشاطره مرحلة النفي في المغرب الشرقي.

(26) السوسي، المرجع السابق.

(27) المرجع نفسه.

(28) المنوني، مظاهر، الجزء 1، ص. 261–262، الهامش رقم 4. ويستفاد منه أن ابن سودة اعتبر الروداني قاضيا في وجدة في شهر شتنبر تقريبا من سنة 1849.

ويخبرنا الباحث محمد المنوني بأن الروداني قد بنى في مدينته نافورات لتزويد السكان بالمياه العذبة الصالحة للشرب وعموم المصلين بالوضوء[29]. وتفيدنا الروايات الموجودة عن حياة الروداني بأنه كان عالما ومدرسا لمختلف التخصصات الدينية وبأنه كان يحسن إلى الناس. إذن، فهل كان الروداني يرغب في جلب آلة للطباعة لمساعدة المدرسين أمثاله وتسهيل مهامهم التعليمية، أم أنه كان يرغب في فتح صفحة جديدة في مسار حياته ويصبح ناشرا ؟

قبل ذهاب الروداني إلى مكة في 1864، لم يفصح عن نوايا تتعلق بمشاريع من ذلك النوع، باستثناء عزمه على أداء مناسك الحج وزيارته لمكة والمدينة. غير أنه توقف عند عودته في القاهرة فاشترى بها مطبعة حجرية، وتعاقد مع مصري خبير في الطباعة اسمه محمد القباني (أو القياني) ليشتغل لصالحه سنة كاملة. وبما أن نص العقد المبرم بين الرجلين يلقي أضواء كاشفة على نوايا الروداني وعلى المكان الذي كان يرغب في أن يشغل فيه مطبعته، ارتأينا ضرورة تقديم نصه الكامل مع الحرص على إبداء بعض الملاحظات حول مضامينه :

«أنه لما كان في يوم الأربعاء المبارك 14 يوم خلت من شهر ربيع الأول سنة 1281 [17 غشت 1864] : اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني، ابن المرحوم السيد محمد الروداني، من أهالي مدينة روดان «مغرب»، مع الفقير إلى الله تعالى كاتب الأحرف : الفقير محمد القياني المطبعي، ابن المرحوم إبراهيم، من أهالي مصر المحروسة، على أنه يتوجه برفقته إلى مدينة رودان بأرض المغرب، ويشتغل عنده على مطبعة حجر لوَعْدَة سنة كاملة، ابتداها [كذا] شهر ربيع الأول سنة 1281 [غشت، 1864]، وانتهاها [كذا] شهر الخير [كذا] سنة 1282 [نونبر، 1865]، وله في نظير ذلك راحته مما جميعه [كذا] من أكل وشرب وكسوة على طبق مراده، وفي كل شهر يعطي له مائتان قرش مصروف لجيبه، وقد رضي الفقير محمد القياني بذلك. ومن بعد وفاء السنة المذكورة إذا أراد الفقير محمد القياني أن يرجع إلى بلده مصر المحروسة، بأن يرحله العمدة السيد الطيب إلى حد بلده على طرفه، وقد رضي السيد المذكور بذلك.

وأيضا الفقير محمد القياني استلم من حضرته تسعة بينتو سلف الله تعالى لأجل يوفي [كذا] بهم ما عليه من الديون الذي عليه بالمحروسة، وفي محل الإقامة يوفيهم

(29) المرجع نفسه.

لحضرته، مع التدارك : بعد انقضاء السنة المذكورة في دفعة واحدة إن أراد الرجوع إلى بلده، ما على أمر [كذا] إن أراد القيام مع السيد المذكور.

وقد رضي كلاهما بذلك على يد من حضر من المسلمين، والأسماء [كذا]، والختم في 14 ربيع الأول سنة 1281 [17 غشت، 1864]، كاتبه الفقير محمد القياني المطبعي، العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني»(30).

يبدو واضحا من هذا العقد أن رغبة الروداني كانت هي التوجه بالمطبعة التي اقتناها إلى مدينته تارودانت. غير أننا لا نستطيع معرفة طبيعة العمل الذي كان ينوي توظيفها فيه، فهل كان يرغب في طبع الكتب أو في إصدار صحف ودوريات أم كان يريد فقط طبع نصوص الوثائق الشرعية ؟ لكن انطلاقا من كونه مدرسا وقاضيا، يمكننا أن نرجح أن اهتماماته الأولى لابد من أن تتجه نحو إصدار الكتب ذات الطابع التعليمي والتربوي بالإضافة إلى طبع نصوص الوثائق الشرعية. ونظرا أيضا لكونه مسلما مغربيا، فقد فضل شراء مطبعة حجرية لأنها تمتلك الخصوصيات التي تسمح بإصدار كتب مشابهة تماما للنماذج المخطوطة، وتمكن بالتالي من الحفاظ على الطابع المحلي الذي يتميز أو ينفرد به الخط المغربي التقليدي.

لكن ماذا عن الجانب المالي لتلك العملية ؟ إن نص العقد المبرم بين الرجلين يثبت أن الروداني كان حاتميا في كرمه، إذ بادر إلى تقديم سلفة مالية تمكن طابعه من أداء الديون التي كانت عليه في القاهرة، كما وافق على منحه راتبه الشهري قبل إبرام العقد بسبعة عشر يوما. فهل نفهم من ذلك السخاء أن الروداني كان يغدق في إحسانه إكراما لسكان تارودانت والمناطق المجاورة لها، أم أن الطابع المصري الذي كان مثقلا بالديون تمكن من استدراج الروداني حين أقنعه بشراء الآلة واقترح عليه العمل في خدمته لمدة سنة والمجازفة بالدخول في مشروع يجهل الروداني كل شيء عن حيثياته، اللهم إلا إذا استثنينا إيقانه بإمكان التوصل إلى إصدار نسخ عديدة من الكتب مع الحفاظ على أصالة الخط المغربي ؟

إن الجواب على كل هذه الأسئلة سيظل معلقا إلى الأبد، لأن المخزن لم يسمح في شهر شتنبر 1864 بأن تتجاوز الآلة المطبعية حدود مدينة مكناس التي كان

---

(30) Germain Ayache, «l'Apparition de l'Imprimerie au Maroc», **Hespéris-Tamuda** (1964), p. 18.

أيضا المنوني، **مظاهر**، الجزء 1، ص. 297–298.

السلطان يقيم فيها وقتئذ. واعتمادا على ما جاء عند المؤرخ المغربي ابن زيدان الذي كان في الوقت نفسه من أفراد الأسرة السلطانية الحاكمة، فإن الروداني قد قدم المطبعة هدية إلى السلطان محمد بن عبد الرحمن[31]. غير أن المختار السوسي ـ بخلاف ابن زيدان ـ استعمل كلمة حيازة، والتي يمكن أن تعني الشراء أو المصادرة، وذلك عند حديثه عن كيفية انتقال الآلة من الروداني إلى المخزن[32].

أما إذا اعتمدنا على مضمون نص الوثيقة التي عثرت عليها في صيف 1986[33]، فيمكن أن نخلص إلى ما يلي : عند وصول المطبعة إلى مرسى الصويرة، أخبر الأمين الفرنسوي القباج قائد المنطقة عبد الله وبه السوسي بأمرها. وقام هذا الأخير بدوره بمكاتبة السلطان مستفسرا إياه عن الإجراء الذي يجب اتخاذه في موضوع تلك الآلة الغريبة التي لم تقع عيناه على نظير لها من قبل. وأشار صاحب هذه الرواية، الطيب الأزرق، وهو أحد المتعلمين المغاربة الذين تلقوا فن الطباعة تحت إشراف الطابع المصري في فاس وأول طابع مغربي، إلى أن السلطان أصدر أوامره بتوجيه المطبعة مع التقني المصري المرافق لها إلى مدينة مكناس. غير أن الأزرق لم يشر إطلاقا إلى أنها قد سلمت هدية إلى السلطان ولا إلى مسألة التعويضات المالية، بل تحاشى الحديث عن مصير الروداني الذي يبدو أنه قد توفي في سنة 1865، دون أن يكتب له مشاهدة أول إنتاج يصدر بالآلة المطبعية التي بذل قصارى جهده لاقتنائها[34].

وتدفعنا كل هذه القرائن إلى القول بأن كل ما في الأمر هو أن المخزن أقدم على مصادرة آلة الطباعة. ومما يؤيد ذلك، أن الصفار الذي كان مطلعا حق الاطلاع على أسرار الطباعة الحجرية، كان يحتل عندئذ منصب وزير الشكايات وكان في الوقت نفسه مستشارا ثانيا للسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن. ومن المفيد معرفة أن

---

(31) المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 263.

(32) السوسي، المرجع السابق.

(33) يوجد النص الأصلي لهذه الوثيقة عند أسرة الروندة في الرباط. وهي جزء من كناشة عبد السلام الرندي الذي سبق له أن شغل مهام وزير للعدل في المغرب، وقد خصصها لتسجيل مذكراته وشؤونه المالية.

(34) السوسي، المرجع السابق. وجاء في البيت الحادي عشر من قصيدة رثائية للشاعر أحمد بن عبد الرحمن الجشتيمي بعد وفاة الروداني ما يلي :

وإن جل ما يعرو كما جل ما جرى ... بحمل أخ كالطود جبرا إلى القبر

إلا أن الشاعر لم يقدم لنا أية تفاصيل إضافية في الموضوع.

السجلات المالية المتعلقة بأجور الطابعين وما يرتبط بمصاريف تسيير شؤون المطبعة المصادرة قد احتفظ بها الصدر الأعظم الطيب بوعشرين الذي كان أستاذا سابقا للصفار، وقد وقع عليه الاختيار ليشرف على مصاريف الآلة المذكورة[35]. وهناك نقطة ثانية لها أهميتها، وتتعلق بوثيقة الرندي التي تثبت أن الطابع المصري القباني هو الذي أقدم بعد استفساره عن «فاس وعددها الوافر من الكتب والعلماء» على توجيه طلب إلى السلطان للعمل على نقل آلة الطباعة سنة 1865 إلى فاس، حيث ربما بقيت قيد الاستعمال هناك حتى أربعينيات القرن العشرين في خدمة السلاطين والعلماء والأعيان وغيرهم، كما لعبت دورا طلائعيا في إحياء الإسلام والتربية والتعليم الإسلاميين، بالإضافة إلى مساهمتها في إحداث تحولات أخرى ستكون محور اهتمامنا في الفصول التالية من هذا الكتاب.

وباختصار، فإن المحاولات التي قام بها المغاربة لتزويد بلادهم بالتكنولوجية الجديدة للطباعة كانت شبيهة إلى حد ما بمحاولات العثمانيين في هذا الشأن. وكلا الجانبين كان على وعي تام بالعواقب المترتبة عن كون تلك التكنولوجيا من نتاج أوربا. ومع ذلك، فإن العثمانيين كانوا يختلفون عن المغاربة بكونهم منفتحين على المؤثرات الأوربية الجديدة. في حين كان المسؤولون عن اتخاذ القرارات في المغرب يستمدون قوة نفوذهم ومشروعيتهم من مقومات النسق الإسلامي التقليدي، فكانوا تبعا لذلك يتخذون مواقف تتسم بمقاومة كل الأفكار الإصلاحية التي يمكن أن توحي بإحداث أي تغيير في ذلك النسق. وقد اتجهت كل جهودهم الإصلاحية إلى تحديث الجيش وفقا للمناهج الأوربية العصرية. غير أن النداءات التي ارتفعت من أجل تبني تكنولوجية الطباعة قد أرجئت إلى أن أقدم مواطن مغربي من عامة الناس على جلب أول آلة طباعة إلى المغرب ومعها طابع مصري للسهر على تشغيلها وصيانتها. وكان للاختيار الذي قام به الروداني دلالاته الواضحة، إذ حدد، من موقع العالم المسلم، نوع الآلة التي عليه أن يستعملها. فكانت المطبعة الحجرية هي الأكثر ملاءمة وصلاحية لمتطلبات العلماء المغاربة التقليديين، لأنها تحافظ على أصالة الخط المغربي وعلى نوعيات الكتب التقليدية.

وكان رد فعل السلطات المخزنية في المغرب عند وصول آلة الطباعة هو الأمر بمصادرتها من صاحبها. وكان ذلك الإجراء متوقعا نتيجة لوجود موظفين داخل التشكيلة المخزنية، أمثال الصفار وإدريس العمراوي وغيرهم من الذين سبق لهم أن

شاهدوا آلات الطباعة في فرنسا تستعمل تحت إشراف الدولة لتحقيق أهداف تربوية وسياسية وثقافية محددة. والسؤال الواجب طرحه الآن هو كيف وظف المخزن تكنولوجية الطباعة؟ هل اقتصر موظفو المخزن على استعمالها في إطار محدود لإصلاح الجيش وتربية الجنود وتكوينهم وفقا للنهج الذي سلكه المصريون والعثمانيون، أم أنهم وضعوا المطبعة رهن إشارة العلماء لاستعمالها بالشكل الذي يرونه كفيلا بإحياء الإسلام والتربية الإسلامية؟ سنحاول في الفصول القادمة الإجابة على مثل هذه الاسئلة حتى نعرف دور مساهمة استعمال الطباعة في إحداث التحولات أو في عدم إحداثها في المغرب.

القسم الثالث

الطباعة وعلاقتها بالتحولات في المغرب ما بين 1865 و 1912

عندما ندرس تاريخ الطباعة في أوربا، نجد أنفسنا أمام نظرتين متضاربتين إلى دور الطباعة في إحداث التحولات بصورة عامة. ففي نظر عدد كبير من مؤرخي عصر النهضة أن اختراع الطباعة جاء متأخرا في عصر النهضة. وعليه، فإنه لا يمكن اعتبار الطباعة نقطة انطلاق للنهضة الحديثة في أوربا[1]. غير أن المهتمين بتاريخ الطباعة يكتفون بالإشارة إلى أن الاختراع الذي حققه غوتنبرغ لم يعد يُنظر إليه منذ قرنين من الزمن ـ أي من خمسينات القرن الخامس عشر إلى خمسينات القرن السابع عشر ـ على أنه من الأمور الجديدة وغير المألوفة، بل أصبح ينظر إليه في أوربا كأداة حضارية لا يمكن الاستغناء عنها. وخلال المدة الزمنية نفسها فقدت مختلف جوانب الحياة، السياسية والدينية والاجتماعية، مظاهرها الوسطوية وبدأت تتخذ شكلها الحديث بصفة تدريجية[2]. ويبدو أن حلول المطبعة في المغرب أيضا سنة 1864 قد شكل بداية انطلاق عهد جديد، إذ بدأت البلاد تفقد العديد من خصوصياتها الوسطوية والإسلامية تدريجيا وتسير بخطىً وئيدة نحو التحول إلى بلد تغزوه مظاهر الحداثة يوما بعد يوم.

إن الحديث عن وجود علاقة بين الطباعة وارتفاع حجم إنتاج الكتب أو عن توحيد المقاييس عند استعمال الحروف المماثلة شيء، والحديث عن وجود علاقة بين الطباعة والتحولات شيء آخر ينطوي على العديد من الصعوبات. وذلك لأن ارتفاع حجم الكتب لا يعني وجود ضمانات أكيدة بأن تلك الكتب سوف تتم قراءتها لا محالة. وعلى العكس من ذلك، فإن كتبا معينة كالكتاب المقدس والقرآن الكريم نالت نصيبا وافرا من العناية فقرئت وحفظت على نطاق واسع، ولم تكن تحتاج البتة إلى آلات الطباعة حتى يمكنها تحقيق الشعبية الكبيرة التي تتمتع بها في الأوساط المعنية بها.

(1) Elizabeth Eisenstein, **Printing as an Agent of Change**, vol. 1, pp. 4-6.

(2) Archer Taylor, **Printing and Progress**, p. 1.

أما من الجانب الأوربي، فإن الأدبيات التي تؤكد على وجود علاقات مختلفة بين الطباعة والتحولات كثيرة جدا. وما زالت تلك العلاقات تثير نقاشا حادا بين المهتمين بالبحث في هذا الموضوع، نظرا لتشعب التاريخ الأوربي وتعقده وتعدد العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي ساهمت بطريقة أو بأخرى في انتقال أوربا من أشكالها الوسطوية إلى عالم الحداثة على مختلف المستويات[3].

وعلى النقيض من ذلك، لم يكن مغرب ستينيات القرن التاسع عشر قد شهد بعد أية حركة نهضوية ولا ثورة صناعية وإنما كانت هناك جهود محدودة ومحاولات إصلاحية بسيطة انطلقت للتعبير عن ردود فعل المغاربة أمام تهديدات الدول الأوربية العسكرية المتصاعدة التي استهدفت الأراضي المغربية. وإن جميع التحولات التي شهدها المغرب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بين 1865 و1912 لا يتيسر تفسيرها إلا من خلال علاقتها بالتدخل المباشر وغير المباشر للدول الأوربية في الشؤون الداخلية للبلاد المغربية، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن تكون لها علاقة ما بتكنولوجية الطباعة. ومما يؤكد صحة ذلك، أن الإشراف على تسيير شؤون الطباعة خلال تلك المرحلة ظل حبيسا بين أيادي العناصر التقليدية المتمثلة في الموظفين المخزنيين على اختلاف مستوياتهم وكذا العلماء والأعيان.

وسنحاول في هذه الفصول اللاحقة تناول موضوع المساهمة التي كانت لمختلف عناصر المجتمع المغربي في ميدان الطباعة، حتى نعرف مدى التأثير أو التحولات التي أحدثتها الطباعة فيها. وسيشمل ذلك التناول السلاطين وموظفي المخزن والعلماء والأعيان، كما سنركز مناقشتنا على مدى تأثير الطباعة في الحياة الفكرية في المغرب. ومن الناحية الزمنية، حددت الفترة التي ستغطيها تلك المناقشات ما بين 1865 و1912، أي فترة دخول المطبعة إلى المغرب وتاريخ دخول المغرب تحت نفوذ الحماية الفرنسية وإدارتها. وقد اتجهت البلاد خلال تلك المرحلة، في طريق أدى بها إلى التخلي عن نظامها التربوي التقليدي والاكتفاء بتطبيق محدود للشريعة الإسلامية.

(3) Eisenstein, op. cit.

الفصل السادس

المخزن والطباعة

الفصل السادس

المخزن والطباعة

يمكن التمييز بين أربع مراحل تدخّل فيها المخزن في موضوع الطباعة خلال المدة المتراوحة ما بين 1865 و1912. ففي الفترة الممتدة ما بين 1865 و1871، انفرد المخزن بالإشراف على تسيير شؤون الطباعة في البلاد. غير أن مصير الطباعة في المغرب قد انتقل من حيث التسيير، خلال المرحلتين الثانية والثالثة، ما بين 1872 و1907، من أيادي المخزن إلى الخواص. غير أن المخزن واصل خلال المرحلتين الثانية والثالثة استعمال الطباعة في بعض المناسبات لخدمة الأغراض الدينية والسياسية للسلاطين، وخاصة منهم المولى الحسن والمولى عبد العزيز. فقد أصبح المخزن وقتئذ على وعي تام بمدى الأهمية التي تحتلها الطباعة كأداة سياسية ذات فعالية كبيرة، بل شرع في الاتجاه نحو تقنين الطباعة وفرض الرقابة على الإصدارات. وقد فسح المجال بذلك أمام بداية المرحلة النهائية التي ابتدأت ما بين 1908 و1909، مع وصول السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى السلطة. وقد عمل هذا الأخير على استعادة الهيمنة الكاملة للمخزن على مقاليد الطباعة، كما اتخذ إجراءات أخرى كان من شأنها المساهمة في إحداث العديد من التحولات ذات الدلالات العميقة في المغرب.

وسنتعرض في هذا الفصل لمناقشة المراحل الأربع التي تدخل فيها المخزن في ميدان الطباعة، للتوصل إلى معرفة طبيعة التحولات التي أدى استعمال تكنولوجية الطباعة إلى إحداثها في المغرب.

أولا ـ الإشراف المخزني المباشر على الطباعة

حين اتخذت السلطات المخزنية في المغرب ـ في شخص كل من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ومستشاريه الصدر الأعظم الطيب بليمني ومحمد

الصفار ـ قرار إرسال مطبعة الروداني الحجرية إلى مكناس ومعها الطابع المصري الشيخ محمد القباني، لم يكن الهدف المنشود هو مصادرة تلك الآلة، بل كان أيضاً تحمل مسؤولية الإشراف على تسيير شؤونها. ولم تكن مثل هذه الممارسة من الأمور المعهودة لدى المخزن، بل هي من قبيل المستجدات على المغرب، ويمكن اعتبارها مؤشرا واضحا على شروع المخزن في التخلي عن وظائفه التقليدية المألوفة التي لم تكن تدخل ضمنها عملية إصدار أعداد هائلة من الكتب لأغراض تجارية.

وحتى يكون النجاح حليفا للمخزن في إشرافه على مؤسسة الطباعة، كان عليه اتخاذ العديد من الإجراءات الهامة. من بينها إيجاد موضع مناسب لها، والعمل على خلق أطر تقنية قادرة على العمل فيها، بالإضافة إلى السهر على تدبير شؤونها المالية وضمان التسويق الناجح لمنتوجاتها. وفوق كل ذلك، كان على المخزن وضع المقاييس الكفيلة بمراقبة جودة المنتوج إلى جانب القوانين المنظمة والضوابط التي تسمح بطبع الكتب أو تحظره.

وكان أول إجراء يُتخذ هو اختيار موضع للمؤسسة الجديدة بزنقة «جزاء برقوقة» في مدينة فاس[1]. وكان في واقع الأمر موضعا ممتازا، نظرا للإمكانات العديدة التي يتيحها بفضل قربه من ضفاف وادي فاس حيث يتوفر الماء الضروري الذي تحتاجه أعمال الطباعة الحجرية، من تنظيف لأحجار الطباعة وغسل أيادي العمال أو الأعوان، وقربه من السوق المجاور لجامع القرويين، مما لا يدع مجالا للشك في أن العوامل الاقتصادية والتربوية لم تكن غائبة عن أذهان المشرفين على تسيير شؤون المؤسسة. بالإضافة إلى أن الموقع قريب أيضا من حي المخفية الذي كان يعيش فيه جل علماء فاس وأبرز زعمائها الدينيين، ولاسيما المنحدرين من أصول أندلسية[2]. ومعنى ذلك أن المشرفين على تسيير مؤسسة الطباعة كانت لهم رغبة في أن تكون بنايتها في مكان قريب من العلماء لأسباب تجارية من جهة وللاستفادة من خبراتهم

---

(1) خالد الأزهري، **حاشية على الأجرومية**، نشرة فاس، 1878. تحتوي نهاية هذا الكتاب على ختم يشير إلى جزاء برقوقة في فاس الذي هو عنوان المكان الذي توجد به دار الطباعة. وهناك نسخة مصورة للختم المذكور عند المنوني في كتابه **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، الجزء 1، ص. 264. ثم إن اسم الزنقة المذكورة معروف في فاس بزنقة كزام بن برقوقة عوضا عن جزاء برقوقة. انظر الرسم رقم 18 الوارد عند لوتورنو في كتابه : **فاس قبل الحماية**، ترجمة حجي والأخضر، الجزء 1، ص. 327.

(2) لوتورنو، **المرجع السابق**.

المهنية كناشرين أو محررين من جهة أخرى. وبوجه عام، فإن المخزن قد نجح في اختياره للموضع المذكور، بدليل استمراره في البقاء حوالي نصف قرن من الزمن، حتى أن السلطان مولاي عبد الحفيظ، حين قرر مصادرة الآلات المطبعية التي كانت في حوزة الخواص للشروع في إنجاز عمليات مطبعية لحسابه الخاص، حرص على استعمال المكان نفسه الموجود بزنقة «جزاء برقوقة»[3].

أما الإجراء الثاني المتخذ في إطار إنشاء مؤسسة الطباعة والذي لا يخلو هو الآخر من أهمية، فيتعلق بتوظيف العمال الضروريين لتشغيلها، وبوضع إطار تنظيمي يضمن لها السير العادي والمثمر. وحينما كان الطابع المصري بمدينة مكناس، اتخذ مساعدا له محمد بن سليمان[4] الذي كان خطاطا بالمدينة نفسها في خدمة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن. ويبدو أن بن سليمان هذا التحق بالقباني في فاس للعمل على نسخ جل محتويات الكتب الستة الصادرة في فاس إلى حدود سنة 1871، تاريخ عودة القباني إلى بلده مصر، ولا تزال تلك العناوين الستة محفوظة إلى اليوم[5]. وتؤكد المعطيات الأولى أن الاختيار قد وقع على مصحح واحد، كما تم تعيين عشرين معاونا. وكان المصحح هو أبو حفص عمر الرندي الذي كان قاضيا بالمدينة وواحداً من أبرز علمائها[6]. ولم يتخل أي من بن سليمان أو الرندي عن ممارسة مهامهما السابقة، بل كانا يشتغلان لفائدة مؤسسة الطباعة على أساس تعاقدي. أما العشرون المتبقون، فكانوا متعلمين ساهموا في المساعدة على إنجاز بعض الأعمال المطبعية في مختلف مراحلها، فكانت فرصة سانحة لهم للتمرس على تقنيات الطباعة ومنهم الأعوان والمسفرون[7]. غير أن أسماء أولائك الطلبة المتعلمين غير معروفة باستثناء محمد الطيب الأزرق الذي استطاع أن يصبح أول طابع محترف في المغرب، بالإضافة

---

(3) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 291.

(4) **المرجع نفسه**، الجزء 1، ص. 267 ؛ أيضا مصطفى بوشعراء، **الحماية والاستيطان**، الجزء 1، ص. 416-417. وتوجد فيه ترجمة مختصرة حول محمد بن سليمان الكاتب ويعتبر فيها أحد رجال الدولة؛ انظر أيضا : محمد غريط، **فواصل الجمان**، ص. 92-109.

(5) المنوني، **المرجع السابق**.

(6) عبد السلام الرندي، «حديث مع الطيب الأزرق»، ص. 1. لمزيد من المعلومات عن حياة الرندي انظر الكتاني، **سلوة الأنفاس**، الجزء 2، ص. 368.

(7) الطيب بليمني، «بيان النفقات التي صرفت على المطبعة الملكية»، **الوثائق**، الجزء 1، (1976)، ص. 436-437.

إلى محمد الهفروكي المراكشي الذي لا تزال أعماله غير معروفة لحد الساعة[8]. وكان القباني هو الذي باشر تدريب الأزرق والمراكشي على مهنة الطباعة، فمنحت لهما إجازة اعتُرف لهما بموجبها بأنهما أصبحا في عداد الطابعين المحترفين. غير أن تلك الإجازة لم يمنحها لهما القباني بل عبد القادر الشفشاوني بتاريخ 16 من فبراير 1869[9]. ولابد من أن يكون الشفشاوني من الطلبة الذين أرسلهم السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى بولاق في مصر لتعلم فن الطباعة بالمؤسسة التابعة للحكومة المصرية وأصبح فيما بعد مفتشا مخزنيا عاما للطباعة في المغرب[10].

ويستفاد من منح الشفشاوني إجازة لكل من الأزرق والمراكشي، أن الأمر كان يتعلق بإجراء امتحان أو اختبار تقاس به القدرات والمهارات التي على ممارس مهنة الطباعة أن يمتلكها. ويعني ذلك أيضا أن المخزن كان في وضعية تخول له مكافأة الطابعين المؤهلين بشهادات تجعلهم يصبحون بموجبها في عداد المحترفين. غير أنه ـ ويا للأسف ! ـ قد غاب اسم المراكشي بعد 1871، وكذا اسم الشفشاوني الذي يظل دوره مع بقية الطابعين مجهولا لحد الآن. ويمكن القول بأن الشفشاوني استمر في إجراء الاختبارات على طابعين آخرين أمثال المكي بن إدريس العمراوي، وفي منحهم الشهادات التي تؤهلهم لممارسة المهنة.

ويعني كل هذا أن المخزن كان يعتبر الطباعة المحدثة بفاس مؤسسة تكتسي أهمية بالغة للبلاد، فاهتم بتعيين مصحح بها من درجة عالية[11]، وكاتب ملكي، كما حرص على اختيار المتعلمين والطلبة من أبناء أسر الأعيان لتدريبهم على فن الطباعة

---

(8) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 271. وتوجد فيها نسخة مصورة للشهادة الممنوحة لكل من الأزرق والمراكشي. أما نسختها الأصلية، فهي محفوظة بمديرية الوثائق الملكية بالرباط.

(9) **المرجع نفسه**.

(10) الطيب بليمني، «رسالة إلى أمين الأمناء ... المدني بنيس تتعلق بإرسال شاب إلى مصر»، **الوثائق**، الجزء 1، ص. 420–421، هي بتاريخ يوليوز 1866. ويتعلق الأمر بالشاب الشفشاوني الذي اتجه إلى مصر بهدف تعلم فن الطباعة هناك. انظر أيضا : محمد فكري، **الآثار الفكرية**، ص. 55–56، وتتضمن مراسلة بين السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن والخديوي إسماعيل، في موضوع الشفشاوني الذي كان يتعلم الطباعة وقتئذ بالمطبعة الحكومية المصرية في بولاق. وهي مؤرخة بشهر فبراير 1867.

(11) يؤكد ابن زيدان، في كتابه **الدرر الفاخرة**، ص. 94، أنه عندما فرغ الروندة من تصحيح كتاب **شرح الخرشي**، أرسل الوزير بليمني نسخة منه إلى عبد الرحمن البريبري بالرباط لمزيد من الفحص والتصحيح، فكانت النتيجة ضبط حوالي خمسة عشر خطأ أخبر الوزير بليمني بوجودها.

وامتحانهم ومنحهم الشهادات من أجل ضمان النجاح الكامل للمؤسسة واستمرار نشاطها لتعم فوائدها كل البلاد. فالجهود المبذولة لتنظيم مهارات مختلفة في الطباعة والنسخ والتصحيح والتسفير وتجميعها تحت سقف واحد من أجل إنتاج كتب بأعداد هائلة كبضاعة يستهلكها عموم الناس والمخزن على حد سواء، هذه الجهود تعتبر في حد ذاتها شيئا جديدا على المغرب يختلف عن النسق التقليدي الذي كان معروفا في عصر المخطوطات.

وعلى الرغم من تمكن المخزن من خلق مؤسسة جديدة في موضع ملائم، فإن نجاحها الحقيقي لن يصبح فعليا إلا في حالة قدرتها على إصدار كتب ذات جودة عالية مقابل أثمان معقولة. ولذلك، أصبح المخزن ملزما بالقيام بدور المشرف على سير أعمال المؤسسة على المستوى المالي بالإضافة إلى تنظيم مهمة التوزيع التي تتطلب، إلى جانب فتح أسواق جديدة، العمل على تغيير طبيعة سوق الكتاب التقليدية من أسلوب المؤاجرة إلى أسلوب جديد يقوم على أساس عمليات أكثر تعقيدا تعتمد القوائم والبيانات الحسابية وغيرها. ويدخل ضمن المهام المالية المشار إليها، أداء أجور العمال وواجب الكراء وتزويد المؤسسة بالمواد الضرورية لسير أعمال الطباعة وغيرها من المهام.

ويبدو من كناشة بليمني أن القباني ـ الطابع المصري ـ كان يحصل على أعلى راتب يصل إلى حوالي 650 مثقال عن كل شهر. ويليه كل من المصحح والكاتب، اللذين يتقاضى كل منهما 300 مثقال. بينما يحصل كل واحد من العشرين معاونا على حوالي 70 مثقالا شهريا. وبالإضافة إلى ذلك، يتوصل كل العاملين بالمؤسسة بمكافأة سنوية على شكل كسوة جديدة كاملة[12]. ويكاد راتب القباني أن يقارب الراتب الذي كان يتقاضاه أكبر الأمناء المغاربة بالمراسي، ويصل إلى حوالي 720 مثقال عن كل شهر[13]. ويعتبر العمل الذي يقوم به كل من الناسخ والمصحح أساسيا جدا لنجاح العملية، ومع ذلك فإن أجرة كل منهما تصل إلى أقل من نصف ما كان يتقاضاه الطابع المصري. ويعود ذلك إلى كونهما لا يشتغلان إلا عند الحاجة

---

(12) الطيب بليمني، المرجع السابق.

(13) نعيمة التوزاني، الأمناء في المغرب، ص. 139.

إليهما، أي مرة كل ستة أشهر، وهو الوقت الذي يستغرقه إنتاج كتاب يقع في 250 صفحة من الحجم المتوسط[14].

وإذا أخذنا بعين الإعتبار أن المغرب لم ينتج سوى ستة عناوين ما بين 1865 و1871، بمعدل حوالي 300 نسخة لكل عنوان[15]، أمكن الاعتقاد أن المشرفين على الأحوال المالية للمؤسسة كانوا يتحملون تكاليف باهظة لإنجاز مشاريع يترتب عنها عجز مالي كبير. وكانت مثل تلك النتائج متوقعة نظرا للمصاريف الثقيلة التي كان يتطلبها السير العادي للمؤسسة، كأداء واجب الكراء وجلب المواد الضرورية من حبر وورق وأحجار طباعية وغيرها، بواسطة الوكلاء التجاريين المغاربة المتمركزين في مصر وجبل طارق[16]. وبناء عليه، يمكن القول إن موظفي المخزن إما أنهم كانوا غير واعين بحجم المصاريف التي كانوا يقدمونها، وإما أنهم كانوا يعتبرون مؤسسة الطباعة استثمارا طويل الأمد من المنتظر أن يغطي كل نفقاته في المستقبل.

استمر المغاربة ست سنوات في تمويل حاجيات المؤسسة التي تمكنت من إنتاج نماذج من الكتب ذات جودة عالية من حيث صنف الورق والحبر ووضوح الخط وضوابطه أيضا. وفي الواقع، كانت صناعة الكتب في هذا المستوى تعني إنتاج مخطوطات من مستوى رفيع ليس فقط على مستوى الحجم والمظهر، بل أيضا على مستوى القيمة. وعلى سبيل المثال، فإن كتاب **التحفة** لمؤلفه التسولي، وهو ذو حجم متوسط ويحتوي على 260 صفحة، قد حدد ثمنه بواحد وثمانين مثقالا. ويعني ذلك

---

(14) فوزي عبد الرزاق، **المطبوعات الحجرية في المغرب**، ص. 195. وهو عبارة عن بيليوغرافية محققة لمطبوعات فاس الحجرية. ويمكن من خلال الترتيب الزمني الوارد في هذا الكتاب تتبع المدة الزمنية التي يستغرقها إنهاء طبع كتاب ما. انظر أيضا المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 266-269.

(15) اعتمدنا في هذا التقدير على المعلومات المتوافرة لدينا عن أعلى عدد من النسخ التي أنتجت من كل عنوان، وأدناه. وعلى سبيل المثال، بلغ عدد النسخ الصادرة من كتاب **الشمائل** للترمذي 185 نسخة. G. Ayache, «l'Apparition de l'imprimerie au Maroc», in **Hespéris-Tamuda (1964)**, pp. 143-161. في حين بلغ عدد النسخ الصادرة من كتاب **شرح ميارة** حوالي 600. ويؤكد ابن زيدان في كتابه **الدرر الفاخرة**، ص. 93، أن السلطان محمد بن عبد الرحمن قد رأسل 300 نسخة من ذلك الكتاب إلى مراكش ليشرف ابنه مولي الحسن على توزيعها هناك. وبالإضافة إلى ذلك، أخبرني أحد أفراد أسرة القادري بالدار البيضاء بأن الطابعين كانوا دائما يصدرون حوالي 300 نسخة من كل كتاب، وعندما يتمكنون من تصريف كل مخزونهم، يعملون على إخراج نشرة ثانية للكتاب نفسه. وكان ابن عبد الكريم القادري آخر من مارس الطباعة الحجرية في فاس خلال عهد الحماية الفرنسية بالمغرب.

(16) الطيب بليمني، **المرجع السابق**.

أن العامل المتوسط الذي يشتغل في مؤسسة الطباعة ملزم بالاشتغال مدة تزيد على الشهر ليتمكن من اقتناء نسخة من هذا الكتاب[17]، وفيما يتعلق بكتاب **شرح الخرشي على مختصر خليل** الواقع في ستة مجلدات، فإن ثمنه لابد من أن يتجاوز ثمن كتاب **التحفة** بست مرات أو سبع. ويعني ذلك أن القادرين على اقتناء المجموعة الكاملة لهذا الكتاب هم أثرياء العلماء وأفراد الأسرة السلطانية فقط.

وبما أن المخزن كان يضع رهن إشارة جامع القرويين عشر مجموع الكتب التي كانت تصدرها المؤسسة بالمجان[18]، فقد كان من شأن ذلك الزيادة من ثقل الأعباء التي عليه تحملها على مستوى البيانات الحسابية. ونتيجة لذلك، أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ابنه مولاي الحسن الذي كان ينوب عنه في مراكش بأن يقوم بفتح متجر هناك للإشراف على توزيع الكتب بالمدينة المذكورة وبأحوازها. وكان الأمير مولاي الحسن ينقل إلى والده سير أعمال التوزيع ويرفقها بالتفاصيل المالية. ويبدو أنه نجح في توزيع مائتين من أصل ثلاثمائة نسخة من كتاب **التحفة** على الناس ومختلف مؤسسات الأوقاف الموجودة بمدينة مراكش والمناطق المجاورة لها[19].

كما يسلط التقرير الذي رفعه الأمير مولاي الحسن إلى والده الضوء على الدور الذي قام به الأمناء أيضا لبيع الكتب لفائدة المخزن سواء أفي الدكان الذي كان يشرف عليه الأمير أم في أماكن أخرى بمراكش. ولا يعرف هل كان السلطان أو غيره من موظفي المخزن قد حاولوا إنشاء محلات جديدة للتوزيع في مختلف أرجاء البلاد أم لا. غير أنه من المحتمل ألا يكون المخزن قد نجح في تحقيق ذلك، لأنه تخلى عن إشرافه المباشر على مؤسسة الطباعة بمجرد ما عاد الطابع المصري إلى بلاده في سنة 1871[20]. وقد فضل المخزن ـ كما سنرى بمزيد من التفصيل في الفصول التالية ـ أن ينقل المؤسسة المذكورة إلى أيادي الخواص تفاديا لمصاريفها الثقيلة واستفادة من خدماتها في بعض المناسبات. ويمكن القول أيضا إنه حينما ارتفع حجم المخزونات إلى أزيد من ألفي مجلد دون أن تكون هناك أية آمال لتصريف ذلك العدد بشكل فعلي مارس بعض موظفي المخزن ضغوطا شديدة على الطابع المصري ليعود إلى بلده مصر.

(17) ابن زيدان، **المرجع السابق**. أيضا عياش، **المرجع السابق**.
(18) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 299–302.
(19) ابن زيدان، **المرجع السابق**.
(20) الرندي، **المرجع السابق**.

ويخبرنا الطيب الأزرق بأن عودة القباني إلى مصر كانت نتيجة شروع عبد الله البخاري ـ الذي كان على رأس الجيش السلطاني المحدث على الطريقة الأوربية ـ في التدخل في القضايا المتعلقة بتسيير العمليات المطبعية وفي وضعية الطلبة والمتعلمين الموجودين بالمؤسسة. ويضيف الطيب الأزرق أيضا أن عبد الله البخاري كانت تنتابه غيرة شديدة من الكرم الحاتمي الذي كان السلطان يغدقه على القباني[21]. وبالفعل فقد كان السلطان كريما جدا مع القباني، إذ مدد إقامته بفاس لأسباب مالية سنتين إضافيتين بعد تاريخ حصول الطيب الأزرق والهفروكي المراكشي على شهادة تثبت تحصيلهما لتقنيات الطباعة. ومع ذلك يبدو أن الحقيقة هي أنه قد كانت هنالك عيوب في تسيير المؤسسة، وهي التي جعلت تدخل البخاري في شؤونها أمرا ممكنا.

وبالإضافة إلى العبء المالي لمؤسسة الطباعة، فإن المخزن لم تكن لديه رغبة في إحداث أي تغيير في طبيعة السوق التقليدية للكتاب. ومن الراجح أنه كان يفتقر إلى الخبرة الضرورية لتحقيق ذلك. ومن أجل ذلك، لم يجد بدا من الموافقة على السماح لأحد أفراد الرعية، وهو الطيب الأزرق، بأن يمسك بزمام أمور الطباعة ويتحمل مسؤولياتها المالية ويدخل بالتالي في مغامرة مجهولة العواقب. ومن جهة أخرى، فإن جهود المخزن قد تركزت في الفترة الممتدة ما بين 1865 و1871 على تحقيق إصلاحات مستعجلة في مجالين اثنين : أولهما التوصل إلى جمع ضرائب جديدة، وثانيهما تحديث الجيش[22]. ويعني ذلك، أن المخزن لم يكن لديه الوقت الكافي للتفكير في الدخول في مغامرة جديدة تتعلق هذه المرة بميدان الطباعة.

ومن المؤكد أن المخزن كان بإمكانه استعمال تكنولوجية الطباعة لإصدار كتب علمية وأخرى تتعلق بالميدان العسكري وفقا لما فعله المصريون اعتمادا على مطبعة بولاق، وكذا العثمانيون خلال ثمانينيات القرن الثامن عشر. غير أن السلطات المخزنية فضلت الاقتصار في استعمال الطباعة على خدمة التربية التقليدية والأهداف التعليمية فقط. وعلاوة على ذلك، كان بإمكان المخزن إعطاء دفعة قوية للطباعة لو أنه اتخذ قرارا بطبع آلاف الدفاتر التي كان أمناء المستفادات الجدد في حاجة ماسة إليها لتنفيذ البرنامج الإصلاحي المتعلق بالميدان الضرائبي. وبدلا من ذلك اقتصر المخزن على تعيين بعض التجار وغيرهم من الأشخاص الذين كانت درجات تعليمهم بسيطة

(21) المرجع نفسه.

(22) التوزاني، المرجع السابق، ص. 33ـ34.

وأحيانا منعدمة، إذ كان البعض منهم عاجزا حتى عن كتابة اسمه أو استعماله في الإمضاءات، وبذلك لم يكن هناك أي أمل في إمكانية استعمال الأمناء لكنانيش أو دفاتر أو غيرها من البيانات الحسابية المطبوعة[23]. وكانت نتيجة ذلك أن الطباعة لم تحصل على أي دعم قوي مباشر أو غير مباشر من خلال تلك المحاولة الإصلاحية الهامة التي أقدم عليها المخزن.

وباختصار، فإن مساهمة المخزن في الطباعة قد حالفها النجاح من جهة، إذ تم التوصل لأول مرة إلى الجمع بين تخصصات مختلفة تحت سقف واحد من أجل إنتاج بضاعة الكتاب بعدد وافر. كما نجح في إصدار نصوص مختلفة توافرت فيها كل الشروط المتميزة المعمول بها في ميدان النشر. وحاول الجهاز المخزني فتح أسواق جديدة لترويج الكتاب، لكنه فشل في ذلك. كما أنه لم يتوفق في التوصل إلى دمج الطباعة في برامجه الإصلاحية التي اهتمت بالميدانين العسكري والجبائي، والتي كان بإمكانها أن تساعد على تحقيق العمليات المطبعية لنجاحها الاقتصادي. ونجد أنفسنا هنا أمام مفهومين حديثين يعتبران من الخصوصيات المميزة لعهد الطباعة. ويتعلق المفهوم الأول بإنشاء تنظيم معين، والثاني بتوسيع هذا التنظيم. وبتعبير آخر، الشروع في وضع المفهوم أو التنظيم الجديد في الطريق السليم الذي يؤدي به إلى التنفيذ والتطبيق. وفي هذه المرحلة، أدت العوائق المالية وغياب رجال الأعمال المحنكين في الأوساط المخزنية إلى الفشل. ومع ذلك استمرت الجهود والضغوط من أجل إحداث التغيير والتحولات.

ثانيا ـ استخدام المخزن للطباعة أداة دعائية

حين انتقل الإشراف على تسيير شؤون الطباعة من أيادي المخزن إلى القطاع الخاص، لم يكن يعني أبدا أن المخزن عزم على التخلي عن التدخل في الأمور المتعلقة بالطباعة. بل على العكس من ذلك، استمر المخزن في الاستفادة من تكنولوجية الطباعة بطرق معقولة جدا وحسب المناسبات دون أن يأخذ على عاتقه مجموع الأعباء والمصاريف المالية. ومع ذلك، فإن أهم الجوانب المتعلقة باستعمال المخزن للطباعة هي التي ارتبطت برغبته في إصدار بعض الكتب من أجل تحقيق أغراض دعائية.

(23) نفسه، ص. 61ـ62، 64ـ67.

ومن أبرز الأمثلة التي يمكن أن نسوقها لتقديم فكرة واضحة عن استعمال المخزن للطباعة استعمالا غير ممنهج وغير مباشر بعد 1871 لأغراض دعائية، نموذج السلطان المولى الحسن الذي أمر في 1882 بطبع نسخ عديدة من كتاب **إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للغزالي** لمؤلفه مرتضى الزبيدي أحد أشهر علماء القرن الثامن عشر(24). ويعتبر هذا الكتاب أكثر النصوص شمولية وأعمقها شرحا للمؤلف الشهير الذي وضعه الغزالي بعنوان **إحياء علوم الدين**. ومن الأمور التي جعلت كتاب الغزالي وشرح الزبيدي له يحظيان باهتمام السلطان والعلماء بوجه عام أنهما يمثلان معا الاتجاه الأشعري ضمن الفقه الإسلامي الذي ينتمي إليه كل المسلمين السنيين في مختلف أرجاء العالم. إذ على الرغم من إمكانية اختلاف أتباع المذهب المالكي عن أتباع المذهب الحنبلي فيما يتعلق بتفاصيل طقوس الصلوات ومناسك الحج فإنهم يؤمنون بالمعتقدات الأشعرية نفسها التي يعترف بها بقية المسلمين من أهل السنة. وعليه، فإن المسلمات العقيدية الأشعرية تعرف أيضا بأنها عقيدة أهل السنة والجماعة، وتعني أيضا وحدة بين المسلمين السنيين بوجه خاص أو رابطة إسلامية بوجه عام(25).

وهناك نقطة ذات دلالة هامة تتعلق بكتاب **الإحياء** للغزالي، وهي أنه يحتل منزلة وسطا بين أهل الحديث التقليديين والمعتزلة، أي أنه يجمع بين الفقه والتفكير المنطقي. ومثالنا على ذلك، أن الغزالي وبقية الأشاعرة يعتقدون أن القرآن الكريم كلام الله الأزلي ومعجزته الكبرى. لكن الكلمات القرآنية تصبح مخلوقة عندما تتلى في القراءات، وتلك هي المسألة الوحيدة التي يوافق عليها التقليديون(26).

من المحتمل أن يكون اهتمام السلطان مولاي الحسن بكتاب **إتحاف السادة المتقين** نابعا من النسب الشريف لمؤلفه الزبيدي ومن كثرة أتباعه في المغرب الذين يعتبرونه واحدا من أكبر علماء التصوف المسلمين ورجاله. كما قام الزبيدي بإحياء تدريس الحديث، خاصة كتاب **صحيح البخاري**، وفقا للطريقة التقليدية التي تقوم

---

(24) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 305-309، ويحتوي على نص العقد المبرم بين المخزن والأخوين الأزرق الطيب والعربي لطبع الكتاب المذكور أعلاه.

(25) Montegomery Watt, «Ash'ariyyah» in **Encyclopædia of Islam**, n.e, p. 696.

(26) أحمد محمد صبحي، **في علم الكلام**، الجزء 1، ص. 429-439، ص. 477-478.

على تلاوة النص الكامل لكل حديث على حدة، مع الحرص على سرد سلسلة الرواة والإسناد وصولا إلى الرسول محمد عليه السلام[27].

وتنتمي أسرة الزبيدي في الأصل إلى واسط جنوب العراق، غير أنه ولد بشمال الهند وهاجر إلى مصر خلال القرن الثامن عشر. ألف الزبيدي أزيد من مائة كتاب أو رسالة، ومنها كتاب **إتحاف السادة المتقين** وكتاب **تاج العروس** في مجلدات عديدة[28] ويخبرنا المؤرخ الشهير الجبرتي ـ وهو من تلامذة الزبيدي ـ عن مكانة هذا الأخير عند المغاربة بالعبارات التالية :

«وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة واعتقاد زائد، وربما اعتقدوا فيه القطبانية العظمى، حتى أن أحدهم إذا ورد إلى مصر حاجا ولم يزره ولم يصله بشيء لا يكون حجه كاملا. فإذا ورد عليه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده، وحفظ ذلك أو كتبه، ويستخبر من هذا عن ذاك بلطف ورقة. فإذا ورد عليه قادم من قابل سأله عن اسمه وبلده، فيقول له فلان من بلدة كذا، فلا يخلو ما أن يكون عرفه من غيره سابقا أو عرف جاره أو قريبه، فيقول له : فلان طيب. فيقول : نعم سيدي. ثم يسأله عن أخيه فلان وولده فلان وزوجته وابنته، ويشير له باسم حارته وداره وما جاورها، فيقوم ذلك المغربي ويقعد ويقبل الأرض تارة ويسجد تارة، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح. فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب (...)»[29].

لقد تجاوزت شعبية الزبيدي في المغرب أوساط العلماء والحجاج العائدين من الديار المقدسة. إذ نجد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، خلال القرن الثامن عشر، يراسل الزبيدي في القضايا العلمية ويمنحه الهبات والهدايا. غير أننا لم نتمكن بعد من معرفة هل كان ذلك السلطان يكاتب الزبيدي من أجل الحصول منه على إجازة. وبالفعل، فقد كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله اهتمام عميق بعلوم الحديث، والمعروف عن الزبيدي أنه قد سبق له أن منح إجازات كثيرة عن طريق المراسلة إلى العديد من سلاطين المسلمين وحكامهم بمن فيهم الإمبراطور العثماني عبد الحميد وغيره من كبار الموظفين العثمانيين[30].

(27) محمد الكتاني، **فهرس الفهارس**، المجلد 1، ص. 398–407.

(28) المرجع **نفسه**، ص. 407ـ431.

(29) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار**، الجزء 2، ص. 200–201.

(30) **نفسه**؛ انظر أيضا محمد الكتاني، المرجع السابق.

وبالإضافة إلى هذه العوامل المحلية، كانت للسلطان المولى الحسن دوافع إضافية جعلته يأمر بإصدار نسخ عديدة من كتاب **إتحاف السادة المتقين**. ففي ثمانينيات القرن التاسع عشر تمكن المولى الحسن من بلوغ أحد أهدافه الأساسية على المستوى الداخلي، إذ استطاع إحكام سيطرته على جل القبائل المغربية الموجودة في مختلف أرجاء البلاد. غير أن ذلك الهدف لم يتحقق إلا بعد قيامه بحملات عسكرية، عنيفة في غالبيتها، خلال مدة استغرقت أزيد من عشرين سنة. وكان لابد من أن تثير سياسة المولى الحسن الحازمة في الداخل أنظار الأوربيين وسائر المسلمين على السواء، وخاصة في مصر حيث كان يعيش الآلاف من المغاربة تجارا أو حرفيين. وتضمنت صحيفة «أزمنة المغرب» **The Times of Morocco** التي كان يصدرها أسبوعيا البريطاني بادجيت ميكن (B. Meakin) في طنجة ما بين سنوات 1884 و1893، تضمنت عدة تقارير غطت جل حركات السلطان مولاي الحسن. وصدرت في القاهرة عن مراسل من تونس انتقادات نصت على أن مولاي الحسن قد «بقي متماديا في شأنه، يقاتل رعاياه وينتز أموالهم التي حرَّم الله»[31].

لم يجد السلطان المولى الحسن وسيلة لصد تلك الانتقادات أفضل من القيام بتوزيع نسخ من المجموعة الثمينة[32] لكتاب **إتحاف السادة المتقين** دون مقابل على حوالي مائة وخمسين من العلماء في كل من مصر والحجاز وإستنبول. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك الكتاب كانت نسخه نادرة جدا في العالم الإسلامي. إذ نجد المفتي الكبير للمذهب الشافعي بمكة المكرمة أحمد دحلان يقوم، قبل طبع كتاب **إتحاف السادة المتقين** بسنتين، بتوجيه طلب شخصي إلى السلطان المولى الحسن راجيا منه فيه العمل على إنجاز نسخة من الكتاب المذكور على يد الخطاطين المغاربة لفائدته حتى يكون بإمكان علماء الإسلام الاستفادة من محتوياته ويذكرون دوما تلك الخدمة الجليلة التي قدمها المولى الحسن للإسلام والمسلمين. ولم يكتف المولى الحسن بالاستجابة لطلب المفتي الكبير بمكة بتزويده إياه بنسخة خطية من الكتاب بل تجاوز ذلك إلى توفير نسخة مطبوعة منه وجعلها رهن إشارة العلماء[33]. وتكتسي

(31) لم يفت رشيد رضا التشكيك في هذه الأخبار فقال : «وما كنا نظن أن ملوكها بهذه الدرجة التي ذكرها (المراسل)، بل لا نزال نظن أن في وصفه لهم مبالغة»، المنار، المجلد 2 (1899)، ص. 125–127 (المترجم).

(32) المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 308–309.

(33) نفسه، ص. 304.

العملية التي قام بها المولى الحسن أهمية لها دلالات خاصة يمكن إيجازها في أنه قد لجأ إلى استعمال الطباعة لأول مرة في تاريخ المغرب كأداة دعائية يهدف بها إلى تلميع صورته في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

وأثار قيام السلطان المولى الحسن بتوزيع ذلك الكتاب هدية على علماء المشرق في كل من القاهرة ومكة والمدينة وإستنبول اهتمامات الأوربيين الذين اعتبروا ذلك العمل مؤشرا على انفتاح السلطان على بقية بلدان العالم الإسلامي في إطار جهوده الهادفة إلى كسب اهتمامهم ومساندتهم لتخليص المغرب من التدخل الأوربي المتزايد في شؤونه الداخلية[34]. والذي كان يحظى باهتمام الأوربيين هو وجود بعض العلماء أمثال ماء العينين ومحمد جعفر الكتاني، الذين كانت لهم علاقات وروابط قوية مع عناصر رسمية داخل الجهاز الحكومي العثماني ومع عناصر عثمانية غير رسمية كانت تدعو إلى ضرورة اعتماد المغرب على الخبراء المسلمين عوض الخبراء المسيحيين لإصلاح جهازهم العسكري.

إن استعمال الطباعة أداة دعائية لم يكن في الواقع أمرا جديدا على بقية الحكام المسلمين. إذ نجد الخديويين في مصر قد سلكوا منذ عشرينيات القرن التاسع عشر هذا النهج نفسه، فاستعملوا مؤسسة طباعتهم في بولاق لتقديمها للزوار الأوربيين برهانا على شق مصر طريقها نحو التطور معتمدة في تحقيق ذلك على التكنولوجيا الحديثة. كما قدموا نسخا مطبوعة من الكتب العلمية وغير العلمية إلى رؤساء الدول الأوربية وملوكها وإلى أعضاء الهيئات الدبلوماسية للهدف نفسه[35].

وقد اتخذت الدعاية بالمغرب في الأساس طابعا إسلاميا صرفا، فأبدى المغاربة بالفعل رغبة في الحفاظ على أنشطتهم المطبعية بعيدا عن الأوربيين، خاصة وأن الغالبية العظمى من كتبهم كانت في مواضيع إسلامية بالدرجة الأولى. فهذا الباحث الفرنسي ليفي بروفنسال (Levi-Provençal) أحد أبرز المتخصصين في الدراسات المغربية ظل يجهل التاريخ الحقيقي الذين أنشئت فيه مؤسسة الطباعة بفاس وكذا المكان الحقيقي الذي كانت توجد فيه المطبعة بالمدينة نفسها إلى حدود عشرينيات القرن العشرين،

---

(34) Budgett Meakin, The Land of the Moors, p. 124 ؛ وأيضا مصطفى العلوي، الحسن الأول، الجزء 1، ص. 124.

(35) خليل صابات، تاريخ، ص. 178-179.

أي بعد ثماني سنوات من فرض الحماية الفرنسية على المغرب(36). وعلى الرغم من استعمال المغاربة للطباعة لتصدير الكتب إلى العالم الإسلامي لغايات دعائية، فإنهم ظلوا غير راغبين، بل غير واعين بإمكانية استعمال الطباعة لتفنيد الادعاءات الأوربية التي كانت تنشر ضدهم في الصحافة. ويخبرنا بادجيت ميكن (B. Meakin) في عدد صادر لجريدته «أزمنة المغرب» The Times of Morocco سنة 1886 بأن السلطان المولى الحسن قد اندهش كثيرا حين قيل له بأن الأوربيين يطلعون على أخبار غيرهم من الدول عن طريق الصحف والجرائد(37). وفي الواقع، حين صدرت جريدة عربية لأول مرة في طنجة تحت اسم **المغرب** على يد مسيحيين من لبنان هما عيسى فرج وسليم كسباني، فإنهما بادرا إلى عرض خدماتهما على السلطان وأبديا استعدادهما الكامل ليصبحان ناطقين باسم المغرب(38)، فلم يحظ عرضهما ذلك بالقبول. غير أنه خلال العقدين التاليين ومع تدهور الأحوال العامة في المغرب، ساد وعي بضرورة مواجهة الدعايات الأوربية بالصحافة، وهو ما سنراه في المرحلة الثالثة من الطباعة في المغرب.

وباختصار، فإن المخزن قد عمل على توسيع نطاق الاستعمال التقليدي لصناعة الكتاب من أجل الدعاية المحلية التي قد تمتد أيضا إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي. وكانت تلك البدايات الأولى متواضعة، غير أن المغاربة مع نهاية القرن قد استعملوا الطباعة وبدأوا يعدونها أداة لا يمكن الاستغناء عنها في جهودهم الدعائية الداخلية منها والخارجية.

ثالثا ـ التقنين والتنظيم المخزني للطباعة

يبدو أن صدور «ظهير 7 فبراير 1897»(39) المنظم لمختلف أنشطة الطباعة قد كان المستجد الثالث الذي كان استعمال الطباعة في المغرب من وراء إحداثه. ويتضمن هذا الظهير الذي أصدره السلطان مولاي عبد العزيز ست نقط رئيسية

---

(36) Levi-Provençal, **Essai de répertoire chronologique des éditions de Fès**, p. 3، انظر تعليقنا على هذا الكتاب في المقدمة.

(37) **The Times of Morocco**, n° 41 (1886), p. 1.

(38) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 359ـ362.

(39) **المرجع نفسه**، الجزء 1، ص. 310. وتوجد بها نسخة مصورة للظهير المذكور.

سنقوم بمناقشتها في محاولة لمعرفة الحدود التي يمكن اعتبارها مؤشرا واضحا على التخلي عن التقنينات التقليدية المتعلقة بصناعة الكتاب.

عند القيام بفحص النقاط الست المشار إليها أعلاه، نجدها تعكس ثلاثة اهتمامات أساسية. يتعلق الأول منها بجودة المنتوج، والثاني بحماية الناشرين، والثالث بالحاجة إلى الحصول على رخصة من السلطات المخزنية قبل الإقدام على طبع أي كتاب. وبوجه عام، فإن تقنينات 1897 خليط من الاهتمامات التقليدية والحديثة. وعلى سبيل المثال، نجد أن مسؤولية الإشراف على تطبيق تلك التقنينات موكولة إلى محتسب مدينة فاس الذي تلقى تعليمات من السلطان بالتردد على الطابعين قصد التأكد من جودة منتجاتهم. وبناء على ذلك، فإن المهمة المنوطة بدور المحتسب لم يطرأ عليها أي تغيير وظلت مقتصرة كما كان الشأن في عصر المخطوطات على مراقبة جودة المنتوج(40).

وفيما يتعلق بالاهتمام الثاني الخاص بحماية حقوق الناشرين ومصالحهم، فإن تقنينات 1897 تتضمن ثلاث نقط تعتبر جديدة على المغرب. وكان الناشرون المغاربة في هذه المرحلة مجموعة من الأفراد الذين كانت لديهم رغبة في رعاية عمليات نشر الكتب إما لغايات واستعمالات خيرية وإحسانية وإما من أجل تحقيق ربح مادي(41). وتقدم التقنينات الجديدة الحماية الكاملة للناشرين الذين لا يرغبون فقط في مجرد استرجاع المصاريف التي أنفقوها، بل يطمحون أيضا إلى تحقيق بعض الأرباح داخل سوق ما فتئت تشتد فيها المنافسة. وتنص التقنينات بوضوح على الأمور التالية : أ) «ومنها أن لا يطبعوا لأحد كتابا تقدم طبعه إلا بعد مضي عامين اثنين من تاريخ طبعه». ب) «ومنها آن لا يزيدوا على العدد الذي أوجروا عليه نسخة لا لهم ولا لغيرهم ممن عدا المؤجر». ج) «أن يلزم المشترين الذين يروجون في بيع الكتب بحوانيت الأسواق عدم شرائها من المعلمين المباشرين للطبع».

---

(40) يبدو من خلال نص الظهير السلطاني أن المحتسب الذي كان وقتئذ بفاس هو محمد بن حفيد. ولمزيد من المعلومات عن المهام التي كان يقوم بها المحتسب بمدينة فاس خلال هذه المرحلة، انظر : لطيفة بناني، «وثائق حول مهمة المحتسب بفاس» في **مجلة كلية الآداب** بفاس، عدد خاص، رقم 2، (1985)، ص. 403–423.

(41) لمزيد من التفاصيل عن مختلف الأنشطة التي كان يقوم بها الناشرون، انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

إذن، بالإضافة إلى الرغبة الواضحة التي كان القانون يسعى إلى تحقيقها ونعني بها حماية حقوق الناشرين في إطار التنافس القائم بينهم، فإن التقنينات الواردة أعلاه تعطينا دليلا واضحا على قيام المغرب بمحاولة فعلية للتمكن من إعادة تنظيم نسقه التقليدي. وعلى الطابعين الحرص أيضا بشكل كبير على ضبط تواريخ الكتب التي تكلفوا بمهمة طبعها وكذا أسماء الطابعين والناشرين، خاصة وأن تسجيل تلك المعطيات لم يكن في السابق من الأمور القارة التي كان على جميع الطابعين والناشرين مراعاتها، إذ كان العديد منهم يسمحون لأنفسهم بحرية الاختيار واتخاذ القرار لتقديم مثل تلك المعلومات أو عدم تقديمها عن مطبوعاتهم(42). وبذلك، ساهمت التقنينات الجديدة في عدم إتاحة الفرصة أمام الطابعين والناشرين لإلحاق الضرر ببعضهم البعض دون أن تترتب عنها عواقب وخيمة ؛ فقد نص ظهير 1897 على أن كل من سار «على خلاف الشروط المذكورة يعاقب العقاب الشديد [...] وترفع يده عن طبع الكتب».

أما الاهتمام الثالث الذي تركز عليه التقنينات الجديدة والذي ينص على أن الطابعين ملزمون بأن «لا يقبلوا المؤاجرة على طبع كتاب إلا بعد أن يعلموا به القضاة خشية أن يقدموا على طبع ما لم يأذن الشرع فيه»، فإنه ينقلنا إلى جانب آخر يتعلق بالطباعة في المغرب، ألا وهو ميلاد الرقابة في البلاد. ففي العصر الروماني كان المسؤول عن الرقابة هو الشخص نفسه الذي كان يتولى مهمة الإشراف على مراقبة سلوك عامة الناس وأخلاقهم(43). أما في بلدان العالم الإسلامي، فقد كانت المهمة نفسها موكلة إلى المحتسب(44).

وفي عصر الطباعة، أصبح لفظ الرقابة يعني قيام موظفين رسميين في خدمة الدولة بفحص الكتب والصحف وغيرها من المكتوبات ومراقبتها قبل نشرها للتأكد

---

(42) فوزي عبد الرزاق، **المطبوعات الحجرية في المغرب**. يبدو واضحا من خلال هذه البيليوغرافية أن الإشارة إلى التواريخ وأسماء الطابعين والناشرين وغيرهم أصبح من الأمور المعهودة الثابتة القارة بعد 1897. وهو خلاف ما كان عليه الأمر من قبل. غير أن تلك الاستمرارية توقفت بعد 1912 حين أصبحت جل الكتب لا تحتوي على معلومات من ذلك القبيل. ومن الممكن أن يعزى ذلك إلى عدم قيام سلطات الحماية الفرنسية بتشجيع العلماء على إنتاج النصوص الإسلامية بالخط التقليدي.

(43) **The Oxford English Dictionary**, 1978 edition, item «censorship».

(44) لطيفة بناني، **المرجع السابق**.

من عدم احتوائها على أمور تتنافى مع الأخلاق والقيم الدينية السائدة أو تنطوي على ما من شأنه المس بسلامة الدولة وسمعتها[45]. وفي المغرب، يمكن اعتبار ظهير 1897، الذي ينص على ضرورة حصول الناشرين والطابعين على ترخيص من قاضي فاس للسماح لهم بطبع الكتب، أول وثيقة مكتوبة عن الرقابة في البلاد. وهنا أيضا يمكن تأويل ذلك الإجراء واعتباره محاولة حقيقية من المخزن لإعادة تنظيم المهام المنوطة بكل من محتسب فاس وقاضيها، وذلك بالتقليص من مهام الأول والزيادة على العكس من ذلك في سلطات القاضي الذي يمنحه الظهير السلطاني امتيازا يسمح له بالتحكم في منح الناشرين والطابعين الترخيص قبل نشرهم الكتب وإصدارها.

وفي الواقع، كان القيام بذلك التنظيم الجديد ضروريا لسبب هام جدا. وهو أن المخزن كان يعد ظاهرة الطباعة ذات أهمية خاصة منذ وقت مبكر، فعين من أجل ذلك أفراداً من ذوي الكفاءات العالية للإشراف على تسيير شؤونها، كما اختار الطلبة من بين صفوف كبار أسر الأعيان لتدريبهم على التحكم في تقنيات الطباعة. وبناء عليه، فقد كان من العملي جدا أن يتم تعيين قاضي فاس رئيسا للجهاز الذي يسمح بمنح الترخيص لطبع الكتب، خاصة إذا علمنا بأن جل الناشرين والطابعين ينتمون في غالبيتهم إما إلى أسر من أصل شريف لها نفوذها القوي وإما إلى أسر الأعيان الذين كان المخزن يخشى إمكانية تأثيرهم بسهولة على قرارات المحتسب الذي كان غالبا ما يتم اختياره من بين أعضاء الوسط التجاري[46]. ففي مطلع سنة 1896 مثلا، كانت الزاوية الكتانية بزعامة كل من عبد الكبير ومحمد الكتاني تستفيد من استعمال الطباعة، التي ساهمت من خلال منشورات زعمائها الدينيين في العمل على الرفع من مكانة الزاوية ومنحها المزيد من النفوذ والشهرة. غير أن المخزن كان يعتبر زعماء الزاوية الكتانية منافسين له يرغبون في الوصول إلى سدة الحكم. ولذلك، أدخل تقنين إضافي عام ينص على ضرورة مطالبة كل العلماء بالحصول على ترخيص من قاضي فاس قبل الإقدام على أي استعمالات لآلات الطباعة، بصفته أعلى سلطة دينية وعالما ذا كفاءات عالية وله اتصال فعلي ودائم بشخص السلطان.

وفي الأخير، تبقى لدينا ملاحظتان مهمتان حول ظهير 1897. أولاهما، أن الظهير يعتبر النصوص الإسلامية ـ التي شغلت أكبر حيز في صناعة الكتاب إلى

(45) انظر الهامش 43 أعلاه.

(46) لطيفة بناني، المرجع السابق.

حدود تلك المرحلة ـ سلعة من السلع يجب أن تخضع لمراقبة المحتسب في فاس وتفتيشه. وكانت تلك النظرة إلى الكتب الإسلامية أمرا لا مناص منه، نظرا للأعداد الهائلة من الكتب التي بدأت تتراكم مكونة مخزونات في حوانيت الكتبيين ومختلف الخزانات وورشات الطباعة.

وخلال العصر الذي ساد فيه المخطوط، كانت ندرة المخطوطات تسير جنبا إلى جنب مع قداسة النصوص الإسلامية كـ**القرآن** الكريم وكتاب **صحيح البخاري**. وكان المسلمون حماة للخط الإسلامي نظرا للدلالات القدسية التي كانت تنطوي عليها أسماء الله الحسنى وكذا الكلمات التي يتضمنها **القرآن** الكريم والحديث النبوي الشريف. لكن بعض الأضرار بدأت تلحق بقدسية الخط وجلاله خلال عهد الطباعة، وأصبحت الكتب الإسلامية مجرد سلعة كغيرها من السلع. ولهذه النقطة دلالتها الخاصة، التي هي مساهمة ظهير 1897 في تمهيد الطريق أمام الشروع في التخلي نهائيا عن الخط التقليدي والانتقال إلى استعمال الحروف المطبوعة الموحدة التي ما لبثت أن أصبحت سارية المفعول مع دخول آلات الطباعة ذات الحروف المتحركة منذ سنة 1906.

الملاحظة الثانية، هي أن ظهير 1897 كان أيضا مؤشرا واضحا وفعليا على مخالفة التقليد، ونعني بذلك أن السلطان نفسه أصبح يتدخل في تنظيم أعمال الطباعة وسوق الكتاب. في حين جرت العادة بأن تكون القضايا المتعلقة بالكتب من اهتمامات العلماء واختصاصات الشريعة الإسلامية. وبما أن طبيعة الكتابات الدينية أصبحت ذات شحنة سياسية، فقد أضحى من الضروري أن تتدخل الدولة لتتحمل مسؤولية تنظيم شؤون الطباعة، وذلك ما سنراه بالتفصيل حين حديثنا عن المرحلة الأخيرة من الطباعة في المغرب.

باختصار، فمن التحولات التي ساهم استعمال المطبعة في إحداثها بالمغرب صدور ظهير 1897 على يد السلطان مولاي عبد العزيز الذي أدخل عنصر الرقابة وأدى في الوقت نفسه إلى إعادة تنظيم المهام التقليدية التي كانت منوطة بكل من القاضي والمحتسب بمدينة فاس. وفوق ذلك كله، فإن الظهير السلطاني قد فسح المجال أمام إعادة النظر في الطابع القدسي الذي كان يحظى به الخط الإسلامي، ومن ثم أصبح الكتاب يعتبر بضاعة عادية.

رابعا ـ عودة المخزن للإشراف على الطباعة

كانت المرحلة الرابعة والأخيرة التي تدخل فيها المخزن في موضوع الطباعة على عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ (1908ـ1912) حين حاول فرض مراقبته التامة على آلات الطباعة سواء بمصادرتها أم بالإقدام على شرائها كلها وجعلها تحت إشرافه المباشر. ففي سنة 1908 كان بكل من مدينتي فاس وطنجة ستة طابعين معروفين يستعملون أربعة آلات للطباعة أو خمسة[47]. وهناك كانت آلتان أو ثلاث للطباعة الحجرية، في حين كانت آلات الطباعة المتبقية من الصنف ذي الحروف المتحركة. في الظاهر، ونتيجة لكون السلطان الجديد شاعرا وعالما معترفا به ولديه تخصص في أدبيات الحديث، قد يميل المرء إلى الاعتقاد بأن تحركاته التي استهدفت مراقبة نشاط الطباعة نابعة من رغبته القوية في إحياء الإسلام وعلومه الدينية. غير أن المغرب في سنة 1908 كان يختلف كثيرا عما كان عليه في سنة 1865 حين كانت الطباعة تحت المراقبة الكاملة للمخزن. ونعني بذلك أن العوامل السياسية هي التي كانت من وراء قيام السلطان بعمله الهادف إلى مراقبة حركة الطباعة لأنها أصبحت تشكل نوعا من التهديد للمخزن.

وفي الفترة الممتدة ما بين 1865 و1871، استعملت الطباعة بصفة أساسية لإنتاج كتب ذات طابع تعليمي وتربوي[48]. غير أنه ابتداء من 1872 والسنوات التي تلتها، ساهم المخزن والقطاع العام في توسيع آفاق الطباعة التي بدأت تشمل النصوص العلمية في مختلف الحقول المعرفية، وخاصة في الميدان السياسي سواء أتعلق الأمر بالمستوى المحلي أم بالمستوى الدولي. وقد بدأ الناشرون والطابعون ـ محليا ـ يولون اهتماماتهم للأخطار التي كانت البلاد تواجهها وقتئذ نتيجة ارتفاع حدة التحرشات الأوربية.

وخلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، طبعت كتيبات أو كراريس صغيرة في موضوع الجهاد وراجت بأعداد كبيرة في أوساط عموم القراء. ونذكر مثالا على

(47) كان يشتغل في الطباعة الحجرية خلال هذه الفترة كل من الأخوين أحمد والعربي الأزرق، وعبد المولى الجلاحي وعبد السلام الذويب، وأبو القاسم البادسي، وكانوا جميعهم بمدينة فاس. أما فيما يتعلق بالطابعين الذين كانوا يشتغلون بآلات الطباعة ذات الحروف المتحركة فهم أحمد يمني بفاس والأخوين نمور بمدينة طنجة.

(48) المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 270.

ذلك، كتاب الكردودي **كشف الغمة** الذي كان قد ألف قبل ذلك التاريخ بعشرات السنين، فقام الناشرون بطبعه وإعادة طبعه مرات عديدة ولقي نجاحا كبيرا في أوساط القراء الجدد. وكان الكردودي قد وجه في كتابه ذلك نداءً إلى المغاربة يحثهم فيه على الاستعداد والشروع في تنظيم أنفسهم وفقا للطراز العسكري الأوربي الحديث لمواجهة الأوربيين والتغلب عليهم اعتمادا على نهج خططهم ذاتها واستعمال أسلحتهم نفسها لتحقيق ذلك(49).

تعرض المغرب لهزة عنيفة في الفترة الممتدة ما بين 1902 و1909 نتيجة اندلاع ثورة بوحمارة الذي ادعى أنه هو محمد الإبن الأكبر للسلطان المولى الحسن، وأنه بذلك هو الوريث الشرعي لعرش المغرب، بدلا من الإبن الأصغر مولاي عبد العزيز. وساهمت ثورة بوحمارة في إضعاف المخزن مدة تراوحت بين سبعة أعوام وثمانية، كما أدت إلى توجيه العلماء لانتقادات حادة أبدوا عبرها معارضتهم لبوحمارة وللدول الأوربية وخاصة منها فرنسا، وسطروها في كتيب صغير طبع ووزع في أوساط عامة الناس تحت عنوان **بيان علماء فاس**(50).

ومع تعاقب تردد صدى العديد من القضايا على صفحات الكتب والكراريس، تزايدت درجة الوعي بأهمية تكنولوجية الطباعة كعامل له الفعالية الكبيرة في نشر مختلف وجهات النظر السياسية وإذاعتها بين الناس، فما كان من المخزن إلا أن اعترف بذلك الواقع في حينه. وعندما أنشأت المفوضية الفرنسية جريدة باللغة العربية في مدينة طنجة سنة 1904 بعنوان **السعادة**، انزعج رجال المخزن من ذلك، خاصة وأن افتتاحية **السعادة** كانت تتعرض بالتفاصيل الكاملة للقضايا المتعلقة

---

(49) عبد السلام ابن سودة، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، المادة 2259. وتتضمن إشارة إلى أن كتاب الكردودي طبع في 1885. بينما يخبرنا الإدريسي في **قائمة المطبوعات المغربية**، المادة 52 تحت رقم 948، بأن الكتاب طبع مرتين اثنتين. غير أن الإدريسي، وإن لم يقدم لنا أي معطيات عن تواريخ النشر، ورغما عن ارتكابه بعض الهفوات في بعض الأحيان، فقد كانت لديه معلومات جيدة حول مطبوعات فاس. وحسب ما جاء عند المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 23–25، كانت وفاة الكردودي في غضون سنة 1851. ومن المؤلفين الآخرين الذين نشرت كتاباتهم ذات اللهجة المعادية للغرب المسيحي والتي لقيت رواجا واسعا في أوساط القراء، نذكر الشيخ ماء العينين بالإضافة إلى أفراد من الأسرة الكتانية. ولمزيد من التفاصيل، انظر الفصلين السابع والتاسع من هذا الكتاب.

(50) محمد غريط، **فواصل**، ص. 110–120. انظر صورة للبيان المذكور عند محمد الصغير الخلوفي، **بوحمارة من الجهاد إلى التآمر**، دراسة ووثائق، ص. 161–162.

بسياسة السلطان الداخلية وتجعلها رهن إشارة عموم المغاربة على اختلاف مشاربهم وتباين مستوياتهم الإدراكية[51]. وكان أول ردود فعل المخزن أن حاول إلزام محرري الصحيفة بالصمت عبر القنوات الدبلوماسية. غير أن المخزن اضطر في نهاية المطاف إلى الاقتناع بأن الوسيلة الوحيدة التي يمكن الرد بها على افتتاحيات **السعادة** هي العمل على إنشاء صحيفة خاصة به وناطقة باسمه[52]. وفي غياب متخصصين في الطباعة التيبوغرافية وأطر صحافية مؤهلة في المغرب، لم يجد المخزن العزيزي بدا من إقناع صحافيين لبنانيين هما فرج وآرتور نمور بالتوجه إلى طنجة والعمل هناك على تأسيس أول جريدة مغربية أصبحت معروفة باسم **لسان المغرب**[53].

إلى جانب المحاولات التي قام بها الأخوان نمور للتعريف بسياسة المغرب الداخلية والدفاع عنها، تحولت جريدة **لسان المغرب** ـ التي أسندت لهما مهمة الإشراف على إصدارها ـ إلى منبر مفتوح لمناقشة الأفكار الإصلاحية. ونذكر في هذا السياق، على سبيل المثال، الاقتراح المثير الذي قدمه كاتب لم يكشف عن اسمه، ودعا فيه إلى تعويض الشريعة الإسلامية بقوانين دستورية[54]. وخلال هذه الفترة الممتدة ما بين 1905 و1908، كان هنالك اقتراحان اثنان متباينان : دعا أحدهما إلى إنشاء دستور وفقا للنموذج الغربي، بينما نادى الاقتراح الثاني بضرورة العمل على وضع دستور إسلامي على النمط العثماني[55]. وكان العثمانيون قد لجأوا إلى اتخاذ قرارات إزاء وجهات نظر دينية كانت تحظى عادة بالقبول لدى كل المسلمين، في حين كانوا يتركون الآراء العرفية المتعددة والأحكام المتباينة المتعلقة بالموضوع نفسه. وبذلك، كان بإمكانهم التوصل بنجاح إلى فرض قانون موحد على الجميع.

ومن المفيد جدا الإشارة إلى أن أحد الرعايا العثمانيين، واسمه عبد الكريم مراد، كان موجودا في مدينة فاس، ربما خلال سنة 1905 أو 1906، حيث حرر مسودة لذلك الدستور الذي يبدو أنه قد حظي بمساندة العلماء وخاصة الكتانيين[56]. غير

(51) زين العابدين الكتاني، **الصحافة في المغرب**، الجزء 1، ص. 145.

(52) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 2، ص. 283ـ284.

(53) **المرجع نفسه**.

(54) محمد حسن الوزاني، **مذكرات**، الجزء 4، ص. 399ـ405؛ انظر أيضا علال الفاسي، **حفريات دستورية**، ص. 16.

(55) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 399ـ405.

(56) **المرجع نفسه**.

أن نص ذلك الدستور لم يعرف طريقه إلى النشر أبدا في الجريدة الناطقة باسم المخزن. وعوضا عن ذلك، فقد نشر على صفحاتها نص الدستور المحرر وفقا للنمط الغربي[57]. وبالفعل، يبدو من الواضح أن جريدة **لسان المغرب** قد أنشئت لمسايرة الاتجاه الإصلاحي المستمد من التيار الغربي الذي كان يتلاءم مع انفتاح السلطان مولاي عبد العزيز على الأفكار الأوربية الجديدة ومع كونه واحدا من أبرز المستهلكين لنتاج حضارتها. وكان السلطان مولاي عبد العزيز قد عرف عنه شغفه الكبير باقتناء آلات التصوير والدراجات والسيارات على اختلاف أشكالها إلى غير ذلك من المصنوعات الأوربية[58]. غير أن انفتاحه ذلك لم يكن لينال رضى المغاربة والعلماء التقليديين، وخاصة في وقت تمكن فيه الفرنسيون من احتلال أجزاء من التراب المغربي كوجدة والدار البيضاء. وترتب عن ذلك كله، خلع السلطان مولاي عبد العزيز وتنحيته عن الحكم من طرف أخيه مولاي عبد الحفيظ الذي أصبح معروفا لدى العلماء التقليديين بلقب الغازي. وفي حقيقة الأمر، إن السلطان الجديد لم يقم بغزو أي شيء. إلا أن في ذلك تعبيرا عن الأمل الذي كان يحدو العلماء في إمكان قيامه باستعادة الأمجاد الإسلامية وإحيائها بالمغرب، وذلك بالعمل على كل ما من شأنه تحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي وتخليصها من التأثيرات الأوربية.

ويؤكد المنوني أن السلطان مولاي عبد الحفيظ اشترى آلة الطباعة التي كان يستعملها الإخوة نمور لإصدار جريدتهم في طنجة، فقام بتفكيكها ونقل أجزائها إلى مراكش[59]. غير أن الصحافي البريطاني لورنس هاريس (Lawrence Harris) يخبرنا في كتابه : «مع مولاي عبد الحفيظ في فاس» **With Mulai Hafid at Fez** أنه شاهد أثناء أحد اجتماعاته بالسلطان مولاي عبد الحفيظ بفاس سنة 1909 آلة للطباعة كانت داخل القصر. ويخبرنا هاريس أيضا بأن السلطان كان يرغب في إنشاء جريدة له بفاس واقترح عليه تولي الإشراف على إصدارها[60]. غير أن السلطان مولاي عبد الحفيظ لم يؤسس جريدة، بل يبدو أنه حقق مشروعين في ميدان الطباعة. إذ أسس دارا للطباعة الحجرية في زنقة «جزاء برقوقة»، وهي الموضع نفسه الذي كانت توجد

(57) انظر الهامش 55 أعلاه.

(58) Lawrence Harris, **With Mulai Hafid at Fez**, pp. 74-75.

(59) المنوني، **المرجع السابق**. الجزء 2، ص. 462.

(60) Harris, **op. cit**, pp. 157-158.

به أول مطبعة مخزنية، بالإضافة إلى دار للطباعة التيبوغرافية كان مقرها القصر السلطاني في المدينة نفسها[61].

وباستثناء الإخوة نمور، قام السلطان بتشغيل كل المتخصصين في الطباعة الحجرية إلى جانب أحمد يمني[62] الذي أشرف على تسيير شؤون المطبعة التيبوغرافية، وعلى إصدار عدد من الكتب العلمية والدينية بما فيها الكتاب الذي ألفه السلطان مولاي عبد الحفيظ والذي صب فيه انتقادات لاذعة على الطريقة التيجانية وأتباعها في فاس وبقية أرجاء المغرب[63]. ويعني كل ذلك، أن السلطان مولاي عبد الحفيظ كانت تحركه الرغبة الشديدة في استدراج العناصر المكونة للرأي العام المغربي آنذاك إلى تأييد وجهات نظره وأفكاره، وذلك سواء بشرائه آلات الطباعة التي كانت في أيدي خصومه أو معارضيه أو في أيدي العناصر التي تخدم النهج السياسي الذي كان أخوه المخلوع يسلكه أم بمصادرتها. وبذلك لم تكن الطباعة المبتكرة حديثا ولا التحولات التي كانت سببا في إحداثها إيجابية كلها. أي أن الطباعة لم تصبح فقط مجرد أداة لنشر المعرفة وجعلها رهن إشارة أكبر عدد ممكن من عموم الناس فحسب، بل أصبحت في الوقت نفسه أداة فعالة في يد المخزن لتمكينه من فرض طريقته الخاصة في التفكير.

بالإضافة إلى الرغبة التي كانت لدى السلطان لمراقبة الطباعة وتوجيهها بالشكل الذي يجعلها مسخرة لخدمة أهدافه وأغراضه، فإن بعض القرارات التي اتخذها في ذلك الإطار كانت لها عواقب ألحقت الضرر بالطباعة في حد ذاتها. فحينما قرر السلطان مولاي عبد الحفيظ وضع المطبعة التيبوغرافية داخل قصره بفاس واستعمالها لطبع مؤلفاته، فإنه أعلن بذلك عن بداية أفول عهد الطباعة الحجرية في المغرب. صحيح أن العلماء المغاربة، أمثال البلغيثي والناصري وغيرهم، قد طبعوا مؤلفاتهم بالمطبعة التيبوغرافية قبل ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته، غير أن ذلك قد حدث بالقاهرة وليس بفاس[64]. كذلك لم تكن لأولائك العلماء المكانة الهامة نفسها التي كان يتمتع بها السلطان بصفته سلطة روحية في نظر كل المسلمين

(61) المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 291-292.

(62) لمزيد من التفاصيل حول أحمد يمني، انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(63) Edmund Burke, Prelude to Protectorate in Morocco, p. 101.

(64) المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 316-319.

في المغرب. وكان السلطان مولاي عبد الحفيظ يحظى بذلك التقدير حظوة خاصة، لأنه كان يعتبر في الوقت نفسه عالما بالمعنى الحقيقي للكلمة[65].

إن السبب الذي جعل السلطان يفضل اختيار المطبعة ذات الحروف المتحركة بدلا من الاستمرار في استعمال المطبعة الحجرية التي كانت رمزا لصيانة الخط المغربي، هو قدرة الطباعة التيبوغرافية على إصدار أعداد هائلة من النسخ تفوق قدرات الطباعة الحجرية بعدة آلاف نسخة. هذا بالإضافة إلى كون الطباعة التيبوغرافية تتميز بخطوطها الموحدة، وبإتاحتها الفرصة أمام القارئ المغربي وأمام غيره من القراء المسلمين الذين كان يرغب السلطان الجديد في الوصول إليهم من خلال كتاباته، لقراءة سهلة لا عناء فيها ولا تفترض أي خبرة بالخط المغربي. كما ساهم القرار الذي اتخذه السلطان في القضاء على فرص العمل ونزعها من أيادي مختلف الورشات التي كان يشتغل أصحابها بالطباعة الحجرية في مدينة فاس خلال عدة عقود، مما أضعف من قوتهم وساهم في القضاء على نفوذهم. وابتداء من سنة 1914 يغيب اسم العربي الأزرق بصفة نهائية، كما لحق نفس المصير ببقية الطابعين، ومع ذلك، استمر عامل أو اثنان من العاملين في الطباعة الحجرية ـ مثل أحمد القادري ـ في ممارسة نشاطهما خلال عهد الحماية الفرنسية. غير أن ما تم طبعه بعد 1912 كان قليلا جدا، لأن الطباعة الحجرية كانت قد دخلت في مرحلة الموت البطئ الذي أودى بحياتها بصفة نهائية. وقد يعتقد أن السلطات الفرنسية أقدمت في سنة 1946 على تحطيم آخر آلة للطباعة الحجرية في المغرب. ولم يبق في البلاد وقتئذ سوى عدد قليل من العلماء القادرين على قراءة الكتب الصادرة عن الطباعة الحجرية وتقديرها حق قدرها.

باختصار، إن مساهمة المخزن وتدخله في ميدان الطباعة الذي بدأ سنة 1864 ـ وهي تاريخ طبع أول كتاب في المغرب ـ والذي انتهى سنة 1912 عندما فقد المغرب استقلاله ودخل تحت الحماية الفرنسية، هذه المساهمة وهذا التدخل كان لهما تأثيرات عديدة في التحولات التي حدثت في المغرب. ونذكر من تلك التحولات إدخال مفهوم جديد يتعلق بجمع العديد من المهارات والصنائع (من طابعين وكتاب وناسخين ومصححين ومسفرين وغيرهم) تحت سقف واحد، وجعلها خاضعة لتنظيم موحد ومتمركز بهدف التوصل إلى إنتاج سلعة معينة بأعداد هائلة تفترض وجود قوائم

(65) Burke, op. cit. انظر لائحة بعناوين مؤلفات السلطان مولاي عبد الحفيظ عند الإدريسي في كتابه، قائمة المؤلفات، رقم 713ـ723.

حسابية للتحكم في مساراتها المرتبطة بحركة السوق والعرض والطلب. وهناك تحول آخر يتعلق بكيفية التعامل مع تلك البيانات المتعلقة بالمخزون في حد ذاته، لأن الكتب أصبحت تعتبر لأول مرة في عداد السلع والبضائع. وكان على موظفي المخزن، المسؤولين على تدبير الشؤون المتعلقة بمؤسسة الطباعة، أن يبذلوا قصارى جهودهم لمنح مشروع الطباعة كل فرص النجاح الاقتصادي، وذلك باختيار الموضع الملائم لذلك النشاط وجعله على مقربة من الأسواق المستهلكة للبضاعة، وبذل الجهود أيضا وعلى أعلى المستويات للتمكن من توزيع المنتوج خارج مدينة فاس عن طريق إنشاء مركز للتوزيع في مراكش. هذا في الوقت الذي لم يكن فيه أولائك الموظفون يمتلكون أية خبرات بكل ما له علاقة بأثمان المنتجات وفتح الأسواق أمامها أو بوجه عام بكل المهارات والتقنيات التي من المفروض أن يتحلى بها رجال الأعمال وتشكل المرتكز الأساسي لإنجاح كل مشاريعهم الاقتصادية. ثم إن موظفي المخزن لم يقوموا بأي محاولة لإدماج مشروع النشاط المطبعي في بوتقة البرنامج الإصلاحي المخزني الهادف إلى تحديث الجيش وإصلاح النظام الضريبي. وترتب عن ذلك أن أصبحت أعمال الطباعة تشكل عبئا ثقيلا لم يقو المخزن على الاستمرار في حمله أكثر مما فعله حتى ذلك الحين. وبذلك أصبح من الضروري انتقال أعمال الطباعة إلى أيدي الخواص. ومع ذلك، استمر رجال المخزن، في شخص السلاطين الثلاثة، المولى الحسن ومولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ، استمروا في حرصهم على متابعة التدخل في شؤون الطباعة. إذ حاول المولى الحسن تلميع صورته في كل من القاهرة ومكة والمدينة، وذلك بطبع كتاب الزبيدي **إتحاف السادة المتقين** وتوزيعه بالمجان على علماء تلك الحواضر. فكان بذلك أول سلطان مغربي يلجأ إلى استعمال الطباعة كأداة لتحقيق أغراض دعائية خارج المغرب. وحاول السلطان مولاي عبد العزيز تنظيم الطباعة وتقنينها بالعمل على فرض الرقابة بالمفهوم الحديث لأول مرة في تاريخ المغرب. غير أن السلطان مولاي عبد الحفيظ ذهب إلى أبعد من ذلك ـ نتيجة لوعيه بالقوة الكبيرة التي تمتلكها الطباعة كسلاح سياسي ـ فوضع كل الآلات المطبعية الموجودة وقتئذ في القطاع الخاص تحت الإشراف المباشر للسلطات المخزنية.

وحدث تحول آخر له أهميته في المغرب حين أعلن السلطان مولاي عبد الحفيظ عن تفضيله الطباعة التيبوغرافية على الطباعة الحجرية لطبع العديد من مؤلفاته العلمية. وكان ذلك الاختيار سابقة أولى اقتدى بها العلماء وساروا على

نهجها، فلم يتخلوا بذلك عن الخط المغربي التقليدي فحسب، بل ساهموا أيضا في التعجيل بالقضاء التدريجي والنهائي على استعمال الطباعة الحجرية في المغرب.

وسنتناول في الفصل الآتي مناقشة مساهمة العلماء في ميدان الطباعة، لنرى إلى أي حد كان لاستعمالهم إياها تأثير ما على حياتهم اليومية وعلى نشاطاتهم العلمية.

الفصل السابع

العلماء والطباعة

الفصل السابع

العلماء والطباعة

كانت لعلماء المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أدوار مختلفة داخل الجماعات التي كانوا ينتمون إليها في مختلف أرجاء البلاد. فكان منهم رجال التربية والعدول والقضاة، بالإضافة إلى أئمة المساجد سواء أكانوا مسؤولين عن الصلوات الخمس اليومية أو عن خطب الجمعة والعيدين. وكان منهم المحتسبون والموقتون وأمناء المراسي والكتاب. كما دأب السلاطين منذ وقت طويل على اختيار مستشاريهم من أوساط العلماء[1].

سنحاول في هذا الفصل، دراسة تأثير الطباعة على علماء المغرب ككتاب ومصححين ونساخ وناشرين. وسنناقش إضافة إلى ذلك، الأسباب التي جعلت بعض العلماء، كالسباعي يعترضون على أن يستعمل الطلبة والعلماء الكتب المطبوعة، خاصة بعد أن انتقلت إدارة المطبعة من أيدي المخزن إلى عهدة القطاع الخاص.

فحينما كانت الطباعة تحت إشراف المخزن المباشر، ما بين سنوات 1864 و1871 لم يعرف وسط العلماء أي اعتراض واضح على الطباعة. والواقع أنه فور تمهيد بعض العلماء وموظفي المخزن ـ أمثال الصفار والعمراوي ـ السبيل أمام الرغبة

(1) نذكر من بين أجود المصادر البيليوغرافية الموجودة عن العلماء المغاربة خلال القرن التاسع عشر، العناوين التالية : عبد الحفيظ الفاسي، **معجم الشيوخ** ؛ عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس** ؛ المختار السوسي، **المعسول، وخلال جزولة** ؛ إبراهيم ابن العباس، **الإعلام** ؛ محمد جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس**، عبد الرحمان ابن زيدان، **الإتحاف، والدرر الفاخرة** ؛ عبد الله الجراري، **التأليف والنهضة بالمغرب** ؛ عبد السلام ابن سودة، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ؛ عبد العزيز بن عبد الله، **معلمة الفقه المالكي والموسوعة المغربية** ؛ محمد داود، **تاريخ تطوان** ؛ أحمد الناصري، **الاستقصا**؛ محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ج 2.

في تبني الطباعة والاستفادة من تكنولوجيتها[2]، شرع غيرهم من العلماء أمثال الرندي واللجائي والعربي المشرفي في تقديم مساندتهم للطباعة، إما بمساهمتهم مباشرة في أعمالها كناشرين، وإما بتمجيدهم للاختراع الجديد وتعداد محاسنه في أوساط عامة الناس[3]. وكانت تلك المساندة من غالبية العلماء شيئا متوقعا لأسباب عديدة هي : أ) حينما قرر السلطان تبني الطباعة، لم يبق وقتئذ أمام العلماء إلا الرضوخ والقبول. وفي هذا السياق يخبرنا الناصري، مؤرخ القرن التاسع عشر، بأن وجهة نظر السلطان تكون دائما هي الصائبة وله «الرأي الذي لا رأي فوقه»[4]، ونادرا ما كان العلماء يحتجون على قراراته ؛ ب) حين بذل العلماء التقليديون، أمثال محمد حقي، قصارى جهودهم للدعوة إلى استعمال تكنولوجية الطباعة والاستفادة منها، بات من غير الطبيعي ألا يسلك العلماء أمثاله النهج نفسه. اللهم إلا إذا افترضنا وجود أسباب شخصية أو ربما جهوية قوية لعدم استعمال الطباعة، خاصة وأن جل العلماء قد اعترفوا بمزايا الطباعة وبكونها سلاحا قويا لخدمة القضايا الإسلامية[5] ؛ ج) أن آلات الطباعة الحجرية التي كانت قيد الاستعمال بمدينة فاس، لم تكن تشكل أي تهديد للخط التقليدي المغربي ولا لحجم المخطوطات الذي ظل محتفظا بشكله الذي كان معروفا وسائدا من قبل.

غير أنه في حوالي ثمانينيات القرن التاسع عشر، أي بعد عقد من انتقال الإشراف على الطباعة من أيدي المخزن إلى القطاع الخاص، ارتفع صوت وحيد من بين صفوف العلماء التقليديين يحمل العديد من المعاني في موضوع الكتب المطبوعة. فقد وضع محمد السباعي ــ وهو من مدينة مراكش (وتوفي سنة 1914) ــ «رسالة في الحض على الاعتناء بالتآليف الخطية، والتحذير من الكتب المطبوعة وبيان أنها سبب في تقليل الهمم وعدم حفظ العلم ونسيانه»[6].

(2) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(3) محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، الجزء 1، ص. 270.

(4) أحمد الناصري، **المرجع السابق**، الجزء 9، ص. 192ـ193 ؛ انظر أيضا :

E. Burke, «Moroccan 'Ulama, 1860-1912, an Introduction» in **Scholars, Saints and Sufis**, p. 101.

(5) انظر الجانب المتعلق بمحمد حقي في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(6) عبد الحفيظ الفاسي، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 57.

ولفهم موقف السباعي المعارض للكتب المطبوعة، لابد من الانتباه لثلاثة أسباب متداخلة هي التي تولدت عنها معارضته تلك. السبب الأول، هو أن السباعي استطاع أن يكون خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر عالما مكتملا كما بلغ مستوىً عاليا من النضج، ولم تكن استفادته كبيرة من التكنولوجية الجديدة للطباعة. وقد ألف السباعي العديد من الكتب في مواضيع متنوعة كالفقه والتاريخ، بالإضافة إلى اهتمامه بالكتابة في مواضيع فرضت اهتمامها عليه وقتئذ، نذكر منها مسألة تنامي عدد التجار والأعيان المغاربة الذين رموا بأنفسهم في أحضان الحمايات القنصلية وتفادوا كل خضوع قانوني لدولة المخزن المسلمة. ومع ذلك فقد كانت غالبية المداخيل والأرباح تنتهي إلى أيادي المخزن والشرفاء وغيرهم من الأعيان. بالإضافة إلى ذلك، كانت للسباعي شهرة واسعة بصفته من أبرز الحفظة، وبقدرته على تقديم الأجوبة تلقائيا في مختلف النوازل الفقهية في المغرب. وعلى الرغم من كل المؤهلات التي كان يتميز بها السباعي، فقد كان يعتبر من الآفاقيين الذين حلوا ضيوفا على المجتمع المغربي، ليس فقط لعدم وجود أي صلة بينه وبين كبار الأعيان أو الأسر الشريفة، بل أيضا لانحداره من قبيلة بني السباع إحدى القبائل الموريتانية(7)

السبب الثاني، وهو أكثر أهمية وينطوي على دلالات عميقة لا نجدها في السبب سابق الذكر. ويتعلق الأمر بكون السباعي قد اشتهر أيضا بصرامة مزاجه وبموقفه المتصلب من تصرفات رجال المخزن وموظفيه، الذين لم يتردد في اتهامهم في كتاباته باختلاس الأموال العامة وبالحصول على الرشاوي والأموال بطرق غير شرعية. كما شن السباعي هجماته على بعض العلماء المعاصرين له واتهمهم بإصدار فتاوي دينية خاطئة لعموم الناس. وعلاوة على ذلك كله، كان السباعي أحد ثلاثة علماء أخذوا على عاتقهم مسؤولية الكتابة عن المحميين، فصنفهم ضمن الكفرة الذين يستحقون القتل لخروجهم عن الإسلام(8). وكان في صفوف العناصر المحمية العديد من الأفراد المنتمين إلى أسر من الأعيان أمثال آل بنيس وبن جلون ولحلو، وغيرهم كثير. ومن المفيد جدا الإشارة إلى أن بعضا من أفراد تلك الأسر، شأن أفراد أسرة لحلو، هم الذين كانوا يزودون دور الطباعة في فاس بمادة الورق التي كانت تستورد

(7) المرجع نفسه، الجزء 1، ص. 55–61.
(8) نفسه.

سواء من فرنسا أم من غيرها من البلدان الأوربية[9]. وبناء على هذه المعطيات، لم يبق هناك أي داع للاستغراب أمام الاهمال والتغاضي الذي كان السباعي يلقاه من الناشرين والطابعين بفاس والذين كانت تربطهم بالمخزن علاقات ومعاملات متينة.

ومن الممكن أن يكون السبب الثالث في اتخاذ السباعي موقفه المناهض للكتب المطبوعة، كامنا في إحساسه الشديد بالاستياء من شروع الطلبة وغيرهم من العلماء الشباب في اللجوء إلى استعمال النصوص المطبوعة والمنشورة بشكل جيد ومثير عوض الاستمرار في الاعتماد على معرفة السباعي الواسعة وعلى ذاكرته للاطلاع على مختلف الأحكام والقضايا الدينية. ولم يكن ذلك الاستياء ناجما عن التهديد الذي بدأ يلاحق مكانته وهو القادر على الإفادة والعطاء العلمي فحسب، بل أيضا من أن السباعي قد استثمر ثلاثة عقود من حياته على الأقل لاكتساب المكانة التي أدركها كعالم يتمتع بقدرة كبيرة على استيعاب العلوم الدينية واستظهارها[10]. من جهة أخرى، فإن الجيل الجديد من الطلبة والعلماء الشباب لم يصبح ملزما بالاستظهار أو السفر والتنقل بحثا عن المعرفة، لأن العلوم أصبحت متوافرة لديهم ورهن إشارتهم في الكتب المنشورة بطريقة جيدة، والموجودة بشكل غزير في مراكش وغيرها من المدن الرئيسية المجاورة.

وسواء أكان اعتراض السباعي على استعمال الكتب المطبوعة ناتجا عن أحد هذه الأسباب أم عنها جميعها، فإن الجانب الأكثر دلالة وأهمية في انشغالاته المتعلقة بالكتب المطبوعة، أنه يدشن بذلك بداية عهد جديد أصبحت فيه عملية القراءة وفهم النصوص المكتوبة يحلان تدريجيا محل استعمال الذاكرة لاستظهار المعرفة وحفظها، وأضحى ذلك بالتالي أمثل طريق لبلوغ درجات العلم والمعرفة. ومن الممكن أن تكون النتيجة الأولية لذلك الاتجاه غير صحيحة، كما أشار إلى ذلك السباعي نفسه حينما شن هجماته على العلماء المعاصرين له[11]، غير أنه مهد السبيل بذلك

(9) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب 1863–1894**، الجزء 1، ص. 74–75 ؛ أحمد العباسي، **أجوبة** ؛ برهان الدين الشبراخيتي، **شرح** ؛ اليوسي، **المشرب العام والخاص** ؛ محمد بردلة، **نوازل**. يحمل الورق الذي أنجزت به مطبوعات فاس الحجرية خاتم المؤسسة التجارية التي كانت تزود دور الطباعة بفاس ويوجد بداخله اسم المهدي لحلو وشريكه بن سوسان. انظر أيضا : روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، الترجمة العربية، الجزء 1، ص. 641. فضلت استعمال الترجمة العربية لهذا الكتاب نظرا للمعلومات الجديدة التي أتى بها المترجمان محمد حجي ومحمد الأخضر.

(10) الفاسي، **المرجع السابق**.

(11) **المرجع نفسه**، الجزء 1، ص. 56.

للتوجه صوب الحاضر، الذي أصبحت تعتمد فيه الطرق التربوية الحديثة على التفكير والفهم عوضا عن الذاكرة. وبدا واضحا من هيمنة العلماء الشاملة في فاس على ميدان الطباعة بأن التكنولوجيا الغربية سوف تبقى أحد المظاهر القارة والثابتة لصناعة الكتاب في المغرب.

وحتى يتسنى لنا أن نوضح بما فيه الكفاية المدى الذي ساهم به استعمال الطباعة في المغرب للتأثير على حياة العلماء وإحداث تحولات في مساراتهم، ارتأينا ضرورة الاقتراب أكثر من مختلف الأدوار التي قاموا بها في ميدان الطباعة كناسخين أو مصححين أو مؤلفين أو ناشرين.

أولا ـ العلماء وأعمال النساخة

إذا تناولنا ميدان نسخ الكتب، تبين لنا أن اللجوء إلى استعمال الطباعة كانت له نتائج متشابكة انعكست على الكتاب الذين يمتهنون أعمال النسخ. وخلال عصر المخطوطات، لم تكن عملية نقل النصوص ونسخها تخضع لقوانين جامدة، بل كان الكتاب يلتزمون من تلقاء أنفسهم بالوفاء لمجموعة من القواعد الأخلاقية التي تراعي جودة المواد المستعملة كالحبر والورق وقابلية الخط المكتوب للقراءة، خاصة حين تسند إليهم مهمة نسخ الكتب لفائدة أناس آخرين بموجب عقد أو لمجرد وجود اتفاق مبدئي بين الطرفين[12].

وفي عصر الطباعة، أعيد النظر في تلك الطريقة التقليدية الموروثة عن القرون الوسطى والتي كانت ماتزال سارية المفعول في ميدان نسخ الكتب. ونتيجة لذلك، أصبح لزاما على الكتاب الاقتصار على النسخ فقط من النصوص التي سبق أن صححها العلماء المؤهلون لإنجاز تلك المهمة[13]. وبالإضافة إلى ذلك، لم يعد بعض النساخين في حاجة إلى تحمل مسؤولية البحث عن توفير الورق والحبر وغيره من المواد الضرورية لفائدة زبنائهم، لأن ذلك أصبح من مهام الناشرين والطابعين الذين لابد وأن يوفروا تلك المواد في ورشاتهم. ويعني ذلك أن التنظيم الجديد يجعل النساخين خلال عصر الطباعة مسؤولين أمام المصححين والطابعين والناشرين. ولا يكتفي

(12) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

(13) المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 310.

هؤلاء جميعا بإصدار تعليمات معينة عليهم الالتزام بتنفيذها، بل يخضعون عملهم في مختلف مراحله للاختبار والمراقبة مراعاة لبلوغ المستوى المطلوب من الضبط والدقة(14).

لكن الخطاطين النساخين الذين كانوا في الوقت نفسه من طبقة العلماء لم يكن هناك ما يعوقهم عن نسخ الكتب وتهييئها للطباعة، بالرغم من القيود المفروضة على وظائفهم. وفي الواقع، كانت لمثل هؤلاء العلماء النساخين أهمية لدى الناشرين لقدرتهم على تنفيذ مهمتين أو أكثر في عملية الطباعة. ومعنى هذا من الناحية الاقتصادية والعملية أن العلماء النساخين كانوا قوة لا يستهان بها في مسيرة إنتاج الكتاب.

لقد كانت في المغرب ثلاث فئات من النساخين في المدة المتراوحة ما بين 1872 و1912. وتتكون المجموعة الأولى من أمثال الإخوة الثلاثة أبناء بن سودة، وهم محمد والوافي والفاطمي الذين عرفوا بكونهم نساخين فقط(15). المجموعة الثانية، من أمثال عبد الرحمن الكتاني والبوعزاوي وكانا يمارسان النساخة وعملية التصحيح في آن واحد(16). بينما كانت هناك مجموعة ثالثة من أمثال ابن الخياط وابن المواز وغيرهم(17)، ويعتقد أنهم كانوا يسلمون للطابعين والناشرين مبيضاتهم التي لم تكن في حاجة إلى التصحيح.

ويستنتج من ذلك كله أن الطباعة لم تساهم فقط في إدخال نوع من المرونة عند الطابعين والناشرين في المغرب وفي تمكينهم بالتالي من التعامل مع النساخين بطرق أفضل، بل ساهمت في منح امتيازات للعلماء النساخين الذين كانوا في الوقت نفسه مصححين، ولديهم إمكانية اختيار بعض العناوين وتوجيه عناية الناشرين إلى أهميتها للعمل على طبعها. أما النساخون الذين كانوا أيضا مؤلفين، أمثال ابن الخياط، فإن كتاباتهم قد شغلت حيزا كبيرا في الأدبيات الرائجة التي كانت موجودة خلال هذه الفترة(18). غير أن تلك الامتيازات لم تكن قارة البتة. حينما بدأ المغاربة، في سنة

(14) المرجع نفسه.

(15) فوزي عبد الرزاق، **المطبوعات الحجرية في المغرب**، ص. 117—118.

(16) المرجع نفسه، ص. 135-166.

(17) نفسه.

(18) نفسه ؛ الفاسي، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 127-133.

1906، يتفتحون على استعمال آلات الطباعة التيبوغرافية، لم يؤد ذلك التغيير إلى أية اعتراضات تذكر، على الرغم من أن التكنولوجيا الجديدة لم تكن في حاجة إلى خدمات النساخ. ويمكن تعليل غياب الاعتراضات بحاجة كل من المخزن وكبار العلماء الماسة إلى تلك التكنولوجيا الجديدة. ولقد دخلت الطباعة ذات الحروف المتحركة إلى المغرب لأول مرة على يد زعماء الزاوية الكتانية، لكن ما لبث السلطان أن صادرها عندما قرر توظيفها لخدمة مخططاته السياسية. ثم إن آلات الطباعة الحجرية تابعت مسيرتها في إصدار الكتب بصورة عادية، بالرغم من الشروع في استخدام آليات التكنولوجيا الجديدة[19].

هناك نقطة أخرى ذات أهمية من حيث دلالاتها وتتعلق بانتماء النساخين إلى أسر عريقة من الأعيان والشرفاء أمثال آل ابن سودة والكتاني وابن الخياط وغيرهم[20]. ويبدو في هذا السياق أن استعمال الطباعة في المغرب لم يساهم في إحداث أي تأثير على مستوى الهيمنة التقليدية التي كانت لتلك الأسر على مجريات الحياة العلمية وعلى صناعة الكتاب. ومع ذلك هناك أمر جديد يستحق الذكر. ففي عصر المخطوطات كان النساخون المغاربة يقدمون خدماتهم إلى الزبناء حسب انتمائهم الاجتماعي ومكانتهم الاقتصادية، بحيث تختلف الخدمة جودة وتزويقا باختلاف الفئة الاجتماعية التي تُسدى لها[21]. أما في عصر الطباعة، فقد تغيرت تلك المعطيات تغيرا تاما وساد اتجاه جديد تميز بطابعه الديمقراطي، فأصبح كل النساخين يشتغلون مع الطابعين والناشرين الذين يسعون إلى تزويد أكبر عدد من جمهور القراء بكتب متماثلة لا فرق بينها في جودة الخط ووضوحه أو حتى في رداءته، وبغض النظر عن المستوى الاجتماعي للزبون المستهدف بتلك البضاعة.

وباختصار، إن تأثير الطباعة على العلماء النساخين لا يمكن معاينته فقط من خلال ما تم تحقيقه من إعادة للنظر في تنظيم الطرق القديمة لصناعة الكتاب وتقسيم للعمل، بل أيضا من خلال الحرص على مراقبة درجة الإتقان والمهارة في العمل

---

(19) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب لمزيد من التفاصيل حول وصول آلة الطباعة التيبوغرافية إلى المغرب وظروف استعمالها في العمل المطبعي.

(20) الفاسي، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 99-104 ؛ عبد الحي الكتاني، المظاهر السامية في النسبة الشريفة الكتانية.

(21) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

والاعتراف لهم بها، ومكافأة الناسخين على ما أنجزوه من أعمال. وترتب عن ذلك أيضا محاولة استفادة الطابعين والناشرين من مختلف المهارات المتعددة التي كان يتميز بها العلماء النساخون والتمكن من الاستجابة لحاجيات جماهير القراء وتكييفها دون مراعاة لمدى تباين درجات انتماءاتهم الاجتماعية أو اختلاف قدراتهم الاقتصادية. وكان تحقيق تلك الديمقراطية على المستوى المعرفي تعبيرا واضحا عن الشروع في التخلي التدريجي عن الطرق التقليدية المعهودة، كما كان من بين أحد المؤشرات العديدة التي شكلت الخصائص المميزة للعالم الحديث.

ثانيا ـ العلماء وأعمال التصحيح

كان للطباعة تأثير واضح على الوظيفة الثانية الهامة التي كان العلماء يؤدونها في إطار مساهمتهم المباشرة في صناعة الكتاب، ونعني بها وظيفة التصحيح. ومن المحتمل جدا أن تكون عملية التصحيح لدى المسلمين قديمة قدم نساخة الكتب[22]. غير أن عملية التصحيح تختلف عن نساخة الكتب من جهة أنها لم تكن ترقى بصاحبها خلال العهود التقليدية إلى مستوى المتخصص في مهنة مستقلة قائمة الذات. بل كانت وظيفة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمستويات كفاءات النساخين التي تختلف بطبيعة الحال من شخص إلى آخر. وبوجه عام، فإن المصححين ينطلقون في عملهم من الحرص على مراعاة المبادئ الإسلامية، فيبحثون عن النصوص الأصلية التي يعتمدونها لإنجاز نسخ مماثلة إما لاستعمالاتهم الخاصة وإما لفائدة شيوخهم وأساتذتهم. ويمكنهم الحصول بتلك الطريقة على شهادات تعرف بأجازات مناولة[23].

والهدف الأساسي من التصحيح، هو إنجاز نسخ سليمة من الأخطاء، لكنها عملية تقتضي أيضا في بعض الأحيان إضافة بعض التوضيحات أو الشروح في الهوامش سعيا وراء تيسير استعمال الكتاب. ولا تتجاوز تلك الإضافات أحيانا مستوى العلامات البسيطة المقصود بها إبراز عناوين الفصول وأبواب الكتاب أو الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها. وتكون التعاليق الهامشية أحيانا على شكل ملاحظات ذات أهمية تتعلق بطرح وجهات نظر دينية متعارضة، أو تقتصر في

(22) Ruth Mackensen, «Arabic Books and Libraries in the Umaiyad Period», in **The American Journal of Semitic Languages** (1936), pp. 245-253.

(23) يوسف الكتاني، مدرسة الإمام البخاري، الجزء 1، ص. 129-214.

أحيان أخرى على بعض الإشارات ذات الصبغة اللغوية وعلى ضبط أصناف مختلفة من الأخطاء. ومع ذلك، لا يلتزم كل المصححين بالحفاظ على أصالة النص الذي يكونون بصدد تهيئته للنشر. بل على العكس من ذلك، يسمح العديد منهم لأنفسهم بحرية تغيير كلمات أو جمل كاملة أو تعديلها كلما تبين لهم أن النص غير سليم وفي حاجة إلى التصحيح[24].

ومن دلالات كل هذه الملاحظات العامة المتعلقة بالمقاربة التقليدية لمهنة التصحيح أن هذه المقاربة نفسها ظل المصححون في المغرب يحافظون عليها في عصر الطباعة. ومع ذلك يتلخص أبرز فرق بين الفترة التقليدية وعصر الطباعة في ظهور مصححين محترفين، احتلت الأدوار التي كانوا يؤدونها مركز الصدارة وأصبحت متقدمة على وظيفة النساخين. فقد أصبح المصححون مشرفين مباشرين على أعمال النساخين، لأنهم هم الذين يختارون الكتب التي يجب طبعها. وبناء على ذلك، برز العلماء من موقعهم كمصححين فارتقوا إلى مستوى القوة المحركة والأساسية التي تحملت مسؤولية إحياء الأدبيات التقليدية، فقدموا تلك الأعمال على يد مصححين معاصرين جدد تقديما يضمن تسليط الأضواء الكاشفة عليها من جديد. وأحدثت تلك المساهمة المباشرة للمصححين في ميدان صناعة الكتاب تحولات عديدة في مسارات حياتهم وعادت عليهم بفوائد جمة.

ولإعطاء صورة واضحة عن الفوائد التي حققها المصححون، يستحسن إمعان النظر في الأنشطة التي مارسها واحد من أبرز المصححين خلال هذه الفترة. فقد عرفت المدة المتراوحة ما بين 1865 و1912 وجود العديد من المصححين البارزين أمثال محمد القادري (توفي سنة 1912) والصقلي (توفي سنة 1892) والمهدي الوزاني (توفي سنة 1923) وجعفر الكتاني (توفي سنة 1905) وأحمد البوعزاوي (توفي سنة 1919)[25]. ويعتبر أحمد البوعزاوي سابق الذكر، أحد أنشط المصححين في الفترة المذكورة، وأكثرهم أهمية على مستوى حياته وأنشطته التي تقدم لنا نموذجا حقيقيا لما تعنيه العلاقة القائمة بين المصححين واستعمال الطباعة[26]. على خلاف بقية المصححين الذين كانوا ينتمون من حيث أصولهم إلى الأسر الشريفة ذات النفوذ

(24) أحمد البلغيثي، **الابتهاج بنور السراج**، الجزء 1، ص. 211–257.

(25) عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 135–136، 152–153،164–165، 180.

(26) الفاسي، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 111–116.

القوي في مدينة فاس، كانت الجذور العائلية البعيدة لأسرة البوعزاوي تعود إلى أحد العبيد الأفارقة وهو ابن أبي يعزى. واستطاع هذا الأخير أن يتحول إلى واحد من أكبر صلحاء المغرب، فترتب عن ذلك أن أصبح أبناء ذريته يصنفون بين أسر الأعيان[27]. ولما كان البوعزاوي واعيا بأهمية علم الأنساب والتصوف وبدورهما الفعال في تعزيز مكانته العلمية وتدعيم وضعيته داخل المجتمع، فإنه وضع كتابا من ثلاثة مجلدات عن شخصية ابن أبي يعزى. ومما لاشك فيه أن عمله ذاك أتاح أمامه فرصة لتدعيم مكانته في جامع القرويين، حيث كان واحدا من الأعضاء الأكفاء الدائمين في تلك المؤسسة التعليمية، ومن متخصصيها في الدراسات الدينية[28].

وحين بلغ البوعزاوي الرابعة والثلاثين من عمره (في سنة 1888)، أبدى اهتمامه بميدان الطباعة ليس مصححا بل ناشرا. وكان النشر وقتئذ يعني القيام بتمويل عملية إصدار كتاب أو عدة كتب. ومما تجدر الإشارة إليه أن البوعزاوي ربما قام بتمويل نشر كتاب كَنون المعروف بعنوان : **النسبة الشريفة**، والذي خصص لموضوع النسب الشريف لمؤلفه. إلا أن مغامرة البوعزاوي الناشر لحقها ضرر كبير نتيجة تضارب الآراء والشكوك التي حامت حول حقيقة النسب الشريف لكَنون صاحب الكتاب[29]. وبدلا من ذلك، وتفاديا لأية مجازفة جديدة، فضل البوعزاوي في إطار اهتماماته بميدان الطباعة أن يركز على ممارسة وظيفة التصحيح، على الرغم من اقتناعه بضرورة استثمار الكثير من الوقت لإنجاز تلك المهمة على أحسن وجه.

اشتغل البوعزاوي خلال الفترة الممتدة ما بين 1889 و1906 بصفة أساسية لفائدة طابعين وناشرين اثنين هما العربي الأزرق والبادسي. وتمكن خلال الفترة نفسها، من تصحيح أربعة عشر مؤلفا في ستة وعشرين مجلدا وتحضيرها للنشر بما فيها كتاب **المعيار** المشهور للونشريسي الذي يتكون من اثني عشر مجلدا[30]. وتكتسي الأعمال التي قام بها البوعزاوي في إطار مهنة التصحيح التي فضل ممارستها أهمية بالغة، لأنه لم يكتف بالحرص الشديد على اختيار مجموعة من أمهات الكتب ذات المكانة الدينية السامية وغيرها من النصوص وتهييئها للنشر، بل كانت لنشاطاته في التصحيح

(27) المرجع نفسه، ص. 112.
(28) المرجع نفسه؛ الجراري، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 79.
(29) الفاسي، المرجع السابق، الجزء 2، ص. 168–173.
(30) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص. 135–136.

مساهمة فعالة في خلق اهتمام متزايد بجمع الكتب. ومن الراجح أن يكون ذلك الاهتمام وليد تنافسه مع بقية المصححين في إطار محاولتهم الهادفة للعثور على كتب من مستوى رفيع يقبل عليها العلماء وجمهور القراء. واستطاع البوعزاوي أن يجعل من نفسه شخصا يتميز بأنه من أبرز المهتمين وأحسنهم بجمع الكتب. إذ كانت تحتوي خزانته الخاصة على الكتب التي قام بتأليفها أو بتصحيحها قصد إعدادها للنشر، بالإضافة إلى كتب ونصوص نادرة استطاع شراءها أو استنساخها حينما كان يجري أبحاثه وتقصياته[31].

وقد كان المرء في عصر المخطوطات يضطر إلى بلوغ درجة من الثراء على شاكلة شرفاء وزان أو أعضاء الأسرة السلطانية لامتلاك القدرة على إنشاء مجموعة خاصة من الكتب[32]. لكن مع حلول عصر الطباعة، أصبح بإمكان العلماء بسبب ممارستهم مهنة التصحيح لفائدة الناشرين والطابعين ـ كما فعل البوعزاوي على سبيل المثال ـ، التوصل إلى إنشاء خزاناتهم الخاصة. كما سمحت لهم أيضا بإمكانية تنمية عادات القراءة والبحث داخل بيوتهم الخاصة بدلا من تكبدهم مشاق التنقل عبر مختلف الجوامع التعليمية الموجودة في مختلف أرجاء البلاد لبلوغ الهدف نفسه.

وعلى الرغم من أن نموذج البوعزاوي يقدم لنا مثالا واضحا ومبكرا لتسجيل بداية التغيير الذي أخذ يطرأ على عادات القراءة والبحث في أوساط العلماء المصححين، فإننا ما زلنا نفتقر إلى التفاصيل الكافية لمعرفة مدى التغيير الحاصل لدى بقية الممارسين لوظيفة التصحيح غير المنحدرين من أسر شريفة والذين لا يمتلكون مجموعاتهم الخاصة من الكتب أو لم تكن لديهم أية إمكانات للاطلاع عليها في عين المكان. مع ذلك، وانطلاقا من اعتبارنا تلك العادات الخاصة بالقراءة شيئا معهودا عند العلماء المحدثين، فإنه من الممكن تعليل بروز مثل تلك العادات خلال عصر الطباعة وخاصة في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر حينما كان المغاربة ينعمون في كبريات المدن بفترة من الازدهار[33] كان من شأنها التشجيع على جلب

---

(31) الفاسي، المرجع السابق؛ الجراري، المرجع السابق.

(32) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب. يشير يوسف الكتاني إلى أن أعضاء الأسرة الكتانية بفاس كانوا يقبلون الحصول على الكتب صداقا للزواج. انظر كتابه **مدرسة الإمام**، الجزء 2، ص. 11.

(33) أفا عمر، **مسألة النقود في المغرب**، ص. 127 ؛ الناصري، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 124.

آلات إضافية للطباعة، وتوزيع المزيد من الكتب والاستفادة من خدمات أكبر عدد من المصححين(34).

وهكذا، فإن استعمال الطباعة أحدث تغييرا بالغ الأهمية عند المصححين الذين لم يصبحوا المشرفين الأساسيين على صناعة الكتاب فحسب بل من أبرز حماتها والساهرين على ضمان استمرارها. وترتب عن تلك الحماية ـ التي كانت تحظى بموافقة المخزن ومساندته الكاملة ـ توجيه مختلف الأنشطة الفكرية والتربوية توجيها تاما جعلها تسير في اتجاه إحياء الأدبيات التقليدية المتمحورة في أساسها حول المواضيع المرتبطة بمختلف القضايا الإسلامية. وهنا أيضا، كان لعامل الطباعة دور أساسي، لأنه استدعى ضرورة إعادة النظر في الأساليب القديمة وحتم بناءها على هيأة جديدة مكنت ممارسي وظيفة التصحيح من البروز كقوة أساسية تمتلك القدرة على التحكم في توجيه تدفق العلوم والمعارف في البلاد.

ثالثا ـ العلماء والتأليف

كان للعلماء إسهام ثالث في ميدان الطباعة ككتاب ومؤلفين. وتعني كلمة مؤلف في مفهومها الحديث كتابة الأدب أو غيره من الأعمال الإبداعية. أما المعنى الذي كان سائدا منذ القرون الوسطى، فكان يتعلق بتحرير المقالات والكتب ذات المواضيع المختلفة التي لا تشمل الأدب القصصي وكتابتها. وسأركز مناقشتي هنا على العلماء المؤلفين وفقا للمفهوم الوسطوي حتى نعرف مدى مساهمة الطباعة في التأثير في مسارات المؤلفين. وسأطرح في الفصل الأخير مسألة تأثير الطباعة على الكتابات الإبداعية.

كان في المغرب، خلال الفترة الممتدة ما بين 1865 و1912، أكثر من سبعين مؤلفا، وكانوا يساهمون في تنشيط حركة الطباعة بتأليف الكتب أو تصحيحها(35). وكان من أكثر المؤلفين شهرة وقتئذ، علماء أمثال أحمد البلغيثي (توفي سنة 1929)، أحمد سكيرج (توفي سنة 1943)، عبد الله ابن خضراء (توفي سنة

(34) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(35) توصلنا إلى هذا الرقم اعتمادا على أسماء المؤلفين الذين نشروا كتبهم في فاس، ما بين 1865 و1940، بالمطبعات الحجرية. انظر عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 110ـ186، حيث توجد لائحة كاملة بأسماء المؤلفين.

1905)، محمد أكنسوس (توفي سنة 1877)، أحمد الناصري (توفي سنة 1897) عبد السلام الهواري (توفي سنة 1910)، عبد الرحمن ابن زيدان (توفي سنة 1946)، بالإضافة إلى العديد من أفراد أسرة الكتاني، وكَنون، وماء العينين[36].

كانت كتابة العلماء لما يسمى بالتقريظ من الجوانب ذات الأهمية الخاصة في إطار مساهمتهم في ميدان الطباعة كمؤلفين. وتعني لفظة التقريظ توجيه المديح والإطراء بطريقة كتابية أو شفوية، وقد يكون ذلك نثرا أو شعرا. ويكون هدف المقرظ تمجيد المؤلفين ومدحهم عند إتمام أعمالهم[37]. وجرت العادة أن تقع التقاريظ في خواتم الكتب، وهي آخر الإشارات التي يتضمنها المخطوط، وفيها يسجل المصححون أو النساخون بعض المعلومات القيمة المتعلقة بالمخطوط الواقع بين أيديهم.

وفي عصر الطباعة، استمر التقليد نفسه المتعلق بوضع التقاريظ في الكتب، لكن مع ملاحظة وجود بعض التغييرات القليلة التي لا تخلو من بعض الدلالات، ومن بينها اتساع المجالات التي ينتمي إليها المقرظون. وفي عصر المخطوطات، كانت طبيعة سوق الكتاب، بما هو خدمة لها وجهة معينة، تجعل حجم التقريظ ومجاله محصورا في عدد العلماء الذين شاءت الظروف أن يعيشوا في المدن أو الحواضر التي حُرر فيها مخطوط لأول مرة أو استنسخ فقط. ولذلك، فإن أي تقريظ نجده في المخطوطات القديمة انعكاس لكتابات العلماء المحليين وأحاسيسهم، أو لكل ما يمكن أن يكون قد سمعه النساخون أو المصححون عن ذلك الكتاب في وقت سابق. أما في عصر الطباعة، وبعد تحول طبيعة سوق الكتاب من حالتها السابقة المحدودة لتصبح قائمة على التكديس ومن ثم التوزيع الشامل، ظهر اتجاه جديد في أدبيات التقريظ بصفة تدريجية. ذلك أن إنتاج نسخ عديدة من الكتاب نفسه مكن الطابعين والناشرين من التوصل بسرعة ويسر إلى الحصول على تقريظ من العلماء، سواء الموجودين منهم في المدينة التي طبع فيها الكتاب، أم المقيمين بأماكن بعيدة[38].

---

(36) المرجع نفسه.

(37) **E. Lane, Madd al-qamus, an Arabic-English Lexicon**، مادة «قرظ». ويشير فيها لاين إلى أن فعل «قرظ» يعني أيضا انتقد. غير أن مطبوعات فاس لا يحتوي أي منها على انتقادات للكتب أو الكتيبات التي كانت ترد فيها التقاريظ. وإنما يرد ذلك الانتقاد في صورة مدح لنصوص أخرى تعبر عن وجهات نظر مناقضة.

(38) انظر الهوامش رقم 40–49 أسفله.

وحدث تطور آخر له أهميته، إذ لم تعد أدبيات التقريظ مجرد وسيلة بسيطة للتعبير عن الإعجاب الشخصي بأعمال العلماء من لدن زملائهم العلماء أو المعجبين. بل برز التقريظ كأداة إشهار ووسيلة للدعاية الدينية والسياسية. وفي حالة غياب الصحف وغيرها من وسائل الإشهار الحديثة، لم يجد الطابعون والناشرون المغاربة بداً من تشجيع أدبيات التقريظ بل واستعمالها بغية النجاح في تسويق منتجاتهم.

وما تجدر الإشارة إليه أن الكتب التي نشرت ما بين 1865 و1872، لما كانت الطباعة خاضعة للإشراف المخزني المباشر، لم تتضمن أي نموذج لأدبيات التقريظ[39]. لكن ابتداء من 1872، شرع الطابعون والناشرون، العاملون في إطار ما يمكن تسميته بالقطاع الخاص، في استعمال التقريظ كأداة للمساهمة في إنجاح أعمالهم ومشاريعهم المطبعية. ومنذ ذلك الحين، أصبحت خواتم المطبوعات الفاسية مثقلة بالتقاريظ التي كتبها كبار العلماء في المغرب. ونذكر منهم أحمد ابن الخياط[40]، وأحمد ابن المواز[41]، وعبد الحفيظ الفاسي[42]، وجعفر الكتاني[43]، وعبد الهادي الصقلي[44]، وجميعهم من مدينة فاس. هذا فضلا عن آخرين أمثال محمد تكرور[45]، وسيدي العتيق[46]، ومحمد العال[47]، والمفضل السوسي[48]، والصادق النيفر[49]،

(39) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 266–269 ؛ عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 187.

(40) تقدم لنا خواتم الكتب التالية نماذج من التقريظ ، عبد السلام اللجائي، **بيان الغلط وطلب التوبة** ؛ عثمان الحبابي، **تقييد في بيان حكم سجود التلاوة** ؛ المهدي الوزاني، **حاشية على شرح التاودي على ابن عاصم**.

(41) انظر خاتمة الكتابين التاليين : الكردودي، **كشف الغمة** ؛ عبد الحي الكتاني، **مفاكهة ذوي النبل والإجادة**.

(42) انظر خاتمة الكتابين التاليين : أحمد الصبيحي، **أصول أسباب** ؛ وعبد الحي الكتاني، **مفاكهة ذوي النبل**...

(43) أحمد ابن الخياط، **رفع اللجاج والشقاق**، خاتمة الكتاب.

(44) انظر خاتمة الكتابين التاليين : العراقي، **الختم المبارك** ؛ والمهدي الوزاني، **حاشية على شرح التاودي**.

(45) ماء العينين، **سهل المرتقى** ؛ **ومجموع مشتمل على أربعة تآليف**، الخاتمة.

(46) **نفسه**؛ المهدي الوزاني، **المرجع السابق**، خاتمة الكتاب.

(47) ابن الخياط، **المرجع السابق** ؛ المهدي الوزاني، **المرجع السابق**.

(48) ابن سودة، **تكميل تحرير المقال** ، خاتمة الكتاب.

(49) عبد الحي الكتاني، **البيان المعرب** ، خاتمة الكتاب.

وينتمي هؤلاء إلى مختلف جهات المغرب كمكناس ووزان ومراكش أو إلى مناطق أخرى نائية أو خارج البلاد كما هو شأن الصحراء المغربية وموريتانيا وتونس[50].

ولا يعرف ــ لحد الساعة ــ هل كان المقرظون يقبضون أجورا على مساهماتهم في تمجيد الكتب ومدحها أم لا، ولكنه من المعقول استلام المقرظين نسخة واحدة على الأقل من الكتب التي كانوا يقرظونها مجانا، وربما كانوا يكتفون بمجرد الاعتراف بهم كمقرظين. وعليه، فإن استعمال المطبعة أصبح وسيلة مفيدة ليس للناشرين والطابعين فقط، بل وللكتاب المقرظين أيضا على مستوى جمع الكتب وعملية الدعاية والإعلان لأنفسهم أيضا.

غير أن أدبيات التقريظ تنطوي على دلالة هامة من حيث أنها تلعب دورا أساسيا في توفير الدعاية للمؤلفين والكتب في مختلف الأرجاء الفكرية والدينية الشاسعة التابعة للمذهب المالكي في شمال إفريقيا، وأيضا من حيث قيامها كمنبر مفتوح للتعبير عن وجهات النظر المختلفة، بمدح هذا المؤلف أو ذاك، وتأييد هذا الكاتب دون ذاك. ولدينا مثالان بارزان في هذا الصدد، يعود أولهما إلى سنة 1910، حين قام عبد الحي الكتاني المؤلف الشهير والرجل السياسي ذو النسب الشريف، بتحرير مؤلفه المشهور **مفاكهة ذوي النبل**. وكان الناشر أحمد الطيب الأزرق قد تمكن من الحصول بسرعة على تقاريظ من ثلاثة أفراد كانت لهم مكانتهم الدينية والسياسية الرائدة في البلاد، وهم : ابن المواز، الذي كان كاتبا ووزيرا للسلطان مولاي عبد الحفيظ، وعبد الحفيظ الفاسي، والعباس التازي، اللذان كانا وقتئذ من أشهر القضاة والعلماء[51].

وكان التأليف الذي وضعه الكتاني محاولة لدحض الأفكار الواردة في الافتتاحية السياسية لجريدة **السعادة** الناطقة باللغة العربية باسم المفوضية الفرنسية بالمغرب، والتي ترمي الاستخفاف بإقدام العلماء في المغرب على تحولهم من مساندة السلطان المخلوع مولاي عبد العزيز إلى مساندة السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي أزاح أخاه عن الحكم عام 1908. وتفاديا لإلحاق الضرر بسمعة العلماء ومكانتهم في أعين جمهور القراء في المغرب، أضيفت إلى التأليف الذي وضعه الكتاني ثلاثة تقاريظ

---

(50) انظر الهوامش 40ـ49.

(51) انظر الهامشين 41 و42.

أعيد طبعها مرات عديدة وقرئت على عموم الناس خلال حفلة رسمية أقيمت في دار عبد السلام العمراني الذي كان حينها يمثل السلطان في فاس[52].

أما المثال الثاني المتعلق بجدة استعمال أدبيات التقريظ لمساندة وجهات النظر الدينية، فنجده في خاتمة كتاب المهدي الوزاني، **بغية الطالب** المطبوع في فاس خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر. وقد ذهب فيه المؤلف إلى القول بجواز أداء صلوات الأعياد في المساجد الصغيرة الموجودة بمختلف أحياء المدن. وكان ذلك دحضا لما سبق أن أفتى به عالم غيره من مدينة فاس، حين أكد أن صلوات الأعياد لا يجب أن تقام إلا في الجوامع الكبرى، بدعوى أن الغاية منها هي جمع أكبر عدد ممكن من المؤمنين في مكان واحد. وتخفيفا من حدة شكوك عامة الناس في مشروعية أداء صلوات الأعياد وجوازها في المساجد الصغيرة، قام العديد من العلماء المتميزين والقضاة، أمثال العراقي والتازي، في فاس ومكناس، بكتابة تقاريظ سُخرت جميعها لمؤازرة وجهة النظر الصادرة عن المهدي الوزاني.

وباختصار، فقد كانت أدبيات التقريظ من الأدوات التقليدية المستعملة للتعبير عن الإعجاب بالكتب، إلا أن فعاليتها كانت من قبل محصورة في الأماكن التي تستنسخ فيها الكتب. غير أنه مع بداية استعمال الطباعة ازدادت أهمية أدبيات التقريظ ازديادا كبيرا من حيث الفعالية، كما طرأ عليها تحول نوعي، لأن الطابعين والناشرين بدأوا يطلبون الحصول على التقريظ من أماكن بعيدة لم تكن معهودة من قبل. ولم يقتصر ذلك الاستعمال الجديد على تمكين الناشرين من التعريف بكتبهم وضمان ترويجها بمختلف الأسواق الموجودة في شتى أنحاء المغرب، لكنها بالإضافة إلى ذلك مكنت العلماء من التعريف بأنفسهم على نطاق أوسع، وضمنت لهم في الوقت نفسه إمكانية الحصول على مكافآت مقابل ذلك، أو أن يتوصلوا، مجانا، على الأقل بنسخ من الكتب لاستعمالاتهم الخاصة. كما تحولت أدبيات التقريظ إلى منبر تمكن العلماء به من التعبير عن قناعاتهم الدينية والسياسية على اختلافها وتباينها. وما كان لذلك كله أن يتحقق ويتطور باستمرار لولا وجود تكنولوجية الطباعة كعامل محرك وأساسي.

---

(52) الفاسي، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 63–68. وتحتوي على ترجمة مختصرة لعبد السلام العمراني ؛ انظر أيضا الهامشين 40–42 أعلاه.

وكانت التحولات التي أحدثتها الطباعة في حياة العلماء الذين كانوا أيضا يمارسون التأليف بمعناه الواسع ذات أهمية كبرى. ولنا في حياة ماء العينين (الذي توفي سنة 1910)[53] ونشاطاته المتعددة خير نموذج يمكننا من إعطاء صورة حقيقية عن مثل تلك التحولات.

الاسم الكامل لماء العينين، هو : محمد مصطفى ابن محمد فاضل بن مامين القلقمي. كانت ولادته سنة 1830 في أقصى جنوب موريتانيا بمنطقة الحوض[54]. وهو الإبن الثاني عشر من بين إخوته الثمانية والأربعين. وكان والده محمد فاضل متصوفا بما في الكلمة من معنى، وكانت له الريادة داخل الطريقة القادرية بحكم نسبه الشريف. ونتيجة اتساع عدد مريديه، تسمت الطريقة التي كان يتبعها باسمه، وأصبحت تعرف بالطريقة الفاضلية. وحصل الأمر نفسه مع ابنه ماء العينين الذي أصبحت طريقته تعرف بالمعينية[55]. ويبدو أن من الأمور التي تميز بها ماء العينين عن إخوته العديدين انفراده بالتوجه إلى فاس بغية استكمال التكوين وتحقيق المزيد من التحصيل[56]. لكن لا أحد يعرف ـ حتى الآن ـ متى حل ماء العينين بفاس، ومن هم العلماء المغاربة الذين تتلمذ عليهم هناك. ثم إن المهتمين بدراسة حياة ماء العينين يفيدوننا بأن الرجل قد التقى بالسلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام وخلفه من بعده سيدي محمد بن عبد الرحمن، وذلك في أثناء زياراته التي قام بها إلى المشرق لأداء فريضة الحج[57]. وهنا أيضا، لا أحد يعلم بصفة مؤكدة الأسباب التي جعلت ماء العينين يبذل الجهود للالتقاء بالسلطانين، ولا الأسباب التي جعلتهما يستقبلانه في لقاءات خاصة على أرض المغرب. لكن لو صحت هذه المعلومات لأمكننا الميل إلى الظن أن لقاءات من ذلك القبيل، وطبيعة العلاقات القائمة بين السلطانين وماء العينين، قد كانت مفيدة لكلا الطرفين. والسبب في ذلك أن ماء العينين ـ كما تشير إلى ذلك كتاباته ـ كان زعيما صاعدا يشق طريقه، ولديه حاجة ماسة إلى السند المادي والمعنوي، دعما للمكانة الاجتماعية والدينية التي ورثها عن والده.

---

(53) B. G. Martin, **Muslim Brotherhoods in Nineteenth-Century Africa**, pp. 125-151.

(54) المرجع نفسه.

(55) المرجع نفسه.

(56) محمد الظريف، **الحياة الأدبية في الزاوية المعينية**، الجزء 1، ص. 109.

(57) الفاسي، **المرجع السابق**، الجزء 2، ص. 37–46.

ومن المحتمل جدا أن يكون السلطانان بصدد تهيىء ماء العينين لضمان الدفاع عن الأطراف الجنوبية للبلاد ضد محاولات الأوربيين التوسعية. ويعتبر ذلك صحيحا عن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمـــن الذي خسر حرب تطوان ضد إسبانيا، ووجد نفسه وقد ألزمته تلك الهزيمة بالتنازل لها عن محطة تجارية على السواحل الصحراوية[58]. وقد أدرك السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن القيمة العسكرية والسياسية لماء العينين، بصفته مدافعا عن المغرب والإسلام في الصحراء. ولذلك فإنه قد عمل هو وكل السلاطين ورجال المخزن الذين أتوا من بعده على تذليل الصعاب وفتح الطريق أمام ماء العينين ليصبح أشهر رائد على المستوى الديني والفكري في البلاد.

أما الجانب الثاني الذي له دلالة خاصة لماء العينين في إطار علاقاته مع السلاطين المغاربة، فهو أنه قد نجح، إلى حدود سنة 1890، في إرساء قاعدة متينة لنفوذه، ومكن نفسه من اكتساب شعبية كبيرة في الصحراء، دون أن يعتمد في تحقيق ذلك على تكنولوجية الطباعة كعنصر مساعد[59]. ومن الأهمية بمكان معرفة الوسائل التي اعتمد عليها ماء العينين لإرساء نفوذه الديني في الصحراء، لأنه كفيل بتقديم فكرة واضحة عن الأسس التي اعتمدها حتى جعل حركته تحتل المكانة السامية في عقول أتباعه في الصحراء وقلوبهم، وفي الأوساط الدينية والسياسية داخل المغرب أيضا. كما أن معرفة تلك الوسائل ستمكننا أيضا من توضيح مدى قابلية الطباعة كأداة لنشر المعرفة وحفظها من الضياع.

يمكن الفحص الدقيق لكتابات ماء العينين وأنشطته المختلفة، من رصد بعض العوامل المساهمة في النجاح الذي حققه هذا الرائد الديني والفكري في الأوساط الصحراوية. ومن هذه العوامل علاقاته الاجتماعية وصلاته الأسرية. فقد حظي ماء العينين إلى جانب المكانة السامية التي كان والده يحتلها بصفته زعيما دينيا معترفا به على نطاق واسع، بمساعدة إخوته السبعة والعشرين الذين بذلوا قصارى جهودهم لنشر نفوذه في ربوع الصحراء. ويعتقد أيضا أن ماء العينين اتخذ لنفسه أزيد من مائة

(58) عبد الوهاب ابن منصور، **حفريات صحراوية**، ص. 69، 81.

(59) الظريف، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 82. وتوجد بها نسخة مصورة لرسالة وجهها السلطان مولاي الحسن إلى أمناء الصويرة، يأمرهم فيها بإدراج اسم ماء العينين ضمن لائحة الحاصلين على الرواتب. وهي بتاريخ 29 أبريل 1887، وتعتبر ـ لحد الآن ـ أقدم وثيقة يظهر فيها اسم ماء العينين في المراسلات المخزنية.

زيجة[60]، وفقا للأسلوب الذي اتبعه النبي محمد عليه السلام. ويبدو أن الغاية من ذلك كانت توحيد القبائل الصحراوية العديدة، وجمع فصائلها المختلفة. وحسب النتائج التي توصل إليها الباحث محمد الظريف، بعد الدراسة التي أنجزها في موضوع المعينية بالمغرب، فإن عملية التوحيد تلك هي التي مكنت ماء العينين من إخضاع القبائل الصحراوية لنفوذه، والعمل بالتالي على كل ما من شأنه أن يصد الأوربيين عن الإقدام بأي مغامرة داخل المجال الصحراوي[61]. وبالفعل، حينما حاول أحد شيوخ القبائل في منطقة أدرار الدخول في تسوية منفردة مع إسبانيا، يسمح بموجبها للرعايا الإسبانيين بربط صلات تجارية مع المناطق الداخلية، فإن ماء العينين لم يتردد في مهاجمة المحطة الإسبانية في منطقة أدرار[62]. كما وضع كتابا تحت عنوان : **إرشاد الحيارى في أمر النصارى**، نصح فيه المسلمين بعدم وضع ثقتهم في المسيحيين، بدعوى أنهم كلما تمكنوا من الدخول إلى بلد إسلامي سيطروا عليه وهيمنوا[63].

وكانت الأنشطة التعليمية والدينية هي العامل الثاني الذي ساهم في تمكين ماء العينين من تحقيق نجاحه في الصحراء. فقد استطاع ماء العينين ـ اعتمادا على ما حققه من نجاح في المضمار الاجتماعي، وبفضل التعزيزات المادية التي لم يتوقف تدفقها من العاصمة مراكش[64] (ربما في نهاية السبعينيات أو عند مطلع الثمانينيات من القرن التاسع) ـ استطاع أن يقيم لنفسه مركزا دائما في السمارة[65]. وأنشأ هنالك خزانة كتب كبيرة، اكتفى بالاعتماد في تجهيزها على الإمكانات المحلية فقط. إذ كدست قرابة أربعة آلاف كتاب داخل مجموعة صناديق، وضعت جميعها في خيمة كبيرة، وأسند مهمة تدبير شؤونها إلى إحدى زوجاته[66]. ونتيجة لاطلاعه الواسع على مختلف العلوم الإسلامية، وامتلاكه مجموعة خاصة من أمهات الكتب، أصبح ماء العينين قبلة لجموع الطلبة الذين بدأوا يحجون إليه قادمين من مختلف أرجاء الصحراء. وكان أولئك الطلبة يحصلون خلال مدة إقامتهم بالسمارة على السكن

(60) السوسي، **المعسول**، الجزء 4، ص. 97.
(61) الظريف، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 54، 75، 79، 105.
(62) **المرجع نفسه**، الجزء 1، ص. 46.
(63) **المرجع نفسه** ؛ عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 173–174.
(64) Martin, op. cit, p. 136.
(65) الظريف، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 44.
(66) **المرجع نفسه**، الجزء 1، ص. 124–126، 130.

والطعام، بالإضافة إلى تحصيلهم العلم وتدرجهم في مختلف المستويات التعليمية. وعندما يستكملون تكوينهم يُعينون مساعدين للشيخ ماء العينين، فيوزعون على المناطق الصحراوية كمدرسين يساهمون في نشر المعرفة بين سكانها، أو كجواسيس يجمعون المعلومات عن تحركات الأوربيين الساعية إلى استكشاف خبايا المناطق الداخلية(67).

كان ماء العينين يقدم كل مستلزمات العيش من أكل وإيواء لأتباعه المقيمين معه في مخيمه بالسمارة، والذين قدر عددهم بحوالي عشرة آلاف(68). يضاف إلى ذلك بعض الخدمات الدينية، على شكل تمائم وتعاويذ مكتوبة لأجلهم، حماية لهم من المرض والفقر، وتمكينا لهم بالتالي من التمتع بالرخاء والطمأنينة(69). وكان أتباع ماء العينين يرون في رائدهم قطبا حقيقيا، ويعتقدون في قدراته الخارقة، كمخاطبة الجن وكتابة الرسائل إلى أراض بعيدة لتأتيه منها القوافل محملة بالمؤونة والزاد. وكل هذه الأمور تعني شيئا واحدا في نظرنا، ألا وهو أن ماء العينين لم يكن بالفعل في حاجة إلى استعمال تكنولوجية الطباعة، ولا إلى الكتب المطبوعة، ليصبح أعلى سلطة حاكمة في الصحراء.

ولكن على الرغم من النجاح الذي حققه ماء العينين في ميدان التأليف، إذ يعتقد أنه كتب أزيد من ثلاثمائة عنوان(70)، فإن شهرته وكتاباته ظلت حبيسة الأوساط والجماعات الصحراوية إلى حدود سنة 1891، حين بدأت مؤلفاته تعرف رواجا في بقية أرجاء المغرب بفضل الطباعة. وكان على ماء العينين قضاء حوالي خمس وأربعين سنة في ممارسة أنشطته الدينية، وتحرير المؤلفات العلمية والتعليمية، قبل أن تجد أعماله طريقها إلى فاس مركز الثقافة، ومن ثم إلى بقية الحواضر المغربية. وفي الواقع، لولا وجود الطباعة، إلى جانب البيئة المناسبة التي ظهرت فيها تلك التكنولوجيا وقتئذ، لما تمكنت كتابات ماء العينين من الوصول إلى الجمهور العريض من المغاربة، ولكان الضياع مصير غالبيتها العظمى(71). إلا أن كل مؤلفاته المطبوعة حوفظ عليها،

(67) المرجع نفسه، الجزء 1، ص. 12.

(68) Martin, op. cit.

(69) الظريف، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 238.

(70) المرجع نفسه، الجزء 1، ص. 126–127، 155.

(71) المرجع نفسه. ما تزال العديد من كتابات ماء العينين مجهولة إلى اليوم، إما لضياعها وإما لكونها موزعة على العديد من أحفاده وذريته في مختلف الجهات الصحراوية.

واتضحت أهميتها من حيث هي مصادر لا غنى عنها في تتبع الملابسات التي رافقت صعود نجمه وانتشار نفوذه ما بين 1891 و1900، كزعيم ديني يحظى بشهرة واسعة، وكواحد من كبار العلماء في المغرب.

حينما نفحص خواتم كتب ماء العينين المطبوعة فحصا دقيقا ومتأنيا، نجد أن اسم أحمد بن موسى المعروف ببا أحماد (والمتوفى سنة 1900) يرد فيها مرارا وتكرارا. ويستفاد منها أن هذا الشخص هو الذي أمر بطبعها، وهو الذي تولى الإنفاق عليها في بادئ الأمر(72). ويمكننا البحث في العلاقة الموجودة بين ماء العينين وأحمد بن موسى، من تسليط الأضواء على أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت ماء العينين والطباعة يكتسحان المغرب، وينتشران بنجاح في مختلف أرجاء البلاد، وذلك بدءا من سنة 1891 فما بعد. كان أحمد بن موسى حاجبا للسلطان على عهد المولى الحسن وإلى حدود سنة 1894، ثم أصبح صدرا أعظم في عهد السلطان المولى عبد العزيز إلى حدود سنة 1900 تاريخ وفاته(73). ومن القضايا المهمة بصدد شخصية بن موسى، أنه حين كان يشغل منصب الحاجب السلطاني، تولدت بينه وبين الجامعي الذي كان وقتئذ صدرا أعظم، وفي الوقت نفسه عما للسلطان المولى الحسن، عداوة شديدة فنشب صراع مرير بينهما على السلطة. وتعود أسباب ذلك الصراع في أصولها، إلى السنوات الأولى من فترة حكم المولى الحسن، أي إلى سبعينيات القرن التاسع عشر، حين أُبعِد عم بن موسى، وهو عبد الله بن أحمد البخاري(74)، من منصب قائد الفرقة العسكرية الجديدة التي كان قد أنشأها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن في مطلع ستينيات القرن التاسع عشر، وأسندت مهمة الإشراف عليها إلى الأخ الأصغر للصدر الأعظم الجامعي. زد على ذلك، أن محمد غريط الذي كان من الكتاب المعاصرين وأحد رجال المخزن، يخبرنا أن الجامعي كان يضايق بن موسى باستمرار ويحمله مسؤولية كل المشاكل المطروحة كبيرها وصغيرها(75).

ونظرا لانحدار أحمد بن موسى من أصل إفريقي (ويحتمل أن يكون من سلالة

---

(72) عبد الرزاق، المرجع السابق.

(73) محمد غريط، فواصل الجمان، ص. 82-89.

(74) وهو الشخص نفسه الذي مارس ضغوطه على الطابع المصري القباني، وجعله يغادر المغرب ليعود إلى بلده. انظر الرندي، «حديث مع الطيب الأزرق». وهو وثيقة غير منشورة تقع في صفحة واحدة.

(75) غريط، المرجع السابق.

العبيد)[76]، فلن يسعه إلا النظر بعين الرضى والإعجاب إلى صعود نجم ماء العينين بصفته زعيما إفريقيا آخر ارتفعت درجة شعبيته وعلت مكانته، في الدفاع عن الإسلام وعن المغرب. خاصة وأن ماء العينين كان من أقطاب العلماء، وتبوأ درجة رفيعة في الريادة الدينية. وكل هذه العوامل جعلت بن موسى يجد في ماء العينين كل المقومات الضرورية والمطلوبة للتمكن من دعم مكانته عند السلطان من جهة، وتحقيق طموحاته السياسية اعتمادا على المكانة الروحية لماء العينين من جهة ثانية. وحتى يحالفه النجاح في بلوغ أهدافه المسطرة، يبدو أن بن موسى قد مد يد المساعدة إلى ماء العينين فمكنه من إنشاء هيئاته التنظيمية التي اتخذت شكل شبكة تتكون من عدة زوايا تابعة لطريقته الدينية[77]. وكانت الزاوية المركزية في مدينة فاس، بينما توزعت بقية فروعها على مختلف أرجاء البلاد، من الصويرة إلى مراكش في الجنوب، وبمدينتي سلا والرباط في الوسط، وفي تطوان ومليلية بالشمال[78]. وكان أحمد بن الشمس (توفي سنة 1923) المنحدر من موريتانيا، وأحد طلبة ماء العينين هو الذي يتولى الإشراف على تسيير شؤون الزاوية المركزية في فاس[79]. وتفيدنا خواتم كتب ماء العينين المطبوعة في فاس، بأن من بين المهام التي كان يقوم بها بن الشمس هي الترخيص لكل من يرغب في نشر كتابات ماء العينين بذلك. كما أنه تولى القيام في الفترة الممتدة ما بين 1891 و1912 بالنشر والتمويل المباشر لخمسة عشر عنوانا، على الأقل، من مؤلفات ماء العينين[80].

ومن الخدمات المهمة الأخرى التي قدمها أحمد بن موسى لشخص ماء العينين وللطباعة في المغرب، إقدامه على كسر هيمنة الأخوين الأزرق اللذين كانا يحتكران جل أعمال الطباعة بفاس، وذلك بتشجيعه لعناصر جديدة، أمثال اليملاحي

---

(76) يؤكد غريط، المرجع السابق، أن أسرة أحمد بن موسى تنحدر من الموالي، أي أن أصله من العبيد البربر. ويشير العلوي في كتابه الحسن الأول، ص. 193، إلى أن والدة بن موسى كانت يهودية. غير أنه نتيجة لارتباط أفراد أسرة بن موسى بعبيد البخاري منذ أيام المولى سليمان (1820)، وبما أن العادة قد جرت على تسميتهم بالبخاري، فأرجح الظن أن تعود جذور أفراد أسرة بن موسى إلى أصل إفريقي، قد يكون موريتانيا أو غيرها من بلدان الغرب الإفريقي، هذا على الرغم من أن بن موسى لم يكن أسود اللون.

(77) الظريف، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 55.

(78) المرجع نفسه.

(79) الفاسي، المرجع السابق ؛ الظريف، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 125-127.

(80) عبد الرزاق، المرجع السابق ؛ الظريف، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 12.

والذويب، على إنجاز مشاريعهم المطبعية الخاصة. وهنا أيضا، كان هدف بن موسى هو الإسراع في تنفيذ حملته الدعائية ليُكسب ماء العينين مزيدا من الشهرة والشعبية في الأوساط المغربية بوجه عام. ذلك بأن جزءاً كبيرا من الكتب التي طبعت في المغرب ما بين 1891 و1900 كانت من مؤلفات ماء العينين. وينقلنا السؤال، عن نجاح أحمد بن موسى أو عدمه في إبراز مكانة ماء العينين من خلال استعماله للطباعة، إلى الحديث عن عامل آخر له أهميته الخاصة. ويتعلق الأمر بالاستعداد الذي كان عند مختلف عناصر تشكيلة المجتمع المغربي لاحتضان كتابات ماء العينين وتقدير قيمتها الكبيرة إلى حد الإعجاب بها.

كان من بين تلك العناصر أشخاص يحتلون أعلى مراتب السلم الاجتماعي، سارعوا إلى المراهنة على الشعبية المتنامية لماء العينين. ومثالا على ذلك، نجد إلى جانب أحمد بن موسى، الذي أعلن عن انتمائه إلى الطريقة الدينية لماء العينين، عناصر من أسمى موظفي المخزن، كما هو حال مولاي عبد الحفيظ أخ السلطان مولاي عبد العزيز، ومحتسب مدينة سلا محمد الصبيحي، فضلا عن العديد من كبار العلماء أمثال ابن الخياط والمهدي الوزاني الذين حصلوا على إجازات علمية من ماء العينين[81].

نتيجة لهذا الاعتراف بمكانة ماء العينين وللدلالات الكثيرة التي أصبح شخصه يكتسيها في أعين الناس، انهمك العديد من العلماء في نظم الأشعار وسخروها في تعداد خصاله وتمجيد قدراته الباهرة. وجمعت تلك الأشعار، إلى جانب المعلومات الخاصة بحياته، فنشرت جميعها في فاس وعرضت على جمهور القراء[82]. كما قضى بعض العلماء أمثال عبد الرحمن وجفر الكتاني سنوات عديدة من حياتهم في نسخ مؤلفات ماء العينين وتصحيحها وتحضيرها للنشر[83]. وراهن الطابعون والناشرون، أمثال العربي الأزرق[84] واليملاحي[85] والذويب[86]، على تنامي ظاهرة ماء العينين، فتنافسوا على نشر مزيد من كتاباته وترويجها. حتى أن مؤلفاته بلغت حوالي

(81) الفاسي، المرجع السابق؛ الظريف، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 12.

(82) مجموع اشتمل على سبع فضائل في مدح ماء العينين. وساهم فيه كل من عبد الرحمن الكتاني، وعبد الله الفاسي، ومحمد العلوي، وعبد الواحد الفاسي، وعبد الله القباج، وأحمد الزعيمي.

(83) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص. 168–169.

(84) نفسه، ص. 127–129.

(85) نفسه، ص. 185–187.

(86) نفسه، ص. 144.

الربع من مجموع الكتب التي نشرها أولئك الطابعون الثلاثة في فاس ما بين 1891 و1900[87].

وكان النداء السياسي القوي الذي وجهه ماء العينين إلى بقية الطرق الصوفية، وخاصة منها الطريقة الكتانية التي يتميز زعماؤها، عبد الكبير وابناه محمد وعبد الحي، بالحيوية والفعالية، كان من العوامل الهامة الأخرى التي جعلت شعبيته تشيع بسرعة وتفرض وجودها على الساحة المغربية. ومن الأمور التي استهوت زعماء الطريقة الكتانية وجعلتهم يميلون إلى مشاطرة ماء العينين إيديولوجيته السياسية، مناداته الأخيرة، في كتابيه : **مفيد الراوي ومبصر المتشوف**، بتعميم الأخوة بين كل الطرق الصوفية، سواء على المستويات المحلية أم الدولية. ولتحقيق هدفه المنشود، اقترح العمل بوسيلة فعالة وعملية، ألا وهي إجماع كل الطرق الصوفية على استعمال حزب موحد يكون مستمدا في أساسه من جميع الأحزاب الرئيسية المعمول بها عند غالبية الطرق الصوفية[88].

وتعني لفظة حزب، جماعة أو تجمعا معينا. ومن الناحية الدينية، تستعمل لفظة الحزب إشارة إلى الأقسام الستين التي يتكون منها **القرآن** الكريم[89]. غير أنها تعني شيئا آخر عند الطرق الصوفية، إذ يقصدون بها أسطرا أو صفحات قليلة تتضمن جملا إنشائية تعبدية وضعها زعماء الطريقة الدينية، قدماء كانوا أو معاصرين. وعليه، فإن كل مجموعة طرقية يستظهر أتباعها الحزب الخاص بها وينشدونه فيكون بذلك رمزا لوحدتها، وفي الوقت نفسه وسيلة للتمييز بين المجموعات، لأن لكل مجموعة كتابها الخاصين الذين يضعون نصوص أحزابها، ولأن هنالك تباينا في درجات القوة وفي مستويات الورع، وأيضا في سمو المكانة الدينية لكل حزب.

وعلى الرغم من تحرير زعماء الطريقة الكتانية لأحزابهم الخاصة وتحديد حركات

---

(87) **المرجع نفسه**، ص. 190–195.

(88) ماء العينين، **مفيد الراوي**، ص. 4. انظر أيضا، أبو بكر بناني، **إتحاف أهل العناية**، ص. 110. ويشير فيه إلى أن الهدف الذي كان يسعى ماء العينين إلى تحقيقه هو التوحيد بين مختلف الطرق الدينية بالمغرب لتصبح هناك طريقة واحدة بديلة.

(89) Lane, op. cit.، انظر مادتي «حزب» و«حزابة».

رقصهم بأنفسهم[90]، فقد تبنوا جميعا إيديولوجية ماء العينين، وأكسبوا مؤلفاته شهرة خاصة حين تمكنوا من طبعها في المؤسسة التي كان يدير أعمالها الذويب أحد أبرز أعضاء الطريقة الكتانية حيوية ونشاطا. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، كان عبد الرحمن وجعفر، وهما من العناصر الريادية داخل الأسرة الكتانية، من العلماء الذين ساهموا في نشر العديد من أعمال ماء العينين[91]. وهناك سبب أساسي جعل الكتانيين يتبنون إيديولوجية ماء العينين، ويتمثل في وجود فراغ سياسي في المغرب ما بين 1894 و1900، حين بادر الصدر الأعظم أحمد بن موسى إلى تركيز سلطة المخزن بكاملها في يديه، إذ تعمد اختيار أصغر أبناء السلطان المتوفى ورشحه خلفا له على حكم البلاد عوضا عن أحد أخويه الكبيرين، مولاي محمد ومولاي عبد الحفيظ[92]. وتجدر الإشارة إلى أن أحمد بن موسى عندما أحس بتنامي شعبية الطريقة الكتانية سنة 1897 وحاول معرفة النوايا السياسية التي كان محمد الكتاني يضمرها، لم يجد من يستشيره في تقرير مصير الكتانيين ـ ويا لسخرية الأقدار ! ـ غير ماء العينين. لكن هذا الأخير، كان على علم تام بفضل الطريقة الكتانية عليه، ومساهمتها الفعالة في نشر أفكاره ومؤلفاته، فما كان منه إلا أن أخلى سبيلها وبرأ ساحتها من كل الشبهات. بل أصبح محمد الكتاني أكثر جرأة عما كان عليه من قبل في ممارسة أنشطته، واستمر على ذلك النحو إلى أن قتل على يد السلطان مولاي عبد الحفيظ سنة 1910[93].

وكان زعماء الطريقة الكتانية يجدون عند ماء العينين شيئا ثمينا لا يمكنهم

---

(90) عبد الكبير الكتاني، نجوم المهتدين. يتضمن هذا النص الذي وضعه مؤسس الزاوية الكتانية وصفا للطريقة التي يجب أن يتم بها الرقص أثناء ممارسة الطقوس التعبدية الخاصة بالكتانيين. إذ تضرب الأرض بالقدم اليمنى، وبينما تكون الساق اليسرى مرتفعة إلى أعلى يحرك الشخص جسده بقوة، وتتكرر العملية إلى ما لا نهاية. والكتانيون لا يطرقون الأبواب قبل الدخول إلى البيوت، بل يكبرون الله لإشعار الناس بحضورهم.

(91) انظر الهامش 93 أسفله.

(92) غريط، المرجع السابق ؛ العلوي، الحسن الأول، ص. 193. ويحاول غريط إثارة الانتباه إلى أن بن موسى واثنين من قرابته كانا يحتلان مناصب سامية في الجهاز المخزني أيام السلطان مولاي عبد العزيز، فارقوا الحياة في مدة زمنية متقاربة جدا، دون أن يقدم أي تفسير لذلك. غير أن العلوي يشير إلى تسميمهم على يد أفراد من الأسرة السلطانية.

(93) عبد الحي الكتاني، المظاهر، الجزء 1، ص. 88ـ93 ؛

Burke, «Moroccan 'Ulama» in Keddie, **Scholars, Saints and Sufis**, p. 111.

الاستغناء عنه لبلوغ أهدافهم، ألا وهو عداؤه الشديد للأوربيين بالإضافة إلى النداء الذي وجهه إلى أتباعه المغاربة لتحقيق التعاون مع سلاطين العثمانيين والاستفادة من خبراتهم وتوجهاتهم الإصلاحية بدل الاعتماد في ذلك على الأوربيين. وقد تكرر مثل هذا النداء في كتابات ماء العينين، كما في مؤلفه **مبصر المتشوف** الذي وصف فيه السلاطين العثمانيين بالعبارات التالية :

«فهم زبدة الملوك، ودولتهم زبدة الدول، حيث لا دولة بعدها لغيرهم. [لأنهم] يقاتلون مدهم مبادئ الرجال من الكفرة الفجرة من الإفرنج والأنكروس[94] وغيرهم. ولهم الجمعية الكبرى واليد الطولى والدولة العظمى»[95].

كانت مثل هذه الكتابات المشحونة بالإحساسات المعادية للأوربيين قوية بما يكفي لتمكين الزعماء الكتانيين من النجاح في إسماع صوتهم الذي لم يتوقف عن المطالبة بإحلال الخبراء العثمانيين محل الأوربيين في المغرب. وفي الواقع، كانت لجل العناصر الريادية في الطريقة الكتانية ـ ومنهم جعفر الكتاني وولداه عبد الرحمن ومحمد ثم عبد الكبير الكتاني وولداه محمد وعبد الحي ـ علاقات متينة واتصالات مستمرة مع مختلف العلماء العرب في المشرق، والذين كانوا في خدمة الدولة العثمانية. وكان من أولئك العلماء بافضل الحضرمي وأبو الهدى الصيادي اللذان كانا يشرفان على إدارة منظمة الجامعة الإسلامية في إستنبول والدعوة إلى التوحيد بين كل الطرق الصوفية[96]. وكانت أيضا لزعماء الطريقة الكتانية اتصالات قوية مع يوسف النبهاني

(94) ويعني بهم الفرنسيين والإنجليز.

(95) انظر الجزء الثاني، ص. 176.

(96) كانت لجنة الجامعة الإسلامية في إستنبول تتكون من أربع شخصيات قيادية هي : بافضل الحضرمي، والشيخ أسعد أفندي، وأبو الهدى الصيادي، وظافر المدني. وكان كل واحد منهم مسؤولا عن طريقة واحدة أو عن عدة طرق في إحدى جهات العالم الإسلامي. وعلى سبيل المثال، كان بافضل مسؤولا عن الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، وجهات الشرق الإفريقي وساحل مليبار الواقع في الهند التي كانت الطريقة العلوية منتشرة فيها. وكانت تلك اللجنة تدعو إلى المبادئ نفسها التي كان ماء العينين ورواد الطريقة الكتانية يتبنونها والتي تهدف إلى تحقيق الوحدة بين كل الطرق الصوفية عن طريق الاعتماد على أحزاب ذات نصوص موحدة المضامين. لقد كانت هناك علاقات متينة بين العلماء العثمانيين وكل من ماء العينين والعناصر القيادية في الطريقة الكتانية. وبالإضافة إلى المعلومات التي يقدمها لنا ماء العينين في كتابه **مبصر المتشوف** (انظر الهامش أعلاه رقم 95)، يخبرنا في كتاب آخر تحت عنوان **نعت البدايات**، ص. 40، بأنه عندما وصل إلى مكة قابلة المدعو عبد الرحمن أفندي الذي أعطاه هدايا ثمينة، وأخبره بأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه، وأن النبي هو الذي أخبره عن ماء العينين ووالده وأن والد =

الذي كان في خدمة العثمانيين مسؤولا عن إصدار **الجوائب** صحيفتهم الرسمية[97]. وبناء على كل هاته المعطيات، تتضح لنا كل الدوافع التي جعلت العناصر القيادية داخل الطريقة الكتانية تعتنق أفكار ماء العينين وتفسح المجال أمام كتاباته لتعرف انتشارا واسعا عبر وسيلة الطباعة.

وهناك نقطة أخيرة تتعلق بأدبيات الحزب عند ماء العينين، وهي لجوء عامة الناس في المغرب إلى استعمال كتاباته تمائم لحمايتهم من مختلف الأمراض والأخطار التي كانت تهدد حياتهم اليومية وقتئذ[98]. وهذه نقطة أخرى تضاف إلى الأسس التي أقام عليها ماء العينين شعبيته في المغرب. وتعني هذه الأمور كلها أنه بقدر ما كانت تستعمل آلة الطباعة لتعميق شعبية ماء العينين في المغرب، كان ماء العينين نفسه مُستَخْدماً بطريقة أو بأخرى في تحقيق غايات متعددة ومتنوعة للمخزن والعلماء وحتى عامة الناس. معنى هذا أن أهمية الطباعة أصبحت واضحة داخل المجتمع المغربي ابتداء من ثمانينيات القرن التاسع عشر.

= ماء العينين هو خليفته في الأرض. وكان علماء العثمانيين يلجأون إلى استعمال أساليب مماثلة في مكة مع الزعماء الدينيين الوافدين من شرق إفريقيا، والذين كانوا يثورون على الأوربيين بمجرد عودتهم إلى أوطانهم، انظر :

Martin, «Notes on some members of the learned class of Zanzibar and East Africa in the Nineteenth Century», in **African Historical Studies**, Vol. IV, n° 3 (1971), pp. 525-545.

وفيما يتعلق بالعلاقات القائمة بين زعماء الطريقة الكتانية وأعضاء لجنة الجامعة الإسلامية، يفيدنا كتاب **المظاهر السامية** لعبد الحي الكتاني بأن والده عبد الكبير قد حصل على إجازة من بافضل الحضرمي المنتمي إلى الطريقة العلوية. وأنه التقى في مكة ببافضل الحضرمي (انظر : **فهرس الفهارس**، الجزء 2، ص. 140). وعلاوة على ذلك، حسب ما جاء عند الفاسي في كتابه **مجموع**، فإن أبا الهدى الصيادي قد وضع كتابا عن الأدارسة في المغرب تحت عنوان **الإيضاح المطوب** (غير منشور)، كما حصل منه السلطان مولاي عبد الحفيظ على إجازة عن طريق المراسلة. للمزيد من المعلومات عن هذه النقطة من التاريخ المغربي والتي مازال يكتنفها الكثير من الغموض، انظر المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، الذي يحتوي على معطيات قيمة عن العلماء الذين زاروا البلاد المغربية في إطار موضوع الإصلاحات قبل سنة 1912.

(97) الفاسي، **المرجع السابق**، الجزء 2، ص. 161–162 ؛ يوسف النبهاني، **جامع كرامات الأولياء**، ص. 226–229.

(98) الظريف، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 155–158. ويؤكد الباحث نفسه في الصفحة 160 من **المرجع نفسه** أن ماء العينين كتب حزبا خاصا لفائدة الوزير أحمد بن موسى بعنوان : **منيلة القصد لكل جاء وطاردة الآفات من كل ما مضى وما قد يأتي**.

ويمكن القول بإيجاز، إنه من الواضح جدا أن عالما على غرار ماء العينين لم يكن في حاجة إلى الطباعة ليتحول إلى زعيم ديني وسياسي له مكانته المهيمنة والمتحكمة في مصير المجموعات القبلية داخل مجاله الصحراوي. بل كان ذلك المجال بحكم بنياته السوسيواقتصادية والدينية والتعليمية القائمة كافيا لتمكينه من إدراك ما حققه من مكانة سامية. ومع ذلك، فإنه على الرغم من المساندة المطلقة التي لقيها ماء العينين من إخوانه الصحراويين، فما كان لشهرته الدينية ولا لكتاباته التي تجاوزت الثلاثمائة مؤلف أن تمكنه من التحول إلى شخصية تحظى بشعبية كبيرة في المغرب، لأن تزايد الأطماع الأوربية تجاه المغرب وتصاعد لهجة التهديدات له منذ أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى النجاح الذي حالف ماء العينين في توحيد سكان الصحراء، كانت جميعها عوامل جعلت هذا الرجل يحظى باهتمام شخصيات المغرب البارزة التي كانت تتحكم آنذاك في مصير البلاد. إلا أن الطباعة شكلت مع تلك العناصر الحيوية إمكانية عظيمة سهلت من جعل ماء العينين أكثر الزعماء شهرة في زمانه.

رابعا ـ العلماء وأعمال النشر

كانت للعلماء مساهمة إضافية في ميدان الطباعة، ألا وهي عملية النشر. وبصفة عامة، كان هنالك صنفان من الناشرين. ويدخل ضمن الصنف الأول الناشرون المهنيون الذين كانوا في غالبيتهم طابعين محترفين، ثم الأفراد الذين كانوا يمارسون أعمال النشر، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه من الأعيان أو من العلماء. وسأكتفي هنا بالتركيز على معالجة حالة العلماء ورصد التحولات التي أحدثتها ممارستهم لأعمال النشر في حياتهم. في حين سأتناول في الفصل التالي حالة الناشرين المنتمين إلى صفوف الأعيان.

كانت عملية النشر تعني، خلال هذه المرحلة، تمويل المنشورات وتوزيعها. وفي الفترة الممتدة ما بين 1872 و1912 وما بعدها، يبدو أن الغالبية العظمى من بين أكثر من سبعين عالما مؤلفا قد مولوا منشوراتهم الخاصة بأنفسهم. ولا غرو في ذلك، لأنها لا تختلف عن الفترات السابقة، التي كان المؤلفون يحضرون فيها نسخا نظيفة خاصة بهم، وهي نفسها التي كان يعتمدها الطلبة أو الناسخون لإنجاز نسخ إضافية.

غير أن الذي يستغرب له أنه باستثناء بعض الكتاب أمثال ماء العينين وعدد من أفراد الأسرة الكتانية، الذين نشرت أعمالهم على يد أتباعهم أو على نفقة بعض

المحسنين، فإن غالبية الكتاب والمؤلفين أهملوا الإشارة إلى أنهم هم الذين تحملوا بأنفسهم أعباء نشر أعمالهم ومؤلفاتهم. وكان من هؤلاء المؤلفين علماء كبار أمثال ابن الخياط[99] وعبد الله ابن خضراء[100] والمهدي الوزاني[101]. ومن المحتمل أن يكون السبب في عدم اهتمام العلماء بالإفصاح عن تحملهم بأنفسهم مصاريف نشر مؤلفاتهم، هو التواضع، أو رغبتهم في الحفاظ على مكانتهم بصفتهم علماء أو قضاة فقط، وليس رجال أعمال لهم طموحات مادية. كما كانت إمكانية إيجاد العلماء لناشرين آخرين يتكلفون بنشر مؤلفاتهم ويسهرون على توزيعها ـ عوض القيام بذلك بأنفسهم ـ، تنطوي على مزيد من الأبهة والرفع من مكانة العلماء في أعين الناس. غير أنه من بين القضايا ذات الدلالات الهامة التي لابد من إثارتها هنا هي جهلنا التام للطريقة التي كان يوزع بها العلماء الناشرون كتبهم. فهل كانوا يوزعونها انطلاقا من مدينة فاس، مكان إقامتهم، على بقية الحواضر ؟ أم كانوا يعتمدون على خدمات المروجين[102] ؟ أم كانوا يكتفون فقط بإيداع كتبهم عند باعة الكتب لتصريفها والحصول على ثمنها بعد بيعها ؟ من المحتمل جدا ألا يمكن التوصل إلى جواب مقنع وواضح على التفاصيل الخاصة بالكيفية التي كان العلماء المؤلفون يوزعون بها كتبهم، لأن العملية كانت تتم على مستوى فردي وربما في الكتمان.

في الوقت نفسه، يمكن المرء أن يتوقع أن العديد من العلماء لم يعرضوا مؤلفاتهم للبيع البتة، وإنما قدموها هبات أو استبدلوا بها كتبا أخرى مع بقية العلماء والطلبة بمختلف أرجاء البلاد. وكان غالبية العلماء ينتقلون باستمرار من عمل إلى آخر في جهات مختلفة من البلاد. وعلى سبيل المثال، نجد أحمد الناصري الذي مارس مهام عديدة ومتباينة، قاضيا ثم أمينا في إحدى المراسي، فمدرسا ثم إماما في المساجد. وكانت ممارساته للأنشطة المذكورة في مدن مكناس وطنجة ومراكش ثم فاس[103]. فعلى الرغم من عدم معرفتنا الدقيقة للطريقة التي كان العلماء يوزعون بها كتبهم،

(99) عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 112–113. بلغ عدد مؤلفات ابن الخياط المنشورة خمسة عشر عنوانا.

(100) **نفسه**، ص. 155.

(101) **نفسه**، ص. 180.

(102) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 310.

(103) K. Brown, «Profile of a nineteenth-century Moroccan scholar», in Keddie, **Scholars, Saints and Sufis**, pp. 127-148.

يمكننا القول بأن الطباعة قد منحت العلماء بعدا إضافيا لا يخلو من فوائد، إذ مكنهم تحقيق الشهرة لأنفسهم ولمؤلفاتهم من خلال الأعمال التي تمكنوا من نشرها، وأتاح أمامهم إمكانية تحقيق أرباح مادية، أو تنمية مكتبات خاصة بهم(104).

باختصار، فإننا بدراستنا لمواقف العلماء من الطباعة ولردود أفعالهم عليها، وأيضا لمختلف الأدوار التي كانوا يقومون بها كتابا ومصححين ونساخا وناشرين، أشرنا إلى أن بعض العلماء أمثال السباعي قد حاولوا مقاومة استعمال الكتب المطبوعة على أساس أن ذلك الاستعمال سيلحق الضرر بالنظام التربوي التقليدي. لكن على الرغم من أن التخوف الذي أبداه السباعي من وقوع التغيير في نهاية المطاف قد كان أمرا مبررا، فمن الممكن أن يكون اعتراضه الحقيقي على الكتب المطبوعة نابعا من كونه أحد الدخلاء من جهة، ومن انتقاده الشديد لسلوك المخزن الذي كانت كل أعمال الطباعة تنجز بتشجيع منه وتحت مراقبته الدقيقة من جهة ثانية.

أما بقية العلماء، وخاصة منهم أولئك الذين أصبحت لهم مساهمة في تلك التكنولوجيا الجديدة بطريقة أو بأخرى، فإن الطباعة قد شكلت لهم عاملا إيجابيا عاد عليهم بالكثير من الفوائد والامتيازات التي نذكر منها : أولا، إعادة النظر في النظام القديم لتنظيمه بطرق جديدة، وهو ما ترتب عليه تمكين العلماء المصححين من الحصول على مصدر جديد للدخل وعلى الوسائل التي يسرت لهم إنشاء مجموعات الكتب الخاصة بهم. هذا فضلا عن أن المصححين أصبحت لهم اليد الطولى في كل العمليات التي لها علاقة بصناعة الكتاب في البلاد. كما أدى ذلك التنظيم الجديد إلى حدوث تطور كبير في المعرفة، لأن الكتب كانت تفحص بدقة وعناية كبيرتين من طرف العلماء المصححين تفاديا لكل الأخطاء الممكنة ولسوء استعمال المعلومات. ثانيا، مكنت التكنولوجيا الجديدة العلماء من أن يصبحوا في مدة زمنية وجيزة نسبيا معروفين على نطاق واسع، كما مكنتهم من الحفاظ على كتاباتهم لفائدة الأجيال الصاعدة لتكون بحق مصادر غنية بالمعطيات والمعلومات الخاصة بأنشطتهم المختلفة وبحياتهم العلمية. ثالثا، إن الطباعة قد مكنت العلماء من أن يصبحوا إلى حد ما من

(104) عبد الحي الكتاني، منية السائل، ص. 8 من الكراسة الأخيرة. وفيها نجد الكتاني يخبر قراءه عن الكتب الرائجة وعن الكتب قريبة الصدور، بما فيها بعض العناوين التي كانت قيد النشر في إستنبول ؛ انظر أيضا : أحمد سكيرج، مرهد الوصول، ص. 6-8 من الكراسة الأخيرة التي تحتوي على إعلانات تخص خمسين عنوانا كان الكاتب سكيرج يهيئها للنشر.

صغار الرأسماليين، لأن العديد منهم تمكنوا من تمويل نشر مؤلفاتهم، ووزعوها بأنفسهم أو قايضوها بأعمال غيرهم من المؤلفين. رابعا، إن مساهمة العلماء في الطباعة قد أدت إلى خلق مجال واسع من الأنشطة الفكرية، وسيكون هذا المجال موضوع اهتماماتنا بشكل موسع ودقيق في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

الفصل الثامن

علاقة الطابعين والناشرين بالطباعة

الفصل الثامن

علاقة الطابعين والناشرين بالطباعة

كان في المغرب، خلال العقود الممتدة ما بين ستينيات القرن التاسع عشر وعشرينيات القرن الحالي، حوالي تسعة طابعين، ما بين مغاربة وأجانب، وكذا حوالي عشرين فردا اهتموا بميدان النشر، وهم ينتمون جميعا إلى صفوف الأعيان[1]. وسنتناول بالمناقشة في هذا الفصل مختلف الأنشطة التي مارسها خمسة طابعين محترفين، بالإضافة إلى أنشطة ثلاثة أصناف من الناشرين من الأعيان. والهدف من ذلك، هو محاولة التوصل إلى معرفة الكيفية التي ساهم بها استعمالهم لتكنولوجية الطباعة في التأثير على حياتهم، وكذا التحولات التي حدثت من جراء ذلك على مستوى البلاد كلها.

---

(1) تقدم لنا خواتم الكتب التي طبعت في فاس، بالمطبعة الحجرية والمطبعة ذات الحروف المتحركة، ما بين 1865 و1917 أسماء الطابعين والناشرين الآتية أسماؤهم، والذين كانوا يمارسون نشاطهم باستمرار : محمد القباني (أو القياني) الذي نشط ما بين 1865 و1871، والطيب الأزرق (1872-1894)، والعربي الأزرق (1876-1914)، والمكي بن إدريس (1876-1877)، وأحمد اليملاحي (1887/8-1910)، وأحمد بن الطيب الأزرق (1890-1908) وعبد السلام الذويب (1896-1913)، والخضر محمد برادة (1897-1918)، ومحمد البادسي (1898-1908)، وأحمد يمني (1906-1908). ويشير المنوني في كتابه : **مظاهر**، الجزء 1، ص. 293، إلى أن أحمد بن عبد الكريم القادري كان أيضا أحد الطابعين، أو ربما أحد الذين يملكون مؤسسة للطباعة. غير أن خواتم المطبوعات الفاسية تؤكد أن القادري كان ناشرا بالدرجة الأولى. ويشير لوطورنو في كتابه : **فاس قبل الحماية**، الجزء 2، ص. 681، إلى وجود طابع آخر اسمه محمد بردلة. إلا أن خواتم المطبوعات الفاسية لا تقدم لنا أي اسم من هذا القبيل، وعليه فمن المحتمل جدا أن يكون لوطورنو يقصد بذلك برادة الذي استمر في ممارسة أعماله المطبعية إلى حدود 1918.

أولا ـ الطيّب الأزرق رائد الطباعة في المغرب

ظلت مؤسسة الطباعة في فاس عاطلة عن العمل لمدة شهور عديدة، بعد رحيل الطابع المصري عن المغرب في شتنبر 1871[2]، وبقيت منذئذ تحت مسؤولية الطالب الشامي ناظر مسجد القرويين الذي تولى حفظها[3]. ويبدو أن «جماعة من أهل العلم» اتخذت المبادرة وطلبت من المخزن السماح للطيب الأزرق بأن يصبح المسؤول الجديد عن مباشرة أعمال الطباعة وإدارة مؤسستها في فاس[4]. لكن يبدو أن المخزن حينما وافق على ذلك الاقتراح، كان قد اشترط على الطيب الأزرق تولي التدبير الكامل لأعمال الطباعة اعتمادا على إمكاناته المالية الخاصة، علاوة على تقديم عشر الكتب الصادرة لفائدة المخزن[5].

وكان الطيب الأزرق على وعي بالمتطلبات المالية التي كان يستلزمها تحقيق النجاح في الأعمال المطبعية، وذلك بحكم التجربة الطويلة التي اكتسبها في الميدان منذ أن حلت تكنولوجية الطباعة بالبلاد لأول مرة في تاريخ المغرب. فكانت النتيجة، أن تردد كثيرا في اتخاذ قراره النهائي للدخول في تلك المغامرة، إلى حين التقائه بشريك في المستوى المطلوب في شخص الحسين الدباغ[6]. إن هذه الشراكة بين الأزرق والدباغ التي استمرت فقط إلى حدود 1876، كانت لها دلالات ذات أهمية خاصة، وهي شبيهة إلى حد ما بالمساندة المادية التي تلقاها غوتنبرغ مخترع الطباعة من التاجر والبنكي الألماني فوست (Faust). والحق أن الدباغ، إلى جانب تقديمه السند المادي إلى الأزرق، قد مهد له السبل لإقامة علاقات متينة مع المخزن ورجاله وكبار العلماء وغيرهم من الزعماء الدينيين في المغرب.

---

(2) فوزي عبد الرزاق، **المطبوعات الحجرية**، ص. 187. يعتقد أن آخر عنوان أصدره الطابع المصري قبل رحيله هو قصيدة الرفاعي بتاريخ فبراير 1871، بينما كان إصدار **دلائل الخيرات** للجزولي على يد الطيب الأزرق بتاريخ مارس 1872. وعليه، فإذا سلمنا بأن عملية طبع كتاب **دلائل الخيرات** تتطلب ستة أشهر من الزمن، فإن الطابع المصري كان قد غادر المغرب منذ حلول شهر شتنبر.

(3) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 299-301. استقينا هذا الخبر من الرسالة التي وجهها الحسين ابن محمد الدباغ، وهو شريك للطيب الأزرق، إلى الحاجب موسى بن أحمد، بتاريخ 21 شوال 1291/1 دجنبر 1874.

(4) **نفسها**.

(5) **نفسها**. الرندي، «حديث مع الطيب الأزرق»، ص. 1.

(6) انظر الهامش 3 أعلاه.

ولم يكن الحسين الدباغ مجرد ثري من أثرياء مدينة فاس، بل كان أيضا ينحدر من أصول شريفة النسب وينتمي إلى أسرة متجذرة في التصوف، إذ كان والده محمد الدباغ مقدما للزاوية الدباغية في فاس والتي كان لها العديد من الأتباع في جهات أخرى من المغرب. وكان أخوه إبراهيم الدباغ من العلماء الذين ساهموا في أعمال الطباعة، إذ اشتغل مصححا لفائدة الطيب الأزرق[7]. وتجدر الإشارة إلى أنه حين كان ناظر جامع القرويين، خلال 1872، يحفظ أحجار المطبعة ويمانع في تسليمها إلى الطيب الأزرق بهدف زيادة نصيب المخزن من عدد النسخ المطبوعة، كتب الدباغ رسالة إلى الصدر الأعظم يطلب منه فيها ضرورة تدخل السلطان حتى يوضع حد للطلبات غير المعقولة الصادرة عن ناظر القرويين[8]. ونحن لم نستطع أن نعرف بالضبط هل تمكن الدباغ أم لا من حماية شريكه الطيب الأزرق من المحاولات التي كان يقوم بها ناظر القرويين ضد مصالحهما. غير أننا على علم بتجديد السلطان مولاي الحسن ظهير التوقير والاحترام لفائدة الطيب الأزرق «معلم مطبعة الكتب العلمية» تقديرا للجهود التي بذلها في ميدان الطباعة وفي تعليم غيره من الناس فنون صناعتها[9].

وبناء عليه، فمن المنطقي توقع نجاح الدباغ في حماية الطيب الأزرق وبالتالي حمايته لمصالحه هو أيضا. وبفضل امتلاك الطيب الأزرق الظهير سابق الذكر الذي سلمته له أعلى سلطة في البلاد، كان بمقدوره الاستمرار في مزاولة مهنته طوال العشرين سنة التالية. وخلال تلك المدة الزمنية، استطاع الطيب أن يثبت نفسه ويكون الرائد الأول لأعمال الطباعة في المغرب. كما تمكن في الوقت نفسه من إدخال عدة تقنيات جديدة إلى البلاد، فأصبحت نموذجا يحتذي به الطابعون الذين كانوا يشتغلون لفائدته أو كل الذين أتوا من بعده على حد سواء.

كان على الطيب الأزرق مواجهة التحدي الأول الذي اعترضه منذ دخوله عالم الطباعة، وأعني تحويل المؤسسة المخزنية إلى مشروع ناجح قادر على تحقيق الأرباح. ولبلوغ هذا الهدف، اتخذ الطيب الأزرق العديد من الإجراءات الضرورية. وكان من بينها محاولة التخفيف من ارتفاع تكاليف الإنتاج، وذلك باستعمال صنف من الورق

(7) العلمي، النوازل (فاس، 1875)، طبعه الطيب الأزرق وصححه إبراهيم ابن محمد الدباغ.

(8) انظر الهامش رقم 3 أعلاه.

(9) المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 309.

أقل جودة. وكان الطابع المصري قد اعتاد قبل 1872 أن يستعمل صنفا من الورق الأبيض الخالي من الحموضة والصالح لتحرير المراسلات السلطانية والمخزنية على أعلى المستويات الإدارية في البلاد. أما الطيب الأزرق، فقد عوضه بصنف رقيق بني اللون رخيص الثمن. كما تخلى نهائيا عن شكل النصوص، اقتصادا للوقت وللنفقات الإضافية التي كان يتطلبها ذلك العمل. كما اقتصر في الاعتماد على خدمات نساخين من الدرجة الثانية، كانت خطوطهم مع ذلك مقبولة، دون أن ترقى إلى المستوى الرفيع(10).

وكانت الخطوة الأخرى التي أقدم عليها الطيب الأزرق بغية تحقيق المزيد من الدقة، هي محاولة تحسين النظام المتنافر الذي كان يشتغل به القباني عند ترقيم الصفحات. فقد كان الطابع المصري مثلا يرقم صفحات الكتب بالأرقام الهندية أحيانا(11)، وبالأرقام العربية أحيانا أخرى(12). في حين قرر الطيب الأزرق الاقتصار على اعتماد الأرقام العربية، لأنها أكثر شيوعا في المغرب من الأرقام الهندية. واحتفظ بنظام الملزمة الذي كان يعمل به آنفا في ترقيم الصفحات. وكانت كل ملزمة تقع في ثماني صفحات، أو في صفحتي ورقة واحدة من الحجم الكبير يمكنها أن تحتوي على أربع طبعات في كل جهة منها. وللتمييز بين ملزمة وأخرى، يتم وضع علامة مميزة في بداية كل ملزمة على شكل رقم إضافي يصلها بالملزمة التالية(13). وإذا وجدت مجلدات عديدة، وضعت علامة عند بداية كل ملزمة تحمل رقم المجلد الذي يكون مصحوبا بعنوان الكتاب واسم مؤلفه اللذين يردان بطريقة مختصرة. ويعتبر هذا النظام الخاص بترقيم الصفحات مجهدا للقارئ الذي يضطر كلما رغب في معرفة مجموع عدد صفحات كتاب ما إلى عد ملازمه وضربها في ثمانية، مع إسقاط الصفحات الفارغة التي تقع عادة في نهاية الكتاب.

---

(10) توصلنا إلى هذه الاستنتاجات بفحص دقيق للكتب المطبوعة على يد الطابع المصري ما بين 1865 و1871. وكذا الكتب التي أصدرها الطيب الأزرق. وتتوفر خزانة الجامعة بهارفرد على عدد مهم من هذه النماذج.

(11) انظر الترقيم المعمول به في كتاب الترمذي، **الشمائل** (مكناس، 1865).

(12) انظر الترقيم الموجود في كتاب الخرشي، **شرح على مختصر خليل** (فاس، 1867).

(13) كانت تستعمل أيضا الكلمات في أقصى اليسار من آخر سطر من سطور صفحة الكتاب، وتكون هي الكلمة نفسها التي تبتدئ بها الصفحة التالية.

وعليه، فإن هذا النظام عملي ومفيد كثيرا للعمل المطبعي على مستويات عديدة. إذ يسمح ذلك أولا للطابعين بالاعتماد على مستأجرين لا يتقاضون بحكم قدراتهم المحدودة على القراءة سوى أجور بسيطة، لأنهم يكتفون بترتيب مجموعة الملازم على هيئة كتاب يسلم بعدئذ للمسفرين دون أن تكون هناك حاجة ملحة لتدخل الطابع. وثانيا يكون بإمكان الطابعين الاعتماد على نسبة عالية من أحجار الطباعة تصل إلى أربعة، وتحمل كل منها إطارين اثنين يمكنان من إنجاز العمل ملزمة بعد أخرى. ويعني هذا أن بإمكان الطابعين وهم يستعملون عددا محدوداً من الأحجار المستوردة الباهظة أن يقتسموا ما تبقى لهم منها مع غيرهم بكرائها مقابل مبلغ مالي معين. كما يتحرر الطابعون من التقيد بضرورة التعامل مع ناسخ أو مصحح واحد. وبناء على كل هذه المعطيات، فإن المفهوم السابق الذي كان يحتم تجميع مختلف المتخصصين في مهارات عديدة من ذوي الكفاءات العالية، بغية التوصل إلى منتوج مرتفع الثمن[14] قد أصبح محكوما عليه بالتغيير. وذلك لأن الهدف قد تحول من الاقتصار على خدمة العناصر ذات الانتماء المجتمعي الأعلى إلى إنتاج كتب تكون في متناول أعرض جمهور من القراء.

ونحن نأسف كثيرا لعدم عثورنا ــ حتى الآن ــ على أي لائحة أثمان للكتب التي طبعها الطيب الأزرق، حتى يمكننا معرفة مدى اختلاف أثمان كتبه عن أثمان الكتب التي طبعت قبل 1872. لكن، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن بقية الطابعين والناشرين يتوصلون بعد الجهود المبذولة بنصيبهم أيضا من أعمال الطباعة، يمكننا التسليم بأن الطيب الأزرق نجح في تقريب الكتاب من عدد كبير من أولئك الذين كانوا في حاجة إليه، وأنه تمكن من أن يضمن بعمله ذاك استمرار طباعة الكتاب في المغرب. وبناء على ذلك، يمكن اعتبار التغييرات الأولى التي أدخلها الطيب الأزرق خطوة إلى الأمام، لها دلالاتها في إطار انتقال المغرب تدريجيا نحو الاتجاه الهادف إلى تحقيق الديمقراطية في ميدان الكتاب.

وأما التجديد الثاني الذي أحدثه الطيب الأزرق في مهنة الطباعة في المغرب، فهو تحديد وظائفها والطرق الخاصة بتدبير شؤونها. فحينما نقوم مثلا بفحص الكتب التي طبعها الطيب الأزرق أو نشرها خلال المدة الطويلة التي احترف فيها أعمال

(14) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

الطباعة إلى حدود 1894، نجده يستعمل مصطلحات خاصة مثل : معلم دار الطباعة[15]، إشارة إلى أنه كان في الوقت نفسه ربا لمؤسسة الطباعة بحكم مهارته وإتقانه للصناعة المطبعية، ومعلما للصناع الذين يشتغلون تحت إمرته في تلك المؤسسة ذاتها. كما يستعمل ألفاظا أخرى مثل: على ذمة[16]، ويعني بذلك حصره لدوره في أنه ناشر ومسؤول عن المصاريف المالية التي تطلبها طبع الكتاب المعني بالأمر. في حين يستعمل في أماكن أخرى عبارات مثل : بمطبعة[17]، أو بتنميق[18]، إشارة إلى أن بعض الكتب قد طبعت في مؤسسته بالفعل، بينما قد يكون الذي أنجز العمل أحد مساعديه، أو أن طابعا آخر لجأ إلى استعمال تجهيزات مؤسسته مقابل مبلغ مالي متفق عليه بين الطرفين. بالإضافة إلى ذلك، يستعمل الطيب الأزرق عبارة : بمباشرة[19] إشارة إلى أنه قد شرع شخصيا في إنجاز العمل عند البداية، وربما تركه فيما بعد للآخرين قصد إتمامه. هذه المصطلحات، التي لا يستبعد أن يكون الطيب الأزرق قد تعلمها من أستاذه المصري، تساعدنا على معرفة طبيعة الأدوار المختلفة التي أداها في مؤسسته. وتساعدنا أيضا على معرفة الأدوار التي لعبها غيره من الطابعين والناشرين المغاربة، خاصة وأنهم كانوا يستعملون مصطلحات مماثلة للحديث عن مختلف الأدوار التي ساهموا بها في إطار العمل المطبعي. وهناك أمر أساسي يمكن استنتاجه من هذه المصطلحات، التي نستثني منها مصطلحي تصحيح ونسخ[20]، وهو أن الطيب الأزرق كانت له مساهمة في كل الجوانب المتعلقة بأعمال الطباعة والنشر. ومن الممكن أن يكون تركيز العديد من تلك المهام في يده، عاملا آخر يجب إضافته إلى بقية العوامل التي ضمنت له النجاح. وبدلا من اعتماده على

(15) انظر خواتم الكتب التالية : كَنون، **الدرة المكنونة** ؛ عبد القادر الفاسي، **حواشي** (فاس، 1885/ 1890).

(16) انظر خواتم الكتب التالية : الطرنباطي، **حاشية** (فاس، 1888/1887) ؛ ابن الحاج، **حاشية** (فاس، 1897).

(17) انظر خواتم الكتب التالية : أبو زيد الفاسي، **شرح نظم العمل** (فاس، بدون تاريخ) ؛ الونشريسي، **المنهج الفائق** (فاس، 1910).

(18) انظر خاتمة كتاب عبد القادر الفاسي، **حواشي** (فاس، 1890/1889).

(19) انظر خواتم الكتب التالية : أبي الحسن العلمي، **نوازل** ؛ الزبيدي، **إتحاف السادة** (فاس، 1885/1884) طبع كتاب الزبيدي السابق الذكر بتعاون مع أخيه العربي الأزرق، مما يوحي بأنه من الممكن أن يكون الطيب قد استهل العمل رفقة أخيه الذي تابع مختلف مراحل الإنجاز إلى نهايتها.

(20) لم يستعمل الطيب لفظتي تصحيح ونسخ في الكتب التي طبعها، لأنه كان يتوفر على من ينفذ له تلك الأعمال.

خدمات العديد من المساعدين لتنفيذ الأعمال المختلفة، نجده يتولى شخصيا إنجاز مهام عديدة طابعا وناشرا، ومعلما لصناعه ومديرا مسؤولا عن تدبير شؤون مؤسسته، حتى تعود عليه أعماله بأكبر نصيب ممكن من الأرباح. وهذا الأسلوب الذي يقوم على المبدإ القائل : «حاول إنجاز أكبر قدر من العمل بمفردك»، قد أصبح نموذجا يحتذي به بقية الطابعين.

ولم يكن الطيب الأزرق ملزما بتنفيذ جميع المهام سابقة الذكر في كل وقت وحين، بل كانت خاصية التشتت المميزة لنشاطاته من الأسباب الأخرى التي جعلته يقوم بمهام متباينة. وباستثناء المرحلة المبكرة الممتدة ما بين 1872 و1876، حين كان الطيب الأزرق يطبع الكتب وينشرها بتعاون مع شريكه الدباغ، فإنه لم يتصرف ناشرا سوى مرتين، أولهما سنة 1887، وثانيهما سنة 1890[21]، أي أن ثقل الأعمال التي كان يزاولها الطيب الأزرق لم تكن وطأتها شديدة عليه. واستطاع إصدار سبعة وعشرين عملا مختلفا، خلال الإثنين والعشرين سنة التي قضاها في ميدان الطباعة[22].

وكان الحدث الثالث الذي صنعه الطيب الأزرق في المغرب، إقدامه على طبع القرآن الكريم في سنة 1879، فأصبح بذلك أول طابع مغربي يحقق ذلك الإنجاز[23]. وكانت طباعة القرآن قد بدأت في أوربا منذ قرون خلت[24]، غير أن المسلمين في كل أنحاء المعمور ظلوا ينتظرون قرونا عديدة قبل أن يدركوا الواقع ويقتنعوا بما أكده المتصوف العثماني محمد حقي، وأعني أنه من المفيد جدا للإسلام والمسلمين أن يطبع كلام الله الأزلي اعتمادا على التكنولوجيا الحديثة[25].

استطاعت مصر أن تكون ما بين 1864 و1865 أول دولة إسلامية تطبع

---

(21) إن الكتابين اللذين مول الطيب الأزرق نشرهما هما : الطرنباطي، **حاشية** (فاس، 1888/1887) ؛ وابن الحاج، **حاشية على المرشد المعين** (فاس، 1897). وكلاهما من الكتب التي كانت نصوصها تستعمل في التدريس بجامع القرويين.

(22) عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 126–127. توصلنا إلى هذا العدد اعتمادا على الكتب التي ورد فيها اسم الطيب الأزرق طابعا أو ناشرا. ولا يستبعد أن يكون قد نشر كتبا أخرى أو طبعها دون الإشارة إلى اسمه في خواتمها.

(23) **نفسه**.

(24) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(25) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

القرآن الكريم[26]، دون أن يتسبب ذلك في إثارة حفيظة الأوساط الدينية أو اعتراضاتها داخل البلاد. ولم يبلغ ذلك العمل مستوى التحول الدرامي من الخط المكتوب إلى مثيله المطبوع، لأنه قد أنجز اعتمادا على التقنيات الليتوغرافية، التي تمكن من إعطاء نسخة مماثلة من كل أنواع الخطوط التي يرغب فيها المسلمون المصريون. واتخذ العثمانيون، في 1870 ـ 1871، أول مبادرة لإصدار طبعة من القرآن الكريم اعتمادا على المطبعة ذات الحروف المتحركة الموحدة[27]. وعليه، فإن الجهود التي بذلها الطيب الأزرق في المغرب لطبع القرآن بواسطة المطبعة الحجرية وبالخط المغربي لم يشكل في الواقع انسلاخا عما سبق للمصريين إنجازه من قبل. ومع ذلك، كانت لمبادرة الطيب الأزرق أهمية رمزية كبيرة، يمكن تلخيصها في أن المغاربة ـ وخاصة العلماء التقليديون منهم ـ قد انتهى بهم الأمر أخيرا إلى قبول قراءة نسخ القرآن التي طبعت اعتمادا على التكنولوجيا الغربية.

هناك ثلاث نقاط إضافية دالة تهم الطيب الأزرق، ولابد من الإشارة إليها. وأولها أنه ظل عاجزا عن استغلال كل الإمكانات التي كانت تتيحها له الطباعة الحجرية. ذلك بأن المطابع الحجرية كانت قابلة لأن تطبع الكتب بالأبيض والأسود أو بالألوان. غير أنه لا يوجد ضمن الكتب التي طبعها الطيب الأزرق ولو كتاب واحد بالألوان. وتصدق الملاحظة نفسها على كل المطبوعات الحجرية الفاسية بلا استثناء. ويوحي ذلك بأن الأزرق لم يتعلم الطريقة الخاصة بإنجاز الأعمال المطبعية بالألوان، وبأنه ـ تبعا لذلك ـ لم يكن بمقدوره تعليمها للصناع الذين كانوا يعملون في مؤسسته. وعليه، كانت النتيجة الطبيعية، عدم صدور أي نموذج للكتب بالألوان من بين كل المطبوعات الحجرية بفاس. ويعني غياب تلك المهارة، أنه في الوقت الذي تمكن فيه الطيب الأزرق وغيره من الطابعين من الحفاظ على الخصوصيات التقليدية المتعلقة بالشكل العام للمخطوطات من حيث الحجم والطريقة التي كان يقدم بها

(26) يوسف سركيس، معجم المطبوعات، الجزء 2، ص. 1499–1500. يرى سركيس، أن القرآن قد طبع أيضا في كالكوتا عام 1857/1858. غير أنه من المحتمل جدا أن يكون لتحقيق ذلك الإنجاز علاقة بالحكومة البريطانية في الهند والتي كان لها نشاط كبير في ميدان الطباعة الحجرية بمدينة كالكوتا منذ 1808. وتحتوي خزانة هارفرد على نموذج من المطبوعات الحجرية الصادرة في كالكوتا، وهو كتاب : T'hatvee, Moontukhub-oul-loghaut أو A Dictionary of Arabic Words الذي طبع في كالكوتا عام 1808. وإذا انتبهنا إلى أن الطباعة الحجرية لم تخترع في ألمانيا إلا في سنة 1798، فإنه من المثير للإعجاب حقا أن تكون أعمال الطبع جارية على قدم وساق في الهند منذ 1808.

(27) نفسه.

المضمون، ونعني بذلك الديباجة والمتن والخاتمة بالإضافة إلى خواتم الكتب، فإنهم مقابل ذلك أغفلوا جميعا بذل أي مجهود يهدف إلى إدماج الأشكال الفنية التي تزخر بها الحِرف التقليدية ومختلف مهارات الفنون الخطية والتنميقات الغنية بالألوان التي كانت ترصع صفحات المخطوطات. وكانت للمحاولات التي بذلها الطابعون للتوصل بالدرجة الأولى إلى تسويق كتبهم، تأثيرات سلبية على الجوانب الفنية المعهودة في الكتب التقليدية، لأن الطابعين لم يشغلوا بالهم أبدا بضرورة إتقان تلك المهارات الفنية الرفيعة، فظلوا على جهل تام بها. وكان من الطبيعي أن يساهم ارتفاع حجم الكتب الصادرة باللونين الأبيض والأسود، في جعل الطلبة والعلماء بوجه عام يفتقدون بصفة تدريجية الِاتصال الذي كان لهم من قبل مع الكتب أو المخطوطات ذات المستوى الفني والجمالي الرفيع، مما قلل بالتالي من رغبتهم في تقليدها أو محاولة استنساخها بممارستهم فنون الخط والزخارف الساطعة وفقا لما كان سائدا في عصر المخطوطات.

وتتعلق النقطة الثانية بحجم الإنتاج الذي استطاع الطيب الأزرق تحقيقه خلال حياته كمحترف للطباعة. إذ بلغ عدد النسخ الصادرة عن مؤسسته ما بين الثمانية آلاف والعشرة آلاف[28]، وهو من المعدلات التي يمكن إنجازها حاليا في مدة زمنية لا تتجاوز بضعة شهور. ومع ذلك، فإن مستوى الإنتاج الذي استطاع الطيب الأزرق بلوغه وقتئذ كان خطوة جبارة، بالقياس إلى ما كان يمكن تحقيقه في عصر المخطوطات، كما كان يفوق بكثير القدرة الإنتاجية التي وصلت إليها الطباعة في المغرب خلال مرحلتها الأولى[29]. والذي يهمنا هنا بشكل أساسي، هو أن حركة الطباعة عرفت نموا مطردا من حيث حجمها وتأثيراتها، فكان ذلك بحق انعكاسا لشروع المغرب في التخلي بصفة تدريجية عن العديد من خصوصياته الوسطوية التي كانت متأصلة فيه منذ زمن بعيد، واتخاذه وجهة مخالفة تسير به نحو تبني مفاهيم جديدة ومغايرة في ميدان صناعة الكتاب وما ترتبط به من ممارسات علمية. ومع ذلك لم يكن «الجديد» قادرا على أن يتمتع دائما بصفائه الكامل، بل كان على

(28) اعتمدنا في هذا التقدير على مختلف العناوين البالغ عددها سبعة وعشرينا كتابا، والتي طبعها الطيب الأزرق أو نشرها بمعدل يتراوح ما بين ثلاثمائة أو أربعمائة نسخة من كل عنوان. وكان العديد من تلك الكتب يقع في أجزاء كثيرة. انظر الهامش 22 أعلاه.

(29) لم يتجاوز عدد العناوين التي صدرت خلال هذه المرحلة الأولى ستة عناوين فقط، كانت تقع في أحد عشر جزءاً. أي أنه بمعدل تقديري يتراوح ما بين ثلاثمائة وأربعمائة نسخة من كل عنوان، يمكن القول إن الإنتاج الإجمالي قد بلغ خلال هذه المرحلة ما بين ثلاثة آلاف مجلد وأربعة آلاف.

العكس من ذلك خليطا يجمع بين القديم والجديد. فإذا نظرنا الآن إلى الوراء قرنا من الزمن، أمكننا اعتبار تلك المرحلة حلقة وصل مؤدية إلى دمقرطة نهائية لعالم الكتاب، وإلى الحداثة بمفهومها الإيجابي الواسع.

أما النقطة الثالثة، فتتعلق بطبيعة الكتب التي نشرها الطيب الأزرق، سواء مع شركائه أم على انفراد. فحينما نلقي نظرة على الكتب التي نشرها الطيب الأزرق، نجدها في الغالب إما كتبا تحتوي على مضامين تعليمية، وإما كتبا علمية. ونظرا لأن الطيب الأزرق كان في مدينة فاس وعلى مقربة من جامع القرويين ومن العديد من المدارس[30]، فإنه لم يكن أمامه غير التركيز بالدرجة الأولى على طبع الكتب لفائدة الطلبة والعلماء المدرسين، الذين شكلوا وقتئذ أبرز الفئات المستهلكة لمنتوجاته. ويبدو من هذا الجانب أن الطيب الأزرق لم يكن له على جمهور القراء التقليديين أي تأثير يمكن الإشادة به. حيث يجوز لنا ونحن ننطلق من الحجم الذي بلغه إنتاج الطيب الأزرق، أن نعتقد أن بعض الطلبة أو غيرهم من رجال العلم الذين أنهوا مراحلهم الدراسية في فاس فضلوا شراء الكتب، بدلا من الاعتماد على ذاكراتهم، لممارسة أعمالهم إما كمدرسين أو محترفين لمهام ذات علاقة بتكوينهم الديني في مختلف مجالات الحياة اليومية سواء في البوادي أم في الحواضر التي يستقرون بها. وعلى الرغم من عدم قدرتنا على التأكد من صحة حدوث هذا، فإن التخوف الذائع في أوساط العلماء التقليديين أمثال السباعي، القائل بأن الكتب المطبوعة تلحق الأضرار البليغة بالنظام التعليمي الإسلامي[31]، يمكن تأويله بأنه أحد العلامات الدالة على إمكانية وقوع أمور من ذلك القبيل.

وتتلخص المساهمات الأساسية التي كانت للطيب الأزرق في صناعة الطباعة في المغرب وفي إحداثه لبعض التغيير في المضمار نفسه، في تمكنه من إعادة النظر لإقرار خطة جديدة، قوامها سلوك طريقة استهدف بها الوصول إلى نظام جديد خاص بصناعة الكتاب في المغرب، وتطويره تطويرا مختلفا عما كان سائدا في الفترات السابقة لسنة 1872. لقد جعل الطيب الأزرق صناعة الطباعة تنتقل إلى الاهتمام بالتركيز على إنتاج سلعة في متناول عدد أوسع من المستهلكين. وقد حرص الطيب

---

(30) هناك وصف هام لمختلف المدارس المحيطة بالقرويين في فاس، نجده عند :

A. Peritié, «Les Medrasas de Fès», in **Archives marocaines**, vol. 18 (1912), pp. 257-372.

(31) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

الأزرق على بلوغ هذا الهدف، شريطة ألا يسبب له ذلك إخفاقا ماديا، فوجد نفسه ملزما بضرورة الاقتصار في صناعته على استعمال مواد أولية لا ترقى إلى المستوى المطلوب من حيث الجودة، كما اضطر إلى التخلي عن الجانب الجمالي للخط وإلى غض النظر عن كل ما من شأنه أن يكسب إنتاجه مسحة فنية رفيعة. وبالإضافة إلى ذلك، اكتفى بالاعتماد على يد عاملة لا تتحكم فعلا في ناصية الصناعة المطبعية. وفوق كل ذلك، فإن الطيب الأزرق هو الذي تولى بنفسه مهمة العثور على شخصية من ذوي الثراء وفرت له القاعدة المادية الضرورية لانطلاق مشروعه والانتقال إلى مرحلة الإنتاج الفعلي.

وقد تمكن الطيب الأزرق في خلال المدة التي قضاها بصفته أول رائد ومعلم للطباعة في المغرب، وأول ناشر أيضا، من تطوير الصناعة المطبعية في المغرب والسير بها خطوات عديدة إلى الأمام، بفضل ما حققه من زيادة في حجم الكتب المطبوعة، وتكوين العديد من الصناع الذين سنتحدث عنهم بعد قليل. كما كان أول طابع مغربي يقدم على إصدار طبعة لكتاب **القرآن**، اعتمادا على المطبعة التي هي تقنية حديثة. إذ لم يكن في المغرب من يقوى قبل ذلك ببضعة عقود على مجرد التفكير في إمكان طبع **القرآن** الكريم، الذي يحمل بين دفتيه كلام الله الأزلي، اعتمادا على وسيلة من صنع المسيحيين الكفار.

ثانيا ـ العربي الأزرق وتعزيز مكانة الطباعة

احتل العربي الأزرق، وهو الأخ الأصغر للطيب الأزرق سابق الذكر، المرتبة الثانية ضمن أبرز رجال الطباعة في المغرب، واستطاع التميز عنهم بإنتاجه الغزير خلال السنوات الطويلة التي احترف فيها الطباعة ما بين 1876 و1914. وظهر اسم العربي الأزرق لأول مرة في خاتمة كتاب شرح الخوجة لكتاب أوقليدس : **تحرير أصول الهندسة**، سنة 1876. وفي تلك السنة أيضا، ظهر اسم آخر لأحد الطابعين الجدد، وهو المكي بن إدريس، ضمن خواتم الكتب المطبوعة في فاس[32]. ومازلنا ـ لحد الساعة ـ على جهل تام بتفاصيل الظروف المادية التي كان يشتغل فيها العربي الأزرق والمكي بن إدريس. إذ لا تسمح لنا المعطيات الموجودة بأن نعرف هل كان الرجلان

(32) انظر خاتمة كتاب محمد بنيس، **بهجة البصر** (فاس، 1876).

يمتلكان ورشتهم الخاصة، أم أنهما كانا يكتفيان بالاشتغال في مؤسسة الطباعة التي كان المخزن يمتلكها. غير أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أولا أن كل حجرة من أحجار الطباعة قادرة على إنجاز ثلاث آلاف طبعة أو أكثر، وثانيا أن مستوى الإنتاج من كل عنوان لم يكن من المحتمل أن يتجاوز خلال هذه المرحلة حوالي ثلاثمائة نسخة من كل عنوان، يمكننا ترجيح كفة استعمال العربي والمكي لمطبعة المخزن نفسها التي استولى عليها الطيب الأزرق مقابل مبلغ مالي. ومن الأمور المثيرة للإعجاب فيما يخص العربي الأزرق، قدرته السريعة على تحقيق النجاح بصفة تلفت النظر، وبشكل جعله يتفوق على بقية الطابعين في وقته، بمن فيهم الطيب الأزرق.

إن معرفة الأسباب التي كانت وراء تحقيق العربي الأزرق لنجاحه ذاك، تقتضي التمعن في العلامات الدالة على حذقه وطول باعه في صناعة الطباعة، وفي غيرها من العوامل التي جعلت النجاح يحالفه في كل أعماله. كما سيمكننا الفحص الدقيق لتلك العوامل من تقدير القيمة الحقيقية للتجديدات التي أدخلها على الصناعة المطبعية. إن مجرد المقارنة بين منتجاته المبكرة ومثيلتها لدى زميله المكي بن إدريس، تثبت لنا بوضوح أن العربي الأزرق كان أكثر تضلعا في فن الطباعة الحجرية من زميله بن إدريس. إذ أن الكتب التي طبعها هذا الأخير مليئة بالهفوات التقنية التي غالبا ما حذر العارفون بتقنيات الطباعة الحجرية من الوقوع فيها. فالمكي بن إدريس الطابع لم يكن شديد العناية بتنظيف المساحات السطحية لأحجار الطباعة التي كان يستعملها، فكان من الطبيعي أن يترتب عن بقاء الحبيبات الرملية فوق سطوحها إخراج سطور سوداء في الصفحات المطبوعة[33]. وبما أنه لم يكن أيضا يحسن الاستعمال الجيد لأقلامه المزيتة، فقد ظهرت بعض السطور الباهتة في مطبوعاته[34]. وعلاوة على ذلك، فإنه أساء استعمال الحبر والأسيطنات وحتى أدوات الضغط، مما جعل مطبوعاته تحتوي على مستويين متباينين من الألوان الداكنة والفاتحة[35]. وكانت هذه الأسباب كافية لجعل المكي بن إدريس يتخلى عن مهنة الطباعة بعد سنتين فقط من الممارسة غير الموفقة، وذلك على الرغم من انتمائه إلى أسرة ثرية ذات نفوذ

(33) انظر أحمد الهلالي، **تقييد**، (فاس، 1876)، ص. 90.

(34) **نفسه**، ص. 76.

(35) **نفسه**، ص. 48، البيت الشعري التاسع والأربعون.

كبير[36]، وعلى الرغم من أن وضعيته المالية كانت أحسن من حالة الأخوين الطيب والعربي الأزرق[37]. ومن الطريف أن المكي كلما واجهته مشاكل مستعصية، لجأ إلى الصلاة للتفريج عن كربته والتخفيف من معاناته. ويمكن العثور في هوامش بعض الكتب التي طبعها على أدعية توسلية مثل «اللهم أعنا على إتمام هذا العمل»، مما لا يعتبر مؤشرا على نزعته الدينية القوية فحسب، بل دليلا أيضا على الإحباط والصعوبات التي واجهها خلال المدة القصيرة التي استغرقتها مغامرته في عالم الطباعة[38].

وتبدو الكتب التي طبعها العربي الأزرق أعلى جودة من حصيلة المكي بن إدريس. وفي حقيقة الأمر، إن العربي الأزرق حينما تعاقد مع المخزن على طبع **شرح الخوجة على كتاب تحرير أصول الهندسة لأوقليدس** في سنة 1876، زوده المخزن بمقادير من الورق ذات الجودة العالية ومن الحبر الرفيع، مما جعل أول منتوج له يرقى إلى مستوى الجودة نفسها التي تميزت بها كل العناوين الستة التي أنتجها القباني الطابع المصري، ما بين 1864 و1871 لفائدة المخزن[39]. ومن الراجح جدا أن يكون العربي قد حظي بعناية أخيه الطيب الذي لقنه أسرار الصناعة، بينما افتقر المكي بن إدريس إلى مثل ذلك السند. ومن المحتمل أيضا أن يكون الأخوان الأزرق لا يرغبان في وجود أي منافسة حقيقية يمكن أن تؤثر تأثيرا سلبيا على نجاح مؤسستهما التي لا تزال مشروعا حديث العهد بالأعمال المطبعية. إن الحفاظ على أسرار المهنة من الظواهر التي ظلت سارية المفعول في أوربا، سواء أتعلق الأمر بمخترعي الطباعة الحجرية أم بمبدعي المطابع ذات الحروف المتحركة، أم بالرأسماليين الذين كانوا يمولون

---

(36) كان جد المكي بن إدريس ووالده وزيرين سابقين في عهد السلطانين مولاي عبد الرحمن وسيدي محمد بن عبد الرحمن. وبالفعل، فإن الوزير إدريس العمراوي والد المكي هو الذي ذهب سفيرًا مغربيا إلى باريس في عام 1860، وكان أول مغربي يوجه النداء إلى السلطان لحثه على جلب آلة الطباعة إلى المغرب. انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(37) عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 111. ويتجلى ذلك في طبعه لستة عناوين متلاحقة خلال سنتين على نفقته.

(38) أحمد الهلالي، **تقييد** (فاس، 1876)، ص. 233، في أعلى الطرة اليسرى.

(39) **Catalogue of Islamic Collections**. 510. E. J. Brill. وصفت مطبوعات العربي الأزرق في هذا الفهرس بطريقة صائبة حين اعتبرت بأنها تمثل بحق قمة الإتقان المغربي لحرفة الطباعة.

أعمال النشر أمثال الألماني فوست (Faust)[40]. وعليه فلا داعي إلى الاستغراب، إذ وجدنا الطيب يساند أخاه لمواجهة المكي بن إدريس ابن الوزير إدريس العمراوي[41]، ويطلعه على أسرار المهنة التي كان يتقنها. أضف إلى ذلك أن احتكار عائلات معينة لبعض الصنائع وانفراد أعضائها بممارستها دون غيرهم، كان أمرا معهودا في المغرب[42]. إن ما يمكن اعتباره جديدا بحق هو نجاح الطيب في إدماج الطباعة وإدخالها في بوتقة الاقتصاد المغربي كحرفة مستقلة إلى جانب الحرف المعروفة سابقا. وبالفعل، تمكن الأخوان الأزرق من الحفاظ على سيطرتهما التامة ومن إحكام قبضتهما على ميدان الطباعة في المغرب حتى بداية سنة 1890، لما ازدادت حاجة المخزن إلى الطابعين، فلم يجد بدا من التدخل لإرغام الأخوين الأزرق على التنازل وفسح المجال لغيرهما من الراغبين في امتهان الطباعة[43]. وقد استمر الأخوان الأزرق في الحصول على نصيب من أعمال الطباعة، حتى بعد أن كسر المخزن هيمنتهما، وذلك لأن أحمد[44] ـ وهو ابن الطيب الأزرق ـ تابع العمل في المؤسسة العائلية إلى حدود سنة 1908، وكانت تلك هي السنة التي قرر فيها المخزن تجميع كل العارفين بأسرار الطباعة وجميع آلاتها التي كانت موجودة في البلاد، لجعلها خاضعة جملة وتفصيلا لإدارته المباشرة.

ومن العوامل ذات الأهمية الكبيرة والتي مكنت العربي الأزرق من تحقيق النجاح ما تميز به من حب للاستطلاع ورغبة في التعلم. إن موهبة العربي الأزرق، وتجربته التي اكتسبها في ميدان الطباعة الحجرية مكنتاه من تحقيق ما لم يستطع غيره من الطابعين المغاربة تحقيقه ؛ إذ توفق في تركيب حبر خاص به، كما اهتدى إلى طريقة

---

(40) يقال بأن فوست (Faust) وجد نفسه مرغما على إفشاء سر مهنته إلى الفرنسيين الذين أصبح لديهم شك كبير في منتوجات فوست التي تبدو متماثلة، وتتجاوز حدود القدرات البشرية، أي أن فوست قد اتهم بممارسة أعمال السحر التي كان يعاقب عليها وقتئذ بالإعدام. انظر :

P. Meggs, **The Graphic Design**, p. 76.

(41) انظر الهامش 36 أعلاه.

(42) André Pacard, **Traditional Islamic Craft in Moroccan Architecture**, vol. 1, p. 361.

(43) وكان أولئك المهتمون بالطباعة هم أحمد اليملاحي وعبد السلام الذويب اللذان سيأتي الحديث عن مسيرتهما الاحترافية فيما سيأتي من هذا الفصل.

(44) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص. 125ـ126. يبدو أنه تمكن من طبع خمسة عشر عنوانا. ويظهر من خواتمها أن أحمد الأزرق ابتدأ ممارسة المهنة في 1890/1891 مساعدا لوالده الطيب. بينما نجده ينعت نفسه ابتداء من سنة 1913 بأنه أصبح معلم دار الطباعة.

مكنته من تحضير ما كان في حاجة إليه من الورق الناقل. وما زالت الوصفة التي اعتمدها العربي الأزرق لتحضير حبره الخاص معمولا بها إلى اليوم، ولا يبدو أنها تختلف كثيرا عن مثيلاتها الواردة في الكتب الخاصة بالطباعة الحجرية. أما عن الورق الناقل، فيبدو أن العربي الأزرق كان يعتمد استعمال ورق رقيق من الصنف رخيص الثمن، فيكسو سطحه بالنشا، بحيث يجعله قابلا للكتابة وكفيلا بنقل الحبر إلى سطح حجرة الطباعة بسهولة وفعالية[45].

ولقد سجل المصحح المعروف أحمد البوعزاوي[46] ـ الذي كان يعمل مع العربي الأزرق ـ التفاصيل المتعلقة بطريقة تحضير العربي الأزرق للحبر والورق الناقل، لكنه لم يقدم لنا معلومات دقيقة تبين مدى تمكن العربي الأزرق من أن يصبح قادرا على سد حاجياته من مادتي الحبر والورق. كما أن البوعزاوي لم يشف غليلنا بمعرفة هل كان العربي الأزرق يزود غيره من المطبعيين بمثل تلك المواد لتحقيق مداخيل مالية إضافية، أم أنه كان يقتصر في ذلك على نفسه دون غيره. غير أن أهمية هذه النقطة تكمن في أن العربي الأزرق كان جادا في إتقان أعماله المطبعية. وقد تمكن بفضل ما كان يتمتع به من مهارات من تطوير أساليب الطباعة ودعم مكانتها في المغرب، ولاسيما بإنتاج مواده الأولية الضرورية للتخلص من النفقات الباهظة التي كان يتطلبها استيراد مثل تلك المواد من جهة، وبإتاحة الفرصة لغيره من الطابعين المغاربة للاستفادة من معرفته المتميزة بأسرار الحرفة وموادها الأولية من جهة أخرى. وربما سيكون من المفيد التذكير في هذا الباب، بأن من العوامل التي جعلت الطباعة تصبح من الأمور المعهودة الشائعة في أوربا، النجاح الذي حققته في إنتاج موادها الأولية على المستوى المحلي، حيث كانت تصنع منها كميات كبيرة، وتعرض في الأسواق لأغراض تجارية[47]. من الطبيعي جدا، ألا يمكن بأي حال من الأحوال، المقارنة بين الطابعين المغاربة وأمثالهم الأوربيين من حيث الوزن والقيمة. ومع ذلك، لابد من التأكيد بأن الطابعين المغاربة قد توفقوا، في شخص زميلهم العربي الأزرق، في تحقيق اكتفائهم الذاتي، وتمكنوا بالتالي من الاستفادة ماديا، طوال العقدين اللذين استغرقهما خضوع الطباعة في المغرب للإدارة المباشرة للقطاع الخاص.

---

(45) عن الوصفة التي كان يستعملها العربي الأزرق لتحضير الحبر والورق الناقل، انظر المنوني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 314–315.

(46) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

(47) انظر القسم الثالث من هذا الفصل.

وإلى جانب المهارات التي كان العربي الأزرق يتمتع بها، توجد عوامل أخرى لعبت دورا أساسيا في نجاحه المهني. فقد كان للتعاقد بين المخزن والعربي الأزرق لطبع كتاب **تحرير أصول الهندسة لأوقليدس**، فضل كبير في انطلاق مسيرته ماليا(48). وحين رغب المخزن في نشر كتاب **إتحاف السادة المتقين** للزبيدي، تعاقد مرة أخرى مع العربي الأزرق لطبعه(49). كذلك استطاع العربي الأزرق أن يحصل على نصيب وافر من العقود التي قرر الحاجب أحمد بن موسى إبرامها مع الطابعين، في إطار المحاولة التي استهدفت إشهار كتابات ماء العينين في مختلف أنحاء المغرب (ابتداء من 1891)(50). ونتيجة استمرار المخزن في الاعتماد، على العربي الأزرق لطبع الكتب، لم يتردد هذا الأخير خلال سنة 1898، في توجيه طلب إلى الوزير المختار بن عبد الله البخاري راجيا تمكينه من الحصول على «الكسوة والصلة» التي اعتاد الطابعون أمثاله(51) وأمثال أخيه الطيب وابن أخيه أحمد، التوصل بها سنويا. وكانت تلك العادة جارية بالفعل منذ سنة 1865، أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، عندما كان الطابع المصري وكل المشتغلين معه من طلبة ومعاونين، يحصلون على هديتهم السنوية من المخزن عن طريق الأمناء.

وقد تحمل العربي الأزرق نفقات نشر كتابين لهما طابع دعائي اعترافا منه بالجميل إلى المخزن الذي كان له الفضل الكبير في نجاح مسيرته المهنية. أولهما كتاب **اللؤلؤ السني** الذي أشاد فيه مؤلفه ابن المواز بمكانة السلطان مولاي الحسن رجل الدولة العظيم والمدافع عن الإسلام. والثاني هو أحد كتب ماء العينين الذي نشره العربي الأزرق تقربا به إلى الوزير أحمد بن موسى القوة الدافعة لبزوغ نجم ماء العينين في سماء المغرب(52).

ومن الجدير بالذكر أن مسألة الحمايات الشخصية كانت من العوامل ذات الأهمية التي مكنت العربي الأزرق من تحقيق نجاحه، وساهمت في تحول الطباعة إلى ظاهرة معروفة في المغرب ما بين 1876 و1914. والمحميون هم المغاربة الذين تخلوا عن

(48) انظر خاتمة كتاب الخوجة، **شرح أصول أوقليدس** (فاس، 1876).
(49) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 305–309.
(50) عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 127–129.
(51) المنوني، **المرجع السابق**، ص. 313–314. وفيها نص رسالة العربي الأزرق إلى الوزير البخاري.
(52) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

مواطنتهم بهدف الحصول من قناصل الدول الأوربية على بطاقات الحماية التي تجعل منهم أناسا خارجين عن التشريعات المغربية وعن سلطة المخزن، وخاضعين مقابل ذلك لقانون الدولة الحامية لهم. وجذور الحماية القنصلية قديمة، لكنها عرفت بداية حقيقية وواضحة في أعقاب معاهدة 1856 بين المغرب وبريطانيا، حين سمح السلطان مولاي عبد الرحمن للرعايا البريطانيين باتخاذ المغاربة سماسرة لهم أو وكلاء عنهم في الأعمال التجارية حتى تسهل المبادلات مع سكان المناطق الداخلية من البلاد. وفي أعقاب حرب تطوان بين المغرب وإسبانيا، ابتداء من ستينيات القرن التاسع عشر، أصبحت دول أوربية أخرى كفرنسا وإسبانيا بل وحتى الولايات المتحدة وغيرها من الدول، تستفيد من الامتياز نفسه، فاتخذ رعاياها وكلاء تجاريين مغاربة يشتغلون لحسابهم في مختلف المراكز الساحلية وفي غيرها من جهات المغرب[53].

ويبدو أن عدد المحميين سجل تزايدا تدريجيا ابتداء من ستينيات القرن التاسع عشر، وربما كان ذلك رد فعل على شروع المخزن في تطبيق نظام جديد على مستوى تحصيل الضرائب[54]. وترتب عن تنامي تلك الظاهرة أن أصبح عدد هائل من أعيان التجار وكبار الملاكين العقاريين في عداد المحميين ما بين السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر. وكانت للعديد منهم مساهمة بنصيب لا يستهان به في جلب السلع والمواد الأولية من البلدان الأوربية. وكان ضمنهم التاجر المهدي لحلو[55]، الذي يبدو أنه كان شريك التاجر اليهودي بن سوسان في جلب الورق من إنجلترا وربما أيضا من فرنسا[56]، وتحمل عدة نماذج من مطبوعات فاس الحجرية العلامة التجارية لهذين الشريكين. كما تحمل نماذج أخرى من المطبوعات نفسها، العلامات التجارية لعناصر أوربية مثل ألباري (Gibby Alpari)[57]. ويعني ذلك في نظرنا أن التصاعد الذي عرفته ظاهرة الحمايات في المغرب، يبدو وكأنه قد مهد السبل أمام استيراد

(53) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان**، الجزء 1، ص. 145-156.

(54) نعيمة التوزاني، **الأمناء**، ص. 167-168، 171.

(55) بوشعراء، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 312-318؛ لوطورنو، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 138.

(56) لوطورنو، **المرجع السابق**.

(57) انظر على سبيل المثال العلامة المذكورة في الكتابين التاليين : العباسي، **أجوبة** (فاس، دون تاريخ)؛ بردلة، **نوازل** (فاس، 1925/1926). وتظهر أيضا في العديد من مطبوعات فاس الحجرية علامات تجارية بأسماء أخرى مثل : (Gibby Marx) و(Karabasy).

كميات أكبر من الورق[58]، كما كانت له مساهمة في تمكين العربي الأزرق من البروز على الساحة بروزا قويا. والواقع أن ارتفاع كميات واردات الورق صادف محاولة السلطان مولاي الحسن الرامية إلى مراقبة عمليات تحصيل الضرائب، فتطلب ذلك من الأمناء استعمال دفاتر وكنانيش لتسجل فيها تفاصيل الضرائب المحصولة[59].

وعموما، فقد استفاد العربي الأزرق وصناعة الطباعة استفادة كبيرة من الوضعية الاقتصادية الحسنة ومن الازدهار النسبي الذي عرفه المغرب ما بين ثمانينيات القرن التاسع عشر وسنة 1894. إذ أنهى السلطان مولاي الحسن تسديد كامل الديون التي كانت على المغرب نتيجة لحرب تطوان ضد الإسبانيين[60]. وقد اهتم المؤرخ أحمد الناصري، الذي كان معاصرا للأحداث، بنقل بعض التفاصيل والعلامات الدالة على الرخاء الذي عرفه المغرب حينئذ. فلم تفته الإشارة إلى ما أصبح عليه التجار المغاربة من ثراء متزايد، حتى أن أكثرهم وخاصة المقيمين منهم في المدن والمناطق الساحلية، قد شرعوا ابتداء من سبعينيات القرن التاسع عشر في التشبه بالأوربيين في الكثير من عاداتهم ومظاهرهم الاستهلاكية[61]. وأكد الباحث عمر أفا الفكرة نفسها، فأشار إلى أن الغالبية العظمى من مقادير أموال المغرب قد تركزت وقتئذ في كبريات الحواضر، وتجمعت في أيادي تجارها الأثرياء[62].

إن الرخاء الاقتصادي ووفرة الورق في البلاد لكفيلان بتفسير الأسباب التي جعلت العربي الأزرق يصبح أكبر الطابعين والناشرين وأشهرهم في المغرب على الإطلاق من جهة، كما يكشفان لنا عن أسباب التدفق الذي شهدته صناعة الطباعة بصفة عامة، إلى درجة أصبح معها من الضروري إرغام الأخوين الأزرق على تكسير احتكارهما لتلك الصناعة من جهة أخرى، وفسح المجال بذلك أمام بقية الطابعين، أمثال اليملاحي والذويب والبادسي، لإنشاء مشاريعهم الخاصة. لقد تمكن العربي الأزرق من إصدار أزيد من مائة عنوان (وربما أكثر من ضعف ذلك) فيما بين 1876

---

(58) The Times of Morocco: العدد 73 (31 مارس، 1887)، نجد أن الورق كان ضمن لائحة المواد المستوردة إلى المغرب.

(59) التوزاني، المرجع السابق، ص. 65–67.

(60) الناصري، المرجع السابق، الجزء 9، ص. 177.

(61) المرجع نفسه، ص. 124.

(62) أفا عمر، مسألة النقود في المغرب، ص. 127.

و1914، وذلك لفائدة المؤلفين المعاصرين له الذين فضلوا ألا تُورد أسماء الأشخاص الذين تولوا نشر كتبهم أو طبعها. ويعني ذلك أن العربي الأزرق قد أخذ على نفسه أن ينشر حوالي نصف عدد الكتب التي صدرت خلال تلك الفترة، لأن العدد الإجمالي للكتب التي طبعت حتى سنة 1914، لم تتجاوز بأي حال من الأحوال ستمائة عنوان(63).

ويمكن القول باختصار، أنه إذا كان الطيب الأزرق قد استطاع أن يجعل من نفسه رائد الطباعة في المغرب ومعلمها الأول، فإن أخاه العربي تمكن من أن يجعل من نفسه أكبر طابع على الإطلاق في المغرب، وذلك خلال حقبة أصبح فيها الطلبة والعلماء المغاربة وجمهور القراء بوجه عام، يعيشون في وسط علمي وتعليمي كانت غالبية الكتب الرائجة فيه مطبوعات وليست مخطوطات كما كان الأمر معهودا من قبل(64).

ثالثا ـ أحمد اليملاحي، ومؤسسته الفردية

كان أحمد عبد المولى اليملاحي ثالث الطابعين في المغرب أهمية بعد الأخوين الأزرق. ولا تعود المكانة التي احتلها اليملاحي في ميدان الطباعة بالمغرب إلى ارتفاع حجم الكتب التي طبعها أو نشرها، ولا إلى جودة منتجاته، بل تعود إلى أنه كان أحد المنتفعين بتكسير هيمنة الأخوين الأزرق على صناعة الطباعة وإلى تمكنه من إنشاء مؤسسة للطباعة كان هو عنصرها الوحيد. وكان اليملاحي معروفا أيضا بأنه فقيه وعدل(65)، أبدى اهتمامه بالطباعة لأول مرة خلال سنة 1888، حين مول نشر كتاب

(63) إلى هنا استطعنا حصر 463 عنوان، مع إقصاء العناوين التي طبعت أكثر من مرة. ولابد من الإشارة أيضا إلى أن بعض العناوين، مثل **مجموع**، يمكن أن تحتوي على حوالي ثلاثين عنوانا مختلفا. وبناء على ذلك، يبدو حصر العدد الإجمالي في 600 عنوان أمرا منطقيا ومعقولا. انظر عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 20ـ109.

(64) حسبما جاء عند محمد المنوني (في مقاله «مراكز المخطوطات وأدلته بالمغرب»، **المورد**، المجلد 14، العدد 2 (1985)، ص. 157ـ161)، فإن حوالي 42.000 مخطوط ماتزال موجودة في المغرب، منها 1719 وحدة مصورة على الميكروفيلم. وتعكس تلك المخطوطات إرث البلاد الثقافي والفكري عبر تاريخها الإسلامي. وعلى سبيل المقارنة، فإن العربي الأزرق وحده أنتج ما بين حوالي 60.000 نسخة و100.000 في مدة أربعة عقود.

(65) المنوني، **مظاهر**، الجزء 1، ص. 289.

الشفا لمؤلفه القاضي عياض (توفي سنة 1149)، الذي طبع في مطبعة العربي الأزرق[66]. وفي سنة 1892، برز اسم اليملاحي على الساحة مالكا للمطبعة الجديدة إلى حدود سنة 1900[67]. وبعد هذا التاريخ، لم يظهر اسم اليملاحي سوى مرتين، أولاهما في شتنبر من سنة 1902 مُباشرا للكتب، وثانيهما في دجنبر من سنة 1910 مقرظا حسب ما هو وارد في خاتمة كتاب **النوازل** للمهدي الوزاني[68].

وتحملنا هذه المعطيات المتناثرة والمتعلقة باليملاحي على اعتقاد أنه لم يكن سوى أحد تلامذة العربي الأزرق، وأن هذا الأخير هو الذي أخذ بيده وشجعه على دخول عالم الطباعة والنشر، تحت وطأة الظروف المتغيرة التي بدأت البلاد تعرفها آنذاك، نتيجة ارتفاع طلب الكتب وتزايده. ويبدو أن العربي الأزرق واليملاحي تقاسما أعمال الطبع التي تعاقدا عليها مع المخزن في سنتي 1895 و1898[69]. ومما تجدر إليه الإشارة في هذه النقطة، أن كلا الكتابين المتعاقد عليهما كانا من كتابات ماء العينين التي كان الوزير أحمد بن موسى يرغب في ترويجها داخل الأوساط المغربية. وكان أول الكتب التي طبعها اليملاحي في مؤسسته الخاصة، من مؤلفات ماء العينين وهو بعنوان : **مفيد الراوي**، بطلب من الوزير أحمد بن موسى. وهكذا، فإنه على الرغم من الظرفية الاقتصادية الملائمة، وتوافر مادة الورق في البلاد، فإن حاجيات المخزن في ميدان الكتاب هي التي ساعدت على تنامي صناعة الطباعة واتساع نطاقها.

ويكمن السبب الثاني الذي رفع اليملاحي إلى مستوى الطابعين المعروفين بالمغرب في حماسه الكبير ورغبته الشديدة في أن يصبح مديرا لمؤسسة مطبعية يكون هو عنصرها الوحيد. وقد ساهم اليملاحي خلال عقدين من الزمن في تزويد سوق الكتاب المغربي بما قدره ثلاثة عشر عنوانا مختلفا، وبمجموع تراوح ما بين أربعة آلاف نسخة وستة آلاف. وكان اليملاحي يشارك في مختلف الجوانب المتعلقة بصناعة الكتاب، بما فيها تمويل المنشورات، والقيام بأعمال الطبع، وممارسة مهام التصحيح وكتابة التقاريظ[70]، وربما أضاف إلى ذلك كله، أعمال النسخ وتسويق الكتب، التي

---

(66) عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 185.

(67) **المرجع نفسه**.

(68) **نفسه**.

(69) انظر خواتم الكتابين التاليين لماء العينين : **مبصر المتشوف وسهل المرتقى**.

(70) عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 185-186.

تحمل وحده عملية إنتاجها وبيعها مباشرة لعموم الناس. وبذلك لم يكن من شأن التكنولوجيا الجديدة أن تمكن بعض الأفراد، كاليملاحي، من مجرد تحقيق مسيرتهم المهنية الخاصة والمتميزة باستقلاليتها، بل تجاوزت ذلك إلى تمكينهم من الحصول على الشهرة والجاه، وهما من الأهداف المتوخاة التي كان يضعها كل مساهم في أعمال النشر نصب عينيه، ويسعى جاهدا لتحقيقها.

رابعا ـ الذويب الطابع الإيديولوجي

كان عبد السلام الذويب رابع الطابعين المغاربة البارزين، وقد استطاع أن يميز نفسه عن الأخوين العربي والطيب الأزرق وعن اليملاحي[71]. ويمكن القول بأن الذويب يشترك مع اليملاحي في كثير من خصوصياته ؛ فقد كان هو الرجل الوحيد المدير لأعمال مؤسسته، كما يحتمل جدا أن يكون دخوله إلى عالم الطباعة في 1896/1895 في سياق البرنامج الذي وضعه أحمد بن موسى لإضفاء شعبية كبيرة على شخص ماء العينين في المغرب[72]. غير أن الذويب، على عكس اليملاحي وبقية الطابعين المغاربة جميعا، كان رجلا ذا قناعات متميزة، وله انتماء إيديولوجي سياسي معين. وكان من الأتباع الممتثلين لزعماء الطريقة الكتانية بل من خدامهم الأوفياء، وهو ما يعترف به شخصيا عند حديثه عن العلاقات التي كانت تربطه بالطريقة الكتانية[73].

وقد عبر الذويب عن حبه الشديد وتفانيه في الإخلاص لزعماء الطريقة الكتانية على مستويين. أولهما، أنه كتب أشعارا كانت الغاية منها تخليد المزايا الحميدة والخصال المتميزة والثابتة لسادته الكتانيين. وقد وصف الذويب الزعماء الكتانيين في أحد أبياته الشعرية بأنهم كبار أقطاب التصوف ونجوم الهداية في الليل الحالك[74]. أما على المستوى الثاني، فقد قضى الذويب معظم أوقاته، إلى حدود سنة 1909، في طبع كتابات الزعماء الكتانيين الثلاثة عبد الكبير ونجليه محمد وعبد الحي ونشرها[75]. وفي الواقع يمكن اعتبار العناوين السبعة التي أصدرها الذويب من مؤلفات ماء العينين،

---

(71) المرجع نفسه.

(72) انظر خاتمة كتاب محمد الكتاني، **لقطة عجلان** (فاس، 1896).

(73) محمد بوجندار، **الاغتباط**، ص. 412.

(74) نفسه.

(75) انظر لائحة كاملة بمنشوراتهم عند عبد الرزاق، المرجع السابق.

بأنها قد تمت في إطار اختياراته الذاتية. إن كتابات ماء العينين هذه بالإضافة إلى أعمال الزعماء الكتانيين، وخاصة منها كتابات محمد الكتاني المعروف بالشهيد، قد شكلت رموزا لالتزام عميق بمبدإ الدفاع عن الإسلام ومؤسساته المختلفة أمام أوربا. كما أنها تدعو إلى ضرورة الاعتماد الكلي على إمكانات المسلمين ووسائلهم الذاتية وعلى خبرائهم في جل الميادين، المتمثلة في العثمانيين، لتحقيق الأهداف الإسلامية المنشودة.

خلال المدة التي قضاها الذويب مالكا لمؤسسته المطبعية، ركز على إنتاج صنفين من الكتب لا ثالث لهما، وهما الكتب التعليمية والأدبيات التعبدية من قبيل الأشعار في مدح الرسول والأولياء الصالحين. وكانت كتب الصنف الأول موجهة إلى التوزيع في أوساط عامة الناس، وذلك ما كان يقوم به شخصيا انطلاقا من مقر مؤسسته الواقعة قرب ضريح أحمد الشاوي بفاس[76]. (تحتوي تلك النماذج من الكتب على معلومات تتعلق بتواريخ طبعها وبأسماء مصححيها وناشريها وطابعيها إلى غير ذلك من المعطيات المفيدة)[77]. أما أدبيات المدح والذكر التي ألفها عبد الكبير الكتاني وابنه محمد، فإنها لا تحمل أي تواريخ، ولا توجد بها أي معلومات إضافية[78]. ويوحي ذلك أولا بأن أدبيات المديح والأذكار كانت منشوراتها موجهة بالأساس للاستعمال من طرف أعضاء الطريقة الكتانية. وبما أن مؤلفيها كانوا معروفين وما يزالون على قيد الحياة، لم تكن هناك حاجة إلى تذييلها بمعلومات دقيقة عن مطبوعاتهم. كذلك من غير المستبعد أن يكون الذويب، بطبعه لأدبيات من ذلك القبيل، مهتما بأعمال الدعاية لحساب الطريقة الكتانية، إما بمفرده أو بتنسيق مع سادته الكتانيين.

وفي هذا السياق، يفيد التذكير بأن محمد الكتاني أصبح إبان هذه الفترة، أي في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر، مثيرا لشكوك المخزن الذي كان يخشى إمكانية شروعه في وضع اللبنات الأولى لإنشاء دولة جديدة في المغرب تحت زعامته الدينية[79]. وهي أيضا الفترة نفسها التي قام المخزن إبانها، في شخص الوزير أحمد بن

(76) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 291.

(77) نذكر على سبيل المثال كتاب عبد الحي الكتاني، **البيان المغرب** (فاس، 1913) ؛ وكتاب محمد الكتاني، **لسان الحجة البرهانية** (فاس، 1902)؛ وكتاب ماء العينين، **مغري الناظر** (فاس، 1903).

(78) انظر لائحة هذه المنشورات عند عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 167–169.

(79) عبد الحي الكتاني، **المظاهر السامية**، الجزء 1، ص. 73–78.

موسى، بفرض تقنينات للرقابة سنة 1897، نصت على ضرورة إلزام كل الطابعين بعرض مخطوطاتهم على أنظار الرقابة قبل الشروع في طبعها[80]. ونتيجة لوجود مثل هذه الشكوك والتخوفات في الأوساط المخزنية، صادر السلطان مولاي عبد الحفيظ مطبعة الذويب سنة 1909، كما ألقى القبض على محمد الكتاني الذي كانت وفاته في السجن في سنة 1910[81].

وبعد مصادرة مؤسسة الطباعة التي كان الذويب يديرها، أصبح هذا الأخير ملزما بالتحول إلى طابع يشتغل لصالح المخزن[82]. كما أصبح بقية الزعماء الكتانيين أمثال عبد الحي ـ الأخ الأصغر لمحمد الكتاني ـ يشتغلون كتابا في حضرة السلطان[83]. إن حصول عناصر قيادية من الطريقة الكتانية، كانت نشيطة بالأمس نشاطا أقلق الأوساط المخزنية، على وظائف من هذا القبيل، لا يمكن اعتباره بأي حال من الأحوال مكافأة لهم أو تكريما. بل يعني احتواءهم وإخضاعهم لنوع من الرقابة بطريقة ذكية وأكثر هدوء وفعالية.

ويمكن القول بإيجاز إن تكنولوجية الطباعة بقدر ما مكنت بعض الأفراد أمثال الأخوين الأزرق واليملاحي من إنشاء مشاريعهم بطريقة ناجحة جعلتهم يحظون باعتراف المخزن وبتقدير جمهور العلماء والطلبة على السواء، فإنها مكنت أيضا أفرادا آخرين، أمثال الذويب، من اتخاذ مؤسسته المطبعية وسيلة لبث قناعاته الدينية والإيديولوجية، كما هي واردة في كتابات ماء العينين والكتاني، فتولى أمر طبعها وترويجها في المغرب.

كان الذويب يسعى إلى تحقيق هدف أساسي، هو التمكن من إحداث تغيير في توجهات المخزن الذي يعتمد في برامجه الإصلاحية على الخبراء الأوربيين، وحثه على ضرورة التوجه نحو العثمانيين للتشاور معهم والحصول منهم على النصائح الصائبة. ودعوة المخزن بالتالي إلى الاعتماد على الخبراء المسلمين دون غيرهم في كل ما يتعلق بالإصلاحات. لكن بما أن الطباعة كانت تعني نشر المعرفة التي كان المخزن يجد

(80) المنوني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 310. انظر أيضا الفصل السادس من هذا الكتاب.

(81) محمد باقر الكتاني، **ترجمة الشهيد**. انظر أيضا عبد الحي الكتاني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 111–117.

(82) بوجندار، **المرجع السابق**.

(83) عبد الحي الكتاني، **المرجع السابق**، الجزء 1، ص. 338.

صعوبة في تحديد طبيعتها، فإن السلطان لم يجد بدا من الحيلولة دون استمرار النشاط الذي كان الذويب يقوم به في ميدان الطباعة، خاصة بعدما تبين أن الجهود التي كان الذويب يبذلها مسخرة لخدمة الجهات المناوئة لسياسة المخزن وتوجهاته العامة. وإذا كان المخزن قد وضع حدا سريعا للنشاط الذي قامت به مؤسسة الذويب للطباعة، فإن الأفكار الوطنية والمشاعر الإسلامية العميقة والقوية التي تضمنتها الكتب التي طبعت فيها، ظلت حية وراسخة في عقول المفكرين المغاربة كما سنرى في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

خامسا ـ أحمد يمني، وهل كان عميل العثمانيين في فاس ؟

كان أحمد يمني خامس الأشخاص الذين اهتموا بأعمال الطباعة في المغرب، لكنه اختلف كثيرا عن سابقيه بالغموض الذي مازال محيطا بشخصه وبأعماله عموما[84] إذ يبدو أن يمني لم يكن أجنبيا عن المغرب فحسب، بل كان أيضا أول من أنشأ مؤسسة للطباعة تعتمد في إنجاز مطبوعاتها على المطبعة ذات الحروف المتحركة في فاس ما بين سنتي 1905 و1906[85]. وسنحاول هنا البحث في الجوانب المتعلقة بفصول حياته لمعرفة الدوافع التي كانت وراء إتيانه إلى المغرب بآلة حديثة للطباعة تتجاوز، في قدراتها العملية على إنتاج الكتب، إمكانات المطابع الحجرية بأربعة أو خمسة أضعاف. فما هي الوقائع التي كانت وراء الظهور المفاجئ ليمني في فاس ؟ بل هناك سؤال ربما اعتُبر أكثر أهمية، وهو : من كان أحمد يمني هذا ؟ إن الإجابة على هذين السؤالين أمر ضروري ومهم، لأنهما كفيلان بالكشف لنا عن بعد جديد لاستعمال العناصر النشيطة سياسيا على المستوى المحلي للطباعة والتي كانت لتحركاتها علاقات وصلات مباشرة بالمصالح الأجنبية.

لا تتوافر معطيات دقيقة وواضحة يمكن اعتمادها لكشف النقاب عن الهوية الحقيقية لأحمد يمني. ومع ذلك، يبدو عبر العديد من المعلومات المتناثرة هنا وهناك، أن يمني كان من سوريا التي كانت وقتئذ جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. ومن

(84) فيما يتعلق بمنشورات يمني، انظر المنوني، «البدايات الأولى لظهور المطبعة المغربية» في **الطباعة والنشر**، العدد 3ـ4 (أبريل ـ ماي، 1984)، ص. 19ـ21 ؛ انظر أيضا كتابه، **مظاهر**، الجزء 2، ص. 464ـ465.

(85) اعتمدنا في ضبط هذه السنة على التاريخ الوارد في أول مطبوعاته، انظر كتاب ماء العينين، **المرافق على الموافق** (فاس، 1906).

العلامات المؤيدة لهذا الرأي، وقوع اختيار يمني، بعد طبعه لأول كتاب في فاس، على مجلة دورية تصدر في دمشق تحت اسم **المقتبس** من أجل التعريف بأعماله هناك[86]. وفي وقت لاحق حاول الاستفادة استفادة أكبر، من صفحات الجرائد القاهرية، مثل **المؤيد** و**المنار**، ذات الشهرة الواسعة في العالم العربي والإسلامي بما في ذلك المغرب. وأيضا، فإن أشكال الحروف التي يعتمدها أحمد يمني في أعماله المطبعية كانت شبيهة بمثيلتها المستعملة في سوريا الكبرى أي في كل من دمشق وبيروت، والتي كان مصدرها الأصلي ألمانيا. وفي تلك الفترة كان العثمانيون متحالفين سياسيا مع الألمان، ولذا جلبت جل المطابع المستعملة في أراضي الإمبراطورية العثمانية من ألمانيا بدلا من فرنسا مثلا، التي ركزت اهتمامها على تصدير مثل تلك الآلات إلى بلدان إسلامية أخرى كالجزائر وتونس. وهناك ملاحظة ثانية هي أن أشكال الحروف التي كان يمني يستعملها مماثلة للحروف المشرقية كما تدل على ذلك نماذج الحروف كالفاء والقاف. بالإضافة إلى ذلك، وتأكيدا للرأي نفسه، يبدو أن صاحب المجلة الدمشقية، الذي نجهل اسمه هو أيضا، كان على معرفة بأحمد يمني الذي وصفه بأنه كان طبيبا[87]. وإذا سلمنا باعتبار أحمد يمني سوريا بالفعل، أي من الرعايا العثمانيين، فلماذا أتى إلى فاس ومعه آلة حديثة للطباعة ذات حروف مشرقية ؟

يمكن الإجابة على مثل هذا السؤال باحتمالين اثنين : أولهما أن أحمد يمني واحد من العديد من المفكرين السوريين الذي أنتجتهم المدارس التبشيرية الغربية في سوريا الكبرى، والذين هاجروا نحو جهات عديدة من بلدان العالم، كمصر وبلدان الشمال الإفريقي وأوربا وأمريكا، باحثين لأنفسهم عن ظروف عيش أكثر ملاءمة. وفي مصر، استطاع بعض السوريين، مثل جورجي زيدان، أن يصبح بفضل نشاطاته المتعددة في ميداني الصحافة والنشر من أبرز الوجوه الثقافية في البلاد[88]. ويصح ذلك أيضا عن الأخوين نمور، اللذين أقاما في البداية مشروعا لهما في تونس كصحفيين، ثم انتقلا بعد ذلك إلى مدينة طنجة حيث أصدروا جريدتهما الجديدة بعنوان **لسان المغرب**[89]. وأصبحت تلك الجريدة ناطقة باسم المخزن، فسخرت

---

(86) انظر المجلد 1، العدد رقم 10 (نونبر، 1907)، ص. 547.

(87) المرجع نفسه.

(88) Philip Tarrazi, History of The Arab Press, vol. 2, pp. 86-87.

(89) المرجع نفسه، الجزء 2، ص. 266-267.

صفحاتها للدفاع عن وجهات النظر المغربية ضد ما كانت تكتبه وقتئذ جريدة عربية أخرى مناوئة، إسمها جريدة **السعادة** التي كان يشرف على إصدارها سوري آخر يدعى يوسف كرم كان في خدمة الفرنسيين بالمغرب[90].

أما الاحتمال الثاني الممكن، فهو أن يكون أحمد يمني مبعوث العثمانيين إلى فاس، بهدف التأثير على التوجهات السياسية للبلاد، والعمل على كل ما من شأنه أن يجعل الرأي العام المغربي يميل إلى تبني أهداف الجامعة الإسلامية. ولدينا دليلان اثنان يمكن الاعتماد عليهما لتعزيز هذا الرأي. ويتعلق أولهما بوجود تشابه كبير بين ممارسات أحمد يمني وبين الأنشطة التي كان يزاولها الطابع الذويب. إذ نجد أن يمني يخصص هو أيضا، غالبية منشوراته، وبالضبط خمسة من أصل تسعة عناوين لكتابات ماء العينين وزعماء الطريقة الكتانية[91]. وكما وضع السلطان مولاي عبد الحفيظ حدا للنشاط الذي كان يقوم به الذويب، كذلك فعل مع أحمد يمني سنة 1909 عندما اشترى منه مطبعته ذات الحروف المتحركة التي كان يستعملها في مدينة فاس[92]. أما الدليل الثاني، فنجده في ما تحتوي عليه منشورات أحمد يمني والذويب، من أبيات شعرية تعرف باسم التقريظ[93]، وهي أبيات يمكن أن نستشف منها وجود علاقات قوية بين زعماء الطريقة الكتانية (عبد الكبير الكتاني وولديه محمد وعبد الحي، ثم ابن أخيه محمد جعفر الكتاني) ويوسف النبهاني، الذي أشرف سابقا على تحرير الجريدة الرسمية للعثمانيين والمعروفة باسم **الجوائب**، وشغل منصب رئيس المحكمة الجنائية في بيروت عند مطلع القرن العشرين[94]. ونتيجة لذلك، يمكن عند القيام بمراجعة منشورات النبهاني في ميدان التصوف، العثور على العديد من الإحالات والإشارات الخاصة بالزعماء الكتانيين[95]. كما يمكننا ملاحظة مدى التقارب بين أشكال الحروف الألمانية

---

(90) **نفسه.**

(91) انظر الهامش رقم 84 أعلاه.

(92) المنوني، **مظاهر**، الجزء 2، ص. 464–465.

(93) انظر خاتمة كتاب ماء العينين، **المرافق على الموافق**، الذي مول أعمال نشره إدريس بن يعيش الذي كان وصيا على السلطان مولاي عبد العزيز.

(94) عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، الجزء 2، ص. 427–428 ؛ زكي مجاهد، **العلم**، الجزء 3، ص. 132–133.

(95) انظر كتابه، **كرامات الأولياء**، ص. 226–227.

الصنع التي طبعت بها مؤلفاته ومثيلاتها التي كان أحمد يمني يستعملها في فاس[96]. ومع ذلك، لابد ـ قبل الخلوص إلى أي استنتاجات ـ من الانتباه إلى بعض القضايا الظرفية، ومنها الوقت الذي ظهر فيه يمني بمدينة فاس ما بين 1905 و1906.

فخلال هذه السنوات، ساد الِاعتقاد بأن المغرب سيصبح لا محالة من الأراضي الخاضعة لسيطرة الفرنسيين، خاصة بعد النجاح الذي حققته فرنسا في تسوية خلافاتها القائمة مع بريطانيا حول مناطق النفوذ التابعة لهما في القارة الإفريقية[97]. وانتاب المغرب تخوف شديد أمام تلك التهديدات، وحين ارتأى السلطان مولاي عبد العزيز ضرورة التوصل إلى تدعيم مواقفه وتقوية مركزه، لم يجد بدا من اللجوء إلى علماء بلاده، وخاصة منهم الزعماء الكتانيين المعروفين إلى جانب علمهم بتعاملهم المتين مع العثمانيين، وباحتلالهم الصدارة يومئذ في مواجهة النفوذ الأوربي بالمغرب.

وتخبرنا مذكرات عبد الحي الكتاني غير المنشورة بأن السلطان مولاي عبد العزيز لم يدخر جهدا ليفصح عن تقديره لأفراد الأسرة الكتانية، إذ بالغ في إكرام عبد الحي وأخيه الأكبر محمد الكتاني في مناسبات عديدة، نذكر منها إرسالهما معا إلى الديار المقدسة سنة 1905 على نفقته الخاصة. وكان زعماء الطريقة الكتانية يستقبلون، خلال انعقاد موسم الحج، بالعناية نفسها التي تُولى لرجالات الدول، سواء في الديار المصرية حيث يستقبلهم أعضاء الأسرة الخديوية أم في كل من مكة والمدينة المنورة[98]. وعلى الرغم من عدم وجود أي إشارة في مذكرات عبد الحي الكتاني إلى شخص أحمد يمني ولا إلى مطبعته، فمن المحتمل جدا أن يكون ذلك الانفتاح السياسي على العناصر المغربية المؤيدة للتوجهات العثمانية، هو الذي فسح المجال لأحمد يمني وشجعه على التوجه إلى فاس، لنشر مبادئ الجامعة الإسلامية وأفكارها، بالاستناد إلى تكنولوجية الطباعة.

وكان الأوربيون قد تمكنوا، قبيل حلول سنة 1905، من ارتكاب خروقات

(96) نفسه. ثم قارن أيضا بين أشكال الحروف نفسها ومثيلتها الموجودة في المنشورات الصادرة عن المطبعة الحكومية في دمشق.

(97) Burke, **Prelude to Protectorate**, pp. 68-75.

(98) عبد الحي الكتاني، **المظاهر السامية**، الجزء 1، ص. 337ـ338. ويخبرنا الكتاني أيضا بأن السلطان مولاي عبد العزيز وضع رهن إشارة محمد الكتاني قصر الجامعي في فاس ليتخذ منه مكانا خاصا لإقامته.

عديدة داخل المجتمع المغربي. إذ نجحوا، في البوادي المغربية وحواضرها على السواء، في جعل المئات من أعيان التجار المغاربة يتخلون عن الخضوع لسلطة حكامهم الشرعيين وينسلخون عنهم، ليصبحوا مقابل ذلك تابعين قانونيا لمختلف البلدان الأوربية التي كانت تبسط عليهم حماياتها. وأصبحت مثل تلك الممارسات أمرا معهودا داخل المجتمع المغربي، على الرغم من تحذير التعاليم الإسلامية من مغبة الوقوع في ذلك، واعتبارها إياه من باب الكفر والخروج عن الدين الذي يستوجب العقاب عليه بالموت(99). وساهم أعضاء البعثات التبشيرية من جهتهم في تحقيق ذلك، من خلال الخدمات الطبية التي كانوا يقدمونها، في إطار برنامجهم الهادف إلى التلقيح ضد وباء الكوليرا وغيرها من الأمراض الخطيرة الفتاكة(100). وكان للنجاح النسبي الذي حققه المبشرون تأثير سلبي على ثقة الناس بفعالية الطب التقليدي وبالقدرات العلاجية الروحية لرجال التصوف.

وحاول الزعماء الكتانيون الوقوف في وجه تلك الخروقات المترتبة عن النفوذ المتزايد للأوربيين بالبلاد، وسعوا جاهدين إلى حماية الإسلام والحفاظ على مؤسساته المختلفة بتبني برنامج إصلاحي ينص على ما يلي : ا) إنشاء مدارس لتعليم المبادئ الإسلامية، مع الحرص على إدخال بعض المواضيع العصرية ضمن برامجها التعليمية(101). ب) وضع دستور إسلامي(102)، وإنشاء مجلس للأعيان للتباحث في القضايا الوطنية قبل إدخالها حيز التنفيذ من طرف السلطان(103). ج) الاعتماد على الخبراء المسلمين لإصلاح البلاد والسير بها قُدما. وفي ظل هذه الظروف، لا غرابة في وجود شخص مثل يمني بمدينة فاس، لا يكتفي فقط بإدارة أعمال مطبعة حديثة ذات حروف متحركة، بل يعمل أيضا مباشرا للأعمال الطبية وفقا للطريقة العصرية.

وقد استطاع أحمد يمني، طوال المدة التي استغرقتها إقامته في فاس ما بين 1905 و1909، أن ينتج ما مجموعه تسعة عناوين، وهو حجم لا يسعنا إلا أن نسلم

(99) علي التسولي، أجوبة للأمير عبد القادر الجزائري.

(100) Jean-Louis Miège, «Les missions protestantes au Maroc (1875-1905)» in **Hespéris**, vol. XLII, fascicule 1-2 (1955), pp. 153-189.

وانظر أيضا مصطفى بوشعراء، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 167-174.

(101) المنوني، المرجع السابق، الجزء 2، ص. 311، 363.

(102) المرجع نفسه، الجزء 2، ص. 405-406.

(103) المرجع نفسه، الجزء 2، ص. 537-541.

بضآلته. ومع ذلك، فهو يسجل البدايات الأولى لانتقال المغرب تدريجيا ـ ولكن بخطى أكيدة ـ من اعتماد الكتابة الخطية إلى استعمال الحروف المطبعية المتجانسة الأشكال والأحجام. ثم تعزز ذلك الانتقال حينما صادر السلطان مولاي عبد الحفيظ الآلة التي كان يستخدمها أحمد يمني، ليصبح بإمكانه نشر كتاباته اعتمادا على الحروف الجديدة[104].

وباختصار، فإنه على الرغم من الأشياء القليلة التي استطعنا معرفتها عن أحمد يمني، يمكن تأكيد أن حلوله بالمغرب كان بهدف التأثير على التوجهات السياسية العامة للبلاد، مستعينا في تحقيق ذلك بالعناصر المغربية المتعاطفة مع العثمانيين، ونعني الكتانيين. ومن الأمور المهمة في التحركات التي قام بها أحمد يمني، أنه أول من أدخل آلة الطباعة ذات الحروف المتحركة إلى فاس، المعقل المركزي لأنصار التيار التقليدي المحافظ بالمغرب. وتمثل الجهود التي بذلها أحمد يمني بعدا جديدا للمغرب الذي اتخذت فيه المبادرة عناصر محلية، وليس الدولة، ليجد نفسه منغمسا في بحر السياسة الدولية، اعتمادا على الإمكانات التي قدمتها تكنولوجية الطباعة.

سادسا ـ الناشرون المنفردون

إلى جانب كل الأطراف التي سبقت الإشارة إلى مساهمتها في أعمال النشر، ونعني المخزن والعلماء المؤلفين ومحترفي الطباعة، نجد في المغرب العديد من الأفراد الذين وجدوا في الطباعة وسيلة لتحقيق دخل مالي إضافي أو لبلوغ أهداف مادية ومعنوية أخرى على المستوى الاجتماعي. فابتداء من سنة 1879 وإلى حدود عشرينيات القرن الحالي، ظهرت أسماء حوالي عشرين فردا، مرة واحدة على الأقل، أو مرات عديدة في خواتم المطبوعات الفاسية، مساهمين فرديين في أعمال النشر. وسأقدم فيما يلي لائحة مفصلة لأولئك الناشرين المنفردين، وأتبعها بمناقشة للأنشطة التي قاموا بها لمعرفة مدى تأثير الطباعة على إحداث تحولات في حياتهم.

---

(104) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

تاريخ النشر	اسم الناشر	عدد الكتب المنشورة
1879	بنونة، الطيب[105]	1
1880	بناني، محمد[106]	2
1889، 1900، 1914	العراقي، أحمد[107]	3
1891	العراقي، إدريس[108]	1
1891، 1903، 1905، 1906	كَنون، أحمد[109]	4
1895	السجلماسي، محمد[110]	1
1896، 1897، 1901، 1916، 1926	ابن الخياط، عمر[111]	5
1896	التطواني، أفيلال[112]	1
1897، 1917	برادة الخضر[113]	3
1898، 1900، 1901	بن موسى، التهامي[114]	6

(105) الكتاب المنشور : **حاشية ابن الحاج على شرح المكودي**.

(106) الكتابان المنشوران : **الدر النفيس**، لأحمد حلبي. **والإتقان والإحكام**، لمحمد ميارة.

(107) الكتب المنشورة : **أجوبة** لابن هلال، **وحواشي** لعبد القادر الفاسي، **وتقويم أوقات الصلاة** لمؤلف مجهول.

(108) الكتاب المنشور : **المختصر**، لخليل بن إسحاق.

(109) الكتب المنشورة : **إيقاظ المفتون، والتقييد اللاذع، والزجر والإقماع، وشرح كَنون على السيوطي**. والعناوين الثلاثة الأولى من مؤلفات المدني كَنون، أما الكتاب الرابع فمن تأليف التهامي كَنون.

(110) الكتاب المنشور : **ختمة المختصر الخليلي**، للوزاني.

(111) الكتب المنشورة : **الأنيس المطرب** للعلمي، **والجيش العرمرم** لأكنسوس، **والدر النثير** لابن هلال، **والدرر البهية** لإدريس العلوي، **وشرح لوثائق بناني** للهواري، **والنوازل** للمسناوي.

(112) الكتاب المنشور : **سنن المهتدين** للمواق.

(113) الكتب المنشورة : **تعطير الأنفاس** لابن المؤقت، **والسعادة الأبدية** لابن المؤقت، **ولؤلؤة الأنوار** لأبي عنان الحسني.

(114) **الأجوبة الكبرى** لعبد القادر الفاسي، **والجيش الكفيل** لمحمد الشنكَيطي، **وحاشية على شرح البوري** للمهدي الوزاني، **وسلوة الأنفاس** لمحمد بن جعفر الكتاني، **والموطأ** لمالك بن أنس.

تاريخ النشر	اسم الناشر	عدد الكتب المنشورة
1898، 1900، 1901	البدوي زويتن[115]	1
1901، 1902	الناصري، الطيب[116]	2
1907	السرغيني عبد السلام[117]	1
1907	جماعة من العلماء[118]	1
1913	الكتاني محمد المهدي[119]	1
1923	المهدي الوزاني، عبد القادر[120]	1

إن محاولة التعليق على الجدول أعلاه تجعلنا نلاحظ وجود نقطتين أساسيتين ؛ تتعلق أولاهما بوجود أسماء أفراد ينحدرون إما من أسر شريفة النسب أو من أسر الأعيان، وفي حالات عديدة نجد أسماء تنتمي في الوقت نفسه إلى كلتا الفئتين المذكورتين. فنجد أن آل العراقي وبناني وزويتن والناصري والوزاني والكتاني ينتمون جميعا إلى أسر ذات نسب شريف وإلى عائلات الأعيان الفاسيين التي سبق لها أن أعطت العديد من العلماء والزعماء الدينيين في المغرب. أما آل كَنون وبنيس وبرادة والسجلماسي والتطواني وغيرهم، فإنهم ينتمون إلى كبار أسر الأعيان التي أعطت العديد من العلماء والتجار أيضا، سواء في فاس أو في غيرها من المدن المغربية[121].

(115) انظر الهامش 114 أعلاه.

(116) الكتابان المنشوران : **الأجوبة الناصرية**، والرحلة، وكلاهما من تأليف الناصري.

(117) الكتاب المنشور : **تقييد نفيس** لابن الخياط.

(118) الكتاب المنشور : **المعيار المعرب** للونشريسي.

(119) الكتاب المنشور : **الكشف والتبيان** لمحمد الكتاني.

(120) الكتاب المنشور : **زورق الخائض** لأحمد أنجاي.

(121) ابن منصور، **كشاف الأسر المغربية** ؛ انظر أيضا كتاب الفاسي : **معجم الشيوخ**. يتميز الكتاب الأول بكونه دليلا خاصا لأسر الأعيان في المغرب، بينما يهم الفاسي مؤلف الكتاب الثاني بالتمييز بين أساتذته الذين ينحدرون من الأسر شريفة النسب وبين أمثالهم غير المنتمين للنسب نفسه سواء في فاس أم في المغرب بوجه عام.

ويستخلص من هذه الملاحظات أن صناعة الكتب في المغرب إبان عصر الطباعة ظلت متمركزة في أيدي الأعيان والأسر شريفة النسب بصفة أساسية، كما كان عليه الحال سابقا في عصر المخطوطات[122]. وكان هذا الأمر متوقعا، لأن تلك العناصر الاجتماعية كانت هي الوحيدة التي تمتلك المؤهلات المادية الضرورية لتحمل أعباء النفقات التي كان يتطلبها نشر الكتب. وبناء على ذلك، لم يكن من المنتظر حدوث أي تغيير يستحق الذكر في ذلك الإطار.

أما الملاحظة العامة الثانية، فتتعلق بكون اللائحة أعلاه تشير إلى أن أعمال النشر على يد العناصر المنفردة عرفت بداية بطيئة منذ 1879، بينما عرفت حركية أكبر منذ سنة 1889 حتى سنة 1901، حين تمكن كل ناشر على حدة من تمويل أعمال نشر بمعدل كتابين. وتوجد علاقة بين هذا التزايد في حجم الكتب المطبوعة خلال هذه الفترة، وبين التحسن الواضح الذي شهدته الحركة الاقتصادية بالمغرب في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر بوجه عام[123].

ولابد من الإشارة إلى ملاحظة أخرى مهمة عن الناشرين المنفردين الواردة أسماؤهم في الجدول السابق، ألا وهي تعاون هؤلاء فيما بينهم لتمويل نشر الكتب التي كانوا يرغبون في إصدارها. ففي سنة 1914 مثلا، اشترك أحمد العراقي وأخوه عبد القادر في نشر كتاب **تقويم أوقات الصلاة**. وفي سنة 1900، تظافرت جهود كل من ابن موسى والبدوي زويتن لنشر كتاب **الموطأ** للإمام مالك والواقع في أربعة أجزاء. كذلك، شهدت سنة 1907 اتفاق مجموعة من العلماء ـ الذين نجهل هويتهم حتى الآن ـ على الاشتراك جماعة في نشر كتاب **المعيار** للونشريسي والمتكون من اثني عشر جزءاً. وكان الطابعون يسمحون لأنفسهم باستعمال مطابع يمكلها غيرهم من الطابعين. هذا فضلا عن الناشرين الذين كانوا يكتلون جهودهم وإمكاناتهم لنشر الكتب، وخاصة منها المؤلفات كبيرة الحجم مثل كتابي **المعيار** و**الموطأ** السابقي الذكر، والتي ما كانت لتنشر لو اكتُفي بإمكانات كل ناشر على حدة.

وآخر ملاحظة مهمة يمكن إبداؤها عن الجدول، هي أن الناشرين الواردة أسماؤهم ضمن اللائحة لم يكونوا قد دخلوا في مغامرات تتعلق بالنشر لتحقيق أرباح

---

(122) انظر الفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب.

(123) انظر الهامشين 61 و62 أعلاه.

مادية فقط. فأحمد كَنون مثلا، لم يُعن إلا بنشر كتب سبق لوالده وعمه أن ألفاها. وقد فعل كل من الطيب الناصري ومحمد المهدي الكتاني الشيء نفسه. لقد كان كلا المؤلفين، الكتاني[124] والمدني كَنون[125] من مشاهير الزعماء الدينيين، كما كان لهما العديد من الأتباع والقراء في المغرب، ومن ثم كان لدى أبنائهما حافز مادي ساهم في تشجيعهما على نشر مؤلفات آبائهما. ولا ينبغي أن ننسى أن نشر الأبناء لمؤلفات آبائهم أتاح لهم فرصة الرفع من مكانتهم الاجتماعية والدينية على السواء، لأنهم كانوا يطمحون إلى الحفاظ على السمعة والشرعية التي كان آباؤهم يتمتعون بها في المغرب حين كانوا على قيد الحياة.

باختصار، يمكن الخلوص إلى أن أهم دور لعبه الطابعون والناشرون لإحداث التغييرات والتحولات في المغرب يكمن في الإنجاز الذي أفلح فيه الطيب الأزرق ألا هو صهر الطباعة في بوتقة الاقتصاد المغربي ومكوناته. وبذلك استطاع أن ينتقل بتوجيه صناعة الكتاب من وضعية كان يقتصر فيها على خدمة الفئات العليا المكونة للتشكيلة الاجتماعية في المغرب، إلى وضعية مخالفة تهدف إلى إيصال تلك الخدمة ونتائجها إلى الجمهور بمفهومه الواسع. ولكي يحقق الطيب الأزرق مسعاه، كان عليه أن يشتغل في إطار مؤسسة عائلية للطباعة تسمح بالإبقاء على سرية المهنة في دائرة ضيقة لا تقبل الدخلاء. كما كان عليه أن يعيد النظر في طريقة العمل، حتى ولو كان يتطلب ذلك الخروج عن المبادئ الأولية للصناعة، كاعتماده في إنجاز بعض مراحل العمل المطبعي على أناس أقل كفاءة، واستعماله لمواد أولية أقل جودة، وكل ذلك بغية تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح، وبالتالي ضمان استمرار أعمال الطباعة ونجاحها.

واعتمد العربي الأزرق على المبادئ نفسها التي بنى عليها أخوه الأكبر نجاحه إلى أن أصبح رائدا للصناعة المطبعية في المغرب، فاستفاد هو أيضا من المساندة المخزنية للأعمال التي كان يقوم بها، إلى أن صار أكبر رجل أعمال في المغرب. إن تحول العربي الأزرق إلى رأسمالي صغير ذي مكانة كبيرة تحول له علاقة مباشرة بالمهارات التي كان يملكها في ميدان الطباعة، بل أيضا بقدرته ليس فقط على استيعاب تلك التكنولوجيا الحديثة وإدارة أعمالها بنجاح، بل أيضا في قدرته على إنتاج حبر ليتوغرافي وورق ناقل خاص به، يحتمل أن يكون قد وزعه على الطابعين الذين

(124) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص. 168–169.
(125) نفسه، ص. 171–172.

برزوا على الساحة في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وعلاوة على ذلك، فإن النجاح الذي حققه العربي الأزرق رجل الأعمال، من الممكن أيضا ربطه بالازدهار الاقتصادي النسبي الذي عرفه المغرب في الثمانينيات وبمسألة الحمايات الشخصية التي أتاحت فرصة دخول كميات هائلة من الورق المستورد من فرنسا أو من بريطانيا على يد المغاربة المحميين.

وكما ساهمت الظروف القائمة في المغرب في تمكين العربي الأزرق من التحول إلى رجل أعمال ناجح في ميدان الطباعة والنشر، كذلك أدت بعض تلك العوامل ذاتها إلى وضع حد للهيمنة المطلقة التي كانت لعائلة الأزرق على الطباعة. ونذكر من بين تلك العوامل، رغبة المخزن في إكساب شعبية كبيرة لبعض الزعماء الدينيين وفي نشر بعض الأفكار الدينية بعينها وذلك لأغراض سياسية ودعائية، وكانت تلك هي حال ماء العينين ومؤلفاته. وكانت النتيجة المترتبة عن ذلك، ظهور طابعين وناشرين جدد على الساحة، كما هو حال أحمد اليملاحي الذي اختار أن يتحمل لوحده كل أعباء المؤسسة المطبعية التي أنشأها، وجمع في ذلك بين ما هو علمي وما هو تجاري بنجاح كبير. كما مهد الطريق أمام ظهور عبد السلام الذويب المتخصص في الطباعة ومتعهد أعمالها. حيث لم يكن يقتصر على القيام بأعمال النسخ والتصحيح والطبع والنشر والتوزيع، بل أضاف إلى ذلك مساهمته في خدمة القناعات الدينية والإيديولوجية التي كان يؤمن بها. وعلاوة على ذلك، فإن انتشار الطباعة انتشارا واسعا في المغرب قد أعطى البلاد بعدا آخر، تمثل في مساهمة دول إسلامية أجنبية، كالإمبراطورية العثمانية، في التأثير على توجيه السياسة الداخلية للمغرب، وجعل البلاد تميل إلى مشاطرتها الهموم نفسها اعتماداً على نفس الوسائل، وذلك بمساعدة زعماء الطريقة الكتانية الذين كان لهم حضور قوي في البلاد. وليس بالجديد أن يستعمل المغرب الطباعة على مستوى الجامعة الإسلامية، ولا هو بالجديد أن تقوم محاولات أجنبية تستهدف التأثير في السياسات التي يتبعها المغرب. بل الجديد هو أن يستطيع أحد زعماء طريقة صوفية محلية ـ إذا سلمنا باعتبار أحمد يمني عميلا للعثمانيين في فاس ـ أن يصبح العنصر المحرك لوجود آلة متطورة للطباعة في البلاد، عوض أن يتحقق ذلك على يد المخزن.

وأخيرا، كان في المغرب، إلى جانب الطابعين والناشرين المحترفين، مجموعة تتكون من حوالي عشرين فردا أقدموا على نشر الكتب في إطار عمل تكميلي إما

لتحقيق دخل إضافي، وإما لخدمة بعض الأهداف الاجتماعية التي تهم الجماعات التي كانوا يعيشون داخلها. وهذا الاتساع الذي سجلته المساهمة في أعمال الطباعة والنشر، إلى جانب الجمهور الذي كان مستهدفا لتحقيق الأرباح على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، كان من شأنه أن مهد الطريق أمام ظهور طرق جديدة للتعبير، وأمام تشكيل إيديولوجيات جديدة في المغرب ستكون موضوع اهتمامنا في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

الفصل التاسع

الإنتاج الفكري في المغرب وعلاقته بالطباعة

الفصل التاسع

الإنتاج الفكري في المغرب وعلاقته بالطباعة

أتناول بالعرض والتحليل في هذا الفصل الأخير، أصنافا من الأدبيات التي كانت تعرض على جمهور القراء وعامة الناس في المغرب بواسطة الطباعة منذ سنة 1865 حتى عشرينات هذا القرن. وتتضمن تلك الأصناف ما يلي : أولا، مواضيع تقليدية في التصوف والشريعة. وهنا سأوجز الحديث عن أهم الطرق والأساليب التعبيرية لهذه المواضيع، مع محاولة معرفة الكيفية التي تأثرت بها تلك المواضيع نتيجة الاعتماد على تكنولوجية الطباعة. أما الصنف الثاني، فيتعلق بالأدبيات السياسية، والتي كانت وحدها من أكثر المواضيع بروزا ووجودا على الساحة المغربية خلال هذه المرحلة. وهنا سأتناول بالعرض والتحليل ثلاثة أعمال تعكس ثلاث وجهات نظر مختلفة، غير أنها تعبر عن آراء سياسية ذات علاقات متداخلة. وقد استعملت في البداية كتاب محمد جعفر الكتاني : **نصيحة أهل الإسلام** (فاس، 1908) نموذجا لكتابات متميزة بإيديولوجية رافضة لكل ما له علاقة بالمصالح الغربية. واعتمدت في المستوى الثاني على كتاب أحمد الصبيحي : **أصول أسباب الرقي الحقيقي** (فاس، 1917)، الذي يدافع فيه المؤلف عن وجهة نظره المعتدلة الداعية إلى التوفيق بين الأساليب الإصلاحية الأوربية وخصوصيات المغرب لإيجاد الحلول الكفيلة بمعالجة المشاكل القائمة. وكان النموذج الثالث الذي وقع عليه اختيارنا هو : **قصة القاضي والسارق** (فاس، عشرينات هذا القرن) لمؤلف مجهول. وعمد فيه المحرر أو الناشر[1] إلى تشبيه فرنسا ـ التي بسطت سيادتها على المغرب بعد عام 1912 ـ باللص الذي

(1) وجدت نسخة مخطوطة من هذه القصة عند صاحب مكتبة التراث في الرباط. وتعود فترة كتابتها إلى أواسط القرن الثامن عشر. أما النسخة المطبوعة فقد أدخل عليها الناشر تعديلات للتعبير عن معان ورموز سياسية صرفة، منها إضافة صورة القاضي واللص على الغلاف، ثم إقحام اسم ابن إدريس في النص وجعله واحدا من الأئمة الأربعة.

يتمتع بمستوى عال من الذكاء، وله إحاطة عميقة بالعلوم الإسلامية إلى درجة أنه أصبح قادرا على إهانة القاضي الذي يوصف بـ«قاضي المسلمين».

إن الأصناف والنماذج المشار إليها أعلاه حصيلة أفكار ناشئة عن تفكير طويل له علاقة بأربع محطات تاريخية مختلفة في تاريخ المغرب ما بين سنة 1865 وعشرينات القرن الجاري، عبر خلالها العديد من المفكرين ورجال العلم عن وجهات نظرهم المتباينة بواسطة الطباعة، وبذلك استطاعوا التأثير في الأوساط المحيطة بهم.

أولا ـ التصوف والعلوم الفقهية :

1 ـ التصوف

في سنة 1922 نشر المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال (Lévi-Provençal) مع الباحث الجزائري محمد بنشنب، ببليوغرافية هامة حول المطبوعات الفاسية اشتملت على 405 عنوانا، قدماها وفقا لترتيبها الزمني والموضوعاتي[2]. وقد اتضح لنا من خلال البيليوغرافية الموسعة التي أنجزناها للمطبوعات الفاسية[3]، أن الكتب ذات الصلة بموضوع التصوف تتجاوز مقدار الربع من مجموع العناوين الصادرة في المغرب ما بين سنتي 1865 و1920.

ويمكن التمييز، في إطار أدبيات التصوف الصادرة إبان هذه الفترة، بين خمسة أنواع تبدو مختلفة، لكنها في الواقع ذات علاقات متداخلة فيما بينها. ومن الأمثلة على ذلك، نذكر تأليف ابن عباد، **الرسائل الكبرى** (فاس، 1902)، وكتاب **الحكم العطائية** لابن عطاء الله (فاس، د.ت). ويبدو أن هذا النوع من الأدبيات الكلاسيكية قد حظي باهتمام بعض العلماء وخاصة المنشغلين منهم بالتدريس خلال القرن التاسع عشر، لأننا نلاحظ وجود العديد من التعاليق التي كتبها عن تلك الأدبيات الكلاسيكية علماء أمثال ماء العينين (توفي في سنة 1910)، الذي وضع كتابا حول مؤلف **الحكم العطائية** على طريقة المنظومات الشعرية[4].

---

(2) E. Levi-Provençal et M. Ben Cheneb, **Essai de répertoire chronologique**, pp. 4-60.

(3) فوزي عبد الرزاق، **المطبوعات الحجرية في المغرب، فهرس مع مقدمة تاريخية**، الرباط، 1989.

(4) انظر محمد ماء العينين، **منظومة الحكم**، فاس، 1982 ؛ وأيضا عبد الكريم بنيس، **نظم حكم تاج الدين ابن عطاء الله**، فاس، 1906.

ومع ذلك، فهناك نقطة هامة لابد من الإشارة إليها هنا، وهي أن كتب التصوف الكلاسيكية المعروفة تبدو قليلة من حيث حجمها العددي، بالمقارنة مع كتب التصوف الأخرى العملية، إذ لا تتجاوز حوالي عشرة مؤلفات من أصل ثمانية وعشرين ومائة عنوانا[5]. ويعني ذلك أن المغاربة بوجه عام لم تكن عندهم سوى رغبة ضئيلة في قراءة كتب التصوف المؤلفة لأغراض لا تتعلق بما يحتاجه المغاربة آنذاك. بينما كانت الكتب ذات الصبغة العملية تحظى لديهم بشعبية أكبر. وفي هذا الإطار، يمكننا تفهم الأسباب التي جعلت محتويات كتاب **الحكم العطائية** تحظى بشعبية أكبر من شعبية كتاب **الرسائل الكبرى** لابن عباد مثلا، وذلك من حيث إثارتها لكتابة تعاليق عليها وخاصة بطريقة المنظومات الشعرية الكفيلة بتسهيل عملية حفظها، وبالتالي ضمان استعمالها في الحلقات التعليمية على نطاق أوسع في مختلف أرجاء البلاد.

وكان النوع الثاني من الأدبيات الصوفية الأكثر شعبية هو أدبيات المديح النبوي. واحتل كل من كتاب **دلائل الخيرات** للجزولي[6]، **والبردة** للبوصيري، مكانة سامية ضمن هذا النوع، وحظيا بالشعبية الكاملة في كل الأوساط، وخاصة لدى كل أتباع الطرق الصوفية الذين دأبوا على استعمالهما في كل أنحاء البلاد. وأصبحت قراءة محتوياتهما من الأمور المعتادة عند المغاربة أثناء انعقاد الحفلات والمناسبات الدينية في كل جهات المغرب. ونتج عن ذلك أن نال هذان النصان حظا وافرا من النشر، فتكرر صدور طبعات عديدة لهما[7].

ومن الأمور المهمة في أدبيات المديح الصوفي، استمرارها الناجح في أداء وظائفها المعهودة لفائدة المستعملين وفقا لما كان سائدا ومعمولا به خلال عصر المخطوطات. وفي الواقع، كانت لاستعمال الطباعة مساهمة واضحة في الرفع من درجة انتشار أدبيات من هذا القبيل. ولم ترتبط أسباب ذلك بمراهنة الناشرين والطابعين المهتمين بصناعة الكتاب على الأرباح المادية التي كانوا يترقبونها من إصدارهم لتلك

---

(5) هناك نماذج أخرى في الإطار نفسه، نذكر منها ما يلي : أبو مدين، **الموارد الصافية**، فاس (د. ت)؛أبو الحسن الشاذلي، **حزب البحر**، فاس (د.ت)؛ أحمد بن زروق، **وظيفة**، فاس (د.ت)، ... الخ.

(6) أعيد طبع هذا المؤلف في سنتي 1872 و1892، وتكرر ذلك مرات عديدة دون أن يُعنى بالإشارة إلى تاريخ النشر.

(7) انظر عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 83-84.

الأدبيات فحسب، بل كانت هنالك دوافع أخرى وراء تزايد الحاجة إلى مثل ذلك النوع من الكتابات، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن التالي. فالتهديدات الأوربية للمغرب، ما فتئت تتعدد أشكالها ومظاهرها طوال تلك الحقبة، بل شهدت تصعيدا تدريجيا مع مرور الزمن[8]. وكانت من بين ردود فعل المغاربة أمام تلك التحرشات، لجوؤهم إلى البحث عن نوع من العزاء والحماية، في أدبياتهم الروحية المتمثلة في نصوص **دلائل الخيرات** و**البردة** التي غالبا ما كانت تقرأ بطريقة جماعية في تجمعات كبيرة أو ضمن مجموعات تتكون من عدد قليل من الأفراد.

وكان النوع الثالث من أدبيات التصوف هو الكتابات المعروفة بالحزب، الذي سبق أن عرفنا بمدلوله في الفصل الثالث من هذا الكتاب. وبالرغم من التشابه الموجود بين الحزب وأدبيات المديح، فإنهما يتشابهان من حيث الطول ومن حيث اتساع نطاق استعمالهما. ذلك بأن أدبيات الحزب غالبا ما تكون قصيرة، وبخلاف ما هو معروف عن أدبيات المديح، يقتصر استعمال هذا الحزب أو ذاك على طريقة صوفية أو أخرى. ومن الأمثلة على ذلك أن طائفة عيساوة تختص باستعمال حزب ألفه مؤسس الطائفة محمد عيسى في القرن السادس عشر[9]، بينما اعتمد أتباع الطريقة الوزانية استعمال حزب **صلاة عبد السلام مشيش** (فاس، د.ت). ويصح ذلك أيضا عن بقية الطرق والطوائف الصوفية بما فيها المعينية والكتانية والزروقية، وغيرها. (وبذلت جهود جهيدة تحت إشراف الصدر الأعظم أحمد بن موسى (توفي سنة 1900) للجمع بين كل الأحزاب وتوحيدها خلال عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1894– 1908)).

ومن أمور أدبيات الحزب الهامة أنها تعكس الصراع أو التنافس القائم منذ أمد بعيد بين مختلف الطرق والطوائف الصوفية في المغرب، من أجل استقطاب المزيد من الأتباع. وقد تزايدت أهمية هذا التنافس، نتيجة لاستعمال تكنولوجية الطباعة. وحين أصبح التنوع الموجود بين الطرق الصوفية واضحا للعيان من خلال المنشورات، تم اللجوء أيضا إلى استعمال تكنولوجية الطباعة سعيا إلى التوحيد فيما بينها، بدمج أدبيات حزب كل طريقة صوفية في كتاب واحد يضم جميع الأحزاب. والجدير

(8) توجد دراسة عامة لعلاقات المغرب بالدول الأوربية خلال الفترة المذكورة. انظر :

J. L. Miège, **Le Maroc et l'Europe**, Paris, 1963.

(9) إدريس الإدريسي، **قائمة المطبوعات**، ص. 65.

بالذكر هنا أن الحيز الأكبر من أدبيات التصوف، وخاصة أدبيات الحزب قد أنتجت ما بين سنتي 1892 و1910. وقد عرفت هذه الفترة قيام كل من ماء العينين ومحمد بن عبد الكبير الكتاني ـ بصفتهما قطبي حركة التصوف الأكثر شعبية وحيوية في البلاد ـ بتكثيف جهودهما من أجل التوحيد بين كل الطرق الصوفية. وشجعهما على الشروع في ذلك المساندة التي قدمها لهما المخزن العزيزي في إطار محاولاته الهادفة إلى تجنيد البلاد وإعدادها لمواجهة تحديات الدول الغربية. وإذا كانت أدبيات الحزب لا تنطوي في حد ذاتها على أي إيديولوجية سياسية، فإن دلالاتها الروحية والمعنوية في نظر المخزن أو الرعية، كان من شأنها الحث بطريقة أو بأخرى على التحمس لإنتاج المزيد من تلك الأدبيات.

وهناك نوع رابع من أدبيات التصوف، يمكن تسميته بالأدبيات التبريرية أو الدفاعية، ونجد ضمنها أعمالا معينة، مثل كتاب كَنون : **إيقاظ المفتون** (فاس، 1905)، الذي شجب فيه المؤلف مسألة لجوء مختلف الطرق والطوائف إلى أعمال الرقص و«الجذبة» والغناء وصنفها ضمن أعمال البدع الخارجة على النهج السني السليم. ثم كتاب عبد الكبير الكتاني، **نجوم المهتدين** (فاس، 1913)، الذي تناول فيه بالوصف طقوس التعبد وأصناف الرقص التي تعتمدها الطريقة الكتانية ودلالاتها. بالإضافة إلى كتاب محمد الشنكَيطي، **سرية الحق** (فاس، 1901) الذي دافع في صفحاته عن قطب الطريقة التيجانية، وأيضا مختلف الكتابات التي وضعها أحمد سكيرج مدافعا فيها عن الطريقة نفسها التي كان من أتباعها[10]. وبخلاف أدبيات الحزب التي تبقى مجرد كتابات تتعلق بكيفية ممارسة أتباع الطرق الصوفية لطقوسهم التعبدية، تكتسي الأدبيات ذات النزعة الدفاعية أو التمجيدية أهمية خاصة، لأنها تحتوي على تفاصيل ومعطيات تمكن من معرفة الأسباب الكامنة وراء وجود منافسة قارة بين الطرق الصوفية. ومن بينها اهتمام كل طريقة صوفية بتلميع صورتها وتقديم نفسها تقديما يجعلها تبدو أكثر الطرق التزاما بالتعاليم الدينية وأشدها سموا على المستوى الروحي، حتى يتسنى لها استقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع والمريدين.

النوع الخامس من أنواع أدبيات التصوف، هو الكتابات السيرية. ومن أبرز نماذجها، كتاب **تحفة الإخوان** (فاس، 1906) لمؤلفه حمدون الطاهري وكتاب **ممتع الأسماع** (فاس، 1887) لمحمد المهدي الفاسي. ويتضمن الكتاب الأول تغطية مفصلة

(10) انظر اللائحة الكاملة لأعمال سكيرج عند : عبد الرزاق، المرجع السابق، ص. 148-149.

لجوانب من حياة أقطاب الزاوية الوزانية ولمختلف الأنشطة التي كان يزاولها رجالاتها، سواء التلامذة المتصوفون المتميزون أم عامة المريدين والأتباع. بينما يتناول الكتاب الثاني موضوع الأنشطة التي كان يمارسها الجزولي مؤلف **دلائل الخيرات** وكذا أتباعه العديدون بالمغرب.

وتتجاوز أهمية هذه الأعمال السيرية في حد ذاتها الأهداف العلمية أو التعليمية التي وضعت من أجلها تجاوزا كبيرا. وهي مسخرة في الأساس لإعطاء صورة عن مدى شعبية هؤلاء الأقطاب الطرقيين أو أولئك، ولتعداد كراماتهم الصوفية والتعريف بها[11]. وعلى العموم، فإن حجم النصوص السيرية في التصوف يظل مع ذلك غير كبير إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وجود أعداد هائلة من الطرق والطوائف الصوفية في مختلف أنحاء البلاد. غير أن هنالك إمكانية للحصول على معطيات سير مماثلة عن جوانب من حياة أقطاب التصوف، ضمن جل النصوص التاريخية أو كتب التراجم العامة، كما هو حال كتاب محمد القادري **نشر المثاني** (فاس، 1892).

واستطاع المغاربة أن ينتجوا، في ما بين 1865 و1920، أكثر من 38.000 نسخة من كتب التصوف، فاحتلت أدبياته أبرز مكانة على الساحة الفكرية للبلاد[12]. والسمة المميزة لهذه الأدبيات الصوفية، هي أن معظمها موجه لعامة الناس، للرفع من عدد المنتمين إلى الطرق والطوائف الصوفية أو لفسح المجال أمام تلك الأدبيات لتكون قابلة للتسويق من طرف الناشرين والطابعين. ومهما يكن، فإن الحجم الكبير للكتب الصادرة في التصوف كان دليلا واضحا على التحول الذي طرأ على صناعة الكتب.

ففي عصر المخطوطات، كانت الكتب تؤلف للنخبة ولعلية القوم المتبوئين أعلى مراتب السلم الاجتماعي في المغرب. أما في عصر الطباعة، فقد أصبح عامة القراء هم العناصر الجديدة المستهدفة التي بدأت تشكل الزبون الرئيسي لصناعة الكتاب. ولم تقتصر تلك الظاهرة على كتب التصوف، بل شملت حقولاً معرفية أخرى كالعلوم الفقهية وغيرها من التخصصات.

---

(11) حمدون الطاهري، **تحفة الإخوان**، ص. 39، 97، 106، 130، 141، 199.

(12) حصلنا على هذا الرقم اعتمادا على 128 عنوانا، بمعدل 300 نسخة من كل عنوان، ويستثنى من ذلك الرقم الإجمالي عدد المجلدات الإضافية التي قد تتكون منها بعض العناوين، وكذا الطبعات الثانية أو الثالثة الصادرة لنفس العناوين.

2 ـ علوم الفقه والشريعة

احتلت كتب الفقه المالكي الحيز الأكبر الثاني ضمن مجموع الكتب المطبوعة في المغرب في ما بين سنتي 1865 و1920. والمعلوم أن المبادئ التي يقوم عليها المذهب المالكي، واردة في الكتاب الذي وضعه الإمام مالك بعنوان **الموطأ**، والذي يعتقد أنه وصلنا عبر تلامذته بطريقة شفوية أو في شكله النهائي المكتوب[13].

ويقدم كتاب **الموطأ** مجموعة من المبادئ الدينية في محورين أساسيين : يتناول المحور الأول مجال العبادات بمفهومه الواسع، أي كل ما له علاقة بممارسة المسلمين لمختلف الشعائر والطقوس الدينية. ويتعلق المحور الثاني بجانب المعاملات الذي يتناول فيه مختلف الضوابط التي يجب أن تتحكم في العلاقات بين المسلمين أثناء ممارساتهم لمختلف أنشطة الحياة اليومية بكل جوانبها. وقد قسم كلا المحورين إلى فصول عديدة تضمنت بدورها أقساما إضافية حسب المواضيع. وإنه لمن الأهمية بمكان الحديث عن هذا القالب الذي قدم فيه الإمام مالك كتابه **الموطأ**، لأن جل النصوص الفقهية الأخرى الموجودة في المغرب قد اقتدي في وضعها بنموذج كتاب مالك بن أنس. وهناك نقطة أخرى لها دلالاتها ولابد من الإشارة إليها، وهي أن العلماء المغاربة بالرغم من حرصهم منذ فترات تاريخية طويلة على الحفاظ على كتاب **الموطأ**، فإن استعمالهم المباشر لنصوصه الأساسية كان يأتي دائما في المرتبة الثانية أو الثالثة بعد **مدونة** سحنون **ومختصر** الشيخ خليل. ويعتقد أن **المدونة** عبارة عن تأليف جمعت فيه مختلف الآراء والأحكام الدينية الصادرة عن الإمام مالك في بعض القضايا التي عاصرها في حياته. وكان إنجاز ذلك العمل على يد الإمام سحنون خلال القرن التاسع الميلادي، فأصبح منذ ذلك الحين المرجع الأساسي لأدبيات الفقه في بلدان الشمال الإفريقي[14]، وربما إلى حدود القرن الرابع عشر الميلادي حين ألف الشيخ خليل بن إسحاق كتابه **المختصر** فحل محله وتبوأ مكانته الرفيعة بصفته أبرز كتاب في الفقه المالكي. وقد اقتدي في وضع كل من **المدونة والمختصر** بمنهجية الإمام مالك في **الموطأ**. وفي الواقع، يعتبر كتاب **المختصر** تلخيصا لتلخيص[15]. وما يهمنا هنا هو أن غالبية النصوص الفقهية التي عرفت طريقها إلى الطبع في المغرب ما بين سنتي 1865

(13) J. Schacht, «Malik ibn Anas», in **Encyclopædia of Islam**, n.e, vol. VI, p. 2163.

(14) محمد أبو زهرة، **مالك**، ص. 259ـ263.

(15) عبد الهادي الحسيسن، «موقف السلطان...»، في **دعوة الحق**، العدد 246 (مارس 1985)، ص. 161.

و1912 هي شروح وحواش على الكتب الثلاثة سابقة الذكر، وخاصة كتاب **المختصر**[16] الذي كان يشكل المرجع الأساسي الأكثر استعمالا لدى المدرسين والعلماء في المغرب إبان تلك المرحلة[17]. وبالإضافة إلى ذلك، كانت كل الشروح المنشورة آنذاك محررة على النمط التقليدي.

لقد عمد المالكيون الأوائل، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون[18]، إلى إرساء دعائم ثلاثة أشكال تعبيرية بغية التمكن من الحفاظ على الأصول التقليدية والعمل على نقلها من جيل إلى آخر. وكانت تلك الأشكال هي الشروح والمجاميع والمختصرات. فأما الشروح، فيمكن التمييز فيها بين صنفين : أحدهما شمولي والآخر جزئي. وغالبا ما نجد نصين أو أكثر في الصنف الأول. فنجد مثلا، أن **شرح الخرشي على مختصر خليل** يتضمن كتاب **المختصر** كاملا فضلا عن الشروح التي وضعها له الخرشي والتي تناوله فيها مفصلا جملة فجملة. كما يتضمن الكتاب أيضا تعاليق وشروحا هامشية وضعها الناشر، وهو الروندة الذي كان من كبار قضاة فاس في ذلك الحين[19]. وهنا لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة، وهي أن مثل تلك الأعمال الضخمة لم يكن من السهل الحصول عليها قبل عصر الطباعة، وخاصة في المراكز ذات النشاط الثقافي الضعيف أو في المناطق النائية من البلاد. غير أن استعمال الطباعة مكن جل المراكز الأساسية في المغرب من الحصول على نماذج ـ على الأقل ـ من نسخ تلك الكتب[20]. لم نتمكن ـ حتى الآن ـ من معرفة التأثير الذي كان لتوافر مثل تلك النصوص على الرفع من مستوى الحركة العلمية في المغرب، غير أن النتائج كانت واضحة للعيان بفضل تكنولوجية الطباعة. كما يسرت تلك التكنولوجيا على الأفراد العاجزين لسبب أو آخر عن التنقل إلى فاس، إمكانية الاطلاع على النصوص المالكية في أماكن إقامتهم أو في المناطق القريبة منهم.

أما الشروح الجزئية، فإنها تشكل غالبية مؤلفات الفقه المنشورة بنسبة ثلاثة على أربعة، وعادة ما كانت تصدر على شكل كتيبات صغيرة من الحجم المتوسط.

(16) توجد لائحة لكتب الشروح حول **المختصر** عند : عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 142–143.

(17) أحمد البلغيثي، **الابتهاج**، الجزء 1، ص. 150.

(18) ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 245.

(19) عبد السلام الرندي، «حديث»، ص. 1.

(20) كان المخزن يتوصل بعشر الكتب الصادرة، كانت تسلم في جامع القرويين. وتتولى هذه المؤسسة نفسها توزيع نسخ منها على الجوامع الكبيرة بمختلف أرجاء البلاد. المنوني، **مظاهر**، الجزء 1، ص. 300.

ونذكر من بين النماذج المعروفة في هذا الإطار كتيبا للقلصادي، **إرشاد المتعلم** (فاس، 1876) عن التشريعات الخاصة بالميراث، وكتاب **الرحلة** (فاس، 1888) لابن أبي بكر بن كيران في مناسك الحج **والتحفة** لمحمد المرغيتي (فاس، د.ت) عن الذبائح.

وقد اهتم الناشرون بإصدار مثل هذه الكتيبات والملازم نظرا لإقبال عامة الناس عليها إقبالا كبيرا. وتستمد هذه الملاحظة أهميتها من الإرشادات الفقهية التي كان الناس بحاجة إليها كانت تتم في عصر المخطوطات بصورة شفوية أو على مستوى محدود كتابة. وبفضل المطبعة أصبحت الإرشادات والتعاليم الفقهية مطبوعة ومحفوظة ومن ثم عمومية، بمعنى أنها أصبحت قادرة على الانتقال أو الانتشار في مختلف أرجاء المغرب بمجرد قيام الناشرين والموزعين بتوفيرها في السوق. ومن النتائج غير المباشرة لرغبة الناس في اقتناء الكتيبات والملازم هو الظهور التدريجي وغير الملحوظ لنوع جديد من الخطاب أو الأسلوب الكتابي الذي يتسم بالمباشرة والوضوح وسهولة الفهم، وهذا على العكس من الأساليب الفقهية المعقدة الشائعة في عصر المخطوطات.

وهكذا ــ وكما كان حدث لأدبيات التصوف الشعبية ــ حدثت حركة انتقال من عصر إلى آخر ومن أسلوب إلى آخر، شارك فيها مجموعة من العلماء والناشرين بفضل المطبعة. ولقيت تلك المحاولة الانتقالية اعتراضا من عدد قليل من العلماء أمثال محمد السباعي[21]، غير أن غالبية العلماء استمروا في الاتصال بالجمهور بواسطة الطباعة، فكان ذلك هو السبب الذي جعل الكتب ذات الأحجام الصغيرة وغيرها من الكراسات التي كانت تتناول مواضيع معينة، تحظى بالمكانة الثانية من حيث الشعبية مباشرة بعد أدبيات التصوف.

وأما الطريقة التعبيرية الثانية في ميدان الفقه بعد الشروح فهي المجاميع. وكان ما يرمي إليه المؤلف في هذا الصنف من الكتابة، هو العمل على توفير مصدر مرجعي يمكن أن تجتمع فيه المبادئ الأساسية للمذهب المالكي بالشكل الذي يسمح بالرجوع إليه عند الحاجة شريطة أن تكون المضامين مطابقة لروح المذهب وتقاليده. وكانت أدبيات المجاميع تتميز بضخامة تآليفها. وأبرز نموذج في هذا الصدد هو كتاب **المعيار المعرب** لأحمد الونشريسي والواقع في إثني عشر مجلدا والذي نشرته جماعة من علماء فاس عام 1896. ويحتوي هذا الكتاب على أهم الفتاوي الصادرة عن العلماء

(21) لمزيد من التفاصيل حول معارضة السباعي للطباعة، انظر الفصل الخاص بالعلماء والطباعة.

في كل من الأندلس وبلدان شمال إفريقيا إلى حدود القرن السادس عشر. والنموذج الثاني ذو الأهمية البالغة هو كتاب **المعيار الجديد** (فاس، 1910) من تأليف المهدي الوزاني، والذي يمكن اعتباره استمرارا وتكملة لمؤلف الونشريسي سابق الذكر، لأنه يحتوي على فتاوي أخرى مهمة تمتد من الناحية الزمنية إلى حدود القرن التاسع عشر. وتتميز أدبيات المجاميع عن الشروح الشمولية، بأنها يُركز فيها على تطبيق التشريعات المستجدة التي تبدو غير واضحة في النصوص المالكية الأساسية كما هو حال **الموطأ** **والمختصر**. هذا في حين تستعمل الشروح الشمولية لتبليغ المعطيات المعرفية الثابتة للمذهب المالكي، ولكنها تكون مرفقة بالشروح والتفسيرات التي تساعد على فهمها بطريقة سليمة ومطابقة لأسس المذهب.

غير أنه في الوقت الذي كان فيه الناشرون والمؤلفون والمصححون يعملون على إصدار نشرات مصغرة من الشروح الشمولية خدمة لجمهور القراء، كانوا يزودونهم أيضا بنصوص مقتضبة تتضمن الفتاوي الصادرة عن مشاهير العلماء في مواضيع وقضايا مختلفة سواء أتعلق الأمر بمحور العبادات أم المعاملات. ونجد في هذا الشأن منشورات مهمة نذكر منها، **الأجوبة الصغرى** (فاس، د.ت) لعبد القادر الفاسي، **وأجوبة** (فاس، 1893) للمدني كَنون، **والدر النثير** (فاس، 1892) لإبراهيم بن هلال. وهنا أيضا كانت الغالبية العظمى من هذه الأدبيات موجهة إلى فئات عريضة من القراء والعلماء والمستعملين بهدف تحقيق أرباح مادية.

وكان **المختصر** هو ثالث الأشكال التعبيرية الموظفة في ذلك الإطار نفسه. غير أنه لم يكن يقتصر فيه من حيث المضمون على الفقهيات فقط، بل نجد بين المواد المطبوعة مجموعة متنوعة من المختصرات تغطي مواضيع أخرى كالنحو والمنطق والبلاغة والطب وغيرها من الفروع المعرفية، وقد قُدم العديد منها بطريقة نظمية[22]. أما عن القيمة التربوية والاجتماعية والعَلمية لكتاب **المختصر**، فقد سبق لنا أن عرضنا لها بالمناقشة في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وظلت تلك القيم نفسها في غالبيتها سارية المفعول سريانا مستمرا خلال عصر الطباعة.

وكانت تلك المختصرات مغايرة للشروح الجزئية وللمجاميع الصغيرة التي كان يهتم فيها مؤلفوها بتسطير سلسلة من المعطيات النظرية أو التطبيقية المنفردة أو

(22) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص. 82-85.

التعددية في قالب لغوي بسيط ومباشر نسبيا. فإذا أخذنا نماذج من بعض المختصرات كما هو حال **المختصر** للشيخ خليل بن إسحاق أو **ألفية** ابن مالك، أو **سلم** الأخضري، وجدناها مؤلفات تتضمن معرفة ملخصة ولكنها محشوة بالعديد من المصطلحات الدقيقة في الفقه والنحو والمنطق وغيرها، مما يجعل فهمها متعذرا إلا على العلماء الذين تسمح لهم كفاءاتهم بإدراك معانيها العميقة وتقديم شروح لها سواء من خلال الكتابة والتأليف أم من خلال الدروس التي يلقونها في الطلبة والمتعلمين. كما توجد العديد من الشروح المختلفة المطبوعة على جل المختصرات. فإلى جانب **شرح الخرشي** حول **مختصر** الشيخ خليل، نجد أزيد من عشرين شرحا آخر اهتم واضعوها بتغطية كل القضايا والمواضيع الواردة في **المختصر**. ويصح ذلك أيضا عن **الألفية** التي توجد عليها أكثر من عشرة شروح مختلفة، منها كتاب **إرشاد السالك إلى فهم ألفية ابن مالك**[23] للطرنباطي، والذي هو كتاب ذائع الصيت واسع الاستعمال.

ومن الأمور البالغة الأهمية عن نماذج المختصرات بوجه عام، أنها مكنت العناصر الاجتماعية ذات المستوى المعرفي البسيط خلال عصر المخطوطات من تعميق معارفها البسيطة تعميقا لم يفض، في نهاية المطاف، إلى المس بامتيازات العلماء، الذين استطاعوا الحفاظ مع ذلك على اختصاصاتهم ومكانتهم بصفتهم أقطابا لنشر العلم وحماة للنصوص الفقهية الأصيلة للمذهب المالكي. لكن بعد الشروع في استعمال الطباعة، وما ترتب عنه من توفير للنصوص الكاملة الشروح الشمولية والجزئية معا على العديد من الجوانب المتعلقة بالفقه المالكي، أصبح من الضروري حدوث تحول في الاعتماد المعهود على كفاءات العلماء.

ثانيا ـ الأدبيات السياسية

سبق القول بأن أكثر من نصف الكتب المطبوعة في المغرب ما بين سنتي 1865 و1920، قد اهتمت بتغطية موضوعين أساسيين هما الفقهيات والتصوف. وعليه فإنه لا يوجد سوى عدد بسيط لا يتجاوز العشرين عنوانا من المؤلفات التي اهتم فيها العلماء المغاربة بمعالجة مختلف قضايا الساعة التي كانت تهم البلاد أهمية سياسية كبيرة في تلك المرحلة.

(23) المرجع السابق، ص. 122، 142ـ143.

ومن القضايا السياسية التي شملتها الكتب المطبوعة قضية الجهاد ضد البلدان الأوربية وخاصة فرنسا التي شرعت تدريجيا في تنفيذ مشروعها الهادف إلى إدخال المغرب في نطاق نفوذها السياسي والاقتصادي ؛ وقضية التعاون بين المسلمين وأعدائهم الغزاة الأوربيين ؛ وقضية الحرية بمفهومها الإسلامي أو بمفهومها الغربي الأوربي ؛ وقضية استهلاك المسلمين للسلع والمنتجات الأوربية كالشاي والسكر والشمع وغيره ؛ وقضية الضرائب ؛ وأخيرا قضية تحديث الجيش[24].

وسأقدم هنا الكتاب الذي وضعه محمد جعفر الكتاني (توفي سنة 1927) بعنوان **نصيحة أهل الإسلام**، مع الإشارة إلى بعض النقط المتعلقة بالكاتب وإلى الأسباب التي جعلت كتابه يتبوأ مكانة هامة في الأدبيات السياسية التي عرفت طريقها إلى الطبع في ذلك الوقت. لقد كان الكتاني ــ حسب عبد الحفيظ الفاسي أحد تلامذته ــ نموذجا من نماذج العلماء والفقهاء التقليديين[25]. وفي المغرب، حيث يعتبر الانتماء إلى أصول سلالية عريقة من العوامل التي تتحكم في الحركية الاجتماعية ومن الشروط الضرورية للاعتراف بمكانة الفرد، كان ينظر إلى الكتاني وبقية أفراد أسرته بأنهم من أقدم الأسر الإدريسية وأعرقها في البلاد، كما كان يعتقد أن لهم قرابة دم مع أفراد الأسرة السلطانية. وكان جعفر والد الكتاني، وعمه عبد الكبير من أكبر علماء زمانهما في المغرب، كما كانا معا على رأس الطريقة الكتانية وزاويتها إلى جانب اهتمامهما معا بالكتابة والتأليف. وبلغ عدد الكتب المطبوعة المنسوبة إلى أعضاء الأسرة الكتانية حوالي خمسين عنوانا من مجموع الكتب التي طبعت في المغرب ما بين سنتي 1865 و1920، والبالغ عددها حسب المعلومات الحالية، حوالي ستمائة عنوان[26].

---

(24) نذكر فيما يلي أبرز نماذج الأدبيات التي تناولت مثل هذه القضايا : محمد المدني كَنون، **أربعون حديثا في فضل الجهاد** (فاس، 1908) ؛ هاشم السعداني، **قصيدة سبب النصر** (فاس، 1908)، وكلاهما في موضوع الجهاد ضد الأوربيين. وكتب محمد الكردودي حول تحديث الجيش كتابا بعنوان **كشف الغمة** (فاس، 1885). وناقشت جماعة من العلماء مسألة قيام مولاي عبد الحفيظ على أخيه السلطان مولاي عبد العزيز في تأليف تحت عنوان : **منشور صادر من علماء فاس** (فاس، 1907). وتناول عبد الحي الكتاني في كتابه **مفاكهة ذوي النبل** (فاس، 1908) مسألة انتقال مقاليد السلطة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى أخيه مولاي عبد الحفيظ.

(25) انظر **معجم الشيوخ**، الجزء 1، ص. 78.

(26) انظر اللائحة الكاملة لمؤلفات أعضاء الأسرة الكتانية عند : عبد الرزاق، **المرجع السابق**، ص. 165–169 ؛ وأيضا عبد الحي الكتاني، **المظاهر السامية**.

وقد تلقى محمد جعفر الكتاني تربيته في البداية على يد والده، واستكملها على يد علماء من ذوي الشهرة أمثال المدني كَنون وحميد بناني والطيب بن أبي بكر بن كيران، الذين كانوا جميعا على صلة بالقصر السلطاني كقضاة أو مربين أو غير ذلك[27]. وقد اقتدى الكتاني بمن سبقه من العلماء، فدرس أدبيات الفقه والحديث وما اتصل بهما من القضايا والمواضيع، إلى أن أصبح من أبرز المتخصصين في الحديث. كما صارت له معرفة كبيرة بميدان التصوف، وخاصة بعد حصوله في ذلك على العديد من الإجازات من زعماء الطرق الصوفية كالزروقية والدرقاوية والكتانية والمعينية والناصرية والفاسية وغيرها[28].

وقد سعى الكتاني من وراء تحقيق مزيد من القوة لمكانته العلمية، فتمكن من تعزيز معارفه الأولى عن طريق الاتصالات الشخصية مع بعض علماء المشرق في مواسم الحج، وعن طريق المراسلة ومن خلال الإجازات التي أجازوه إياها. ومن العلماء الذين كان على اتصال بهم، يوسف النبهاني من بيروت، ومحمد أمين البيطار من دمشق، وأحمد الرفاعي من القاهرة، وأحمد البرزنجي من المدينة المنورة، والحسين الباعلوي من مكة المكرمة[29]. وكان أغلب هؤلاء العلماء، وإن لم نقل كلهم، أعضاء نشيطين ضمن مختلف الطرق الصوفية كالرفاعية والنقشبندية والعلوية وغيرها من الحركات التي كانت مناصرة لإيديولوجية الجامعة أو الوحدة الإسلامية تحت الرعاية المباشرة للسلطات العثمانية.

وكانت الفكرة الأساسية التي تتمحور عليها إيديولوجية الجامعة الإسلامية هي العمل على توحيد جهود المسلمين للوقوف في وجه الحملة الاستعمارية التي تشنها الدول الغربية على العالم الإسلامي والتي ترمي بها إلى إلحاق أجزائه الترابية بممتلكاتها تدريجيا. ولما كان الكتاني عضوا فاعلا في الزاوية الكتانية الطريقة الصوفية ذات النفوذ الكبير في المغرب مع كل ما كانت تتمتع به من امتيازات، فقد كان من الطبيعي جدا أن تستهويه أفكار الجامعة الإسلامية، خاصة وأن المغرب كان أيضا ضمن البلدان التي تستهدفها الدول الغربية التي لو نجحت في تحقيق أهدافها لوضعت حدا نهائيا لتطبيق قوانين الشريعة الإسلامية التي كانت دوما الدرع الواقي لمصير البلاد

(27) عبد الحفيظ الفاسي، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 79-81.
(28) المرجع نفسه، ص. 81.
(29) المرجع نفسه، ص. 80.

ووجودها. وشكلت هذه الإيديولوجية التي نسجتها الجامعة الإسلامية فيما بعد، الفكرة الجوهرية التي تمحور عليها كتاب الكتاني المعروف بعنوان **نصيحة أهل الإسلام**.

وعلى الرغم من الكتب العديدة التي ألفها محمد جعفر الكتاني سواء في التصوف والتراجم أم في الحديث والفقه، فإن كتابه **نصيحة أهل الإسلام** قد انفرد عنها بشهرة ومكانة ظلتا عالقتين في الأذهان[30]. وربما يعود ذلك إلى أن مؤلفاته الأخرى لم تكن تختلف عن كتابات غيره من حيث نهجها التقليدي السائد وقتئذ. في حين تضمن كتاب **نصيحة أهل الإسلام** خطابا تناول موضوعا حيويا له دلالات مصيرية عديدة انطلاقا من تعبيره عن التخوفات والطموحات التي كانت تشغل بال المغاربة سنة 1908، تاريخ صدور الكتاب. ويمكن تفسير الشعبية الكبيرة التي حظي بها كتاب الكتاني بما تضمنه من خطاب بسيط ومباشر وُجه بكل ما كان يقتضيه الموقف من جرأة وشجاعة للمسؤولين عن الجهاز المخزني لحثهم على أن يجدوا في معالجة الحالة المتردية التي كانت عليها البلاد.

وتضمنت النصائح التي وجهها الكتاني[31] للمخزن قضايا أساسية، منها، إعادة وحدة البلاد وإحياء فكرة الجهاد والتشبث الصارم بتعاليم الشريعة الإسلامية والتخلي عن كل ما شُرع في تبنيه من القوانين الوضعية الأوربية، بما في ذلك جميع أشكال التعاون مع البلدان الغربية. وعلل الكتاني طروحاته بأنه لا خير يرجى للإسلام يكون مصدره الأوربيون الذين لا يهمهم إلا بسط سيطرتهم على أراضيه[32].

وإذا انتبهنا إلى أن كتاب **نصيحة أهل الإسلام** قد نشر ووزع في المغرب خلال سنة 1908، أمكننا تأكيد أن عملية نشره لابد وأن تكون قد حظيت بتشجيع العناصر المعارضة وقتئذ لسياسة السلطان مولاي عبد العزيز ومؤازرتهم، مساهمة منهم في تيسير انتقال مهام السلطة إلى أخيه مولاي عبد الحفيظ. ولم تكن المعارضة القائمة ضد مولاي عبد العزيز تنحصر في شخص أخيه مولاي عبد الحفيظ الذي أصبح سلطانا جديدا للبلاد سنة 1908، بل تمثلت أيضا في الطريقة الكتانية

---

(30) المنوني، **مظاهر**، الجزء 2، ص. 384–388.

(31) **المرجع نفسه**، ص. 376.

(32) **نفسه**، ص. 379.

المساندة لحركة المولى عبد الحفيظ، فشكلت القاعدة الدينية الضرورية التي منحته شرعية إقصاء أخيه من صرح السلطنة[33].

ولابد من التذكير هنا بأن الطريقة الكتانية كانت أمامها خلال الفترة المذكورة إمكانية الاستفادة من خدمات مؤسستين مطبعيتين لنشر أدبياتها ومؤلفات علمائها والعمل على توزيعها. ومع ذلك، فإن النقطة الهامة ذات الدلالات العميقة لا تكمن في ظروف نشر كتاب **نصيحة أهل الإسلام** ولا في العناصر المؤيدة لتحقيق ذلك، بل تكمن فيما مثلته من تحول طرأ على أسلوب الأدبيات السياسية في البلاد وطبيعتها. وقد انتقلت تكنولوجية الطباعة من مستوى استعمالها في إنتاج الأحزاب والأدبيات التعبدية الموظفة في توحيد صفوف المغاربة من خلال الطقوس وما تنطوي عليه من رموز، إلى مستوى إنتاج شكل طلائعي جديد من الأدبيات السياسية المتضمنة لقضايا العصر الحيوية والموجهة بلغة بسيطة ومباشرة إلى كل الأطراف المعنية. وفي الواقع، انطلقت البدايات الأولى لهذا التحول مع بداية تسعينيات القرن التاسع عشر، حينما ارتفع حجم العمليات المطبعية، نتيجة عدم الاقتصار على المؤسسة المطبعية الوحيدة تحت إشراف الأخوين الأزرق واتساع نطاقها، لتصبح ما بين ست عمليات مطبعية وسبع. وترتب عن ذلك احتداد المنافسة بين الناشرين في الحصول على نصيبهم من السوق، خاصة وأن الكتب الشعبية ومثيلتها ذات القضايا المعاصرة كانت محط اهتمام الناشرين والطابعين، ومن نماذجها **كشف الغمة** للكردودي[34] في موضوع الجهاد، وكتاب **أجوبة** (فاس، دون تاريخ) الذي يجيب فيه مؤلفه التسولي على الأسئلة التي يطرحها عليه الأمير عبد القادر الجزائري عن مسألة تعاون مسلمي الجزائر مع الغزاة الفرنسيين ضد مصالح بلادهم. وهكذا يمكن اعتبار كتاب الكتاني **نصيحة أهل الإسلام** إلى حد ما، استمرارا لذلك الصنف من الأدبيات، وإن كان مع ذلك أكثر جرأة في توجيه انتقاداته الشديدة إلى الجهات المسؤولة عن تسيير شؤون البلاد بصورة مباشرة مفتوحة.

ومعنى هذا كله أن الأدبيات السياسية لم تكن جديدة في حد ذاتها، بل هي قديمة قدم الحضارة الإسلامية، ولكنها ـ بفضل الطباعة ـ أصبحت خطيرة على المخزن كما هي خادمة لأغراضه لسهولة شيوع الأفكار بواسطتها.

(33) عبد الحي الكتاني، المرجع السابق، الجزء 1، ص. 110-111.

(34) انظر الهامش رقم 24.

ثالثا ـ أدبيات الإصلاح

إلى جانب المواضيع التقليدية والأدبيات ذات الإيديولوجيات المتحجرة، كانت بعض الأعمال ذات الأهمية والدلالات الخاصة نذكر من بينها، كتاب الصبيحي **أصول أسباب الرقي الحقيقي**، **والإنصاف** (فاس، 1915) لمحمد بوجندار، **والداء والدواء** (فاس، 1919) لعبد الحفيظ الفاسي. وقد تميزت هذه النماذج بتدشين مؤلفيها طرقا جديدة في التفكير تهدف إلى إصلاح أحوال المغرب.

وسأكتفي هنا بمناقشة ما جاء عند الصبيحي في كتابه **أصول أسباب الرقي الحقيقي**، بغية تسليط المزيد من الأضواء على مدى أهمية الدور الذي قام به المفكرون للتأثير على أوساط القراء بواسطة الطباعة. وبصفة عامة، فإن غالبية الكتابات في موضوع الإصلاح ظهرت إلى الوجود خلال فترة الحماية الفرنسية بل وتأثرت بوقعها تأثرا كبيرا. وفي الوقت نفسه كتب أدبيات الإصلاح علماء كان تاريخ ولادتهم ومرحلة نضجهم هي السنوات الممتدة ما بين ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، أي في الوقت الذي بدأت تنتشر فيه على الساحة الكتب المطبوعة عن المواضيع المرتبطة بقضايا الساعة. كذلك أنتجت غالبية نصوص تلك الأدبيات، وخاصة منها كتاب الصبيحي ونشرت مباشرة بعد خضوع المغرب لسلطات الحماية الفرنسية وإدارتها بمدة قصيرة. وبناء على ذلك، يمكن اعتبار تلك الأدبيات إلى حد ما، امتدادا للأدبيات التقليدية، خاصة وأن طبيعة الاتجاهات الإصلاحية التي كانت تدعو إليها مشابهة تماما لمثيلتها الصادرة من قبل عن رجال الإصلاح المسلمين الأوائل أمثال كاتب جلبي وإبراهيم متفرقة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ولد أحمد بن محمد الصبيحي سنة 1882[35] بمدينة سلا الواقعة على الضفة اليمنى لوادي أبي رقراق الذي يفصلها عن مدينة الرباط التي اختارتها سلطات الإدارة الفرنسية لتصبح عاصمة سياسية جديدة للمغرب بدلا من العاصمتين السلطانيتين التقليديتين فاس ومراكش. وقد تلقى الصبيحي تعليمه في المدارس الإسلامية العتيقة، على غرار غالبية المعاصرين له. وكان من المتوقع أن يؤهله تعليمه كغيره من بقية أبناء أسر الأعيان، إما لممارسة القضاء وإما ليصبح رجل أعمال. وبالفعل، تمكن الصبيحي من أن يصبح محتسبا في مدينة مكناس سنة 1917، وعادة ما كانت تسند

(35) محمد الدكالي، **الإتحاف الوجيز**، ص. 176.

مهمة الحسبة إلى كبار القضاة والفقهاء، بل لبعض رجال الأعمال المتمرسين بشؤون التجارة في البلاد.

وفي دجنبر 1917، أنهى الصبيحي كتابة مقال صغير لا يتجاوز اثنين وثلاثين صفحة، ولكنه على مستوى من الأهمية، وهو بعنوان : **أصول أسباب الرقي الحقيقي، وهي رسالة إلى أهل المغرب الأقصا**.... وقد ركز الصبيحي جهوده الفكرية في مقاله على تزويد مخاطبيه بالبرنامج الوطني الذي تصوره كخطة لتحقيق التقدم دون أن يعتمد في ذلك على الأفكار التقليدية المعهودة أو على الإيديولوجية المعادية للغرب، بل على فكرة التعليم واقتباس النظريات والطرائق الجديدة من الأوربيين ــ ويعني بهم الفرنسيين ــ في مختلف ميادين العلوم، وخاصة التطبيقية. وشعورا منه بالقيمة الكبيرة لأفكاره الجديدة، وحتى يمنحها ما تستحقه من الحماية، أقدم الصبيحي على خطوة لم يسبق لأحد قبله أن قام بها في المغرب، ألا وهي تسجيل حقوق تأليفه حماية له من عبث العابثين. وحتى نتمكن من إدراك طبيعة النظرة التي كانت عند الصبيحي إلى فكرة التقدم نورد فيما يلي مقتطفات من مقالته لنتتبع عن كثب قيمتها الفكرية وأسلوبها في التعبير والدلالات التي تنطوي عليها في علاقتها مع استعماله تكنولوجية الطباعة لنشر أفكاره وإذاعتها بين الناس.

افتتح الصبيحي مقالته بالحديث عن بعض الأسباب التي جعلته يكتبها، فقال :

«[...] ولا غرض لنا في هذه العجالة بشرح ذالك كله وإنما غرضنا التفات إخواننا المغاربة :

أولا، إلى تقصيرنا في كثير من العلوم كالتفسير الذي هو شرح كلام الله الذي هو الأصل الأصيل لديننا المنيف، والحديث الذي هو كلام خير خلق الله الجامع لجوامع الكلم ونوابغ الحكم.

وثانيا، إلى إهمالنا لكثير منها كالطب الذي هو علم الأبدان المحتاج إليه في كل الأزمان. وبقية العلوم الطبيعية والرياضية إلا النادر، مع أنها جميعها قد اعتنى بها علماء الإسلام وألفوا فيها التآليف البديعة في نفسها وباعتبار وقتها. قلت في نفسها وباعتبار وقتها لأن بعض العلوم السابقة كالطبيعية والرياضية والاستعمارية قد مهر فيه الأورباويون مهارة عجيبة وتفننوا في تحقيقه وتنقيحه تفننا صير ما تقدم فيه لأسلافنا السابقين في طي الإهمال. وإنما اللوم كل اللوم علينا معشر خلفهم الذين

لم نبال بهم مبالاتهم، فنبني على ما أسسوه وننقحه التنقيح الذي عندنا من وسائله ما لم يكن عندهم. فلنقبل معشر المغاربة على تعلم سائر العلوم، وليكن لنا في كل واحد منا مقام معلوم. ولنتبع علومنا الشرعية بتلك العلوم الأخرى المرعية، ولنكفر سيئة تقصيرنا السابق في حقها بذالك. ولنكرع من حياضها الدافقة في أقرب المسالك، فبها سادت الأمم وصارت اليوم في الطريق المدني الأقوم. ولا التفات إلى طعن بعض الطاعنين في بعضها، فإن العلوم من حيث هي علوم لا يمكن أن ينالها الذم بحال.

[...] ثم إن التعليم عندنا بالمغرب أهم أسباب تأخر العلم فيه :

أولا من عدم تنظيمه كما ينبغي. فترى الطالب المبتدئ يدخل المسجد لقراءة النحو مثلا، فيجد المدرس يدرس الألفية بالمكودي والموضح، وربما كان في أواخرها، فيجلس أمامه وهو إلى الأجرومية أحوج. وحيث يكون بصدد الطلب ويريد عمارة اليوم فيذهب في وقت ءاخر لمدرس ءاخر فيجده يُقرئ مختصر خليل بشرحي الخرشي والزرقاني وحاشيتي البناني والرهوني، وربما في البيوع أو الإجازة، فيجلس أمامه بحكم الاضطرار وهو إلى المرشد المعين والعشماوية أحوج. وهكذا يقرأ الطلبة بلا ترتيب ولا تدريج فلا ينتج واحد في المائة.

وثانيا من عدم مراعاة بعض المدرسين لحال طلبتهم، فتراه يتشدق بجلب الأنقال الغريبة [...] والحال أن الطلبة أمامه غير مستعدين لذالك [...].

وثالثا من اهتبال غالب مدرسينا هداهم الله بالحفظ والإلقاء دون الفهم والتفهيم، مع أن المقصود من التعليم إنما هو حصول صورة الشيء في عقل المتعلم [...].

فينبغي لنا معشر المغاربة أن نسهل للعلم أسبابه، ونفتح للتعليم الصحيح أبوابه»[36].

وقبل التعليق على هذه المقتطفات المأخوذة من رسالة الصبيحي، لابد من الإشارة إلى أن موضوعها المركزي كان يتمحور على الدعوة إلى ضرورة الاستفادة من مختلف العلوم، وخاصة منها الصناعة والفلاحة والنظريات الاقتصادية الحديثة بما فيها الجوانب المتعلقة بالتجارة. وإذا كانت للمغرب رغبة في الالتحاق بمصاف الدول التي قطعت أشواطا في التطور الاقتصادي والاجتماعي، فمن الواجب إدماج المواد العلمية ضمن مكونات النظام التعليمي والتربوي للبلاد.

(36) أحمد الصبيحي، أسباب، ص. 3-10.

وحتى ندرك بعمق طبيعة الأفكار الجديدة والأسلوب الذي استخدمه الصبيحي في تقديمها، نلفت الانتباه إلى أنه قد عمد في مستهل رسالته إلى توضيح نقطة مهمة لمخاطبيه المشبعين في غالبيتهم بالأفكار التقليدية، فأكد لهم إيمانه الراسخ بصلاحية الدين الإسلامي صلاحية مستمرة لفائدة بني الإنسان مهما تعاقبت الأحقاب وتقلبت الأزمان. وبناء على ذلك، لا يجب تأويل دعوته الهادفة إلى تبني المغرب للمناهج العلمية الغربية غير التقليدية بأنها دعوة إلى التخلي عن الإسلام بل هي ـ على العكس من ذلك ـ من أنجع السبل المؤدية إلى تقوية الإسلام وتدعيم أركانه. وحين حاول الصبيحي تأكيد مدى تشبثه بإيمانه العميق بالإسلام، لم يلجأ إلى توظيف مقتطفات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وفقا للنهج المعهود لدى العلماء التقليديين لإقناع مخاطبيهم بتقبل التكنولوجيا أو الأفكار الوافدة من الغرب، بل نجده على العكس من ذلك، يحيل قراءه على أسماء العديد من المفكرين أو الفلاسفة غير المسلمين، أمثال فولتير (Voltaire) وإسحاق تايلور (Isaac Taylor) وشبلي شميل (Shibly Shumayyil)، الذين هم من المفكرين الغربيين الذين كانت وجهات نظرهم إيجابية في القيم الخالدة للإسلام ومزاياه الاجتماعية الثابتة[37]. وكانت هذه التقنية الخاصة بتكوين المسلمين لصورة قوية عن شخصيتهم، ظاهرة شائعة في بلدان الشرق الإسلامي، حيث دأب المشرفون على تحرير **المنار** و**المؤيد** و**الهلال** على توظيف تلك الوسائل الإعلامية المطبوعة للاستفادة مما بثته الجامعة الإسلامية من روح وحدوية ومشاعر وطنية في النفوس، رد فعل على العلاقات بين بلدان العالم الإسلامي وأوربا الغربية التي هي علاقات مطبوعة بالصراع. وكانت أسماء الدوريات التي أورد الصبيحي بعضها في مقالته، معروفة ومتداولة في المغرب. وبالفعل، كان لصحيفة **المنار** الناطقة بلسان الجامعة الإسلامية مراسل قار في مدينة فاس وإن كنا نجهل اسمه[38]. وقد حاول الصبيحي الاستفادة من الأرضية التي أرستها وسائل الإعلام المشرقية المطبوعة، لتذكير مخاطبيه بأن اقتباس الأفكار الإيجابية وما إلى ذلك من العلوم والتقنيات وتسخيرها لإحياء الإسلام وتقوية مكانته لا ينطويان على أي انحراف عن السبل القويمة، ما دامت هناك دلائل أثبتت قيام بعض المسلمين بمثل ذلك. وليست أصالة أفكار الصبيحي هي المهمة هنا، بل المهم هو جهوده الطلائعية

(37) نفسه.

(38) انظر المنار، المجلد 8 (1898)، ص. 159.

التي بذلها لتبليغ أفكار غير معهودة إلى عقول جمهور تتكون غالبيته الساحقة من المخاطبين التقليديين، مستعينا في ذلك بتكنولوجية الطباعة.

النقطة الثانية هي أن الصبيحي قدم أفكاره بأنها رؤيا شاهدها في منامه. وعادة ما كان قادة الطرق الصوفية يستعملون الرؤى للتنبؤ بالمستقبل والتأثير بذلك على مجريات الأحداث. وكانت أبرز الرؤى الشائعة بين أقطاب التصوف هي أن يجتمع أحدهم في منامه بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام. وبالفعل، نجد ضمن المطبوعات الحجرية الفاسية، كتيبا صغيرا من تأليف التهامي كَنون عنوانه : **هداية المحب** (فاس، 1891 ؟)، يرشد فيه الكاتب رجال التصوف إلى بعض الممارسات الروحانية التي يمكن أن تساعدهم على مشاهدة الرسول في الأحلام. وبما أن الصبيحي يعي بالقيمة الكبيرة للرؤى في نظر مخاطبيه المستهدفين، فإنه لم يتردد في التأكيد من خلال العنوان الذي وضعه لمقالته، على أن الأساس الذي استلهم منه برنامجه الموجه إلى عامة المغاربة كان مصدره إحدى الرؤى التي شاهدها في منامه بتاريخ 7 دجنبر 1917. ونحن نجد أنفسنا هنا أمام محاولة لتوظيف أداة تقليدية بالغة التأثير جنبا إلى جنب مع تكنولوجية الطباعة، وذلك تيسيرا لإحداث التحول، الذي يعني هنا إصلاح الاتجاهات الفكرية والمناهج التربوية السائدة. وهناك نقطة إضافية مهمة تتعلق بأسلوب الصبيحي في مقالته : إذ بموازاة توظيفه التقليدي لعنصر الرؤيا، نجده يحرص على وضع هوامش تتضمن إحالات بيليوغرافية في أسفل الصفحات كلما استدعى الأمر ذلك. وهي تقنية جديدة، غير مألوفة في النصوص التقليدية، حيث دأب المؤلفون على إضافة بعض النقط الهامشية على جوانب النص وحواشيه، بينما كانت الاقتباسات والإشارات البيليوغرافية تحشر مع المتن الرئيسي للنص. ومن المحتمل جدا أن يكون الصبيحي قد أخذ تلك التقنية من بعض نماذج الكتب والمطبوعات الأجنبية التي ما فتئت تتزايد أعدادها في المغرب. ومع ذلك، لا يسعنا إلا اعتبار الصبيحي في طليعة المفكرين المغاربة الأوائل الذين أدخلوا ما جد من تقنيات الكتابة إلى البلاد بواسطة الطباعة.

وفي أسلوب الصبيحي جانب ثالث مهم، هو ممارسة نوع من النقد الذاتي. ويتضح ذلك من إشارته إلى العلماء المعاصرين له وغيرهم من المنتمين إلى الأجيال السابقة وتحميله إياهم مسؤولية الفشل في الحفاظ على إيقاع الحركية العلمية القائمة على التجديد والإبداع التي دشن انطلاقتها العلماء المسلمون الأوائل. وأكد الصبيحي

أن مثل ذلك الإهمال لم يكن من المنتظر أن يتولد عنه إلا الجمود والركود، بينما عمل الأوربيون جاهدين في البحث عن أسرار العلوم الجديدة التي بنوا على أساسها حضارة مادية حقيقية رفيعة المستوى، فكانت لهم بحق خير وسيلة مكنتهم من بسط سيطرتهم على بلدان العالم الإسلامي. وعلى العكس من ذلك، استمر العلماء المسلمون في تمسكهم الشديد بالأصناف المعرفية العتيقة، بالرغم من كل ما برهنت عليه من عقم كبير من حيث إنتاجيتها[39]. ويذكرنا هذا التوجه النقدي بالأسلوب المماثل الذي كان أوائل رجال الإصلاح المسلمين يستعملونه فيما مضى سعيا في حمل عامة المسلمين على تغيير مواقفهم وإقناعهم بقبول البرامج الإصلاحية المستمدة من النماذج الغربية. وقد استعملها رجال الإصلاح العثمانيون أمثال كاتب جلبي (1657)، والمصريون أمثال رفاعة رافع الطهطاوي (توفي سنة 1873)، والتونسيون أمثال محمود قابادو (توفي سنة 1871) وتلميذه الشهير خير الدين التونسي (توفي سنة 1890). وبالفعل، فإن كتاب خير الدين **أقوم المسالك** الذي جمع بين دفتيه مثل هذه الأفكار الإصلاحية كان موجودا في المغرب بل وسبق للتادلي ـ أحد علماء مدينة الرباط ـ أن وضع تلخيصا له[40].

لقد كان الصبيحي إذن على وعي بمختلف المقاربات الإصلاحية المعروفة في أرجاء العالم الإسلامي، وكان يحاول أن ينقل عصارة تلك الأفكار إلى جمهور المغاربة بواسطة الطباعة. ومن الأمور الأخرى المهمة عند الصبيحي، إشارته إلى الإهمال الكبير الذي لحق بعلوم التفسير في المغرب، وهذا في الوقت الذي يعتبر **القرآن** القاعدة الأساسية للدين الإسلامي. ولا نجد ضمن لائحة الكتب المنتجة في المغرب والبالغة حوالي ستمائة عنوان سوى أربعة عناوين في موضوع الدراسات القرآنية وجلها حول القراءات[41]، دون أن يكون بينها ولو كتاب واحد في التفسير. ولا ينبغي تعليل تلك الثغرة بغياب الاهتمام بـ**القرآن**، لأن جل علماء المغرب كانوا يحفظون آياته في صدورهم. وبدلا من ذلك، يكمن السبب الرئيسي في المبادئ التي أرسى عليها المذهب المالكي أسسه.

وإن الهدف الأساسي من المذهب المالكي هو تطبيق المبادئ الإسلامية وفقا

(39) الصبيحي، المرجع السابق، ص. 16.

(40) المنوني، المرجع السابق، ص. 16.

(41) Levi-Provençal et Ben Cheneb, op. cit., p. 34, item 5, p. 45, item 239

للطريقة التي مارسها أهل المدينة المنورة في الحجاز على عهد الرسول، مرورا بالأجيال اللاحقة حتى عصر الإمام مالك بن أنس، مؤسس المذهب الذي أكد فيه على أولوية الاهتمام بالتطبيق والممارسة بدلا من الانشغال بالجانب النظري(42). وانتقل المبدأ نفسه عن طريق كتاب **المدونة** للإمام سحنون الذي جمع فيه الفتاوي الصادرة عن الإمام مالك في قضايا عصره. ويصح ذلك أيضا عن مؤلف **المختصر** الذي لخص فيه الشيخ خليل مضمون **المدونة**.

وهكذا يعتبر النداء الذي وجهه الصبيحي للاهتمام بمادة التفسير من الأمور المستجدة على التقاليد الدينية المغربية. كما أنه لا يعني للمغاربة سوى التخلي عن النصوص المماثلة لمضامين **المختصر**، التي يعتبرونها مرآة تعكس طبيعة الممارسة الحقيقية للإسلام في كل تجلياته. كما كان الصبيحي يدعو إلى وضع حد لظاهرة التقليد وإلى إحياء الاجتهاد الذي يعتمد بالأساس وبطريقة مباشرة على **القرآن**، والحديث. ونجد في دعوة الصبيحي إلى ضرورة رفض التقليد تأثيرا واضحا للإيديولوجية السلفية المتولدة عن حركات الإصلاح التي تزعمها بعض علماء المشرق أمثال الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا صاحب جريدة **المنار**. ومن المحتمل أن يكون الصبيحي قد تعرف على مكونات الفكر السلفي عن طريق الشيخ أبي شعيب الدكالي(43) الذي كانت له في المغرب مكانة زعيم الإصلاح المصري محمد عبده نفسها. وعلى الرغم من عدم بلوغ الشيخ أبي شعيب الدكالي مستوى الشهرة ودرجة الحيوية التي كان يتمتع بهما الشيخ عبده على صعيد الحركة السلفية عبر العالم الإسلامي، فقد كان يمثل أحد أبرز الوجوه الدينية والفكرية في المغرب دون منازع. وبعد أن قضى الشيخ أبو شعيب الدكالي سنوات عديدة في الدراسة والتحصيل في مكة والمدينة، عاد إلى بلاده والتحق بخدمة السلطان مولاي عبد الحفيظ، فبرزت كفاءاته العلمية محدِّثا ضليعا في أثناء الحفلات الدينية السنوية التي كان يشرف عليها السلطان لقراءة **صحيح البخاري** وختمه. ولقد حاول الشيخ الدكالي إدخال مادة التفسير في البرامج الدراسية لجامع القرويين. ويُعتقد أن الإعتراف السريع الذي

---

(42) عمر الجيدي، **محاضرات**.

(43) عبد الحفيظ الفاسي، **معجم الشيوخ**، الجزء 2، ص. 142ـ144 ؛ جاك كاني، «بعض مشاهير الحركة السلفية في المغرب»، **البحث العلمي**، الجزء 35، ص. 323 ؛

Edmund Burke, «Pan-Islam and Moroccan Resistance to French Colonial Penetration», In **Journal of African History**, vol. XIII, n° 1, pp. 97-118.

حظيت به مكانة الشيخ الدكالي في المغرب يشكل جزءاً من خطة نهجها السلطان مولاي عبد الحفيظ للتقليل من نفوذ الزعماء التقليديين القيمين على الطرق الصوفية المعروفة كالكتانية والتيجانية. ويخبرنا الصبيحي في مقالته أنه بعد أن أنهى تحرير تفاصيل رسالته التي ادعى مشاهدة مضمونها في منامه، وجه نسخة منها إلى الشيخ الدكالي الذي وصفه وقتئذ بأنه وزير للتربية والتعليم. كما نجد ضمن رسالة **أصول أسباب الرقي** عبارات تشجيعية مقتضبة صادرة عن الشيخ الدكالي في حق الصبيحي. ولما كانت لهذا الأخير رغبة في إشهارها بين عموم الناس، أدرجها ضمن مقالته المنشورة[44].

والنقطة الأخيرة التي تهم الخصوصيات المميزة لرسالة الصبيحي، هي تسجيل حقوق تأليفه. وتعني عبارة «حقوق التأليف» إجراءً قانونيا يهدف إلى حماية الأعمال الإبداعية والاختراعات من أن يستعملها أشخاص آخرون ما لم يرخص لهم المؤلف أو المخترع. ويعتبر مفهوم «حقوق التأليف»، في حد ذاته نوعا من التخلي عن التقليد الإسلامي، لأن دور العلماء التقليديين كان منحصرا في الحرص على نقل معرفة معينة وثابتة، والاكتفاء بوضع شروح عليها عبر قوالب جاهزة وطرق متفق عليها مسبقا. وبناء على ذلك، كان العلماء يحصلون على السمعة والمكانة وما يتولد عنهما من فوائد مادية ليس انطلاقا من كونهم قادرين على الخلق والإبداع، بل لكونهم يمثلون صلة الوصل بين الماضي والحاضر، ولأن المعرفة التي كانوا يقدمونها ليست من إنتاجهم الشخصي، بل مصدرها الله تعالى ورسوله. وكانت «حقوق التأليف» عند الصبيحي وغيره من المفكرين الذين أتوا بعده، إحدى المؤشرات العديدة عن بداية تبديل الأحوال والشروع في السير قُدماً في اتجاه الحداثة والعصرنة، وعن الدخول في زمن بدأ يقل فيه اهتمام المتعلمين تدريجيا بدراسة القضايا التقليدية المعهودة وما إليها من الطرق التعبيرية التي برهنت عن كل ما تتسم به من عقم وجمود.

وباختصار، فإن الصبيحي ـ كما بدا لنا من خلال رسالته العميقة **أصول أسباب الرقي** ـ يمثل على الرغم من بساطته، نموذجا ذا دلالات هامة للعلماء والمفكرين الذين استطاعوا تمييز أنفسهم عن الأجيال التقليدية السابقة لهم، بفضل ما تبنوه من إيديولوجيات اتسمت بانفتاحها الكبير، وبمحاولتهم نشرها بين عامة الناس اعتمادا على تكنولوجية الطباعة.

(44) الصبيحي، المرجع السابق، ص. 2.

رابعا ـ الأدبيات الإبداعية :

النموذج الرابع الذي يمثل وجها آخر ـ له دلالته ـ لدور الطباعة وعلاقته بمجال الأنشطة الفكرية، هو حكاية صغيرة بعنوان : **قصة القاضي والسارق**. ومؤلف هذه القصة مجهول، وتبدو في شكلها شبيهة بحكايات **ألف ليلة وليلة**، كما لا تخلو من روح إبداعية ومن دلالات اجتماعية وسياسية عميقة.

يقع النص الكامل لهذه الحكاية المنشورة في كراسة صغيرة من ثماني صفحات، دون أن ترد فيها أية إشارات إلى تاريخ النشر ولا إلى الطابع أو الناشر، ولا حتى إلى الفنان الذي نجح في وضع رسم معبر جدا عن روح القصة ومغزاها وجعله في غلافها الخارجي. ويمكن تعليل غياب هوية الأشخاص الذين ساهموا في نشر القصة بمختلف مراحلها، بطبيعة الحكاية في حد ذاتها. إذ صُور فيها العالم أو القاضي رجلا جاهلا ضعيفا، بينما صُور اللص الذي ترمز به الحكاية إلى فرنسا رجلا قويا يحمل سلاحه في يده وله إلمام بـ**القرآن** والحديث وبالأمثال العربية.

ولو نظرنا لأول وهلة إلى الشكل البسيط المزين لغلاف القصة، لظننَّا أن مضمون الحكاية لم يكن موجها إلا لمخاطبة الصبيان أو الأطفال المغاربة المعاصرين لزمن صدورها. وفي الواقع، كانت تلك القصة الكتاب الوحيد من بين كل الكتب المغربية المطبوعة ما بين 1865 و1920، الذي احتوى صورة لدعم المضمون. لكن حينما ندقق النظر في محتوى الحكاية، ونجد فيها العديد من الإشارات إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها، بالإضافة إلى أسلوبها الهجائي والتهكمي، حينئذ يتضح أن الهدف من مضمون الحكاية هو الترويح عن نفوس عامة الناس والتأثير عليهم بواسطة كتابة إبداعية ذات مقاربة عالية الذكاء. ولابد من الإشارة أيضا إلى أن تلك الحكاية لوحدها، وعلى الرغم من بساطتها، قد وقفت أمام عدد لا حصر له من الكتب والمؤلفات الدينية. لقد شكل مضمون تلك الحكاية خطوة أولى في طريق الخروج عن أشياء كانت معهودة من قبل.

وتتكون **قصة القاضي والسارق** في أساسها من مشهدين. يبدأ أولهما حين يظهر القاضي وهو يقرأ نصا ورد في بعض كتب العصر الوسيط دون الإشارة إلى عنوانه، فقرأ القاضي في الكتاب المشار إليه أن الإنسان إذا شعر بالتعب أو القلق، كان علاجه الخروج في فسحة إلى البادية. ولما كان القاضي قاصدا إلى النزهة تطبيقا



لوحة 6 : صورة غلاف قصة القاضي والسارق

لما قرأه في الكتاب، اعترض سبيله لص ذو خلقة عظيمة، وفي يده رمح أطول من اللص نفسه كما يبين ذلك الرسم التزييني على غلاف القصة، بينما كان اللص أطول من حجم القاضي ودابته مجتمعين. وهناك نقطة أخرى يؤكد عليها صاحب الصورة التزيينية، وهي إمساك اللص بإحكام حربته ولجام الفرس الذي كان يمتطيه القاضي إمساكا محكما. حاول القاضي وهو في ذلك الموقف التأثير على اللص حتى يقنعه بعدم نهبه، فقال له بأنه هو «قاضي المسلمين». فكان جواب السارق بأنه هو «لص المسلمين»[45]. عندئذ شرع القاضي في سرد العديد من الآيات القرآنية والأحاديث والأمثال القديمة ليوضح له لماذا عليه أن يخلي سبيله دون نهبه. وجواباً على ذلك، لجأ اللص بدوره إلى سرد حجج مماثلة أثبت من خلالها الأسباب التي تضطره إلى نهب القاضي. وانتهى المشهد الأول بأن سلم القاضي دابته وملابسه للص، فعاد إلى البيت عاريا مثلما ولدته أمه.

أما المشهد الثاني من الحكاية، فيبدأ عند مجيء اللص إلى دار القاضي ليطلب منه إعطاءه مبلغا ماليا كبيرا، لأنه كان يرغب في بناء منزل لنفسه. وفي هذه المرة نجد زوجة القاضي وهي تحاول الدخول في مناقشات كلامية مع اللص، فإذا بالقاضي يحذرها بدعوى أن لا فائدة ترجى من ذلك فقال إنه حتى ولو حاول أئمة المسلمين، مالك بن أنس والشافعي وأبو حنيفة وابن حنبل وابن إدريس الدخول معه في محاجات لغلبهم. فيحصل اللص على مراده، وتنتهي بذلك القصة.

إن الفكرة المركزية والمغزى العام للحكاية، هو أن أي لص قد يتوفر على سلاح ومعرفة متينة ــ وفي ذلك إشارة إلى فرنسا ــ قد يكون أقوى، ويمكن أن تكون له اليد العليا حتى في حالة وقوفه ضد شخص له مكانته، كقاضي المسلمين. وتكمن الأسباب التي كانت وراء تحول القاضي إلى ضحية سهلة المنال في سوء تقديره واعتماده الاعتباطي والمتسرع على تنفيذ ما ورد في ذلك النص الوسيطي دون أن يأخذ المستجدات الطارئة على العصر بعين الاعتبار، إذ لم يضع في حسبانه ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية نفسه وتأمين سلامة ممتلكاته. كما كشف القاضي عن مدى جهله المطبق حينما وضع اسم ابن إدريس ضمن لائحة أسماء مشاهير أئمة المسلمين أصحاب المذاهب الأربعة، مرتكبا بذلك زلة كبيرة جدا لا يمكن أن يقع فيها مسلم له معرفة متوسطة بشؤون دينه، فما بالك بقاضي المسلمين. وربما اعتقد

(45) **قصة القاضي**، ص. 3.

هذا الأخير أن إشارته إلى اسم بن إدريس من شأنها أن تزيد من سمو مكانته العلمية، وكأن عدم إشارته إليه قد يقلل إلى حد ما من تلك المكانة.

وهناك نقطة أخرى تهم هذه الحكاية، وهي أن أدبيات من هذا القبيل ما كان بالإمكان السماح بنشرها قبل فرض الحماية الفرنسية على المغرب، وذلك ليس فقط لأن العلماء وشركائهم وكذا بعض أقربائهم قد شكلوا وقتئذ القوة الأساسية المهيمنة والمتحكمة في سير العمليات المطبعية، بل أيضا لغياب الاهتمام بأدبيات الإبداع والتسلية وعدم التشجيع على إنتاجها. إذ لم تكن تعتبر الكتب والمعرفة بوجه عام إحدى وسائل التسلية أو الترويح عن النفس. بل كانت بدلا من ذلك إحدى وسائل الحفاظ على أدبيات المعرفة الدينية التقليدية وتبليغها، إلى جانب كتب أخرى ثانوية شريطة أن تكون مدعمة لطبيعة تلك المعرفة واتجاهاتها السائدة، سواء في المواضيع الأدبية والعلمية أم في المواضيع الفقهية. لكن مع تغير الظروف وتبدل الأحوال، أصبح بمقدرة المفكرين المغاربة اغتنام الفرص التي سنحت لهم للشروع في التعبير عن وجهات نظرهم الفكرية والانطلاق في تفجير طاقاتهم الإبداعية دون الخضوع في ذلك لأية قيود، معتمدين في ذلك كله على تكنولوجية الطباعة.

وباختصار، فإن العلماء والمفكرين المغاربة تمكنوا، خلال المدة المتراوحة ما بين سنتي 1865 و1920، من إنتاج حوالي ستمائة عنوان مختلف، كما صدرت طبعات متكررة لجزء هام منها. وتجسدت الأدبيات التي غطتها تلك العناوين في مجموعة واسعة من المواد والميادين المختلفة كالتصوف والفقه والتاريخ والحديث والعلوم فضلا عن كتب الرحلات وغيرها.

وقد حظي اهتمامنا في هذا الفصل بمناقشة العديد من أصناف الأدبيات المغربية، ومن بينها المواضيع التقليدية المتعلقة بالتصوف والفقه بالإضافة إلى ثلاثة نماذج من الأدبيات السياسية. وقد تبين عدم حصول أي تغيير في التصوف والفقه من حيث المواضيع المتناولة أو الأشكال التعبيرية الموظفة في ذلك، أي أن الأمور ظلت كما كانت عليه سابقا خلال عصر المخطوطات. ومع ذلك، فقد حصلت فيهما بعض التحولات ذات الدلالات الهامة. إذ أصبحت الطباعة وسيلة فعالة ساعدت على تغيير اتجاه صناعة إنتاج الكتاب من مستوى الاقتصار على خدمة العناصر الثرية داخل المجتمع المغربي، إلى مستوى آخر يستهدف تقريب الكتاب إلى أكبر عدد ممكن من القراء مهما اختلفت مراتبهم داخل التشكيلة الاجتماعية.

وتكشف لنا الكتب المنتجة خلال هذه الفترة عن حقيقة مفادها أنه كلما تزايد إنتاج الكتب ذات المواضيع الموجهة نحو قضايا الساعة، برز من خلال ذلك التوجيه عدد ضئيل، ذو دلالات هامة، من الكتب التي تتناول قضايا سياسية حيوية. ونذكر من بينها كتاب **نصيحة أهل الإسلام** الذي لم يقتصر فيه مؤلفه الكتاني، على تقديم مقاربة جديدة وشجاعة عن الأحوال السياسية الداخلية للمغرب، بل خطا بعدها خطوة إضافية وزود رجال المخزن بنصائح واقتراحات بديلة عن الطريقة المثلى التي كان يعتبرها كفيلة بالتمكين من استعادة قوة البلاد وتهييئها لمواجهة تحرشات البلدان الأوربية وتهديداتها المتتالية.

وعلى الرغم من كل ما تميز به هذا الكتاب من خصائص الجرأة الواضحة عند انتقاد المؤلف للمخزن وبرنامجه السياسي، فإنه يظل من حيث مضمونه الشمولي حبيسا للنظرة السياسية التقليدية معبرا عنها، خاصة فيما يتعلق برفضه التام لتبني المقاربات غير الإسلامية لإيجاد حل لمختلف مشاكل البلاد.

أما النموذجين المتبقيين من الأدبيات السياسية، ونعني بهما كتاب الصبيحي **أصول أسباب الرقي، وقصة القاضي والسارق** المجهولة المؤلف، فإنهما أكثر تعبيرا عن مرحلة جديدة لها صلة مباشرة بمرحلة الحماية الفرنسية. لقد حاول الصبيحي التأثير في مخاطبيه، فزودهم من خلال فصول مقالته بنظرة إصلاحية جديدة، جمع فيها بين المبادئ الإسلامية والعلوم الغربية ومناهجها، معتبرا ذلك أنجع وسيلة كفيلة بإصلاح أحوال المغرب. وتميزت قصة القاضي والسارق بغياب تام لوجود أي برنامج سياسي، بينما كانت غنية بالمعاني الشديدة الانتقاد لعناصر الجهاز المسؤول عن مصير البلاد. ومن الأمور التي تهم مختلف أصناف الأدبيات وما تضمنته من مختلف المواضيع والقضايا التي عرضنا لها أعلاه بالمناقشة والتحليل، من تلك الأمور أنها تمثل حجم الأدبيات المنتجة في البلاد، وأن تلك الأدبيات قد قُدمت ووُثقت وبالتالي حوفظ عليها بفضل تكنولوجية الطباعة.

خَاتِمَةٌ وَٱسْتِنْتَاجَاتٌ

خاتمة واستنتاجات

حين نعود إلى الوراء ونلقي نظرة على تاريخ الطباعة في بلدان العالم الإسلامي، وخاصة في المغرب، يمكننا لفت النظر إلى وجود العديد من التحولات الأساسية أو التغييرات والتعديلات ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة باستعمال الطباعة. وأول تلك التحولات، وربما كان أكبرها وأكثرها أهمية، ذلك التغيير التدريجي الذي حصل على مستوى موقف المسلمين من تلك التكنولوجيا وما تمثله من أبعاد مختلفة المدى.

ففي مطلع القرن السادس عشر، كانت الطباعة في مختلف البلدان الغربية ظاهرة عادية. وبينما كان الأتراك العثمانيون يسمحون لعناصر الأقليات اليهودية والمسيحية من رعيتهم بإقامة محلات للطباعة سواء في إستنبول أم في غيرها، نجدهم يحرمون أنفسهم ومعهم بقية البلدان الإسلامية الخاضعة لنفوذهم من القيام بذلك. وحسب النتائج التي توصل إليها العديد من المؤرخين المتخصصين في موضوع الطباعة (كارتر (Carter) وصابات (Sabat)، وغيرهم)، كانت العلة الأساسية الكامنة وراء اعتراض العثمانيين على الطباعة تتلخص في تخوف سلاطين الإمبراطورية من أن يحصل نوع من اليقظة عند عناصر الرعية إذا استعملوا تكنولوجية الطباعة. غير أن الأسباب الحقيقية لاعتراضهم ذاك تتمثل في عاملين رئيسيين ومتداخلين : أولهما، استمرارهم في التشبث باعتقادهم التقليدي في تفوق الإسلام على بقية الديانات الأخرى نتيجة لمكانة القرآن المقدسة بصفته كلمة الله تعالى ومعجزته الخالدة. وثانيهما، أن التربية الإسلامية وما إليها من حركة تعليمية وفنون كتابة وخطاطة قد ظلت إلى حدود القرن السادس عشر متمركزة حول القرآن والحديث. وبناء عليه، فإن استعمال الطباعة إبان تلك الفترة الزمنية كان من الأمور المستبعدة جدا والتي لا يمكن أن يتم حتى مجرد التفكير فيها، لأن ذلك يعني تعويض نموذج من الخط رفيع الجودة بآلة واضعة للحروف. كما يعني ذلك إخضاع كتاب المسلمين المقدس لأداة

صنعها المسيحيون في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية العثمانية الممثلة للإسلام قد تمكنت من بلوغ أوج قوتها وعظمتها.

غير أنه مع حلول القرن الثامن عشر، تغيرت أحوال الإمبراطورية العثمانية تغيرا كبيرا عما كانت عليه في الفترات السابقة، وخاصة من حيث طبيعة علاقاتها مع البلدان الغربية. فنتيجة لحركة النهضة وما ترتب عنها من إحياء للعلوم واستكشافات جغرافية، أخذت أوربا تتحول إلى قوة عظمى بدأت تشكل تهديدا للإمبراطورية العثمانية. وفي خمسينيات القرن السابع عشر، أحس رجال الإصلاح العثمانيون، أمثال كاتب جلبي، ببداية حصول التفاوت بين العثمانيين وخصومهم الأوربيين فسجل كل المؤشرات المنذرة بذلك. وكان لابد من انتظار حلول عشرينيات القرن الثامن عشر لنجد العثمانيين يقتنعون بضرورة إرسال مبعوثين دبلوماسيين إلى فرنسا لمعاينة الأسس التي أرسى عليها الأوربيون قوتهم. ومن خلال ملاحظات هؤلاء للأشياء التي شاهدوها هناك وما ترتب عنها من توصيات ونصائح وجهوها إلى صانعي القرار في الإمبراطورية العثمانية صمم هؤلاء أن تكون بلادهم أول دولة إسلامية تجلب آلة الطباعة وتسند مهمة تشغيلها والإشراف على تدبير شؤونها إلى إبراهيم متفرقة، وهو مسيحي سابق اعتنق الإسلام.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها متفرقة للدفاع عن استعمال الطباعة، وتمكنه من الحصول في ذلك على مساندة علماء إستنبول، فقد ظل استعمال تلك التكنولوجيا محصورا على المؤلفات ذات المواضيع العلمية والقضايا غير الدينية بصفة عامة. ولم تتضح للعلماء ولبعض أقطاب التصوف القيمة الحقيقية للأفكار التي سبق لمتفرقة أن عبر عنها حول الفوائد الجمة للطباعة إلا بعد مرور قرن من الزمن، حين رأى بعضهم أمثال محمد حقي، أن استعمالها لابد من أن تكون له نتائج إيجابية لا حصر لها على الإسلام، وذلك في حالة طبع كل الكتب الإسلامية وترويجها بالشكل المطلوب والكفيل بأن يجعل منها أسلحة جهادية يمكن توظيفها في إطار الصراع القائم بين الإسلام وخصومه. ونتيجة لحصول هذا التحول في المواقف السابقة من الطباعة واستعمالاتها، شرعت بعض الدول الإسلامية الأخرى كمصر، بإيعاز من العلماء، وانطلاقا من القرن التاسع عشر، في إنشاء دور للطباعة استخدمت الصنفين المعروفين إلى ذلك الحين من تكنولوجية الطباعة، وهما الطباعة الحجرية والمطبعة ذات الحروف المتحركة.

وفي المغرب، حيث يحتمل أن يكون استعمال العثمانيين والمصريين للطباعة أمرا معروفا منذ البداية، مكنت التحولات الطارئة على المواقف الإسلامية من الطباعة، بعضا من رجال المخزن ـ كما كان حال العمراوي ـ من توجيه النداء إلى السلطان حثا له على جلب تكنولوجية الطباعة للعمل على استعادة قوة البلاد اقتداء في ذلك بالعثمانيين والمصريين. وتكمن أهمية النداء الذي وجهه العمراوي في وقوعه في أعقاب زيارته الدبلوماسية والاستطلاعية إلى فرنسا. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد انطلقت حركة الإصلاحات عند العثمانيين أيضا بعد زيارة مماثلة لبعثة دبلوماسية كانت قد توجهت إلى فرنسا. وبالفعل كان العثمانيون والمغاربة مهددين بخطر مماثل ؛ فالبلدان الغربية كانت تناور لاقتطاع ممتلكات الإمبراطورية العثمانية، والمغرب كان بدوره يعاني من التهديد الفرنسي بعد احتلال الجزائر عام 1830، والذي أفضى إلى عزل المغرب جغرافيا عن بقية بلدان العالم الإسلامي. كما ألحق الفرنسيون والإسبان هزيمتين متعاقبتين بالقوات المغربية في كل من إيسلي سنة 1844 وتطوان سنة 1860.

وفي غضون سنة 1865، أصبح المغرب يملك أول مطبعة ويستعملها في تاريخه. غير أن دخول آلة الطباعة لم يكن استجابة للنداء الذي سبق أن وجهه العمراوي، ولا تعبيرا عن استفادة المخزن من مضمون الرحلة التي دونها الصفار في أعقاب زيارة بعثة دبلوماسية إلى باريس سنة 1846. بل كان دخول الآلة المطبعية إلى المغرب على يد محمد الطيب الروداني أحد علماء سوس.

إن الأسباب التي جعلت المغاربة ينتظرون مدة طويلة، قبل أن يتبنوا تكنولوجية الطباعة، ليست مرتبطة فقط بتشبث علماء المغرب بتعاليم المذهب المالكي، بل هي مرتبطة أيضا بغياب الحاجة الملحة إلى خدمات آلة الطباعة. كما عمل علماء المالكية التقليديون على نقل النصوص الإسلامية الأساسية من جيل إلى آخر، مع الحفاظ في ذلك على بنياتها وأساليبها، بل وحتى على نموذج الخط الكوفي الذي تفرع عنه ميلاد الخط المغربي. وبناء على ذلك، نفهم الأسباب التي جعلت الروداني يقوم بجلب آلة للطباعة الحجرية نظرا لما كانت تتوفر عليه من إمكانات تقنية كفيلة بالحفاظ على خصوصيات الخط المغربي وعلى حجم الكتب التقليدي. كما أنه ليست هناك أية دواع للاستغراب لقيام العلماء، معتمدين في ذلك على تشجيعات من السلاطين، باستعمال الطباعة من أجل إحياء الإسلام وإعادة الاهتمام إلى الأدبيات التقليدية إلى حدود سنة 1912 تعبيرا عن ردود الفعل أمام تصاعد درجة الخطر الناتجة عن

التهديدات الأوربية. وقد تم ذلك بشكل مناقض تماما لما نهجته بلدان إسلامية أخرى، كالعثمانيين والمصريين، الذين استعملوا الطباعة وسيلة مساعدة على نشر الأفكار الإصلاحية المستمدة أساسا من النماذج الغربية.

ومع ذلك، فبمجرد ما صهرت الطباعة في بوتقة الاقتصاد المغربي لتصبح نشاطاً مهنياً قائم الذات، اتضح أن الطباعة لابد من أن تكون لها تأثيرات وانعكاسات كثيرة على المغرب وعلى عدة مستويات. فإذا أخذنا المستوى الاقتصاي، على سبيل المثال، وجدنا أن الطباعة قد ساهمت في إدخال مفهوم جديد يتعلق بالجمع بين العديد من المتخصصين ـ كالنساخين والمصححين والطابعين والمسفرين وغيرهم ـ تحت سقف واحد من أجل إنتاج سلعة معينة قابلة للتسويق. وبما أن تلك السلعة كان لابد من إنتاجها بكميات كبيرة، كان من الضروري العمل على إيجاد منافذ لها في الأسواق البعيدة عن مدينة فاس، ضمانا لتصريف البضاعة تصريفا ناجحا. كذلك، حينما فشلت أول مؤسسة للطباعة في المغرب، بسبب ارتفاع أثمان الكتب المنتجة، انتقلت مهام التسيير من أيدي المخزن إلى عناصر حرة من القطاع الخاص، فانتقلت هذه العناصر من صناعة منتوج موجه لأعالي السلم الاجتماعي إلى إنتاج بضاعة تستهدف أكبر عدد ممكن من الناس. ومن ثم بدأت الطباعة ـ في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر خاصة ـ تساهم في الاقتصاد المغربي بطرق أفضل بكثير، بتوفيرها الشغل للمصححين والنساخين والطابعين. كما ساعدت المؤلفين على ضمان الحصول على مداخيل إضافية، ومكنت الناشرين من التحول إلى رأسماليين صغار. ومن أهم التحولات التي طرأت على المستوى الاقتصادي، بداية تطبيق مفهوم «حقوق التأليف»، الذي أعطى قيمة حقيقية وملموسة للأفكار. وكان في ذلك خروج عن التقاليد التي كرست مبدأ المحاكاة والتقليد أكثر من اهتمامها بالدعوة إلى الخلق والإبداع أو التجديد. وكان ذلك التحول يرمز إلى ظهور مرحلة جديدة، أصبحت قيمة الكاتب تقاس فيها بدرجة ابتكاره وإبداعه، وليس بكونه يمثل تلك الصلة المعهودة بين الماضي والحاضر، والتي يحرص فيها على تبليغ المعرفة الدينية القارة إلى معاصريه والأجيال الآتية من بعده.

على المستوى السياسي، وجد كل من السلاطين والعلماء وزعماء الطرق الصوفية في تكنولوجية الطباعة وسيلة دعائية فعالة سواء في الداخل أم في الخارج. ومن الأمثلة على ذلك، الجهود التي بذلها السلطان مولاي الحسن لنشر كتاب **إتحاف**

السادة المتقين وتوزيع نسخ عديدة منه بالمجان على علماء المسلمين في كل من القاهرة ومكة والمدينة وإستنبول، أملا في تلميع صورته داخل المغرب وخارجه. ثم هناك المحاولة التي قام بها الحاجب والصدر الأعظم أحمد بن موسى، الذي استعمل تكنولوجية الطباعة لتدعيم مكانته في المغرب، وذلك بنشر مؤلفات الشيخ ماء العينين في كل الأوساط المغربية وبالتالي منحها الشعبية الكبيرة. وقد تمكن أحمد بن موسى من كسب التأييد ـ منذ سنة 1891 حتى وفاته عام 1900 ـ فالتف حوله العديد من العلماء والأعيان وعامة الناس، خاصة وأنه كان ذكيا في الاستفادة من الأفكار والآمال التي تتعلق بمصير البلاد ومستقبلها والتي كانت كتابات ماء العينين تمثلها آنذاك. وكان من تلك الآمال رغبة المغاربة في توحيد جبهتهم الداخلية ضد الأوربيين، وتضامنهم مع بقية بلدان العالم الإسلامي، وحماية أنفسهم من الأمراض والنوائب، والتطلع إلى عيش رغيد وحياة أفضل.

وإلى جانب السلطان والصدر الأعظم، استفاد رجال التصوف استفادة كبيرة من استعمال تكنولوجية الطباعة، وخاصة زعماء الطريقة الكتانية الذين وجدوا فيها خير وسيلة لنشر كتاباتهم وإيصالها إلى الأتباع والقراء. وقد تمكنت مؤسستان للطباعة تحت إشراف كل من عبد السلام الذويب وعميل العثمانيين أحمد يمني، تمكنتا خلال المدة المتراوحة ما بين سنتي 1896 و1909، من نشر عشرات الآلاف من النسخ التي كانت تمثل الأفكار والتوجهات السياسية لأفراد الأسرة الكتانية الذين اهتموا بالكتابة والتنظير، أمثال محمد وعبد الحي وابن عمومتهم محمد بن جعفر.

وفي سنة 1909، وجد المغاربة أنفسهم أمام اتجاهين إصلاحيين عبرت عنهما المؤلفات التي عرفت طريقها إلى النشر. وقد تميز الاتجاه الأول بطابعه التقليدي، نظرا لأنه رأى في إحياء الأدبيات الإسلامية سبيلا لإنقاذ المغرب من عجزه الكبير عن مواجهة تبدل الأحوال وتغيراتها. ومثل الاتجاه الثاني، ومصدره رجال الطريقة الكتانية الذين اقترحوا برنامجا إصلاحيا توفيقيا يمكن الجمع فيه بين الوسائل التربوية الحديثة والحفاظ على المبادئ الإسلامية وخصوصياتها. غير أن برنامج الكتانيين كان بالدرجة الأولى معاديا للغرب، ويرى أنه لا أمل في الاعتماد على الخبراء الأوربيين للتوصل إلى حل مشاكل المغرب. وانطلاقا من هذا الاتجاه الإصلاحي والإيديولوجي الثاني الذي عملت الكتب المنشورة على تبليغه إلى مختلف الأوساط المغربية فيما بين تسعينيات القرن التاسع عشر وسنة 1909، أصبح بالإمكان بروز جيل جديد من المفكرين

ورجال الإصلاح أمثال أحمد الصبيحي. وكان ذلك الجيل نتاجا لمرحلة اتسمت بمستوى عال من الوعي السياسي. إذ اتضح لهم أن الشرط الأساسي الذي يمكن أن يسمح للمغرب باحتلال مكانه الصحيح ضمن بقية الدول المتحضرة والمتطورة، هو أن يدرك حقيقة فشل طرقه التقليدية، ويشرع في تطبيق برنامج وطني جديد يكون الهدف منه تكوين أبناء البلاد وإعدادهم لتلقي العلوم الحديثة في ميادين الزراعة والصناعة والاقتصاد.

وكانت الرقابة من المستجدات السياسية التي عرفت طريقها إلى المغرب بالتوازي مع استعمال تكنولوجية الطباعة. وفي الحقيقة، كانت الرقابة موجودة في المغرب حتى قبل استعمال الطباعة، غير أنها كانت تهتم بضرورة احترام الأخلاق والقيم الاجتماعية، أكثر منها بهواجس المخزن السياسية. لكن مع حلول عصر الطباعة، أصبح من الممكن أن يكون لعملية توثيق المعرفة وتدوينها انعكاسات سياسية حقيقية على الدور التقليدي للسلطان والعلماء المحيطين به، فلم يجد المخزن بدا من ضرورة سن قوانين جديدة تسمح له بممارسة الرقابة، حفاظا على الأوضاع الراهنة. وهذه هي العوامل التي حكمت في طبيعة التقنينات الخاصة بالرقابة في المغرب والواردة في الظهير العزيزي لسنة 1897.

أما على المستوى التربوي والتعليمي، فقد ساعدت الطباعة على إحداث العديد من التحولات في المغرب. ومنذ ثمانينات القرن التاسع عشر، كان بعض العلماء، أمثال السباعي، على وعي تام بالانعكاسات التي كانت للطباعة على النهج التعليمي التقليدي القائم أساسا على الحفظ وعلى التنقل من أماكن نائية طلبا للمعرفة. كذلك، لم يصبح الطلبة نتيجة توافر أعداد الكتب المطبوعة، يعتمدون أكثر فأكثر على الأشكال المكتوبة عوض الذاكرة فحسب، بل شرعوا في اللجوء إلى الكتب المطبوعة لاستعمالاتهم الخاصة، إما إشباعا لفضولهم المعرفي أو تدقيقا لبعض القضايا الغامضة، إلى غير ذلك من الاستعمالات المتعددة الأوجه التي تتيحها الكتب المطبوعة. ومن المحتمل جدا أن يكون العلماء قد أساءوا فهم المؤلفات المكتوبة، كما أشار إلى ذلك السباعي، غير أن ذلك قد حدث في البداية فقط. وأما الاتجاه الجديد المميز لخصوصيات العصر الحديث، فليس فقط أن يثبت المرء مدى اتساع حجم معارفه، بل أيضا أين يجب أن يبحث عن المعلومات والمعطيات المعرفية المرغوب فيها، وهذا من الأشياء التي ارتبط وجودها بعصر الطباعة.

ومن الناحية العلمية، مكنت تكنولوجية الطباعة من المساعدة على الرفع من جودة الكتب المعروضة إلى جمهور المتعلمين. ففي عصر المخطوطات، كان بمقدرة كل شخص يملك المؤهلات الكافية ليصبح نساخا، أن يقوم بنسخ الكتب دون أن يؤخذ بعين الاعتبار مستواه التعليمي والعلمي. أما في عصر الطباعة، فقد تغيرت الأمور، إذ أصبح النظر في صحة النصوص ومراجعتها قبل نشرها من اختصاص المصححين الأكفاء دون غيرهم. ثم إنه، نتيجة لتراكم النصوص المطبوعة، أصبحت أمام العلماء إمكانية المقارنة بين محتوياتها، والعمل بالتالي على إنتاج نصوص منشورة بمستوى عال من الجودة. وأحيانا، يقوم العلماء بتصحيح النص مرتين، لأن العمل الأول يحتاج إلى الكثير من المراجعة والتدقيق. وليس تصحيح النصوص المليئة بالأخطاء أو التنبيه على مشاكل من هذا القبيل، بأمر جديد على التقاليد العلمية المغربية العريقة. غير أن ملاحظة وجود الأخطاء والعمل على تصحيحها في مدة زمنية وجيزة ما كان ليصبح من الأمور الميسرة جدا لولا الإمكانات التي وفرتها تكنولوجية الطباعة وجعلتها رهن إشارة العاملين في ميدان النشر.

أما على المستوى الفكري، فيستحيل على المرء أن يتوصل إلى معرفة دقيقة لمدى وجود علاقة واضحة بين حركية الفكر والطباعة إذا حاول أن يقارن بين النتائج المترتبة عن قراءة الكتب المطبوعة ومثيلتها المخطوطة. ومع ذلك، نجد أن التداخل بين حوافز الناشرين الاقتصادية والبواعث السياسية للزعماء السياسيين، قد أدى ــ خلال عصر الطباعة في المغرب، ولاسيما منذ ثمانينات القرن التاسع عشر ــ إلى استحداث أسلوب بسيط في الكتابة لا يستهدف جيوب القراء الجدد فحسب، بل عقولهم وقلوبهم أيضا لحملهم على مساندة الاتجاه الإصلاحي المقترح عليهم. وقد نجح ذلك الأسلوب في الكتابة وما تضمنه من خطاب ونظرات سياسية، في جلب اهتمام المزيد من المفكرين، فأصبح نمطا تعبيريا شائعا أفلح في الحلول محل أسلوب الشروح والحواشي والمختصرات وما شابه ذلك. وكان ذلك هو التأثير الحاسم الذي كان للطباعة على مستوى توجيه طريقة التفكير في المغرب.

وأخيرا، فإنه بالإضافة إلى التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والعلمية والفكرية التي أدى إدخال الطباعة واستعمالها إلى إحداثها في المغرب، فإن تلك التكنولوجيا قد ساعدت على إثراء اللغة العربية في المغرب بمصطلحات جديدة للتعبير عن مختلف الأدوار التي كان الطابعون والناشرون والمؤلفون والنساخون وغيرهم

من المتدخلين في عملية إنتاج الكتاب يلعبونها. وقد شكلت تلك المصطلحات والتعريفات القليلة التي قُدمت بكثير من الحرص في خواتم المطبوعات الحجرية الفاسية، شكلت في الوقت نفسه مصدرا للمعلومات على مستوى عال من الأهمية لهذه الدراسة. وقد استطعنا من خلالها الحصول على أجوبة للعديد من الأسئلة التي كانت معلقة من قبل، ومنها معرفتنا الأسباب التي جعلت أحد الوجوه الدينية، كالشيخ ماء العينين، يبرز بشكل مفاجىء على الساحة المغربية بدءاً من تسعينات القرن التاسع عشر حتى سنة 1912. وأيضا، فإن التحولات نفسها المشار إليها، قد مكنتنا من إعادة النظر في الفكرة الشائعة التي كانت تصف المرحلة السابقة لعهد الحماية الفرنسية في المغرب بالجمود وغياب الإنتاج الفكري. وفي الحقيقة، كانت ـ على العكس من ذلك ـ مرحلة اتسمت بالديناميكية، واستطاع فيها بعض الزعماء من العلماء والأعيان على السواء، بث روح وطنية عميقة في صفوف عامة المغاربة قبل السيطرة الفرنسية على مصير البلاد. وبناء على هذا كله، لم تكن الطباعة مجرد عامل مكن من الحفاظ على المعرفة وصيانتها، بل كانت أيضا من عوامل التغيير التي ساهمت في صناعة تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

مِنْ ثَمَرَاتِ ٱلْمَطْبَعَةِ ٱلْحَجَرِيَّةِ بِفَاسَ

بسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

يقول عبيد الله معلمنا بالرحمة الله الغيث أحمد بن إدريس في العلوي البلغيثي

الحمد لله بارئ العالم بلا شكل ولا مثال له ولا حد كان إذ لا زمن ولا أين ولا أسماء
بلا عمد ومتوليا ما يشاء بعدل لا أرب التكيف ولا التدبير والنقطة والخط والجسم والمقادير
لا إله إلا هو تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * بهرت براهين
آياته العقول * وحارت في مزيد أنه المتقنة أحلام الفحول * بادرت بالعجز
وخضعت لعزته الزوال وعلمت بعلم بقيد أنه المتصرف في الذوات والأحوال * فدارت
بقدرته دوائر الأفلاك على قطب مراكز كعبة الحق البديع * وحبكت العوالم على
اختلاف أشكالها ومنعت من انتقاض بسر اسمه المنيع * مهد البسيطة * وجعل
دائرة المحيط بها محيطة * وأقام بها عوامد الجبال أوتادا لها من أن تميد
وأنى يزال * لما سبق في علمه وحكمته * من خلق العالم كورا لشكل في نشأته *
فسبحانه ما يزال صنع بالتقن * ونطق لسان الوجود على وحدانيته وبرهن
أشكال الخليقة في زوايا أرضه * وأرسل لهم رسلا مبينين ما تتم به العبادة من واجبه
وندبه * وجعل قلوبهم ينابيع العلم والعرفان * تتجلى شموس معارفهم في كل زمان
ومكان * وختمهم بتتمة عقدهم نبينا ومولانا محمد المصطفى المختار * القائل ومن
لنا ومن المصدوق لم أزل خيارا من خيار * صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه
الكرام * ما دارت دوائر الكواكب بين الليالي والجمع والشهور والتحمت
به عوالم * وبعد فلما كان العلم من أجل ما يفتخر ويرتفع * وبه تكمل الإنسانية
ويحصل منه النشر والنفع * وكانت العلوم الرياضية * في النفوس سجية * ومن أجلها
هو علم الهندسة * الذي هو أصلها الأصيل * ومحطة يتيمة تحصيله لها كفيل * وكانت
الملوك الأولى والأمراء تعتني بنشر العلوم بالنفع * للمصلحة العامة في الورود والصدر
بنظر مولانا أمير المؤمنين نصره الله * والا لنا وجوده وعلاه * العالم العامل * الراحل
في ثوب العز والمهابة الكامل * من تباشرت بيمنه الحضر والعوالم * وأحيا

لوحة 7: افتتاح طبع كتاب تحرير الأصول لأوقليدس

بطلعته السعيدة العلوية والمعالي * الشمس التي أنارت الأكوان وصيرت تهاني في
غاية الانتشار * والملك الذي فاق أقيال الزمان على العموم والشمول والاستغراق
* والنعمة التي عمت بجودها الغني والفقير * والشريعة التي عم حلمها المشروف
والشريف * ليث الكتائب والهمام المزواد المناب * والقائم بتدبير الأمة المحمدية في
الموارد والمصادر * من ربي في ثوب الفخار والعفاف * وتسربل بأشرف النعوت والكمال
الأوصاف * ظل الله الممدود * من بوجهه يستسقى الغمام ويهطل الجود * بضعة
الرسول * وسلالة أبناء فاطمة البتول * من اتخذ له الوجود بعناية الله من غير زمان
ولا رتبة * أمير المؤمنين ونعمة رب العالمين ظل الله في البرية * أبو المكارم والمعالي
الشريفة * العلي مولانا الحسن * نصر الله به أهل الإسلام والإيمان * وأنام رعيته بوجوده
في ظل الأمن والأمان * في مدة تملكه * وحل حلول الشمس في بيت شرفه * وقرن أن نشر
العلوم من آثاره الحميدة * والمواهب التي من بالخيرات عتيدة * فأقر الله
ملكه * وأجرى في سماء السعادة فلكه * حامله بفاتحة الأقطار المغربية * منبرا
الفضلاء الأعلام أرائك السيادة الأدبية * وأسنى البيضاء * من السيوف المغربية
مناكب وعرضا * الأمر مأوى البضعة النبوية * ومدار الأسرار والأنوار المحمدية
* حامي الذمار * ومجير كل من به استجار * الدر النفيس * أبا العلاء مولانا
ادريس * لا زالت دياره بيانعة بالعلوم * ومروات من دار انقلبنا معظم الأسماء
والصفات والفهوم * وعاملنا خالديها حلول بدر وإسعاده * وفلاح وصلاح
في كل إيراد وإصدار * محبا للعلماء * ومنيلها أصناف المنى بأصنافها * الفقيه
العلامة النبيل * المشار إليه المعتمد والمحترم الأثيل * مركز مدار السياسة العلوية
الحسنية * ومن له تربيع أزمة نواصيها في كل الشعوب والأودية الوزير العارف بطرق
النجاح * راكب سفينة السلامة والفلاح * باشا الأشراف الحاز قصبات السبق في
مضمار الشجاعة والسر الأكبر * أبا محمد سيدي عبد الله بن أحمد لا زالت أيام دولته النضرة
بالله عليه وعلى عقبه متتابعة وأنوار محبته عليهم ساطعة إنه ولي ذلك والقادر
يطبع عدد من كتاب اللؤلؤ الحكيم المهذب في الفن السليم خوجة نعيم الدين
النفوس لأن رواه نفع الله به عز النفع في غاية الإتقان والتصحيح قلبني إذ في الحال والمآل
بتصحيحه ومقابلته يجيء إن شاء الله يروي الغليل وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا
ونعم الوكيل

لوحة 7 (تتمة)


بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
الجزء الأول
من تأليف نصير الدين خوجة الطوسي في علم
الهندسة طبع بالمطبعة العامرة بمحروسة
فاس [illegible]
كل سوء وبلدنا بالأمر المولوي الحسني الهاشمي العلوي
أدام الله شعاره وسر بحياته [illegible] وكان
ابتداء طبعه في أوائل ربيع النبوي الأنور
على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام
عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف

لوحة 8 : عنوان كتاب تحرير الأصول لأوقليدس بالخط المشرقي المتمغرب

المقالة

بسم الله الرحمن الرحيم * صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

كتاب تحرير الأصول لأوقليدس من تأليف خواجه نصير الدين الطوسي

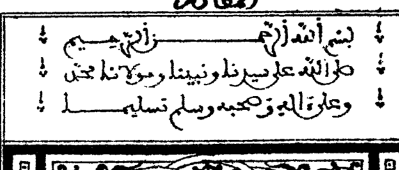


وبعد فإن العلوم الرياضية التي هي واسطة عقد الحكمة
النظرية تنقسم إلى أربعة أقسام الهندسة والارثماطيقي والموسيقى
والنجوم ومبادئها يشتمل عليها كتاب الأصول الذي يقال له استقصى
لتحليل مبادئ العلوم الرياضية إليه في سائر الأمم وهو مرتب على خمس
عشرة مقالة فحمل بعض ملوك اليونان الرحلة في استقصى
عليه فأخذ نسخة أخبار الكتاب من كان وارد من أهل العلم عليه
فأشار بعضهم إلى رجل في بلد الصور يقال له أوقليدس أنه مبرز في
علمي الهندسة والحساب فطلبه الملك وأمره بتهذيب الكتاب
وترتيبه فهذبه ورتبه على ثلاث عشرة مقالة واشتهر
الكتاب باسمه وحذف المقالتين الأخيرتين وسماهما كانتا من
المقالات التي يتوقف عليها معرفة نسب المجسمات في المقالة
الثالثة عشرة وكيفية رسم الأشكال المذكورة فيها بعضها في بعض
وكانتا تلحقان بهما ومن غيرهما من المقالات المعروفة عليها
فإن الكتاب موضوعا لأن يوضع فيه الأصول دون الفروع ...

المذكورة

لوحة 9 : الصفحة الأولى من كتاب نصير الدين الطوسي بالخط المجوهر







من أقسام الكم المتصل خمسة الخط والسطح والجسم
التعليمي والمكان والزمان ويقال لما أن عظام بأن نسب
أحد المتجانسين منهما إلى الآخر من جنسه أو قدر أحدهما بالآخر

الجسم هو المقدار الذي له طول وعرض وعمق [illegible]

ع أ ن س يقال

لوحة 10 : زخرفة تزيينية تفصل بين مقالات كتاب الطوسي

المقالة

من النقطة الخارجة من الدائرة
على الجهة الأخرى من الخط
المساوية إياه فقطعة كانت
الخط أو منتهية الا خط
واحد فقط أو خطوط
متحدة الوضع

لتكن الدائرة آب والنقطة الخا
رجة عنها ج ونخرج من ه على بالشكل
الى ... ولتكن نقطة م ونصل
بينها وبين نقطة ج خطا مستقيما
ونخرجه على استقامته في جهة
م الى ان ينتهي الى المحيط
بلقيه على نقطة د وليقطع
المحيط الى د نبر على نقطة ح
ونخرج من نقطة ج ج ه ج ز ج آ
المستقيمة في جهة الدائرة الى ان
تقطع محيطها الى د نبر على نقطة ه ك ل كه وتنتهي الى المحيط
الى نبر على نقطتي ه ز آ ولتكن الخطوط المستقيمة الخارجة
من نقطة ج المشبهة الى الدائرة غير قاطعة اياها خطوط ج ح ج ك

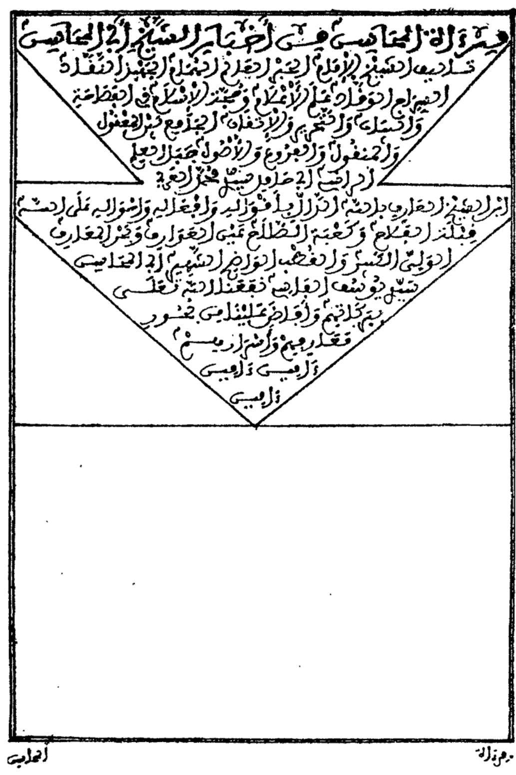
لوحة 11 : شروح الطوسي وتعاليقه على كتاب أوقيلدس



لوحة 12 : الصفحة الأولى من أرجوزة هداية المبتدئين



لوحة 13 : خاتمة أرجوزة هداية المبتدئين



مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن
تأليف الشيخ الإمام العالم العامل الشهير الناقد
الشيخ أبي الوفاء علم الأعلام وحجة الإسلام في الفصاحة
والبلاغة والفهم والإتقان الجامع بين المعقول
والمنقول والفروع والأصول جبل العلم
الراسي أبي حامد سيدي محمد العربي
ابن الشيخ العارف بالله الدال على الله بأقواله وأفعاله وأحواله علم الأعلام
قبلة الطلاب وكعبة الطلاب منبع العوارف وبحر المعارف
الولي الأكبر والقطب الواضح الشهير أبي المحاسن
سيدي يوسف الفاسي نفعنا الله وعلى
به ببركاته وأفاض علينا من بحور
معارفه وأسراره
آمين آمين
آمين

مرآة — المحاسن

لوحة 14 : الصفحة الأولى من كتاب مرءاة المحاسن

الحمد لله المحمود بألسن الهمم في مرآة محاسن جوده على الأنام حتى اتضحت
لهم منها كمالات الإحسان والإنعام ونصلي ونسلم على حبيبه وصفيه
سيدنا ومولانا محمد الذي أتانا بالشريعة السمحة الواضحة الأعلام وعلى
آله وأصحابه وأتباعهم من العلماء والأعلام أما بعد فقد تم بفضل من
به الإعانة على البدء والاختتام طبع هذا الكتاب الذي طابق اسمه مسماه وحسنه
معناه على الكمال والتمام وهو مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن
يوسف الحجة المستغني أسرار فرائد عقد معاني الأمة ومن تسمى بجد ذكره كل عمدة
صدور العلوم الذي هو الحبر الإمام أبي المحاسن والشمائل نسيل الشيخ العلامة أعاد الله
علينا من بركاته ونفعنا ببركة ذلك بسر من أسرار كمالاته ولعمري إنه من
النفائس والنفائس الكتابية المعز والعظيمة لما اشتمل عليه من جوامع الفوائد
وفنون العلمية بحيث يعجز وجود مثله كاد أن لا تسمو بمثله همة وكلما
تشوقت إليها نفوس المعتنين بها عليها متطلعة ومتمنية كلفتها إلى الطبع
بالعثور على نحا سنيها افتضته ذلك أن وفق للقول جل وعلا الإبراز
الحسنة العميمة النفع على يد من قام بمهمة الطبع وجميل
الصنع المعلم الطيب الأخلاق الطالب السيد العربي الأزرق جمل الله صناعته
وأناله على عمومه نشر ما يكتسب الاستطاعة وذلك كله في قبة الأمراء ذوي
الفخر والشرف ابن أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز بن الحسن أدام الله
عزه بالتأييد وسهر المتقن تصحيح العبد الفقير الحقير المذنب الفقير أحمد بن
المهدي بن محمد بن العباس ابن الطاهر البوعزاوي عامله الله بجميل ستره عنه المساوي
وبما أصلحته من الزلل وعلى ما ذكره الأنيس نفس من الغلط فسيفعله المعجز كتاب
الله الحميد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد نفع
الله الجميع بجاه خاتم الأنبياء والإرسال ومن هو لنا شفيع صلى الله عليه وسلم
وشرف وكرم ومجد وعظم وكان الفراغ من طبعه وانتهاء تاريخ طبعه
فاتح جمادى الثانية عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف وصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد وآله وأصحابه أجمعين وعلى التابعين وتابع التابعين ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

لوحة 15 : خاتمة مرءاة المحاسن، تصحيح البوعزاوي وطباعة العربي الأزرق

[illegible] وإحسان عار فلله ذي مواهب تامة من زال [illegible] يعزى الجزالة جمع شمل الفرائد
التي بناها [illegible] مكملا وذلل صعابه وبعاده مشكله وأوضح مجمله بكلام بحر العد
[illegible] العوالي [illegible] الجنس من [illegible] النغامة وكيف وقد اشتمل على مدح مولانا
أمير المؤمنين ونعمة الله المسداة على العالمين كافل الدين في الأرض ومالك أمره [illegible] على [illegible]
والعجم [illegible] الجود الشامخ والشرف الباذخ وعلو الشأن سيدنا ومولانا الحسن بن مولانا محمد بن
مولانا عبد الرحمن لا زالت القلوب [illegible] بمعرفة الفاخرة والعقول تعتنق منهجه
الأبلج [illegible] العقول [illegible] العراق بما [illegible] وذلك بالطبعة
السنية بحضرة فاس [illegible] بكل [illegible] الإمام المذكور [illegible] محمد بن [illegible]
على ذمة معلم دار الطباعة [illegible] الصناعة [illegible] السيد العربي الأزرق
ومراجعة مؤلفه وتصحيحه وتنزيهه وتنقيحه غير أن السهو وقع في كلمات من بعض
الملازم التي هي للطالب [illegible] كالتمائم فبعض الملزمة 1 في الوجه 3 منها في
السطر 11 ترك [illegible] في حب أهل الغرام صوابه مثل البيت الغرام. وبها أيضا
في الوجه 6 والسطر 6 ترك كلمة: أو الفوز العجب، صوابه أو الكل والعجب:
وفي الملزمة 2 في الوجه 3 منها في السطر 16 ترك كلمة: والعجب ذهاب
خامس الجزء المتم اهـ صوابه والعجب تذكير خامس
ومن وقف على شيء من ذلك فليصلحه هنالك فإنه
لا [illegible] على الكمال والتنبيه والتقدير [illegible]
لما فيه رضاه وبلغنا [illegible]
وكان تمام طبعه وتمييز شكله
وصنعه ثامن شوال الأبرك
عام سبعة وثلاثمائة
والف هجرة من
خلقه الله
على الكمل
[illegible]

لوحة 16 : خاتمة كتاب اللؤلؤ لابن المواز، طباعة العربي الأزرق



لوحة 17 : الصفحة الأولى من كتاب الصلات في فضائل بعض الصلوات، بقلم الذويب

عجيبة لا يقدر عليها إلا الله للجرم أوجب الله تعالى
عند كل واحد من هذه الأحوال الخمسة لها صلاة فأوجب
عند قرب الشمس من الطلوع صلاة الفجر شكرا للنعمة
العظيمة الحاصلة بسبب زوال تلك الظلمة وحصول
النور وبسبب زوال النوم الذي هو كالموت وحصول
اليقظة التي هي كالحياة. قال جامعه عفا الله عنه
وإنما شبه حال المولود بهذه الحالة من الشمس لأن الشمس
في تلك الحال كظهر نورها ولم تظهر عينها التي منها نورها
وكذلك المولود لأنه في حاله كأنه موجود ومعدوم في
الحقيقة لم تظهر فيه القوى التي تكون عند البلوغ
فصار شبيها بالشمس عند ظهور نورها وقبل رؤيتها
بالعين فافهم ولما وصلت الشمس إلى غاية الارتفاع
ثم كانت فيما أي انحطاط أوجب صلاة الظهر تعظيما
للخالق القادر على قلب أحوال الأجرام العلوية والسفلية
من الضد إلى الضد فجعل الشمس بعد غاية ارتفاعها
واستعلائها منحطة عن ذلك العلو وآخذة في سن
الكهولة وهو الانتقاص الخفي ثم لما انتقصت من الكهولة
ودخلت في أول زمان الشيخوخة أوجب تعالى صلاة العصر
ثم إذا غربت الشمس أشبهت هذه الحالة ما إذا مات
الإنسان فلأجل ذلك أوجب الله تعالى عند هذه الحالة صلاة

المغرب

سراهم الله وأولئك هم أولو الألباب وأما هنا فمرجانه لا يزداد بالموعظة

لوحة 18 : الصفحة ما قبل الأخيرة من كتاب الصلات



لوحة 19 : خاتمة كتاب الصلات، طباعة عبد السلام الذويب وتصحيح الكتاني

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

يقول المتوسل بالرسول الماحي * خديم المطبعة الحجرية أحمد بن عبد الله الحسني
العلمي اليملاحي *

نحمدك اللهم مانح النعم ومسديه * ودافع الكرب ومبريه * نستفيض الطبع
ونستدر النعم له * ونستمد النفع ونذكر الشكر به * نحمدك على ما لا نحصي
من نعمك * ونشكرك على ما أوليتنا من جودك وكرمك * ونصلي ونسلم
على سيدنا ومولانا محمد مفتاح الغيب * الذي أثبتت به الرحمة والريب *
وبرئ من كل وصم وعيب * وعلى آله وأصحابه الأنجاد الأمجاد * من لبسوا
بركته وحبه في كل ناد * وجابوا كما عقيدته ومرضاته أقطار البلاد * وجاهدوا
أهل الكفر والزيغ والعناد * هذا وإن هذا الشرع المحرر للطبع *
المحرر الترتيب والوضع * البديع الشكل والطبع * النفيس البليغ إيراد المطلب *
المعزز المعاني موارد أبواب الفهم * المسمى بمبصر المتشوف * على منتخب التصوف
من النقابة التي يقتنيها اللبيب * ويرغب فيها كل عاقل أديب أريب * وكيف
لا ومؤلفه الفرد الكامل * المربي الواصل * العالم النحرير * العلم الراسخ
الشهير * سليل الرسول المصطفى * أبو عبد الله سيدي محمد مصطفى * الملقب
بماء العينين * ابن الشيخ محمد فاضل بن مامين * أدام الله وجوده للأنام *
وعم ببركته كل منقطع ومرام * وكان طبعه بأمر الفقيه النبيه * العالم
النزيه * الوزير الأكمل * الدراكة الأجل الأفضل * من أشرقت به شمس السياسة
* واستنارت بفطنته أفق الرعاية والرياسة * أبي العباس السيد أحمد
ابن الوزير المقدس السيد موسى بن أحمد * في دولة من سعدت بطلعته الرعية *
وعم نواله وإحسانه البرية * وانتشر حلمه وبذله في جميع الأقطار *
وشكا عزمه وفتكه على كل باغ جبار * من بدأ بحمده في القرآن * فنحمد ربنا

لوحة 20 : افتتاحية كتاب مبصر المتشوف طباعة اليملاحي والعربي الأزرق

بالنصر والفتح وكمال السعود، أمير المؤمنين درة العقد النظام، وتاج العز والمقام، أجل من جلس على منصة التمييز، أيد سلطانها وأبد رابع مولانا عبد العزيز، أعز الله به بيضة الإسلام، وخلد ملكه غرة في جبين الليالي والأيام، جعل الإجلال عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام، وفرح الناس زمن افتتاح طبعه، فإنه تقبله البكر من محاسن ما احتوى عليه وبرعمه فجعلت مؤرخا لافتتاح الطبع، ومشيرا برقمه أنه طراز البدع

أزهر في المحاسن قد تنامى ... أم الشمس المنيفة في سما ما

أم الغيث الغزيرة قد تبدت ... بكل البشر ترفل في حلاما

أم العذراء تبسم عن لآل ... وعرف المسك ينشر من شذاما

ومن سمع الزمان بطبع شرح ... فهي جنة الأنوار وحكاما

بلى فتح نفيس من سناه ... جرى متشرقا راع انتظاما

وجيد الدهر ترجمة عن نفيس ... بربع العرش أنعما تفاما

ورقته ورقعته بدرّ ... نمير كل مشرقة حواها

فصار نسيج وحده في صنيع ... بمثله في الورى أبدا تسامى

كثير النفع يزهي للمعالي ... فكم للعذب يمم أن يراما

فلا زلت ذا رشد وأخرى عليه ... تقر وتطيب بمغربة خزاما

فيا للشيخ ماء العينين ماذا ... أفاد من المعارف وانتقاما

فكم جمل ربا بنيل نبيل ... وعلمته بعلم نزيها ما

وكم قوم أنار لهم قلوبا ... بحق بهم وانفسهم حماها

بحرمته نحث الترحيب ... لذكرته فلم تقبل سواما

وقد أرخته بشريف طيب ... يفوح بحجة بنفح صفاما

2 : 10 : 9 : 80 : 10 : 200 : 1000 : 2

1313

لوحة 20 (تتمة)

الاجساد حلة الارواح وينادي ملمحوا اعلموا الى الفلاح فلله ما جمع
فأوعى واختصر فنفعا وقرب الناس نفعا وبين في الشريعة والحقيقة
اصلا وفرعا وبذل النصح للقريب والبعيد وانتفع بعلمه النجيب والبليد
وانتشرت انوار معرفته في جميع الاصقاع انتشار الشمس في ابان ازديادها
في الارتفاع وكيف لا وهو القطب الفرد الشيخ سيدي ماء العينين
ابن شيخه القطب الرباني الشيخ محمد فاضل بن مامين ادام الله وجوده
للانام وجعلنا من زمرته وحزبه في هذه الدار وفي دار السلام آمين
وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب السعيد يوم الاحد الذي صار بالسرور
والافراح لنا يوم عيد فتم فرح الفراغ عام اربعة عشر وثلاثمائة والف
من هجرته عليه السلام بمطبعة فاس المحروسة من كل باس الجزء الاول
وبعض الثاني لازم المنشار لها في اواخر هذه سنة الجزء الثاني بمطبعة ابن عبد المولى
المذكور وما عدا ما ذكر من الجزء الثاني بمطبعة المعلم العربي الازرق
بتصحيح الفقيه العالم النجيب الفهيم المحتسب ابي العباس سيدي احمد ابن العلا
البوعزاوي جعله الله اول كل قائم فيه رضاه باب وذلك على يد الوزير
الافخم والدستور الاعظم من بحر سياسته متلاطم الامواج عذب
فرات سائغ شرابه غير ملح اجاج الرئيس الكامل والفارس البطل الاجمل
النافع الناصح الذي لم يزل جميل في المصالح ذو الخلق الاحمد ابو العباس
سيدي احمد بن الوزير المقدس السيد موسى بن احمد لا زال عزه في جبين
الرياسة وداده في عقد جيد النباهة والكياسة ما دام في ظل من
اشتهر صيته جواده الملك الافخم ومالك كل غارب للعز بحزم وتكلل
بتاج الفتح والنصر والكرم وتقلد بسيف العزم تحسم مادة مزاحم وغرر
فملأ القلوب محبة فيه وشغل الالسن بشكر بره ولا تستتر فيه السلطان
ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان الى سلم ج امن سلسلة الذهب والعقيان
ابو فارس وابو رابع وابو سلطان امير المومنين مولانا عبد العزيز
ابن مولانا الحسن بن مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمن خلد الله

لوحة 21 : خاتمة كتاب مبصر المتشوف

كطالع يمنه في سماء السعادة وابدر بازغ في برج ملكه ما تواترت عبادة وعبادة فأمير بجلالة جرانة الأمير وحيث تبسم ثغر اختتام من جزء مبارك التفسير وشفا برضابه كل غليل وتريخ حال الفكر وتبلبل اللسان بإنشاد القريض فقلت

أما كنت خمارا على وجه معهد	سعادى وقبلا زميلا كمل
وقد بينت لك أمثل النهى	بغرا سيل وتحكم فتل
بوجنتيها الورد لم ينقطف	وناميك حسنا بورد الخجل
لها مقلة كالنرجس فتحت	جبين كشمس ببرج الحمل
وثغر شنيب إذا ابتسمت	وقد قويم كغيرا بن سل
وخصر نحيل برقته	يغيب عن الردف حتى اعتزل
إذا ابت فؤادي بمهجتيها	وفي عشقها لم أرع من عذل
وما في سعادى ولا كتبى	أهيم إذا الطبع كتب هطل
ولا كتبا بغرا مبصرا	للب الشعور حقا وصل
لشيخ الكرام بفخر منتسب	وحسبه ما من علوم شمل
أباد من العلم ما لم يكن	ببال ومنه نجاح العمل
وقد تم كتبها بإرخته	فأخذ جزاه ببلوغ الأمل

1+7+3+700+600+1+2

1314

مَصَادِرُ ٱلكِتَابِ وَمَرَاجِعُهُ

مصادر الكتاب ومراجعه

المصادر والمراجع العربية :

* ابن أنجاي، أحمد أنجاي، **زورق الحائض في علم الفرائض**، مطبوع بعناية وإنفاق ناشره محمد عبد القادر بن المهدي الوزاني بمطبعة فاس، 1926.

* ابن الحاج، الطالب ابن حمدون، **حاشية على شرح المرشد المعين**، بمطبعة العربي الأزرق، فاس 1897.

ابن خلدون، عبد الرحمن، **المقدمة**، الطبعة الثالثة، بيروت، المطبعة الأدبية، 1900.

* ابن الخياط، أحمد، **رفع اللجاج والشقاق عن الحكم بالبينونة في الطلاق عند الإطلاق**،المطبة الحجرية الفاسية، (د.ت).

ابن زروق، أحمد، **وظيفة الشيخ زروق**، في ورد القطب الأكبر...، بمطبعة اليملاحي، فاس، (د.ت).

ابن زيدان، عبد الرحمن، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، (خمسة أجزاء)، المطبعة الوطنية، الرباط، 1929 ـ 1933.

ابن زيدان، عبد الرحمن، **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1937.

* ابن سودة، أحمد بن الطالب، **تكميل تحرير المقال في البسملة لحسم مادة القيل والقال في المسألة**، المطبعة الحجرية الفاسية، (د.ت).

* ابن سودة، عبد السلام، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، (جزآن)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1960.

ملحوظة : استفدنا من الكتب التي تحمل العلامة (*) بدرجة محدودة حسب المعلومات الواردة في خواتمها.

* ابن عباد، محمد، **الرسائل الكبرى**، على ذمة التكناوي، بمطبعة العربي الأزرق، فاس، 1902.

* ابن عطاء، تاج الدين، **الحكم**، برعاية القادري، فاس، [1917 ؟].

ابن كيران، ابن أبي بكر، **الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية**، بمباشرة العربي الأزرق، فاس، 1889.

* ابن مشيش، عبد السلام، **صلاة عبد السلام مشيش**، في ورد القطب الأكبر، مطبعة اليملاحي، فاس، (د.ت).

ابن منصور، عبد الوهاب، **حفريات صحراوية**، المطبعة الملكية، الرباط، 1976.

ابن منصور، عبد الوهاب، **كشاف أسماء الأسر المغربية**، المطبعة الملكية، الرباط، 1976.

ابن المؤقت، المراكشي، **السعادة الأبدية في التعريف برجال الحضرة المراكشية**، بمباشرة الخضر بن محمد برادة، بمطبعة فاس، 1918.

* ابن هلال، إبراهيم، **هذه أجوبة ابن هلال**، بمباشرة العربي الأزرق، 1893.

* ابن هلال إبراهيم، **الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير**، بمطبعة العربي الأزرق، فاس، 1896.

أبو زهرة، محمد، **مالك، حياته وعصره، آراؤه وفقهه**، الأنجلو ـ مصرية، القاهرة، [1950 ؟].

* أبو مدين، الفاسي، **هذا كتاب الموارد الصافية في شرح النصيحة الكافية، مختصر شرح.. أبي عبد الله بن زكري**، المطبعة الحجرية الفاسية، (د.ت).

* الأخضري عبد الرحمن، **السلم**، المطبعة الحجرية الفاسية، (د.ت).

أفا، عمر، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822 ـ 1906)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988.

* أكنسوس، محمد، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، على ذمة عمر ابن الخياط، فاس، 1918.

إهراي، أمينة عوشار، «التطور الحضاري وظهور الصحافة الوطنية في عهد الحماية»، **البحث العلمي**، 35، (1985)، ص 219 ـ 224.

البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، مطبعة الألمدي، الميرتة، الهند، 1856 ـ 1867.

* بردله، محمد العربي، **هذه نوازل أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد بردله**، المطبعة الحجرية الفاسية، 1925/1926.

برنامج يشتمل على بيان الكتب العربية الموجودة بخزانة جامع القرويين بعاصمة فاس، المطبعة البلدية، فاس، 1918.

* بلعربي، الصديق، **فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش**، مراكش، 1980.

البلغيثي، أحمد بن المامون، **الابتهاج بنور السراج**، (جزآن)، محمد مصطفى، القاهرة، 1901.

البناني، أبو بكر، **إتحاف أهل العناية الربانية في اتحاد طرق أهل الله**، المطبعة الشرفية، القاهرة، 1906.

بناني، سميرس لطيفة، «وثائق حول مهمة المحتسب بفاس»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، فاس، عدد 2، (عدد خاص، 1985)، ص. 403 ـ 423.

بن عبد الله، عبد العزيز، **معجم المحدثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى**، وزارة الأوقاف، الرباط، 1972.

بن عبد الله، عبد العزيز، **معلمة القرآن والحديث في المغرب الأقصى**، جامعة الإمام محمد ابن سعود، الرياض، 1985.

بن عبد الله، عبد العزيز، **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية**، (أربعة أجزاء)، وزارة الأوقاف، الرباط، 1976.

بن عبد الله، عبد العزيز، **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية : معلمة الصحراء**، وزارة الأوقاف، الرباط، 1976.

بنيس، عبد الكريم، **هذا نظم حكم تاج الدين بن عطاء الله، المسمى بالواضح المنهاج في نظم ما بالتاج**، على ذمة بنيس بمطبعة العربي الأزرق، فاس، 1906.

بوجندار، محمد بن مصطفى، **الاغتباط بتراجم أعلام الرباط**، تحقيق عبد الكريم كريم، طبعه زين العابدين بوجندار، الرباط، 1987.

* بوجندار، محمد بن مصطفى، **الإنصاف في مسألة العمل بأخبار التلغراف**، فاس، 1915.

* بوشعراء، مصطفى، **الاستيطان والحماية بالمغرب، 1863ـ1894** (الجزء 1ـ2)، المطبعة الملكية، الرباط، 1984.

التادلي، يوسف بن يحيى، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، نشره فور (A. Faure) مطبوعات إفريقيا الشمالية، الرباط، 1958. وأعاد تحقيقه أحمد التوفيق ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط، 1984.

التازي، عبد الهادي، **جامع القرويين : المسجد والجامعة بمدينة فاس**، (ثلاثة أجزاء)، دار الكتاب الجديد، 1972.

* الترمذي، محمد ابن عيسى، **الشمائل**، المطبعة السعيدة، مكناس، 1865.

التسولي، علي بن عبد السلام، **أجوبة أبي الحسن علي بن عبد السلام التسولي، للأمير عبد القادر**، المطبعة الحجرية الفاسية، (د.ت).

* **تقويم أوقات الصلاة لعرض مدينة فاس وما وافقها...**، على ذمة أحمد العراقي وأخيه عبد القادر، فاس، 1914.

التوزاني، نعيمة هراج، **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن (1873 ـ 1894)**. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1979.

توفيق، وهبة، **الحرب في الإسلام**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1973.

الجبرتي، عبد الرحمن، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، (أربعة أجزاء)، القاهرة، (د.ت).

الجراري، عبد الله، **التأليف والنهضة بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972**، (جزآن)، مكتبة المعارف، الرباط، 1985.

الجزولي، محمد، **دلائل الخيرات**، المطبعة العامرة، فاس، 1872.

الجوهري، إسماعيل ابن حماد، **مختار الصحاح**، (جزآن)، متفرقة، إستنبول، 1872.

الجيدي، عمر، **محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي**، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 1987.

حجي، محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، (جزآن)، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976.

حجي، محمد، **الزاوية الدلائية**، المطبعة الوطنية، الرباط، 1964.

حجي، محمد، **فهرس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا**، معهد المخطوطات، الكويت، 1986.

حركات، إبراهيم، **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب**، مطبعة الدار البيضاء، الدار البيضاء، 1985.

مولاي الحسن، السلطان، **وصية مؤسسة على قواعد شرعية، ونصيحة دينية للولاة والرعية**، وزارة الأوقاف، الرباط، 1979.

الحطاب، محمد بن عبد الرحمن، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل وبهامشه التاج والإكليل لمختصر خليل للمواق**، (ستة أجزاء) مكتبة النجاح، طرابلس (ليبيا)، 1969.

حقي، محمد النازلي، **خزينة الأسرار الكبرى**، نشرة جديدة لطبعة 1930، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972.

الخرشي، محمد ابن عبد الله، **شرح الخرشي على مختصر خليل**، المطبعة السعيدة، فاس، 1867 ـ 1870.

الخزانة العامة بالرباط، **فهرس المخطوطات العربية**، وزارة الأوقاف، الرباط، 1973.

الخطابي، محمد العربي، **فهارس الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط**، (خمسة أجزاء)، الخزانة الحسنية، الرباط، 1985.

الخلوفي، محمد الصغير، **بوحمارة، من الجهاد إلى التآمر**، دراسة ووثائق، دار نشر المعرفة، الرباط، 1993.

داود، محمد، **تاريخ تطوان**، (ثمانية أجزاء)، مطبعة المهدية، تطوان، 1962.

* الدرعي، أحمد بن محمد بن ناصر، **كتاب الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية**، بذمة الناصري الطيب، فاس، 1319هـ.

الدسوقي، محمد السيد، **الاجتهاد والتقليد في الشريعة**، دار الثقافة، قطر، 1987.

الدغستاني، علي حلمي، **فهرس الكتب التركية المحفوظة بالكتابخانة الخديوية المصرية**، المطبعة العثمانية، القاهرة، 1889.

الدكالي، أحمد بن علي، **الإتحاف الوجيز : تاريخ العدوتين**، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، 1986.

الدليرو، المهدي، **فهرس مخطوطات خزانة تطوان**، (جزآن)، وزارة الثقافة، 1981 ـ 1984.

دينية، محمد بن علي، **مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط**، مطابع الإتقان، الرباط، 1986.

الرفاعي، أحمد بن محمد، **حلية الكتاب ومنية الطلاب**، مخطوطة بالخزانة العامة، رقمها التصنيفي د 254، الرباط.

الرندي، محمد بن عبد السلام، «حديث مع الطيب الأزرق»، مخطوطة في صفحة واحدة توجد بالخزانة الخاصة لحفيد المؤلف بالرباط.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، **إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين للغزالي** (ثلاث عشرة جزء)، بمباشرة العربي والطيب الأزرق، فاس، 1885/1884.

زيادي، أحمد، **انتفاضة الشاوية سنة 1907**، منشورات عيون، الدار البيضاء، 1986.

السجلماسي، محمد ابن أبي القاسم، **شرح نظم العمل الفاسي، لأبي زيد الفاسي الفهري**، (جزآن)، بمطبعة الطيب الأزرق وشريكه الدباغ، فاس، 1874.

* سحنون، ابن سعيد، **المدونة الكبرى** (ستة عشر جزء)، محمد التونسي، القاهرة، 1905.

سركيس، يوسف، **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، مطبعة سركيس 1928.

سكيرج، أحمد بن العياشي، **مورد الوصول لإدراك السول على حل كفال الصلاة على الرسول**، وهو شرح لجوهرة الكمال، فاس، 1914.

سكيرج، عبد الكريم، «الخط المغربي»، **مجلة الثقافة المغربية**، عدد 2، (1941)، ص. 67 ـ 72.

السلمي، عبد الرحمن، **طبقات الصوفية**، نشره بريل (E. J. Brill) ليدن، 1960.

السوسي، محمد المختار، **الإلغيات**، (ثلاثة أجزاء)، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1963.

السوسي، محمد المختار، **الترياق المداوي في أخبار الشيخ سيدي الحاج علي السوسي الدرقاوي**، المطبعة المهدية، تطوان، 1961.

السوسي، محمد المختار، **خلال جزولة**، (أربعة أجزاء)، المطبعة المهدية، تطوان، (د.ت).

* السوسي، محمد المختار، **مدارس سوس العتيقة، نظامها وأساتذتها**، راضي الله السوسي، طنجة، 1987.

السوسي، محمد المختار، **المعسول**، (عشرون جزءاً)، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1960 – 1963.

الشاذلي، أبو الحسن، **حزب البحر**، في ورد القطب الأكبر، بمطبعة اليملاحي، فاس، (د.ت).

الشبراخيتي، برهان الدين إبراهيم، **شرح على مختصر خليل**، المطبعة الحجرية الفاسية، (د.ت).

الشنكَيطي، أحمد ابن الأمين، **الوسيط في تراجم أدباء شنكَيط**، المطبعة الجمالية، القاهرة، 1911.

* الشنكَيطي، محمد الصغير، **الجيش الكفيل بأخذ الثار ممن سلّ على الشيخ التيجاني سيف الإنكار**، على ذمة محمد التهامي، بالمطبعة المغربية، فاس، 1901.

شيخو، لويس، «تاريخ فن الطباعة في المشرق»، **المشرق**، عدد 3 (1900)، ص. 78 – 85، 174– 180، 251 – 257، كلية القديس يوسف، بيروت، 1900.

صابات، خليل، **تاريخ الطباعة في الشرق العربي**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1966.

صابات، خليل، «طباعة الصور والرسوم في مصر حتى عام 1952»، **الفكر العربي**، عدد 8 (1988، ص. 40 – 49.

الصبيحي، أحمد بن محمد، **أصول أسباب الرقي الحقيقي، وهي رسالة إلى أهل المغرب الأقصى في نصيحتهم بالأخذ بالأسباب الصحيحة للوصول إلى بحبوحة المجد الشامخ والشرف الأقصى**، نشرها محمد بن العربي العلوي، فاس، 1917.

الصوفي، خليفة بن حسن، **جواهر الإكليل في نظم مختصر خليل**، (جزآن)، المطبعة البارونية، القاهرة، 1900.

الطاهري، حمدون بن محمد، **تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان**، بمطبعة العربي الأزرق، فاس، [1906].

الطرازي، فيليب، **تاريخ الصحافة العربية**، المطبعة الأدبية، بيروت، 1913.

* الطرنباطي، محمد ابن مسعود العثماني، **حاشية إرشاد السالك إلى فهم ألفية ابن مالك**، المطبعة الحجرية الفاسية، 1888/1887.

الطوسي، خوجة نصير الدين، **تحرير الأصول لأوقليدس**، روما، 1594.

الطوسي، خوجة نصير الدين، **كتاب تحرير الأصول لأوقليدس**، خدمة العربي الأزرق، بالمطبعة العامرة، فاس، 1876.

الظريف، محمد، **الحياة الأدبية في الزاوية المعينية**، (ثلاثة أجزاء)، دبلوم الدراسات العليا في الآداب، كلية الآداب، الرباط، 1987 (غير منشورة).

*العباسي، أحمد بن محمد، **أجوبة (العباسي)**، (جزآن)، المطبعة الحجرية الفاسية، (د.ت).

عبد الرزاق، فوزي، **المطبوعات الحجرية في المغرب. فهرس مع مقدمة تاريخية**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989.

العلمي، علي ابن عيسى، **هذه نوازل أبي الحسن علي بن عيسى بن علي الحسني العلمي**، بمباشرة الطيب الأزرق، فاس، 1875.

العلوي، مصطفى، **الحسن الأول**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1986.

العمراوي، عبد الحي، «الوحدات العشر»، **دعوة الحق**، عدد 246، (1985)، ص.57 ـ 63.

غريط، محمد، **فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان**، المطبعة الجديدة، فاس، 1929/1928.

الفاسي، عبد الحفيظ بن محمد الطاهر، **الداء والدواء أو خطرات مريض، رسالة تشتمل على إرشادات وتعليمات طبية**، فاس، 1919.

الفاسي، عبد الحفيظ بن محمد الطاهر، **معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة** (جزآن)، صدر الجزء الأول عن المطبعة الوطنية بالرباط 1931، والثاني عن مطبعة فاس بالمدينة الجديدة، 1932.

* الفاسي، عبد القادر ابن علي ابن يوسف، **الأجوبة [النوازل الكبرى]**، التهامي ابن موسى، فاس، 1901.

* الفاسي، عبد القادر ابن علي ابن يوسف، **حواشي من كلام...**، على ذمة أحمد بن قاسم بن عبد القادر العراقي الحسني، بتنميق الطيب الأزرق، فاس، 1890/1889.

الفاسي، محمد، «مقدمة» لكتاب محمد الأخضر، **الحياة الأدبية المغربية**، 1664 ـ1894، دار الرشاد، الدار البيضاء، 1979.

* الفاسي، محمد العابد، **فهرس مخطوطات خزانة القرويين** (ثلاثة أجزاء)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1979.

الفاسي، محمد، «الرحلات السفارية المغربية»، **البينة**، عدد 1، (1962)، ص.11ـ24.

* الفاسي، محمد المهدي بن أحمد، **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع**، بمطبعة وعلى ذمة العربي الأزرق، المطبعة الجديدة، فاس، 1895.

فكري، عبد الله، **الآثار الفكرية**، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، 1897.

القادري، محمد، **نشر المثاني**، (جزآن)، على ذمة معلم دار الطباعة العربي الأزرق، فاس، 1892.

القاضي، عياض، **ترتيب المدارك**، (تسعة أجزاء)، وزارة الأوقاف، الرباط، 1965.

قاه الله، عمر، **معجم المؤلفين**، (خمسة عشر جزءاً)، مطبعة الترقي، دمشق، 1957 ؛

قصة القاضي والسارق، فاس، [1920].

القلصادي، علي بن محمد، **إرشاد المتعلم وتنبيه الخاطب لفرائض الشيخ خليل**، بالمطبعة السعيدة، على يد المكي بن محمد إدريس العمراوي، فاس، [1920؟].

القيطوني، إدريس الإدريسي، **معجم المطبوعات المغربية**، نشره عبد الوهاب القيطوني، مطابع سلا، سلا، 1988.

الكتاني، زين الدين، **الصحافة المغربية : نشأتها وتطورها (1820 ـ 1912)**، وزارة الأنباء، 1969.

الكتاني، محمد عبد الحي، **فهرس الفهارس والاثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، (جزآن)، المطبعة الجديدة، فاس، 1928.

الكتاني، محمد عبد الحي، **المظاهر السامية في النسبة الشريفة الكتانية** (جزآن)، 1927، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، 1990 مصور على الشريط، ومصور على الورق بالخزانة العلمية الصبيحية، سلا.

الكتاني، محمد عبد الحي، **مفاكهة ذوي النبل والإجادة حضرة مدير جريدة السعادة**، بمطبعة أحمد بن الطيب الأزرق، فاس، 1908.

* الكتاني، محمد عبد الحي، **منية السائل في اختصار الشمائل**، فاس، (د.ت).

الكتاني، عبد الكبير، **نجوم المهتدين في دلائل الاجتماع للذكر على طريقة المشايخ المتأخرين برفع الأرجل من الأرض والاهتزاز شوقا إلى رب العالمين**، على نفقة الذويب، فاس، 1914.

الكتاني، محمد بن جعفر، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، (ثلاثة أجزاء)، على ذمة التهامي بن العربي زويتن، بمطبعة أحمد بن الطيب الأزرق، 1898.

الكتاني، محمد بن جعفر، **نصيحة أهل الإسلام**، فاس، 1908.

الكتاني، محمد بن عبد الكبير، **الكشف والتبيان عما خفي على الأعيان في سر آية ما كنت تدري ما الكتاب والإيمان**، طبع على نفقة نجل المؤلف محمد المهدي الكتاني، فاس، 1914.

* الكتاني، محمد بن عبد الكبير، **لسان الحجة البرهانية في الذب عن شعائر الطريق الأحمدية الكتانية**، على ذمة الذويب، فاس، 1902.

الكتاني، محمد بن عبد الكبير، **لقطة عجلان شرح الصلاة النموذجية**، على ذمة الذويب، فاس، 1896.

الكتاني، محمد الباقر، **ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد**، مكتبة الطالب، الرباط، 1962.

الكتاني، يوسف، **مدرسة الإمام البخاري في المغرب**، (جزآن)، دار لسان العرب، بيروت، 1980.

* الكردودي، محمد عبد القادر، **كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة**، المطبعة الحجرية الفاسية، 1886.

الكردي، محمد الطاهر، **تاريخ القرآن وغرائب رسمه**، البابي الحلبي، القاهرة، 1953.

* الكلنبوي، إسماعيل ابن مصطفى، **حاشية على جلال الدين الدواني في شرح العقائد العادية**، عبد الرحيم، إستنبول، 1818.

* كَنون، محمد بن المدني، **هذه أجوبة محمد بن المدني كَنون**، طبع بمباشرة الطيب الأزرق، فاس، 1891.

* كَنون محمد بن المدني، **أربعون حديثا في فضل الجهاد والترغيب فيه، وفي الغزو والرباط وذم المتخلفين عنه والتاركين له**، فاس، 1908.

كَنون، محمد بن المدني، **إيقاظ المفتون المغرور مما تذم عواقبه يوم النشور**، طبع على ذمة ولد المؤلف أحمد كَنون بمطبعة العربي الأزرق، فاس، 1905.

كَنون، محمد بن المدني، **هذا التقييد الذي هو بنصيحة أهل العلم كفيل في الأمور التي تتعلق بالفتوى والشهادة، وما يتعلق بذلك من الأمور التي تلزم القاضي في مسائل القضاء**، على ذمة أحمد بن محمد كَنون، فاس، 1905.

كَنون، محمد بن المدني، **الدرة المكنونة في النسبة الشريفة المصونة**، على ذمة أبي العباس أحمد، بمطبعة الطيب الأزرق، فاس، 1889/1888.

كَنون، محمد بن المدني، **الزجر والإقماع بزواجر الشرع المطاع، لمن كان يؤمن بالله ويوم الاجتماع، عن آلات اللهو والسماع**، على ذمة نجل المؤلف أحمد كَنون، ومباشرة الطيب الأزرق، 1891.

* كَنون محمد التهامي، **شرح أرجوزة السيوطي المسماة : التثبيت في ليلة المبيت للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي**، على ذمة أحمد كَنون، المطبعة الحجرية الفاسية، 1894.

كَنون، محمد التهامي، **هداية المحب المشتاق المستهام لرؤية من أثنى عليه الملك الخلاق في المنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام**، المطبعة الحجرية الفاسية، 1891.

ماء العينين، محمد مصطفى، **سهل المرتقى في الحث على التقي، وبهامشه المقاصد النورانية**، على ذمة أحمد بن الشمس، بمطبعة العربي الأزرق، فاس، 1902.

ماء العينين، محمد مصطفى، **كتاب مبصر المتشوف على منتخب التصوف**، طبع بأمر من أحمد بن موسى، بمطبعة اليملاحي والعربي الأزرق، فاس، 1896–1897.

ماء العينين، محمد مصطفى، **المرافق على الموافق**، برعاية إدريس ابن يعيش، 1906.

ماء العينين، محمد مصطفى، **مغري الناظر والسامع، على تعلم العلم النافع**، على ذمة أحمد بن الشمس، بالمطبعة الجديدة للذويب، فاس، 1903.

ماء العينين، محمد مصطفى، **مفيد الراوي على أني مخاوي**، بالمطبعة الجديدة لليملاحي، فاس، 1892.

* ماء العينين، محمد مصطفى، **منظومة ماء العينين لحكم العارف ابن عطاء الله**، بمطبعة العربي الأزرق، فاس، 1892.

ماء العينين، محمد مصطفى، **نعت البدايات وتوصيف النهايات**، المطبعة الحجرية الفاسية، 1893.

مالك ابن أنس، **الموطأ، رواية يحيى ابن الليثي**، بيروت، 1971.

متفرقة، إبراهيم، «وسيلة الطباعة»، في **الصحاح** للجوهري، متفرقة، إستنبول، 1728.

مجاهد، زكي محمد، **الأعلام الشرقية، 1883–1946**، (ثلاثة أجزاء)، دار الطباعة، القاهرة، 1949.

مجموع اشتمل على سبع فضائل في مدح محمد مصطفى ماء العينين، بمطبعة العربي الأزرق، إلا ملزمتين طبعتا بمطبعة الذويب، 1896.

المراكشي، عباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام**، (خمسة أجزاء)، فاس، 1936–1939. أيضا طبعة الرباط، (عشرة أجزاء)، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، 1974–1983.

* المسناوي، محمد بن أحمد، **نوازل أبي عبد الله المسناوي**، على ذمة عمر ابن الخياط، بالمطبعة الفاسية، صفر 1345.

المكناسي، أحمد، ومصطفى الكوش، **فهرس الوثائق التاريخية : مراسلات السلطان مولاي الحسن الأول، 1873–1894**، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1961.

المكناسي، محمد بن حمزة، **الكوكب الأسعد في مناقب سيدنا ومولانا علي بن سيدنا ومولانا أحمد**، بمطبعة العربي الأزرق، فاس، 1906.

منشور صادر من علماء فاس وأهلها لسكان المغرب عند قيام مولاي عبد الحفيظ على أخيه مولاي عبد العزيز، فاس، 1907.

«معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»، **المقتبس**، عدد 2، (1907)، ص. 547–548.

المنار، مجلة من إنشاء محمد رشيد رضا، القاهرة، 1898–1935.

المنجد، صلاح الدين، **دراسات في تاريخ الخط العربي... إلى نهايات العصر الأموي**، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1972.

المنوني، محمد، «البدايات الأولى لظهور المطابع المغربية»، **الطباعة والنشر**، العدد 3–4 (1984)، ص. 19–21.

المنوني، محمد، «تاريخ المصحف الشريف في المغرب»، **مجلة معهد المخطوطات**، العدد 15، (1969)، ص. 3–47.

المنوني، محمد، **دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتامكَروت**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1985.

المنوني، محمد، **الركب المغربي**، مطبعة المخزن، تطوان، 1953.

المنوني محمد (ندوة)، **في النهضة والتراكم : دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ محمد المنوني**، دار توبقال، الدار البيضاء، 1986.

المنوني، محمد، «مراكز المخطوطات وأدلتها بالمغرب الأقصى»، **المورد**، عدد 14، (1985)، ص. 157–161.

المنوني، محمد، «المصادر التاريخية المدونة في العصر العلوي الثالث، 1790–1860»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، العدد 12، (1986)، ص. 28–36.

المنوني، محمد، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، (جزآن)، دار الغرب الإسلامي، 1985.

المنوني، محمد، «ملاحظات حول ردود فعل المغاربة تجاه الدعوة إلى الإصلاح في القرن التاسع عشر»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، العدد 9، (1982)، ص. 145–153.

المنوني، محمد، «الوراقة العلوية»، **دعوة الحق**، العدد 246، (1985)، ص. 133–151.

المومن، مصطفى، **قسمات العالم الإسلامي**، دار الفتح، بيروت، 1974.

* ميارة، محمد، **الشرح المسمى الإتقان والإحكام في شرح تحفة الأحكام لابن عاصم**، بالمطبعة الفاسية، بمباشرة العربي الأزرق، 1880/1–1881/2.

ناجي، هلال، «نظم لآلي السمط، لأبي العباس الرفاعي»، **المورد**، ص. 173–184.

الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، (تسعة أجزاء)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.

الناصري، أحمد بن خالد، **زهرة الأفنان من حديقة ابن الونان**، نشر أحمد اليملاحي، فاس، 1895/6–1897.

النبهاني، يوسف ابن إسماعيل، **جامع كرامات الأولياء**، (جزآن)، دار الكتب العربية، 1911.

* الهلالي، أحمد، **تقييد إتحاف المقنع بالقليل في شرح مختصر خليل**، المكي ابن إدريس، [1876 ؟].

الهلالي، أحمد بن عبد العزيز، **فهرست**، المصلوت رشيد، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1981.

الهواري، أحمد بن عبد السلام، **شرح لوثائق محمد بن أحمد بن حمدون بناني**، على ذمة عمر بن أحمد بن الخياط ونجل أحمد الهواري، فاس، 1916.

الوثائق، إصدار مديرية الوثائق الملكية، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط، 1976.

الوزاني، محمد حسن، **حرب القلم**، مؤسسة محمد حسن الوزاني، الرباط، 1982.

الوزاني، محمد حسن، **مذكرات حياة وجهاد**، (أربعة أجزاء)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.

الوزاني، المهدي محمد بن محمد بن الخضر، **النوازل الجديدة الكبرى في أجوبة أهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بالمعيار الجديد الجامع المغرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب**، المطبعة الحجرية الفاسية، 1910.

الونشريسي، أحمد، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، طبع على ذمة جمع من العلماء، بإدارة العربي الأزرق، (إثنا عشر جزءاً)، فاس، 1896–1907.

المصادر والمراجع الأجنبية :

Abu-Nasr, Jamil, **The Salafia Movement in Morocco: The Religious Bases of The Moroccan Nationalist Movement,** London, 1963.

Actes du Colloque **Réformisme et Société Marocaine au XIXe Siècle:** Journées d'Etudes du 20 au 23 Avril 1983. Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1986.

Adler, Elkan, N, ed. **Jewish Travellers,** 2nd ed. New York: Hermon Press, 1966.

Ayache, Germain, "L'Apparition de l'imprimerie au Maroc", **Hespéris-Tamuda,** 1964, vol. v, fasc. unique, pp. 143-161.

Ayache, Germain, **Etudes d'histoire marocaine,** Rabat. SMER, 1975.

Berkes, Niyazi, "Ibrahim Muteferrika". **Encyclopædia of Islam,** new ed., vol. 3, pp. 996-998.

Bernard, M, "Idjma", **Encyclopædia of Islam,** new ed., pp. 1023-1026.

Brooks, F. Vincent, "Lithography". **Encyclopædia Britanica,** 11th ed., pp. 785-789.

Brooks, L.A.E, **A Memoir of Sir John Drummond Hay: sometime minister at the court of Morocco, based on his journal and correspondence,** London: John Murray Albemarle Street, 1896.

Brown, Kenneth, **People of Salé: Tradition and Change in a Moroccan City, 1830-1930.** Cambridge, MA: Harvard University Press, 1976.

Brown, Kenneth, "Profile of a nineteenth-century Moroccan scholar", in **Scholars Saints and Suffis: Muslim Religious institutions Since 1500.,** edited by Nikki R. Keddie, pp. 127-148. Berkeley: University of California Press, 1972

Bulliet, Richard W, "Medieval Arabic Tarsh: a Forgotten Chapter in the History of Printing". **Journal of the American Oriental Society** 107 (1987), pp. 427-438.

Burke Edmond,III, "Pan-Islam and Moroccan Resistance to French Colonial Penetration, 1900-1912". **Journal of African History** XIII, pp. 97-118.

Burke, Edmond, III, "The Moroccan 'Ulama, 1860-1912". **Scholars, Saint and Sufis: Muslim Religious Institutions since 1500.,** edited by Nikki R. Keddie, pp. 93-125. Berkeley: University of California Press, 1972.

Burke, Edmond, III, **Prelude to Protectorate in Morocco, Precolonial Protest and Resistance, 1860-1912.** Chicago: The University of Chicago Press, 1976.

Butler, Pierce, **The Origin of Printing in Europe**. Chicago: The University of Chicago Press, 1940.

Carter, Thomas Francis, **The Invention of Printing in China and its Spread Westward**. New York: Columbia University Press, 1931.

Clair, Colin, **A Chronology of Printing**. London: Cassell, 1970.

Cook, M.A, ed. **A History of the Ottoman Empire to 1730**. Cambridge: Cambridge University Press, 1976.

Cottart, N, "Malikiyah". **Encyclopædia of Islam**, vol. VI, pp. 278-283. Leiden: E. J. Brill, 1960-1987.

Corcos, David, "Fez" in **Encyclopædia Judaïca**, 1971 ed, pp. 1255-1258.

Courrier de L'Egypte, Cairo, 1799. Reproduced in Saladin Boustany, **The Journal of Bonaparte in Egypt, 1798-1801**, vol. 4 (Arabic translation, vol. 5). Cairo: al-Arab Bookshop, 1971.

Delphin, G, **Fès, son université et l'enseignement supérieur musulman**. Oran: Paul Perrier, Imprimeur, 1889.

Dorn, von B, "Catalogue des ouvrages arabes, persans et turcs publiés à Constantinople, en Egypte et en Perse, qui se trouvent au musée asiatique de l'académie". **Mélanges asiatiques tirés du bulletin de l'académie impériale des sciences de St. Petersbourg** v (1964), pp. 465-649.

Eickleman, Dale F, "The Art of Memory: Islamic Education and its Social Reproduction". **Comparative Studies in Society and History**, 20 (1978), pp. 485-516.

Eickleman, Dale F, **Moroccan Islam: Tradition and Society in a Pilgrimage Center**. Austin: University of Texas, 1976.

Eisenstein, Elisabeth L, **The Printing Press as an Agent of Change**. 2 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1980.

The Encyclopædia of Islam, new ed. Leiden: E. J. Brill, 1960.

Euclid. **Elements**, Interpreted by Nasir al-Din al-Tusi. This edition is available at Houghton Library, Harvard University.

Freimann, Aron, **Gazetteer of Hebrew Printing**. New York: New York Public Library, 1946.

Gardet, L, "'Ilm al-kalam.", **Encyclopædia of Islam**, new ed., pp. 1141-1150.

Gdoura, Wahid, **Le début de l'imprimerie arabe à Istanbul et en Syrie: évolution de l'environnement culturel (1706-1787)**. Tunis: Institut supérieur de documentation, 1985.

Gibb, H.A.R, and Kramers, J.H, **Shorter Encyclopædia of Islam**. Leiden: E.J. Brill, 1953.

Gokyay, Orhan Saik, **Katip Celebi: Yasami kisiligi ve yapitlarindan Secmeler.** Istanbul: Turkiye id Bankas, kultur yayinlari, 1982.

Golvin, L, "Kitabat in North Africa". **Encyclopædia of Islam**, new ed., vol. 5 pp. 220-221.

Gumushaneri, Ahmed Ziyauddin, ed. **Majmu'at al-ahzab.** 3 vols. Istanbul, 1983.

Hansard, T.C, **Typographia: an historical sketch of the origin and progress of the art of printing**. London: Baldwin, Cradock and Joy, 1825.

La Hoz, Vincente Ferando, **Apuntes para la Historia de la Imprenta Norte de Marruecos**. Tetuan: Instituto "General Franco para la investigacion Hispano-Arabe", 1949.

Hughes, Thomas P, **A Dictionary of Islam.** Lahore: Premier Book House, 1965.

Jacobi, Charles T, "Printing". **Encyclopædia Britanica,** 11 th ed., pp. 350-359.

Katib, Çelebi, **Dustur al-'amal li-islah al- khalal,** Istanbul, 1863.

Katib, Çelebi, **The History of the Maritime Wars of the Turks.** Translated from the Turkish by James Mitchell. London: Oriental Translation Fund, 1831.

Katib, Çelebi, **Kashf al-zunun 'an asami al-kutub wa-al-funun.** Edited by Muhamad Sh. Yaltaqya and Rif'at Bilkah al-kalisi. Istanbul : Wakalat al-Ma'arif, 1941.

Keddie, Nikki R, ed, **Scholars, Saints and Sufis: Muslim Religious Institutions since 1500.** Berkeley: University of California Press, 1972.

Khan, Javed, and Waheed, A, **Handbook on Printing.** Lahore: Ferozsons, 1964.

Khatibi, Abdelkebir, **L'Art calligraphique arabe**. Chene : 1976.

Kinross, Lord, **The Ottoman Centuries, the Rise and Fall of the Turkish Empire.** New York: Morrow Quill Paperbacks, 1977.

Koningsveld, P.Sj. van, "A Collection of Lithographed Editions from Fes". In **Islamic Collections for Sale at E.J. Brill.** Catalogue n° 510, pp.5-39. Leiden: E.J. Brill, 1979.

Lane, Edward William, **Madd al-qamus: an Arabic-English Lexicon.** 8 vols. London: Williams and Novgate, 1863.

Laroui, Abdellah, **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain** (1830-1912). Paris: F. Maspero, 1977.

Leriche, M.L, "List of books lithographed at Fez in Morocco". Manuscript, 1899.

Le Tourneau, Roger, **Fès avant le Protectorat**. 2 vols. Translated into Arabic by Muhammad al-Akhdar with Muhammad Hajji. Beirut: Dar al-Gharb al-Islami, 1986.

Le Tourneau, Roger, **La vie quotidienne à Fès en 1900**. Paris: Hachette, 1965.

Lévi-Provençal, E, and Ben Cheneb, M, **Essai de répertoire chronologique des éditions de Fès**. Alger: Ancienne maison Bastide-Jourdan, 1922.

Lewis, Bernard, "Ottoman Observers of Ottoman Decline". **Islamic Studies** 1 (1962), pp. 71-78.

Lewis, John, **Anatomy of Printing: the Influence of Art and History on its Design**. New York: Watson- Guptill Publications, 1970.

Man, Felix H, **Artist's Lithographs: a World History from Senefelder to the Present Day**. New York: G.P. Putnam's Sons, 1970.

Martin, B.G, **Muslim Brotherhoods in Nineteenth-Century Africa**. Cambridge University Press, 1976.

Martin, B.G, "Notes on some members of the learned classes of Zanzibar and East Africa in the nineteenth century". **African Historical Studies** IX (1971), pp. 525-545.

Meakin, Budgett, **The Land of the Moors: A Comprehensive Description**. London: Sawan Sonnenschein, 1901.

Meaking, Budgett, **The Moors: A Comprehensive Description with 132 Illustrations**. London: Sawan Sonnenschein, 1902.

Meakin, Budgett, **The Moorish Empire: A Historical Epitome**. London: Sawan Sonnenschein, 1893.

Meggs, Philip B, **Á History of Graphic Design**. New York: Von Nostrand Reinhold Company, 1893.

Mercier, L, "La presse Musulmane: la presse musulmane au Maroc". **Revue du Monde Musulman** 4 (1908), p. 619.

Miège, Jean-Louis, "Journaux et journalistes à Tanger au XIXe siècle". **Hespéris** XLI (1934), pp. 191-228.

Miège, Jean-Louis, **Le Maroc et l'Europe (1830-1894)**. 4 vols, Paris, 1963.

Miller, Susan Lynn G, "A voyage to the land of Rum, the 'Rihla of the Moroccan Muhammad al-Saffar to France, December 1845-March 1846". Ph.D. dissertation, University of Michigan, 1976. Published under the following title: **Disorienting Encounters. Travels of a Moroccan Scholar in France in 1845-1846.** Translated and edited by Susan Gilson Miller. University of California Press, Berkeley, 1992.

Milli Kutuphane Arap Harfi Turkee Eserler Bolumu. Istanbul, (1960?).

Moran, James K, **Printing Presses, History and Development from the Fifteenth Century to Modern Times**. London: Faber and Feber Limited, 1973.

Muteferrika, Ibrahim, "Wasilat al-tiba'ah". in **Sihah**, by al-Jawahiri. Istanbul: Muteferrikah, 1728.

al-Naqr, 'Umar, **The Pilgrimage Tradition in West Africa.** Khartoum: University of Khartoum, 1972.

Necatiloglu, Halil, **Matbaaci Ibrahim-i Muteferrika ve Risale-i Islamye adli eseini tenkidi: metni.** Ankara: Elif Matgbaacilik Tesisleri, 1982.

Norris, H.T, "Ma'al-a'ynayn al-kalkami". **Encyclopædia of Islam**. vol 5, pp. 889-892.

Nuovo, Angela, "Il Korano arabo ritravato (Venezia, P.e A. Paganini), tra l'agosto 1537 e l'agosto 1538". **La Bibliofilia** 89 (1987), pp.237-271.

The Oxford English Dictionary. 1988 ed.

The Oxford Universal Dictionary. 1955 ed.

Ozege, M. Seyfettih, **Eski Harflerle Basilmis Turkce Eserler Katalogu.** Istanbul: Fatih Yayinevi Matbaasi, 1971.

Pacard, André, **Traditional Islamic Craft in Moroccan Architecture.** Casablanca: Editions Atelier, 1982.

Partington, David, "Arabic Printing". **Encyclopædia of Library and Infor mation Science.** Edited by Allen Kent and Harold Lancour, vol. 24, pp. 54-75. New York: M.Dekker, 1968.

Peritié, A, "Les Medrassas de Fès". **Archives Marocaines** 18 (1912), pp. 257-372.

Pitcher, Donald E, **An Historical Geography of the Ottoman Empire from the Earliest Times to the End of the Sixteenth Century: with Detailed Maps to Illustrate the Expansion of the Sultanate.** Leiden: E.J. Brill, 1972.

Raucourt, Antoine, **A Manual of Lithography or Memoir on the Lithographical Experiments made in Paris.** Translated by Charles Joseph Hullmandel. London: Rodwel and Martin, 1821.

Robson, J, "al-Bukhari". **Encyclopædia of Islam**. vol. 1, pp. 1296-1297.

Rosenthal, Franz, **The Technique and approach of Muslim Scholarship.** Rome: Pontificum Institutum Biblicum, 1947.

Schast, J, "Malik ibn Anas" **The Encyclopædia of Islam**, new ed., vol. VI, pp. 262-265.

Senefelder, Alois, **A Complete Course of Lithography: containing clear and explicit instructions in all the different that branches and manners of the art: accompanied by illustrative specimens of drawing.** Translated from the original Germain by Adolf Heinrich Friedrich von. London: Printed for R. Ackermann, 101 Strand, 1819.

Stewart, C, "A new source on the book market in Morocco in 1830 and Islamic scholarship in West Africa". **Hespéris-Tamuda** XI (fascicule unique, 1970), pp. 209-246.

T'hatvree, Abd-oor-Rüsheed, **Montukhub-ool-Loghaut, or A Dictionary of Arabic Words with Persian Translation.** Revised, corrected and published by Molovee Allah Daud. Calcutta: Persian Press of Fort William College, 1808.

Tarrazi, Philip, **History of the Arab Press.** Beirut: al-Matba'ah al-Adabiyah, 1913. Text in Arabic and English.

Taylor, Archer, and Arlt, Gustave O, **Printing and Progress: Two Lectures.** Berkeley: University of California Press, 1941.

The Times of Morocco. Edited by B. Meakin. Tangier, 1884-1893.

Wallace, Sarah L, "Editor's Note". **The Quarterly Journal of the Library of Congress** 27 (1970), p. 183.

Webster's New Twentieth Century Dictionary of the English Language. Unabridged ed. 1978.

Wehr, Hans, **A dictionary of Modern Written Arabic.** Edited by J. Milton Cowan. Ithaca: Cornell University Press, 1961.

Winship, George P, **Gutenberg to Plantin: an Outline of the Early History of Printing.** Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1926.

Wustenfeld, F., **Die ubersetzungen Arabischer Werke in das Lateinische Seit dem XI. Jahrhundert.** Gottingen: Dieterich'sche Verlags-Buchhandlung, 1877.

Zsoldos, Jeno, "Istanbul". **Encyclopædia Judaïca**, 1971 ed., pp. 1098-1099.

الفهارس

- فهرس الأعلام البشرية
- فهرس أسماء الأماكن
- فهرس اللوحات
- فهرس محتويات الكتاب

فهرس الأعلام البشرية

فهرس بأسماء الأماكن :

فهرس اللوحات

مُحْتَوَيَاتُ ٱلْكِتَابِ

القسم الثالث

الطباعة وعلاقتها بالتحولات في المغرب ما بين 1865 و1912


النجاح
الدار البيضاء

هذا الكتاب

هناك حقيقة أساسية مفادها أن المغرب لم يكن في حاجة ملحة إلى تكنولوجية الطباعة، وأن دخولها إلى أرجائه خلال سنة 1864 كان مجرد صدفة وأمرا عرضيا ليس غير، لأن الطباعة تعني في عمقها إحداث التغيير، وتتطلب بالضرورة تطوير سوق الكتاب من شكله الموجه إلى خدمة فئة ضيقة، والانطلاق نحو تنفيذ لعمليات واسعة النطاق تستهدف إقامة شبكة من المنافذ تمكن من ممارسة عمليات التوزيع والإشهار. وأبرز الجوانب التي تتميز بها الطباعة مبدئيا هي إتاحة الفرصة لتحقيق إنتاج مكثف للكتاب. كما تمكن تكنولوجية الطباعة مستعمليها من القدرة على إنتاج مئات النسخ المماثلة لنفس النصوص. ويعني ذلك أن ما كان يعتبر قديما سلعة نادرة، قد أصبح فيما بعد في متناول عدد أكبر من الناس. كما أن العلوم والمعارف التي كانت فيما سبق خاضعة بمختلف أنواعها لمراقبة فئة قليلة من الناس (السلاطين والعلماء والأعيان) واحتكارهم، أصبحت في وقت لاحق، رهن إشارة أكبر عدد من الأفراد. ومن شأن ذلك التحول الكبير أن يؤدي إلى التقليل من قوة هاته المجموعات ويكسر شوكتها. إن مثل هذه الحيثيات وهاته الأفكار هي التي كانت تجول، دونما شك، في خواطر صانعي القرار في المغرب، وجعلتهم يترددون زمنا طويلا في التفكير في إدخال الطباعة إلى البلاد وفي تنفيذ ذلك.

